مصر والعالم القديم

جغرافية تاريخية

أستاذ دكتور

عبد الفتاح محمد وهيبة

قسم الجغرافية - جامعة الأسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى مصر

تقديم

« مصر والعالم القديم » دراسة في الجغرافية التاريخية ركز فيها الضوء على مصر بهدف ابراز كيف تغيرت صورتها الجغرافية ببطء خلال الزمن وكيف صنع أهلها الحضارة. تبدأ بمعالجة تطور الظاهرات الجغرافية في العالم القديم وتثني ببناء جغرافيات مصر الماضية. وعند البناء تتبع الطريقة الرأسية ، وهي طريقة تعالج تطور كل عنصر من عناصر البيئة معالجة مستقلة بغض النظر عن طول الزمن. ذلك لأن طول الزمن ليس له في هذا المقام كبير وزن . فالتطورات في جغرافية مصر الطبيعية تمضي بطيئة متثاقلة والتغيرات التي طرأت على استغلال الأرض وعلى حياة الناس ربما لم تمس جوهر الاشياء. ولما كانت الجغرافية التاريخية تهتم بالتطور والتغير فإن الاستمرار لا يعنيها كثيراً مهما طال الزمن .

وقد جمعنا بين مصر والعالم القديم في عمل واحد لأنه يستحيل أن نتصور أحدهما بغير الآخر . فقد أعطت مصر لهذا العالم بقدر ما أخذت منه بل ربما أعطت أكثر مما أخذت . وعلى الرغم من كل ما أصابها على يد الغزاة الطامعين ظل شعبها يحمل رسالة الحضارة لكل الناس. ولا عجب فهو شعب يسكن الجنة التي خلقها ويجري من تحتها النيل .

وينقسم الكتاب إلى كتابين فرعيين تسبقهما مقدمة في ماهية الجغرافية التاريخية . ويشتمل الكتاب الأول على عرض لتطور البيئة والانسان والحضارة في العالم القديم . ويختص الثاني بدراسة أهم ملامح جغرافيات مصر الماضية . ويقع الكتاب الأول في ثمانية فصول مزودة بالخرائط والصور. ويعالج الفصل الأول منه

تغيرات البيئة في العالم القديم خلال البليستوسين . ويربط الفصل الثاني بين هذه التغيرات وظهور الانسان. وتدرس الفصول الخمسة التالية تطور الحضارة البشرية خلال العصور الحجرية وعصر المعدن مع الاهتمام بإبراز أثر تغير البيئة في حياة الإنسان. ويبدأ الكتاب الثاني بدراسة تغير البيئة وتطور الحضارة في مصر إبان كل من العصر الحجري والمعدني . وفي الفصول التسع التالية يتعرض الكتاب لجوانب من جغرافية مصر التاريخية مستعيناً بالخرائط كلما أمكن ذلك.

وأرى لزاماً علي أن اعترف هنا بفضل كل من عاونني على طبع هذا الكتاب واخراجه . غير أني أود أن أخص بالشكر الدكتور / محمد محمد سطيحة والسيد/ فتحي أبو راضي على تفضلهما برسم الخرائط والصور .

عبد الفتاح محمد وهيبه

مقدمة

حول أهداف الجغرافية التاريخية واتجاهاتها الحديثة

قبل أن ينتهي العقد الخامس من هذا القرن أعلن ر . هارتسهورن R.Hartshorne . فيلسوف الجغرافية المعاصر ـ بعد شك وتردد ـ أن الجغرافية التاريخية قسم هام من أقسام الجغرافية وأن جغرافية الحاضر تكتسب عمقاً ومعنى بالرجوع إلى جغرافية الماضي . وقد وضع هذا الاعتراف نهاية لشك المتشككين وكان تحية لما بذله الجغرافيون التاريخيون (خاصـــة في أوربا) من جهد وما قدموه من أعمال .

والحق أنه إذا كان اهتمام الجغرافيين ينصب على دراسة الأماكن ـ ما بها من تشابه وتباين وما يربط بين أجزائها من عـلائق ـ فانه لا بد أن يتساءلوا عن كيف أصبحت هذه الأماكن على ما هي عليه الآن ، وكيف كانت هيأتهـــا في الماضي . ولسوف تكون الإجـــابة إذا ما أحسن تقديمها مدخلاً إلى جغرافية الحاضر وعرضاً لجغرافية الماضي (أو الجغرافية التاريخية) . بيد أن لجغرافية الماضي هذه هدفاً ليس أقل قيمة وأهمية . ذلـك هو تفسير مواقع الأشياء من سطح الأرض . لا جدال في أنه قد لا تتطلب طبيعة الظاهرة أو المعلم (توطن صناعة ، توزيع محاصيل ، اتجاهـات خطوط النقل والتجارة) ونوع الموضوع أكثر من الرجوع إلى مجموعـــة الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية

والسياسية الحاضرة . ولكن كثيراً من المعالم الجغرافية تقتضي منا الرجوع إلى الماضي لنرى كيف نشأت وتطورت حتى أخذت شكلها وتوزيعها الحاليين. ومن أسف أن الجغرافية التاريخية لا تلقى من كثير من طلبة الجامعات والدراسات العليا تقديراً كبيراً . وربما كان مرجع ذلك إلى تلك التعميات والاستنتاجات السطحية التي أعطت لعناصر البيئة الطبيعية وزناً عظيما لا تستحقه عند تفسير الظاهرات الجغرافية المختلفة . ولا نعفي الجغرافيين أنفسهم من اللوم فقد أخفقوا على ما يبدو في جعل ما هو موجود في الكتابات التاريخية في متناول الجغرافي الحديث .

الأهداف :

ما زال الجغرافيون على خلاف حول ماهية الجغرافية التاريخية فتختلف تفسيراتهم لها بقدر ما تتباين طبيعة بحوثهم وتبعاً لفهمهم لمعنى الجغرافية . ولكن يمكننا أن نجمل تعاريف هذا الفرع في ستة أو سبعة ، ثلاثة منها قديمة سلفية لم يبق لها غير قيمتها التاريخية .

فهمت الجغرافية التاريخية يوماً على أنها مرادف لتاريخ الجغرافية كعلم ولكن هذا المفهوم أصبح في الوقت الحاضر غير مقبول على الرغم من دعوة سور C . Sauer (١٩٤١) إلى اعتبار البحث في تاريخ الجغرافية هدفاً من اهداف جغرافية الماضي .[1] ولا يقلل ذلك من قيمة تاريخ الجغرافية فهو دعامة أساسية من دعائم الفكر الجغرافي . وليس هناك - كما يؤكده . كلارك H.Clark تاريخ يهم الجغرافي التاريخي أو أي جغرافي آخر أكثر من تاريخ الجغرافية نفسها[2] . ولقد حاول ج رايت . J.Wright في مقالاته وكتبه التي نشرت في

1. Sauer, C.« Foreword to Historical Geography» Ann. Amer. Geog. 31 (1941) p. 5.

2. Clark' H. "Historical Geography" American Geog. Ed. P James & F. Jones. Syracuse, pp. 70 - 105.

الفترة بين ١٩٢٥ – ١٩٥٢ أن يجذب اهتمام الجغرافيين إلى تفهم تاريخ العلم والاستزادة منه . ولكن دعوته لم تجد قبولاً كافياً [١].

وفي القرن التاسع عشر كانت الجغرافية التاريخية تعرف بأنها « العلم الذي يدرس تاريخ الكشوف الجغرافية والخرائط » (بيكر Baker ١٩٣٦ ، جلبرت Gilbert ١٩٣٢) [٢] فسميت دراسة جونستون K. Johnston لتطور المعرفة بسطح الأرض (١٨٧٢) مثلاً « دراسة أولية في الجغرافية التاريخية « A Sketch of Historical geog. 1872 » . ولا يزال هذا المعنى قائماً في الأدب الجغرافي على القارة الأوروبية حتى اليوم. وكان طبيعياً أن يكون ذلك هو هدف الجغرافية التاريخية ما بقيت الجغرافية علماً يهتم في الأساس الأول بوصف وتسمية المظاهر الجغرافية بالاضافة إلى اهتمامه بالمسح الكرتوجرافي . يشبه ذلك أيضاً مفهوم آخر يرى أن هدف الجغرافية التاريخية هو تتبع التغيرات في الحدود السياسية وما يتصل بذلك من أسماء للمعارك والغزوات التي أدت إلى كسب إقليم أو فقدانه .

هذا المعنى كان في الحقيقة انعكاساً لتطور في علم التاريخ انصب على دراسة حقائق التاريخ السياسي والقومي . ويبدو هذا النوع من الجغرافية التاريخية واضحاً ومثلاً في كتاب فريمان (E. Freeman) Historical Geog. of Europe, 1881 وفي كتاب لميرو A. Mirot (١٩٢٩) تحت عنوان

---

1. Wright, J. « The History of Geography; A. Point of view » Ann. Ass. Amer Geog. 15 (1925) pp. 192 - 201.

2. Baker, J."The Last Hundred Years of Historal Geography " History, N.S. 129 (1936) pp. 194 - 207

Gilbert, E., What is Historical Geography?
Scott. Geog. Mag , 48, 1932. qp. 129 - 136

كذلك تمثل هذا المعنى في كتابات Géographie Historique de la France المدرسة الألمانية وتخص بالذكر مؤلف كرتشمر K. Kretschmer عن وسط أوربا (١٩٠٤) . غير أنه من الإنصاف أن نشير إلى أن مفهوم كل من فريمان وكرتشمر للجغرافية التاريخية كان أوسع وأعمق مما جاء في مؤلفيهما السابقين ، فكرتشمر بالذات كان يرى أن من أهداف هذه الجغرافية إعادة بناء الجغرافيات البشرية والإقليمية الماضية .

أما عن الأهداف الأخرى المتباينة لجغرافية الماضي فلا يمكن رفضها بسهولة كما رفضنا السابقة ويمكن إجمالها فيما يلي :

١ – دراسة المظهر الخارجي المتغير للبيئة .

The Changing landscape.

٢ – دراسة التغير الجغرافي خلال الزمن .

Geographical Change Through Time.

٣ – توضيح أثر الجغرافية في التاريخ .

The Geographical Factor in History.

٤ – اعادة بناء جغرافيات الماضي .

Reconstruction of Past Geographies.

وقبل أن ندخل في مناقشة هذه الأهداف أو التعاريف ينبغي أن نضع في اعتبارنا ما يلي من ملاحظات :

(أولاً) أنه يقلل من قيمة كل هذه التعاريف أو المفاهيم صعوبة اطلاق صيغة واحدة على عدة وجهات نظر (لكل وجاهتها) وحمل كل تعريف لبعض معنى الآخر . وإذا كان من الصعوبة بمكان أن نصنف كثيراً من الدراسات في ضوء مفهوم واحد فانه لمن المفيد تحديد المفاهيم بالشكل السابق لأن ذلك يبعدنا عن

خطر الوقوع في خلاف مصطنع نشأ بين وجهات نظر ليس لها أساس من الواقع.

(ثانياً) من الواضح أن كل مفهوم من المفاهيم السابقة هو في حد ذاته انعكاس لتعريفنا للجغرافية بعامة . فكل تعريف يبدو وكأنه يرتبط بالجغرافية ككل ارتباطاً منطقياً لا يخلو من انسجام ولكنه في نفس الوقت نادراً ما يسير في خط واحد مع تطور المعرفة الانسانية بكل تشعباته وعفويته. فالقيام بدراسة لاتقع في صلب الجغرافية ولكن على هوامشها قد تؤتى ثمارها ولكنها في الأغلب لن تكون جغرافية وانما هي تابعة للعلم أو العلوم التي استمدت هذه الدراسة منها مادتها[1]. لنقل أن اهتمام المؤرخين أو الجغرافيين بموضوع من الموضوعات قد يتوقف على محض الصدفة أو قد يرجع إلى نوع الفهم السائد لطبيعة كل من الجغرافية والتاريخ بل ربما يشترك الجغرافي مع المؤرخ في موضوع ما لأنه وليد الجغرافية والتاريخ معاً .

١ – المظهر الخارجي المتغير : The Changing « Landscape »

لا جدال في أن فهم الجغرافية على أنها دراسة للمظهر الخارجي للبيئة – وبالتالي اعتبار الجغرافية التاريخية دراسة للمظاهر الخارجية المتغيرة خلال الزمن – قد أسفر عن أعمال مثمرة وأفكار جديدة طيبة على الرغم من النقائص المنهجية. وليس هنا مجال التنقيب عن نشأة هذا المفهوم في مباحث وفلسفات الـ Landschaft الألمانية أو الـ Paysage الفرنسية . ولا نحن بصدد عرض للمناقشات الحادة حول مسائل الملاحظة وما يعنيه اللجوء إلى مدخل سهل يقضي على الثنائية في الجغرافية . فالجغرافية التاريخية كدراسة لتغير المظهر الخارجي للبيئة هي كما أوضحنا امتداد منطقي لهذا المفهوم عرف وطبق قبل سنة

---

(١) من أمثلة تلك الأبحاث ما يجريه الجغرافيون والمؤرخون حول موضوعات مثل النظم الحقلية وتاريخ المظاهر الخارجية للريف .. الخ .

١٩١٤ في كتاب ج. برون J. Brunhes [١] ثم تطور في فترة ما بين الحربين العالميتين ويظهر ذلك في الجزء الأول من كتاب هانوتو G. Hanotaux « تاريخ الأمة المصرية » ١٩٣١، الذي يمثل مدخلاً عاماً للجغرافية التاريخية لمصر [٢]. وبمرور السنين كسب هذا المفهوم مؤيدين جدداً قاموا بتنقيحه وتوضيحه. ولقـــد أعطى داربي H. Darby لهذا المعنى عمقاً وأصالة ووضع له منهجاً واضحاً ويتمثل ذلك في مباحثه المحلية الخاصة بأثر قطع الغابات وتجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضي البور وقيام المدن والصناعة في تطور المظهر الخارجي [٣].

ولعل أهم ما يتميز به هذا المذهب هو وضوح الحقـائق الجغرافية مما يحسم الخلاف والخلط بينها وبين التاريخ الاقتصادي وهو أمر كان في الماضي مثاراً للشكوى. ويتميز أيضاً بالضغط على أهمية معالم المظهر الخارجي بل هي عنده الحقائق الأساسية بالنسبة للجغرافية. بيد أن ثمن هذا الوضوح واكتمال الوحدة الجغرافية في المظهر الخارجي كان إلى حد ما على حساب الإنسان كمحور أساسي في الدراسة الجغرافية. فقد تدنى شأنه ليصبح مجرد عامـــل غير مرئي يؤدي

---

(١) Brunhes, J. La Georgraphie Humaine, Paris 1910.

(٢) Hanotaux; G. Histoire de la Nation Fgyptienne, T. I Paris 1931.

(٣) يبدو من استعراض أبحاث داربي ومؤلفاته أنه لم يلتزم خلال حياته العلمية بمفهوم واحد ولا منهج معين فقد فهم الجغرافية التاريخية يوماً على أنها إعادة بناء جغرافيات الماضي وفي نفس الوقت قام بأبحاث محلية تكشف عن اهتمامه بتصوير التطورات التي حدثت لبعض عناصر المظهر الخارجي – راجع له :

An Historical Georgraphy of England before 1800 , 1939
The Medieval Fenland 1940.
"The Changing English Landscape" Geog. J. 117 (1951).

وجوده إلى ظهور معالم جديدة في المظهر الحضاري للبيئة . مثله في ذلك مثل العوامل الطبيعية التي تؤدي إلى زحف التربة أو تكون الكثبان الرملية . دور الإنسان بالتأكيد أخطر من ذلك فهو ليس عاملا جيمور فولوجيا خلاقـاً فقط بل هو في حد ذاته عنصر هام من عناصر البيئة أن لم يكن أهمها جميعاً .

وإذا ما تركنا موقف هذا المذهب من الإنسان جانباً ، فاننا سنلحظ أن هناك نوعاً من التشابه في الغرض والهدف بل في الأسلوب بينه وبين الجيمورفولوجيا الأصوليـــة (التطورية) Genetic Geomorphology فكلاهما يبحث في تطور معالم البيئة وكلاهما يهدف كما يقول داربي (١٩٥٣) إلى وضـع قواعد للجغرافية — مجرد قواعد متينة ترتكز عليها في النهاية معارف أفضل [1] . هذا التشابه ربما يدعو الباحثين إلى إمعان النظر في مشاكل التدليل والمنهج. فالجيمور فولوجيا الأصولية تسعى في البدء لفهم معالم المظهر الخارجي Landscape عن طريق ترتيبها بالنسبة لأسلوب وتوقيت ظهورها ونمائها. فعليها رسم صورة دقيقة للأحوال الماضية التي ساعدت على ظهور أشكال السطح وذلك في ضوء ما عرف الآن عن العمليات التي تساعد على ظهور هذه الأشكال .

أما نوع الإرسابات وتركيب الصخور بالنسبة للجمورفولوجيا الأصولية مثلها في ذلك مثل الوثائق بالنسبة للجغرافية التاريخية ـ فعناصر تلقي ضوءاً من الخارج على أشكال السطح . ومن الواضح أن الجغرافية التاريخية بمفهومها الذي نناقشه يمكن أن تحرز تقدماً وتعيد تصوير المظاهر الخارجية للبيئات الماضية من دراسة وتحليل طريقة ظهور المعلم واتخاذه مكانه من سطح الأرض وشكله الخارجي ثم تاريخه — أسلوب الجيمورفولوجيا التطورية عينـه [1] . وليس من

(1) Darby , H . « On the Relations of Geography & History » , Trans : Inst: Brit; Geog , pub. No. 19, 1-13.

(٢) لم يكتف أتباع هذا المنهج بذلك بل استعاروا ـ ربما ارضاء لغرورهم ـ المصطلحات الجيمو رفولوجية . فاستعاروا كلمات مثل التركيب structure والدورة stage والعمليـة process والمرحلة cycle

شك في أن التركيز على دراسة هذه المعالم وتفسيرها قد أسهم في اثراء الفكر الجغرافي وفتح مجالات جديدة للتطبيق المنهجي خاصة فيما يتصل بأشكال المدن وانماط السكن الريفي وأشكاله . بقيت نقطتان في هذا الموضوع . الأولى : أنه أحياناً ما يبدو أن اهتماماً أكثر مما يتوقع يوجه إلى عناصر المظهر الخارجي تكون في حد ذاتها أما قليلة الشأن أو أن أهميتها أهمية ثانوية بالنسبة للجغرافية . فأشكال سطوح المساكن وأنواع المساكن هي على سبيل المثال قليلة الشأن في ذاتها ومع ذلك يوجه اليها ضوء قوي . والعناصر الجمالية في البيئة الريفية أو المدينة (تنسيق الخضرة ، تنظيم الشوارع بشكل اشعاعي « خطة الباروك » والأشكال المعمارية والزخرفية في المدن) هي من ناحية ثانية ذات أهمية ثانوية بالنسبة لنا نحن الجغرافيين فضلاً عن أن استقصاء أصولها قد ينتهي بنا إلى متاهات التاريخ الاجتماعي وتاريخ الفنون . والثانية : هي أنه عند محاولة تصوير مرحلة من مراحل تطور المظهر الخارجي لا يكفي سرد الحقائق التاريخية والأثرية وترتيبها وفق مقياس زمني . وإنما يجب أن نستلهم من الواقع المعاصر الشيء الكثير مما كانت عليه الأحوال في ذلك الزمان وذلك بالتحليل والمقارنة . بهذه الطريقة — وهي صعبة مضنية — نستطيع أن نبني جسراً قوياً بين الماضي والحاضر ولا نخشى الزلل .

١ - التغير الجغرافي خلال الزمن :

Geographical Change Through Time

لا جدال في أنه في كثير من الحالات يقف الجغرافي التاريخي موقفاً ربما لا يختلف كثيراً عن موقف المؤرخ وذلك عندما يركز اهتمامه على دراسة التغيرات التي حدثت لعنصر أو لمعقد من العناصر المتقاربة (بهدف تقويم الدور الذي لعبه العنصر أو مجموعة العناصر) على أساس أن موضوع الجغرافي هو المكان والمؤرخ المجتمع . ويلقى كلارك A. Clark (١٩٦٠) الضوء على هذه النقطة حين يدعو

إلى الاهتمام بوصف العمليات Processes التي أدت إلى تغيير عناصر معينة في البيئة خلال الزمن يعتقد أنها هي التي أعطت لها ملامحها المميزة .

الحق أن الحديث عن تعريف الجغرافية التاريخية بأنها دراسة للتغير الجغرافي خلال الزمن حديث طويل يمكن أن يرجـــع اليه القارىء في بحث لكلارك نشرته جمعية الجغرافيين الأمريكيين ضمن مجموعة أبحاث تحت اسم American Geography - Inventory & prospect, 1954 [1] ولكن يهمنا أن نشير إلى أن ما دعى اليه كلارك هو ما سبق أن سار عليه بعض الجغرافيين التاريخيين في دراساتهم الخاصة بالمسكن وتغير مواقع الصناعات ونمو المدن إلى غير ذلك من الموضوعات . ومهما يكن من أمر هذا التعريف فانه يميزه قلة العثرات المنهجية ومرونته وعدم صرامته . ولكن يعيبه أنه يقدم حلولا جزئية ويوسع مجال الدراسة دون طائل . فليس يكفي أن نضغط على دراسة التغير ذاته إذ على الرغم مما تكشف عنه دراسة الظروف المتغيرة من وضوح في الرؤية بالنسبة لقيمة ووظيفة الموقع أو مصدر الثروة [2] فإنه يجب أن يسبق الحديث عن هذه التغيرات عرض للظروف المؤثرة [3] وإبراز كيف أن الأشياء التي تهم الجغرافيين في الأمكنة والأزمنة مترابطة .

٣ – أثر الجغرافية في التاريخ :
The Geographical Factor in History

---

(١) Clark,A, « Historical Geography,, chap . 3 — American Geography (Ed) James, p. & c. Jones, Syracuse' 1954 .

(٢) مثال ذلك الاستخدامات المتتابعة لوسائل النقل البحرية والنهرية والبرية في تاريـــخ الولايات المتحدة الامريكية .

(٣) كأن يسبق دراسة تتابع وسائل النقل المختلفة في الولايات المتحدة عرض لتجارة أمريكا الشمالية في القرن السابع عشر .

في السبعينات من القرن التاسع عشر كتب ڤيمر Wimmer يقول أن أهم أغراض الجغرافية التاريخية غرضان :

١ - أثر العامل الجغرافي في توجيه التاريخ .

٢ - جغرافية الفترات التاريخية السابقة .

والغرض الأول هو الذي نحن بصدد دراسته وتحليله الآن . أغلب الكتابات التي تعالج أثر الجغرافية في التاريخ ، وهي كثيرة تستخدم صفـــة « جغرافي » استخداماً غامضاً غير سليم يجعل الدراسة لا تختلف كثيراً عن تلك التي ترمي إلى اعادة بناء جغرافية الماضي كمقدمة لفهم أحداث التاريخ . ومن الذين نجحوا في توضيح أثر الجغرافيـــة في التاريخ وتلزى D. Whittlesey في 1929, 'Sequent Occupance, وكذلك إيست 'Historical - G. East Geography of Europe; 1935 فقد فيها أثر الجغرافية في التاريخ حق الفهم واعطياه حقه من الأهمية . ولكن الأمر ليس بهذه البساطة فكثيراً ما يفسر العامل الجغرافي على أنه عامل طبيعي . هنا تتحول دراسة أثر الجغرافية في التاريخ إلى دراسة حتمية مقنعة تتبع السبب بالنتيجة وتعني بتوضيح أثر العامل الجغرافي في نشاط الإنسان في الماضي وأثره في التاريخ وفي تتابع الأحداث التاريخية .

ولقد سار لفيف من الجغرافيين والمؤرخين على هذا النهج ولكن من ناحيتين مختلفتين . ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان لنمو الدراسات المتصلة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي أبلغ الأثر في دفع المؤرخين إلى الاهتمام بالحياة اليومية للمجتمعات الغابرة . ومن ثم كان انشغالهم بتلك النشاطات والمعالم التي يهتم بها الجغرافيون كالزراعة والصناعة والتجارة والسكن وطرق المواصلات . بل إن اهتمامهم اتسع لينتظم بعض حقائق الجغرافية الطبيعية التي ترتبط ببعض

الرباط بتلك النشاطات والمعالم . ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في كتاب سمث
'Historical Geog. of the Holy Land, C. Smith فقــد حاول
المؤلف ان يكشف عما تقدمه الجغرافية من تفسيرات لبعض ما جاء في التوراة
بل وأثر البيئة على الفكر الديني . كذلك أوضح جورج H. B. George في
بحثه في العلاقات بين التاريخ والجغرافية (١٩٠١) History and Geography
Relations between أن الجغرافيـــة تقدم معلومات قيمة لحل المشاكل
التاريخية . ومن الواضح انه طالما ظلت الجغرافية تفهم على أنها أساساً علم
العلاقات المتبادلة بين الإنسان والبيئة فإن لفيفاً من الجغرافيين كان في استطاعته
أن يكتشف بسهولة استجابات من الإنسان للبيئة الطبيعية في سجلات التاريخ
بل وفي كتابات الحاضر . وكان ذلك بمثابة خطوة نحو وضع ما زعم أنه قوانين
جغرافية . ينطبق ذلك على الخصوص على كتابات مس سمبل [1] E. Semple
فالحتمية الجغرافية فيها صارمة والمقتطفات التاريخية بها كثيرة . ومن ناحية
أخرى فان دعاة الإمكانية اعتمدوا عـــلى التاريخ كمصدر يمكن الرجوع اليه
لجمع المعلومات اللازمة وذلك بالنظر في طرائق استخدام المجتمعات البشريـــة
لبيئاتها عبر الزمن واحتمالات استثمار هذه البيئات . ولم يكن ذلك غير مقدمـــة
لدراسة نفس المكان في فترات مختلفة من التاريخ وقد انصب الاهتمام في هذه
الدراسة على مدى استخدام الموقع والثروات تحت ظروف اجتماعية واقتصادية
وتقنيه متبـــاينة أشد التباين. شبيه بذلك تلك المباحث القيمة التي قام بها لفيف
من جغرافيي المدرسة الاقليمية الفرنسية . ولكن مــــا أن تبلغ دراسة أثر
الجغرافية في التاريخ هذا المستوى من التفسير والشرح (خاصة بالنسبة للاوضاع

---

(١) Semple, E. American History and its Geographic conditions Boston, 1933
The Geography of the Mediterranean Region : its Relation to ancient history

(٢) عبد الفتاح وهيبه – الجغرافيا البشرية ـ تطورها ومنهجها بيروت ١٩٦٦ ص ١٩

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) حتى يتلاشى الفرق بينها وبين تلك التي تنظر إلى الجغرافية التاريخية على أنها « إعادة بناء جغرافيات الماضي » .

ومهما يكن من أمر فقد تعرض مفهوم الجغرافية التاريخيــــة بالمعنى السابق لاعتراضين ساقهما ر . هارتسون عــام ١٩٣٩ . الأول وهو منطقي ، أن شرح أثر العامل الجغرافي في توجيه التاريخ هو عمل المؤرخ قبل الجغرافي ذلك لأن المؤرخ ربما يكون أكثر استعداداً وأفضل تأهيلا لتحديد قيمة العامل الجغرافي بالنسبة لبقية العوامل [١]. الاعتراض الثاني وهو سليم إلى حد كبير، إن جغرافية الماضي بهذا المعنى تسعى لتفسير التاريــخ وليس الجغرافية . وأخيراً ربما نتفق أيضاً مع سور C. Sauer (١٩٤١) على أن هذا النوع من الجغرافية التاريخية لن يكون أكثر من دمغ عمل المؤرخ بطابع جغرافي حتمي هو في غنى عنــه [٢] .

٤ – اعادة بناء جغرافيات الماضي :

The Reconstruction of Past Geograqhies

لعل أكثر مفاهيم الجغرافية التاريخية شيوعاً هو الذي يعتبر بأنها العلم الذي يسعى لإعادة بناء جغرافيات الماضي . ولا نقصد بجغرافيات الماضي الدراسات الاقليمية فقط بل كل فرع منفروع الجغرافية الحديثة من طبيعية وبشرية يتضح ذلك مثلا من قراءة كتاب :

« The Historical Geography of England before 1800 »

---

(١) هذا الرأي هو وليد اقتناع هارتسهورن بأن غرض الجغرافية هو دراسة العلاقات المعقدة المركبة وليس بذل الجهد في البحث عن الأسباب . راجع

(٢) Sauer. C. «Foreword to Historical Geography , Ann: Ass . Amer — Geog., 32 ; 2492 pp. 2 — 20

الذي نشر سنة ١٩٣٦ تحت اشراف هـ . داربي [١] H. Darby وكتاب د . براون D. Brown - Mirror For Americans ,1942. الذي يرسم فيه صورة دقيقة لجغرافية الساحل الشرقي عام ١٨١١ لشاهد عيان عاش في تلك السنة واعتمد على المصادر المعاصرة ويمكن أن نضم إلى هذين العملين كتاباً ثالثاً سماه صاحبه Geohistory ذلك هو كتاب ف . براندل F. Brandel الذي يعالج جغرافية عالم البحر المتوسط في النصف الثاني من القرن ١٦ . هذه بعض الأمثلة الرائدة لمؤلفات فهمت الجغرافية التاريخية هذا الفهم . والحق أن هذا التعريف قديم عرفته المدرسة الألمانية بشكل او بآخر منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر (فيمر ١٨٨٥ J. Wimmer) ثم تبناه ماكندر H.Makidner (١٨٦١ — ١٩٤٧) مؤسس المدرسة الجغرافية الحديثة في بريطانيا . ومن كلماته المأثورة في هذا الشأن « الجغرافية التاريخية هي دراسة الحاضر التاريخي Historical Present . على الجغرافي أن يحاول أن يضع نفسه في الحاضر الذي كان . ليكن لمدى ألف أو ألفي عام. عليه أن يحاول اعادة بناء ذلك الحاضر» وقد تمسك جلبرت Gilbert بآراء استاذه ماكندر فكتب يقول (١٩٣٢) « إن مهمة الجغرافية التاريخية هي اعطاء صورة للجغرافية الاقليمية الماضية » [١]. وفي الولايات المتحدة كان د. وتلزي D. Whittlesey (١٩٢٩) و ر . هارتسهون R. Hartshorne (١٩٥٩) من المقتنعين بسلامة هذا التعريف وينصح وتلزي « بأنه من الضروري أن تسبق أو تلحق دراسة فترات الطمأنينة والسلام فترات التغيرات الواسعة كما لا يجب أن نهتم بديناميكية التطور وإنما بوصف وشرح العلائق الجغرافية المتبادلة لفترة محدودة من فترات التاريخ » [٣].

---

(١) يرى داربي أن أبواب هذا الكتاب يمكن أن تكتب الآن بطريقة افضل لو اتبعت الطريقة الموضوعية ولو تم الاستفادة من كل الوثائق والخرائط القديمة ونتائج العلوم القريبة .

(٢) Gilbert , E . oq , cit , pp . 129 - 136

(٣) يلاقي رأي وتلزي هذا اعتراضاً مؤداه أن البحث الجغرافي لا ينفعه أن تكون العلاقات الثابتة أو فترات عدم التغير منطلقا له بل يجب أن تحيط الدراسة بالثابت والمتغير من الأسباب .

أما ر. هارتسهورن فقد كان في شبابه (١٩٣٩) متشككاً في قدرة الجغرافية على تصوير ما مضى من ظاهرات بل كان يشك في قيمة جغرافية الماضي بالنسبة لجغرافية الحاضر . ولكنه راجع نفسه بعد ٢٠ عامـــاً (١٩٥٩) فأكد قدرة الجغرافي على تصوير جغرافية الماضي وأعطى لها وزناً بين بقية أقسام الجغرافية[١]

ولكن لماذا لقي هذا التعريف شيوعاً وتأييداً من كثير من الجغرافيين ؟ يفسر ذلك بما اكتشفه الجغرافيون من قيمة عند إعادة بناء جغرافية الماضي . فبرسم قطاعات جغرافية متتالية لمنطقة ما خلال الزمن يخلق ما يمكن أن يسمى **جغرافية مقارنة يتضح فيها كيف استغل الانسان عناصر ثابتة (كالموقع والتربة والمناخ) وهو ما زال في مستويات تقنية متفاوتة . قال بذلك الكتاب الألمان في القرن التاسع عشر (فيمر ١٨٨٥) والكتاب الفرنسيون ديمانجون Demangeon وللانو Le Lannou وماكس سور Max Sorre والبريطـــاني (ماكندر Makinder) وأخيراً هارتسهورن Hartshorne في الولايات المتحدة .**

وإذا كان من خلاف بين كل هؤلاء فهو حول ما إذا كان على الجغرافيه أن تهتم بالدراسات الأصولية (التطورية) أو العمليـــات التي أدت إلى التغير . ففيمر وماكندر وهارتسهورن (١٩٣٩) يرون أن كثيراً من الدراسات الأصوليـــة التطورية تدخل في باب التاريخ ويجب أن تحذف من الجغرافية ما أمكن ذلك. انطلاقاً من هذا المعنى فإن الجغرافية التاريخية تظهر بوضوح كسلسلة من الصور الزمنية رسمت بطريقة تجعلها مختلفة تماماً عن صور أخرى تاريخية لنفس المكان في نفس العصر .أن في هذا الرأي مغالاة حادت به عن المنطق . إذ كيف يطلب من الجغرافي أن يدرس اسلوب صناعة أو كيف تحيا مدينة ولا يكون من اختصاصه أن ينظر في كيف ظهرت هذه الصناعة أو تلك المدينة في بقعة معينة من الأرض . اعتراض منطقي آخر . إن الاختلاف أو التعارض بين الدراسات

---

(١) Hartshorne ,R. 1934 , The Nature of Geography pp. 112 - 85 .
Perspective on the Nature of Geography ; pp . 101 - 107

التجريبية من ناحية والتطورية من ناحية ثانية هو اختلاف مظهري أكثر منه حقيقي . فالدراسات التطورية تعني في الواقع بمعالجة أحد مركبين اثنين متباينين. فهي أما تحـــاول أن تصور ما كانت عليه العلاقات المتبادلة في فترات من الزمن [1] أو تحاول أن تدرس الأوضاع Situations باستمرار خـــلال الزمن . وهذا يستدعي إحاطة تامة بتتابع حلقات التاريخ مما يمكن بالتنبوء بما سيكون عليه الوضع في المستقبـــل لو استخدمنا الطريقـــة الجدليـــة Dialectical method

الجغرافية الأصولية إذن تسعى لتوضيح بل وتحريك الصور الزمنية وذلك بتحديد التغيرات المتداخلة خلال الفترات التاريخية وضوابط هذه التغيرات اجتماعية كانت أم اقتصادية . كيف إذن نسمح بأن يهمل الجانب التطوري من الجغرافية التاريخية وهذه قيمته وهذا هدفه . يبدو أن هذه النتيجة أصبحت موضع اعتبار جمهرة الجغارفة بما فيهم هارتسهورن نفسه .

والآن ما هي النتائج التي يمكن أن نستخلصها من تحليلنا السابق لمختلف مفاهيم لجغرافية التاريخية ؟. لعل أهم هذه النتائج هو أنه لا يوجد في الأفق وربما لن يوجد حل « مذهبي » لمشاكل الجغرافيين التاريخيين . كما أنه لا توجد صيغة تحسم بين ما ينتمي إلى الجغرافية وما ينتمي إلى التاريخ وهذا ما سنوضحه في مكان آخر . لتكن المشاكل غير هينة والحدود غير واضحة ولكن الذي له وزن وأهمية هو مدى اسهام الجغرافيين أنفسهم في اثراء المعرفة الانسانية شريطة أن يكون اهتمامهم منصباً على الأماكن وما كانت عليه وليس على الناس وما كان بينهم من علاقات . ثانياً – كل تعريف من التعاريف السابقة ساد في فترة ما وكان في الحقيقة انعكاساً لنظرة الأغلبية فيما يختص بطبيعة الجغرافية

---

(١) تدرس مثلا كيف تواءمت انماط مواقع الصناعة مع الظاهرات الطبيعية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية في فترة من فترات التاريخ .

بل وبماهية الشرح والتعليل . ثالثاً كل تعريف أسهم في تطور الجغرافية أو التاريخ او هما معاً .

هذه مرحلة . مرحلة أخرى في حياة الجغرافية التاريخية بدأت مؤخراً بظهور اتجاه إلى عدم التقيد بمفاهيم محددة فيما يتصل بطبيعتها ومحتوياتها أملاً في فتح الطريق أمـــام دراسات غير متزمتة ولا ملتزمة بمنهج معين في التنظيم والعرض [١] . وإن دل هـــذا الاتجاه على شيء فعلى مبلغ ما تحسه الجغرافية التاريخية من رغبة في التخلص من مناهج صارت بائـــدة . ويقترح داربي (١٩٦٢) صاحب مذهب اللاملتزمية طريقتين لمعالجة مختلف الموضوعات لكل مميزاتها واستخداماتها ـ الأولى وهي الطريقة الرأسية The Vertical Treatment (أو الموضوعية Topical) وتعني بتتبع مدى التغير الذي لحق العناصر الجغرافية (سكن ، زراعة ، طرق . . الخ) على مر الزمن . هـذه الطريقة وإن كانت لا تظهر وحدة البيئة بجلاء الا أنها تعرض عناصرها وكذلك النشاط البشري بغير تكرار وبكثير من العمق [٢] . أما الطريقة الأخرى للمعالجـة فهي الطريقة الأفقية The Horizontal Treatment وهـــذه تقسم الزمن إلى عصور وتعالج جغرافية كل فترة على حدة [٣] . هذه الطريقـــة وإن كانت تحاول أن تصور الجغرافية كوحدة إلا أنها تعجز عن تفسير كل عناصر البيئة كما أنها لا تسلم من التكرار . ومهما يكن من شيء فإن طبيعة الموضوع هي في رأي داربي التي تحدد أي الطريقتين أفضل وأمثل [٣]

وإذا كان لنا ان ندلي برأي فإن الجغرافية التاريخية هي الدراسة الجغرافية

---

(١) Darby, «Tke Problem of Geographieal Description » trans lnst, Brit Geog. pub No30,1113

(٢) راجع المقدمة في كتابي دراسات في جغرافية مصر التاريخية الاسكندرية ١٩٦٢ .

(٣) Darby , H , (1953) op , cit, b. 11

لأية فترة من فترات التاريخ ترتبط أحداثها بطريقة منظمة وواضحة بتطور الانسانية وبالتاريخ العالمي . والدراسة الجغرافية هي التي تهتم بالمكان الذي سكنه ويسكنه الإنسان بكل عناصره وصفاته منتهية بفلسفة مكانية لتحديد الشخصية وفهم الروح .

وعند الحديث عن جغرافية الماضي يجب ألا نهتم كثيراً بالتمييز الدقيق بين فترة ما قبل التاريخ والعصر التاريخي وبين الماضي والحاضر. الذي يهمنا هو أن تكون الدراسة جغرافية ، دراسة تهتم أكثر ما تهتم بوصف المكان وليس بسرد الأحداث التاريخية التي وقعت فيه . ومن الخطأ أن نميز بين الجغرافي والمؤرخ على أساس أن الجغرافي يهتم بالحاضر بينما يهتم المؤرخ بالماضي أو أن الجغرافي يهتم بدراسة الأقطار المتباينة بينما يركز المؤرخ اهتمامه على فترات التاريخ المختلفة . هذه من غير شك آراء غير صائبة لمهمة كل من الجغرافي والمؤرخ [1] . فالمؤرخ لا يعني فقط بدراسة الماضي البعيد بل إنه يطبق طرق بحثه على دراسة الماضي القريب . هذا ولا يمكن أن ينكر أحد على المؤرخ دراسته للحاضر أو الفترة التي يعيش فيها وإذا فعل ذلك لا يتحول إلى جغرافي ولا يتعدى على اختصاص الجغرافيين. وكما أن المؤرخ يستطيع أن يدرس تاريخ دولة كالهند كذلك يستطيع الجغرافي أن يدرس جغرافية القرن التاسع عشر . وفي كلتا الحالين لا يتحول الجغرافي إلى مؤرخ ولا يستطيع المؤرخ أن يدعى أنه أصبح جغرافياً . وليس معنى ذلك أن طبيعة الدراسة الجغرافية تختلف كل الاختلاف عن الدراسة التاريخية إذ لا يوجد حد واضح بين الجغرافية والتاريخ وذلك لسببين — الأول : أن جغرافية أي مكان في الوقت الحاضر ما هي إلا صورة مؤقتة متغيرة ستدخل في عداد التاريخ بعد فترة طالت أم قصرت . وينطبق ذلك على وجه الخصوص على الجغرافية الاقتصادية فخرائطها وإحصاءتها سرعان ما تصبح

وثائق تاريخية — الثاني : أن الاختلافات في شخصيات الأقاليم ليس مرجعها فقط إلى اختلافات في التضاريس والتربة والمناخ وإنما مردها أيضاً إلى التباين في طرق استغلال الأرض طوال التاريخ (٢) . وقد كان ڤيدال دلابلاش Vidal de la Blache هو أول من عرف الجغرافية بأنها علم المكان ولكنه كان يعني المكان الذي سكنه الإنسان وليس المكان قبل ظهور الإنسان .

ويجب أن نشير هنا إلى أن الحديث عن جغرافية أي اقليم في فترة من الفترات الماضية لن يكون حديثاً وافياً جامعاً لكل الحقائق التي نود سردها . فالإجابة على السؤالين التقليديين اللذين يسألهما الجغرافي وهما اين ؟ ولماذا ؟ ستكون صعبة وسيقضي الجغرافي التاريخي أو المؤرخ الجغرافي وقتاً طويلاً في محاولته للإجابة عليهما . الصورة ستكون إذن ناقصة في بعض أجزائها . كما ان النتائج لن تكون مؤكدة اما الخرائط فستكون تقريبية . ويرجع هذا النقص والقصور إلى عدم ترابط وقلة الحقائق الجغرافية التي يمكن العثور عليها واستنتاجها من بين المصادر المعروفة للمادة . ولكن من البديهي ان درجة قصور الدراسة وقلة النتائج التي نصل إليها يتوقف على الفترة التي نحن بصددها . هل هي فترة بعيدة ام قريبة فكلما كان التاريخ قديماً كانت الحقائق التي يمكن استخلاصها اقل وبالتالي تكون الصورة التي نرسمها اقل وضوحاً وعكس ذلك فصحيح . هناك عامل آخر يؤثر في قيمة المعلومات وفي وفرة الحقائق ألا وهو درجة تقدم السكان وحظهم من الحضارة . فكلما تقدمت حياتهم المادية والثقافية كلما تعددت مصادر الدراسة واصبح من السهل دراسة بيئتهم دراسة افضل (١) .

---

(١) على كل من يرغب في أن يجعل حقل دراسته الجغرافية التاريخية أن يحيط إحاطة تامة بأسس الجغرافية الطبيعية والحيوية وأن يقوى ملكة الاستنتاج السليم والربط بين الحقائق =

الاتجاهات الحديثة :

إن من ينظر في أدبيات الجغرافية التاريخية خلال العقود الأخيرة سيجد فيها كل تلك الأفكار السابقة ماثلة . فالكشف عن المعرفة بين الانسان والبيئة كان منذ القرن التاسع عشر ولا زال مطلباً أثيراً لدى الجغرافيين وشجع بالتأكيد على الاهتمام بدراسة الشعوب البدائية في مواطنها حيث يظهر مدى التكيف مع الطبيعة أوضح منه بين مجتمعات غرب أوربا الصناعية . كذلك كان البحث في جغرافية « ما قبل التاريخ» مجالاً لاظهار أثر الموقع والتضاريس والتربة والتصريف النهري وموارد المياه على أعمال الانسان . لكن حدث في السنين الأخيرة تحول

كما يجب ان يمتد أفقه إلى ما وراء موضوع دراسته يجب عليه أن يقرأ لعلماء التربية والجيولوجيا والآثار والمؤرخين والمهندسين المعماريين وعلماء اللغة . كما يجب عليه أن يستشير المتخصصين في فروع العلوم التي لها صلة بموضوعه . أما اهم مصادر الجغرافية التاريخية فهي الدراسات الجيولوجية المتعلقة بتطور مظاهر سطح الأرض وتطور المناخ واثر ذلك على الحياة النباتية والحيوانية السائدة ودراسة علاقة اليابس بالماء منذ أن ظهر الإنسان العاقل في البليستوسين . وتعتمد هذه المباحث على الحفريات النباتية والحيوانية وعلى توزيع شكل الأرصفة البحرية والنهرية ومظاهر الارساب الاخرى . المصدر الثاني يتمثل في الدراسات الأثرية التي تكشف عن جنس الجماعات القديمة بدراسة هياكلها كما تتعرف على حياتها المادية ودرجة حضارتها من دراسة كتابتها وآثارها من الحلى والآلات والاسلحة والمساكن والقلاع والمعابد وغيرها . المصدر الثالث هو دراسة أصل أسماء الأماكن المختلفة . فهذه الدراسة كثيراً ما تلقى الضوء على تاريخ تعمير المكان كما أن الاسم ربما يشير إلى نظام المجتمع أو طبيعة البيئة المحلية وهذه المعلومات تهم من يبحث في الجغرافية التاريخية . أما المصدر الأخير فيشمل المخطوطات والاحصاءات المختلفة وما جاء في كتب الجغرافية والتاريخ والخرائط القديمة وكتب الرحلات . بقيت نقطة في هذا الصدد وهي انه على الجغرافي بعد ان يرجع الى تلك المصادر أن يزور المنطقة التي يزمع دراستها ويقوم بتحقيقاته الخاصة ان امكن حتى تكون الدراسة اكثر واقعية واتزانا . كما يجب عليه أن يرجع قليلاً إلى ماوراء الفترة التي يدرسها ويتوقف مدى الرجوع إلى الوراء على طبيعة المشكلة التي يعالجها أو صفات المكان التي يود دراستها . فقد تأخذه بعض المشاكل والتفسيرات بعيداً خلال التاريخ البشري بل والجيولوجي بينما نجد مشاكل وموضوعات يكفى لاستكمال دراستها الرجوع إلى الماضي القريب .

عن جغرافية ما قبل التاريخ التي عرفها رعيل من الجغرافيين البريطان مثل فلير Fleure وداريل فورد D. Ford وولدرج Wooldridge ربما لأن مؤرخي ما قبل التاريخ تعلموا دروساً في الجغرافية الحديثة .

وكما سبق أن أشرنا ظل مفهوم الجغرافية التاريخية كدراسة لجغرافية الماضي هو الشائع لمدة طويلة وسوف يظل كذلك لمدة أطول. ذلك لأن نتائج الجغرافية التاريخية وفق هذا المعنى تسد فجوة بين معطيات كل من التاريخ المحلي المحدود والتاريخ الاقتصادي العام . فضلاً عن أن الدراسة ذاتها تركز على الاختلافات الاقليمية وتهتم عادة بتوضيح قيمة التباين الأرضي الذي يغفله التاريخ الاقتصادي. وفي إطار هذا المفهوم ظهرت دراسات قيمة نذكر منها ما سبق أن أشرنا إليه وهو الكتاب الذي يعالج جغرافية انجلترا قبل ١٨٠٠ م وقام بالإشراف على إعداده هـ. داربي في شبابه[1]. وبالرغم من الجهود الذي بذلها الجغرافيون التاريخيون البريطان لرسم صور زمنية دقيقة لجزيرتهم معتمدين على ما حفظه التاريخ من سجلات احصائية وخرائط وكتابات خلفها الرحالة وأوصاف طبوغرافية تركها العلماء وموظفو الدولة فلا زال هناك متسع لكثير من الدراسات المفيدة خاصة فيما يتصل بالسكان واستثمار الأرض .

أما الدراسات التي تهتم بالبحث عن تطور ملامح المظهر الخارجي وتلك التي تعالج التغير الجغرافي خلال الزمن فقد فتحت الباب أمام دراسات « موضوعية » تتعلق بتطور الزراعة والسكن والتجارة والصناعة . ويرجع الفضل في تقدم الأبحاث التي تعالج التغيرات في عناصر البيئة خلال الزمن إلى الرغبة في تتبع

---

(1) Darby, H. An Historical Geography of England before 1800

أصول الأشياء بعمق وفهم جديدين وإلى الاعتماد على أدلة أخرى غير الوثائق مثل حبوب اللقاح وبقايا النباتات والارسابات الحديثة. ومن بين الدراسات التي استفادت من الأدلة العلمية ما أجري في الأرض الواطئة حول تاريخ استصلاح الأرض بل وتطور استثمارها وما أجري في ألمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا حول قطع الغابات وتجفيف المستنقعات. فقد اقتضى البحث الاعتماد على الارسابات الحديثة ودراسة حبوب اللقاح وبقايا النباتات. وباستثناء بعض الأبحاث (خاصة المناخية) فان إبراز دور الانسان في تغيير سطح الأرض (عن طريق تجفيف المستنقعات وري الأرض وقطع الغابات والزراعة) كان هدفاً أساسياً بل محوراً لكثير من المقالات والأبحاث نذكر منها كمثال مجموعة الأبحاث تحت عنوان:

Man's Role in Changing the Face of the Earth Ed - Thomas, 1955.

ولقد خطت جغرافية السكن الريفي والنظم الزراعية والحقلية خطوة واسعة بفضل الاهتمام الذي ركز على فهم وتحليل عناصر المظهر الخارجي. ونذكر أن ظهور الأعمال الرائدة في موضوعات السكن والنظم الحقلية في غرب أوربا كان في الفترة بين أواخر القرن ١٩ وأواخر العشرينات من القرن الحالي. وبعد فترة من العقم كتب لها أن تنهض وتؤتي ثماراً من جديد وذلك منذ بداية الحرب العالمية الثانية. ففي فرنسا والأراضي الواطئة وألمانيا والسويد وانجلترا أحرز تقدم كبير ليس فقط في سبيل فهم أفضل للبيئات الريفية المعاصرة ومشاكلها وإنما نحو معرفة أعمق بالظروف التاريخية التي نمت في ظلها النظم الحقلية والأنماط السكنية. بل إنه يمكن القول أن هذه الموضوعات هي اليوم من أكثر الموضوعات الجغرافية نمواً وتقدماً يعتمد على نتائجها مؤرخو التاريخ الزراعي الأوربي [١]. وتطبق هذه الملاحظات إلى حد كبير على

(١) تقوم على نشر صفحات من هذا التاريخ اليوم مجلات حديثة نسبياً مثل:
Agricultural History Rev. - Etudes rurales.

الدراسات المدنية . فقد شهد الجزء الأخير من القرن التاسع عشر موجة من الاهتمام بدراسة موضوعات مثل أصول المدن وماهية مؤسساتها. وكما فتر الاهتمام بالدراسات السكنية الريفية قبل ١٩٣٩ فقد حدث مثل ذلك بالنسبة للدراسات المدنية ثم أعقب فترة الفتور هذه مرحلة من النشاط المتزايد وشارك الجغرافيين فيها من وجهات نظر متباينة – المؤرخون والأثريون والمهندسون والمعماريون ومخططو المدن . ويمكن القول أن كثيراً من الصفات التي رغبت وشجعت الجغرافيين على دراسة السكن الريفي هي التي أغرت بعض المؤرخين على دراسة تاريخ المدن خاصة فيما يتصل بالنمو والوظائف الإقتصادية وتغير وظائف الأحياء .

ماذا عن مستقبل الجغرافية التاريخية ؟

لعل تطبيق الطرق الإحصائية كان من أهم أسباب التقدم الحديث في أسلوب البحث الجغرافي والتاريخ (خاصة الاقتصادي) . فمن طريق تحليل الأرقام الخاصة بتوزيع الثروات والسكان ومناحي التقدم والرقي اكتسبت الجغرافية قدراً كبيراً من العمق والواقعية . ومن ثم فإن استخدام الإحصاءات على مجال أوسع في موضوعات الجغرافية التاريخية سيفيد في وضع قاعدة سليمة للمقارنة بين التوزيعات المختلفة في البيئة – أية بيئة – خلال التاريخ وفي التحقق من صدق المعلومات التي تحت أيدينا . وبتقدم الدراسات الخاصة بتحليل حبوب اللقاح وتركيب المواد العضوية وتاريخها (باستخدام الكربون ذي الوزن الذري ١٤) سوف تخطو الدراسات التاريخية المتصلة بالحياة النباتية والارسابات المختلفة مثل قطع الغابات وانجراف التربة خطوات واسعة كان لا يمكن أن تتم إذا اقتصرت الشواهد – كما كان العهد حتى وقت قريب – على وثائق غير كاملة وما تكشف عنه أسماء الأماكن . وفي دراسة السكن الريفي تظهر الحاجة أيضاً إلى مزيد من التعاون المنظم لكمال الاستفادة من الأدلة التي تستقي من أكثر من علم . ويبدو

أن جغرافية المدن أحرزت في السنوات الأخيرة تقدماً أكبر مما أحرزته جغرافية السكن الريفي ليس هنا مجال استقصائه. ولكن ما من شك في أن طريقة معالجة موضوع الموقع وتحليل توقيع المدن على الأرض ربما أوحت للجغرافي التاريخي بأفكار تنفع في دراسة جغرافيات الماضي .

ومن الواضح أن هذه الاتجاهات الجديدة سوف تخرج بالجغرافية التاريخية عن مفاهيمها التي تعرضنا لمضامينها العامة في الصفحات السابقة . والأمل كبير في أن تنفتح آفاق واسعة أمـــام الدراسات الموضوعية (الرأسية) خاصة فيما يتعلق بفهم واستيعاب العمليات التي يتم عن طريقها التغير الجغرافي خلال الزمن. وسيكون التطور السريع في استخدام طرق الاحصاء في جغرافية المدن (وعلى الخصوص فيما يتعلق بنظرية الموقع المركزي ومجال نشاط المدينة وتوزيع الظاهرات المدنية المختلفة) بمثابة دافع قوي لمزيد من التطور في الجغرافية التاريخية للمدن. والرجاء كبير في أن يسهم الجغرافي التاريخي في درس مشاكل التخلف وأسباب التقدم والتنبؤ بما سيكون عليه الغد . وإذا ما تحقق ذلك فسيكون عند الجغرافي التاريخي ما يقدمه لحسن فهم التاريخ وعنده ما يعتز به لحسن فهم جغرافية الحاضر . ثم هو بعد ذلك كله لن يكون في عرف داربي قد أحرز نجاحاً يذكر لأن النجاح في كتابة الجغرافية التاريخية غير وارد « There is no such thing as success » وإنمـــا الوارد والمأمول هو درجات من عدم النجاح « degrees of unsuccess » .

---

(١) Darby, H.,, An Historical Geography of England; Twenty Years After". R. Geog. J. CXXVI, Part 2 June 1960 pp. 147 - 159.

الكتاب الاول

العالم القديم

الفصل الأول

العالم القديم في البليستوسين

تغيرات بيئية

١ ـ المناخ

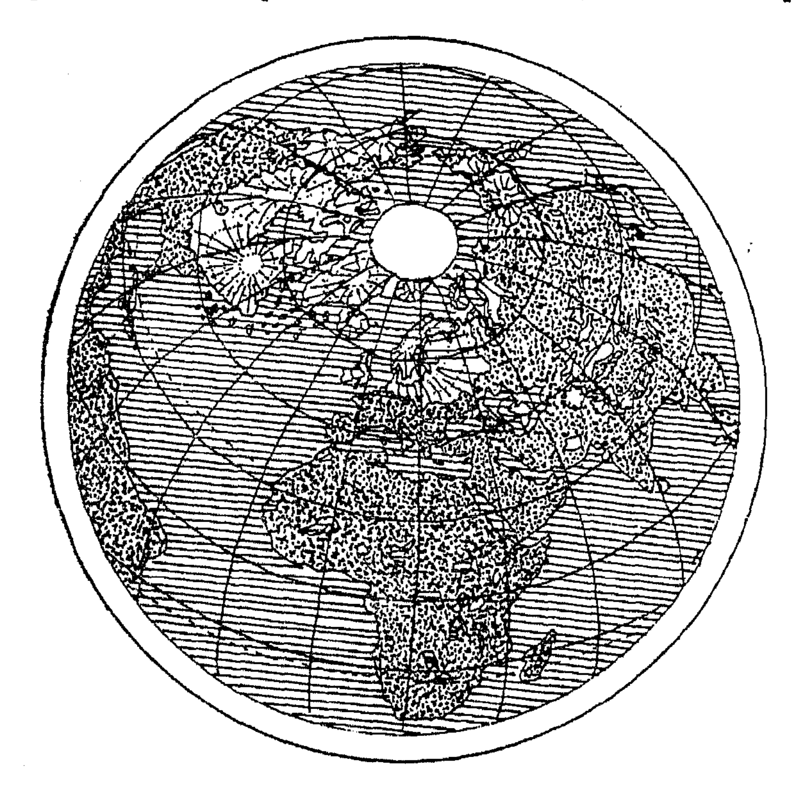
عصر البليستوسين Pliestocene هو عصر الإنسان فضلا عن أنه عصر التغيرات البيئية الواسعة . ففيه تطور الإنسان بيولوجياً وحضارياً وأخذ في تعمير الأرض. وفيه مرت الأرض بكثير من التغيرات المناخية والطبيعية البعيدة الأثر في حياة الإنسان. فسواحل البحر كانت في تقدم وتقهقر ومنها سواحل الخليج العربي فكان الخليج يجف تارة ويمتليء بالماء تارة أخرى. وتغيرت خطوط سواحل غربي أوربا فهي متقدمة في فترة ومتقهقرة في آخرى. وغطت حقول الجليد نحوا من ٣٠٪ من سطح اليابسة وتأثرت مساحات واسعة بالفترات الجليدية والفترات المطيرة وما تخللها من فترات غير جليدية وغير مطيرة . وكان من أثر تغير المناخ أن تغير توزيع الأقاليم النباتية مما أدى كما يزعم تيلور Taylor إلى تطور الإنسان وإلى ظهور الأجناس في النهاية .

وربما يكون من المفيد أن نبدأ بالقاء الأضواء على ظروف البيئة أو البيئات الطبيعية التي عاش فيها الإنسان غير العاقل خلال البليستوسين أو الجزء الأكبر منه ثم ننظر حيثما سمح المقام في كيف تطورت هذه البيئة عندما صار الإنسان عاقلا

ولا شك أن دراسة البيئة الطبيعية يفيد في تفهم اتجاه الهجرات القديمة ونوع استغلال الإنسان لها ومدى تكيفه معها .

العصر الجليدي :

يتفق عصر البليستوسين مع عصر جليدي Ice Age في العروض المعتدلة بلغ طوله نحو مليون سنة وعصر مطير Pluvial Age في العروض المدارية وشبه المدارية. ولعل أهم ما يميز العصر الجليدي هي تلك الغطاءات الجليدية الهائلة Inland Ice Sheets التي تراكمت في العروض المعتدلة من نصف الكرة الشمالي والثلاجات الجبلية Mountain Glaciers التي ظهرت ونشطت في كل



شكل (١) أهم الحقول الجليدية في العالم

الجبـال العالية . ولم يكن العصر الجليدي ثلجياً طول الوقت فقد كانت هناك فترات غير جليدية تتميز بالدفء أو البرودة النسبية انكمش فيها الجليد وتقهقر. وإذا كان الجليد قد كسا أقاليم شاسعة في العروض المعتدلة فإن المطر من ناحية أخرى سقط على أقاليم واسعة في العروض المدارية الجافة وازداد على ما يبدو في الأقاليم ذات المناخ الموسمي والسوداني والمداري المطير .

وربما نعيش اليوم في ختام فترة دفيئة ستعقبها فترة جليدية باردة. فقد اثبتت الدراسات أنه يكفي أن ينخفض متوسط درجة الحرارة في الأقاليم المعتدلة ٥ أو ٦ درجات مئوية لحدوث عصر جليدي . ومهما يكن من شيء فإنه في هذا العصر الذي امتد لنحو مليون سنة كثر تساقط الثلج حتى انخفض خط الثلج الدائم فـي نصفي الكرة بأكثر من ٣ آلاف قدم (أو نحو ١٠٠٠ متر) عن مستواه الحالي. وكنتيجة لكثرة تساقط الثلج تراكم الجليد في شكل حقول عظيمة الاتساع (شكل ١) وتراوح سمكه بها بين ١٠٠٠ - ٢٠٠٠ متر ثم أخذ يمتد في شكل ألسنة هائلة تكتسح كل ما في طريقها. ولقد امتد الجليد في أوربا إلى خط عرض ٥٠ شمالاً على وجه التقريب. فشمل اسكنديناوه وأيسلندة ومعظم الجزر البريطانية وهولندة وبلجيكا وشمال ألمانيـا وبولندة وأجزاء واسعة من روسيا وجبال الألب. إلى جانب هذه المراكز الجليدية أو الحقول الرئيسية كانت هناك مراكز ثانوية تمثلت في مرتفعات البرانس وكنتبريان وجبـال الألب الدينارية والبلقان وغيرها من جبال جنوبي أوربا. وفي آسيا كان شمالي سيبيريا يغطيه حقل هائل من الجليد فضلاً عن مرتفعات وسط القارة وجبال آسيا الصغرى ولبنان. أما في العالم الجديد فقد تقدم الجليد في أمريكا الشمالية إلى خط عرض ٤٠° شمالاً وكان مركزه الرئيسي في خليج هدسن Hudson كما كانت المرتفعات الغربية كلها مغطاة بالجليد . وتبين أن الجليد في أمريكا الجنوبيـة كان يغطي كل السلاسل الجبلية من رأس هورن Horn جنوباً حتى مرتفعـات كولمبيا وفنزويلا شمالاً وكان الحقل الجليدي الرئيسي في بتاجونيا . وقد تأثرت مرتفعات افريقية

واستراليا هي الأخرى بجليد ذلك العصر . ففي افريقية ترك وراءه آثاراً ظاهرة في جبال أطلس وهضبة الحبشة وقمم كينيا وكلمنجارو وروونزورى وفي استراليا اكتشفت آثاره في مرتفعات نيوثوث ويلز .

الأدوار الجليدية :

وكما ذكرنا لم يكن العصر الجليدي في أوربا أو غيرها مـــن القارات عصراً متصلا بـــل تخللته فترات غير جليدية Inter - glacial Periods ذاب فيها الجليد وتحسن المناخ. وقد درست الأدوار في جبال الألب وفي شمالي أوربا وفي جهات أخرى خارج أوربا وتبين من هذه الدراسة أنه بينما حدثت أربعة أدوار جليدية في جبال الألب حدثت ثلاثة في شمالي أوربا واربعة في أمريكا الشمالية واثنان فقط في أمريكا الجنوبية . ويمكن تعليل اسباب هذا الاختلاف في عدد الأدوار الجليدية بأن المناطق التي تأثرت بالجليد كانت تختلف في موقعهـــا الجغرافي والفلكي وكان لهذا أثره في تحديد عددها. ولنـــا أن نفترض أن درجة الحرارة في فترة غير جليدية لم تكن كافية لإذابة كل جليد الدور السابق قبل أن يحل الدور الجليدي اللاحق فيتصل الدوران . ومن الأسباب التي تؤدي أحياناً إلى شيء من اللبس في تفسير عدد الأدوار الجليدية اختفاء دور قصير بسبب طول الأدوار التالية التي طمست معالمه .

وفي ضوء الدراسات التي قام بها بنك A.penck (١٨٧٩ وبروكنر Bruekner في وديان جبـال الألب قسم العصر الجليـدي في وسط أوربا إلى أربـعة أدوار هي :

١ – جونز Günz ٢ – مندل Mindel ٣ – رس Riss ٤ – ڤورم würm. بين هذه الأدوار ظهرت فترات غير جليدية ذاب فيها الجليد وارتفعت فيها درجة الحرارة . أما في شمالي أوربا فرأى يقول أنه تأثر بأربعة أدوار

ورأي ثان يؤكد أنه تأثر بثلاثة هي مع اختلاف التسمية ١ الستر Elster ٢ – سالي Saale ٣ – ڤيستولا Vistula . ومن ناحية ثانية يرى ليڤريت Leverett أن عدد الأدوار التي عرفتها أمريكا الشمالية هي اربعة : ١ – النبرسكي Nebraskan . ٢ – الكنسى Kansan ، ٣ – الإلينوى Illionian ٤ – الوسكونسي Wisconsin .

أوروبا في العصر الجليدي :

وإذا حاولنا أن نتصور أوربا إبان العصر الجليدي فيمكن القول أنه في دور جونز تكون فوق جبال النرويج حقل جليدي هائل ثم خرج منه السنة الثلاجات المنحدرة فوقه نحو الشرق والغرب. وتكونت فوق هذا الحقل منطقة ضغط مرتفع تخرج منه رياح قطبية شمالية شرقية شديدة البرودة تهب على جزء كبير من أوروبا .ويبدو أن جبال الألب كانت هي الاخرى تغطيها أو على الأقل أغلب منحدراتها الثلوج ، وبمرور الزمن ازداد تراكم الجليد حتى غطى شبه جزيرة اسكنديناوه كلها ومنها انسابت جبال الجليد لتذوب في مياه المحيط الأطلسي وكانت مازالت دافئة . كذلك امتدت منطقة الضغط المرتفع على اسكنديناوه لتشمل جهات واسعة نحو الشرق واتسع مجال الرياح القطبية الشمالية وهبت على جبال الألب . وعندما عظم ثقل الجليد فوق شبه جزيرة اسكنديناوة أخذ قاع بحر الشمال في الارتفاع وأخذ ماؤه في الانحسار حتى تحول إلى سهل عظيم يمتد ما بين سواحل النرويج وجنوب السويد في الشرق وسواحل انجلترا في الغرب . ولنا أن نقول مع بروكس أن ارتفاع قاع البحر وانحسار مائه أدى إلى انخفاض درجة الحرارة وخاصة بعد اختفاء أثر تيارات المحيط الأطلسي الدافئة . فتكونت حقول جليدية جديدة فوق الجزر البريطانية ثم كان دور مندل الذى طغى فيه الجليد طغياناً كبيراً حتى بلغ في طغيانه خط ٥٠ ش° في اوروبا وغطى جبال الألب وانتشر لأول مرة ليغطى شمال

غربي اوروبا كما يقول دي‌جير DeGeer . وعلى حدود الجليد الجنوبية في السهل الروسى استطاع انسان هيدلبرج صاحب الحضارة الشيلية أن يعيش . أما في غرب أوروبا فلم تسمح الأحوال البيئية بعيش هذا الإنسان .

وما أن انتهى دورمندل حتى بدأت فترة غير جليدية دفيئة هبط سهل بحر الشمال فيها ببطء واخذ يمتلىء بالماء وأخذ جليد اسكنديناوه يتقهقر وثلاجات جبال الألب والبرانس تضمر وينفصل بعضها عن بعض بل ربما انقطع جليد اسكندناوه عن جليد إنجلترا . وكان لا بد وقد حل الدفء أن تظهر الغابات الصنوبرية على نطاق واسع وأن تنتشر المستنقعات وحيوانات تحب الدفء مثل الفيل القديم والخرتيت القديم ذو الأسنان السيفية وسبع الكهوف والذئب والغزال . وقد كانت فترة مندل ــ رس طويلة بلغ طولها نحو ٢٥٠ ألف سنة . وللمرة الثالثة خلال البليستوسين تتعرض أوربا لدور جليدي عرف في وسطها باسم الرس وفي شمالها باسم سالى Saale ولكنه لم يكن في شدة الدور السابق بدليل أن جليد انجلترا لم يتصل بجليد اسكنديناوه . وربما استطاع الإنسان العيش على حواف الجليد حيث عاشت هناك حيوانات تحب البرد مثل الفيل الصوفي والحصان والرنة والغزال الأحمر .

ويرجح إن فترة رس ــ ڤورم لم تكن دافئة وإنما مالت إلى البرودة وفيها تقهقر الجليد نحو الشمال تاركاً حوض البحر البلطي والدنمارك والساحل الألماني . ولكن الجليد ظل يغطي جبال اسكنديناوه . وتتميز بأنها الفترة التي بلغ فيها تكوين تربة اللويس الذروة ، والتي فيها دخل الإنسان النياندرى القارة حيث عاش في الكهوف وغطى جسمه بالفراء . وجاء الدور الأخير فورم ليكون خاتمة عصر البليستوسين وهو دور أقل قسوة من الأدوار السابقة . وقد كانت حافة الجليد الجنوبية في شمال أوروبا تمتد من الساحل النرويجي عبر الدنمارك ثم تستمر شرقاً حتى شمال شرقي روسيا . ولكن الجليد لم يغط بحر الشمال كذلك لم يغط في اسكتلنده وايرلنده إلا الجبال العالية .

تقهقر الجليد :

وبعد أن بلغت موجة المد الجليدي في هذا الدور اقصى امتدادها أخذت ترتد

وتنحسر عن المانيا والدنمارك واقتصر امتداده على منطقة البحر البلطي. ولم تكن فترة تقهقر جليد فورم منتظمة فقد تقدم وتوقف وتقهقر مرات وكان مسرح تقدمه وتقهقره في شمالي أوروبا هو حوض البحر البلطي وفي وسط أوروبا وأعالي جبال الألب . وربما فسر ذلك تعقد التاريخ الجيولوجي للبحر البلطي والارسابات الجليدية في جبال الألب . وتنقسم مراحـــل تقهقر الجليد في وسط أوروبا إلى أربعة مراحـــل هي : ١ آخن Achen ٢ – بول Bühl ٣ – جشنتز Gschnitz ٤ – دون Daun . وهناك من العلماء من لا يعترف الآن بذبذبة آخن . وفي شمالي أوروبا اتخذت مراحل تقهقر الجليد اسماء مختلفة ولكنهـا تتفق إلى حد كبير مع الذبذبات السابقة. هذه المراحل هي: المرحلة الدنماركية ١ – Dani - glacial ٢ – المرحلة الجوتية Gothi - glacial ٣ – المرحـلة الفنلندية الاسكنديناقية Fennoscandian ٤ – مرحـــلة ما بعد الجليد Post glacial وتمثل نهاية العصر الجليدي والبلستوسين وقد ترك الجليد وراءه في شمالي أوروبا ووسطها وحيثما تقهقر ركامات نهائية سميت باسماء المراحل التي تنتمي إليها .

ويبدو أن الجليد بدأ بعد المرحـــلة الدنماركية في التقهقر ببـطء شديد نحو الشمال وذلك حوالي الفترة بين ١٠٠٠٠، ٨٠٠٠ ق.م وكانت حافة الجليد تقع على مقربة من ساحل شبه جزيرة جوتلند السويدية . ثم انسحب خلال الألفي سنة التالية إلى خط عرض ٥٩° ش ثم توقف الجليد عن التقهقر ما يقرب من قرنين تكون خلالها الركام الجوتي النهائي . ثم أخذ الجليد يتراجع بسرعة بعد ذلك خلال المرحلة التالية حتى تحسن المناخ . فقد بدأت فترة صار المناخ فيها دفيئاً جافاً نسبياً عرفت في شمال غربي أوروبا بفترة أحسن مناخ Climatic Optimum . بدأت منذ ٦٠٠٠ ق . م وربما بعد ذلك واستمرت أكثر من ألفي عام ثم صار المناخ دفيئاً رطبـــاً في الفترة الأطلسية Phase Atlantic وظل كذلك لمدى ١٥٠٠ سنة . ومنذ ٢٥٠٠ ق . م أخذت الحرارة في الانخفاض والرطوبة في القلة حتى الألف الأولى بعد الميلاد .

ويختلف العلماء فيما بينهم حول أسباب تغير المناخ في البليستوسين وحدوث العصر الجليدي في العروض العليا والعصر المطير فيالعصور الوسطى والمدارية. هناك نظريات عدة تحاول تفسير أسباب هذا التغير المناخي. من هذه النظريات النظرية التي نادى بروكس C. Brooks [1] وهي ترجـــع التغيرات المناخيـــة إلى ارتفاع وانخفاض في تضاريس الأرض وتغير في توزيـــع اليابس والماء نجم من اضطرابات باطنية. وقد أثر ذلك في توزيع الحرارة والضغط الجوي والرياح والتيارات البحرية. ولكن لا يستطيع أحد حتى الآن أن يرسم صورة دقيقة لما كان عليه توزيع اليابس والماء إبان العصور الجليدية. ومع ذلك فقد بذل بروكس جهوداً كبيرة في محاولة توضيح أثر هذه التغيرات على درجات الحرارة صيفاً وشتاء. ونظرية ثانية تربط بين تغير المناخ وتغير الاشعاع الشمسي ففي العصور الجليدية تزداد البقع الشمسية Sun Spots فتنخفض درجة الحرارة. ولكن ليس هناك دليل على حدوث مثل هذه البقع على فترات طويلة بانتظام. ونظرية ثالثة ترى أن تغير نسبة ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء كان سبباً في تغير المناخ فهذا الغاز يحفظ حرارة الأرض من أن تتبدد في الفضاء. معنى ذلك أن أي نقص في كمية ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء لابد أن يؤدي إلى سرعة إشعاع الأرض لحرارتها وبالتالي إلى هبوط درجـة الحرارة. ولكن إذا كان ثاني أكسيد الكربون يحفظ الحرارة من التشتت في الفضاء فكذلك يفعل بخار الماء. هناك فضلاً عن ذلك نظرية فلكية تفترض أن محور الأرض أو مدار الارض كان يتغير خلال العصور الجليدية وكانت مثل هـذه التغيرات تؤدي إلى تغير نظم الحرارة والضغط والرياح. تغير يؤدي في النهاية إلى كثرة سقوط الثلج في العروض العليا وازدياد كمية المطر في العروض الدنيا. ولكن هذه النظرية لا تفسر سبب ميل المحور أو اختلاف مدار الارض فضلاً عن أنها لم تستطع أن تفسر سبب تعدد الادوار الجليدية وحدوثها في نصف

(١) Brooks - Climate through The Ages, N.Y, 1949
—, The evolution of Climate, London 1932.

الكرة في وقت واحد .

العلاقة بين الادوار الجليدية والمطيرة :

ومهما يكن من أمر هذه النظريات فانه يمكنناأن نتصور حالة المنـــاخ في جهات العالم المختلفة أثناء عصر جليدي أو فترة جافة أو دور مطير وذلك بعد دراسة عناصر المناخ وأحواله في الوقت الحاضر خاصة في السنين الشاذة التي زاد فيها تساقط الثلوج على شمالي أوربا أو ارتفعت فيها درجة الحرارة أو زادت كمية المطر عن المعدل . ففي أثنـــاء الدور الجليدي كان الثلج يتراكم فوق مساحات واسعة من أوربا فيبرد الهواء الملامس وتتكون منطقة ضغط شديد الارتفـــاع ويترتب على ذلك أن الرياح العكسية التي تبدأ على المحيط الأطلسي وتتوغل في أوربا لا تستطيع ذلك وتضطر إلى الاتجاه جنوبـــاً إلى البحر المتوسط وشمالي أفريقية دافعة أمامها الانخفاضات الجوية التي تسبب سقوط الأمطار الكثيرة على هذا الجزء من العالم . إذن فإن الدور الجليدي في شمالي أوربا يتفق مع دور مطير في شمالي افريقية . أما في الفترات غير الجليدية والتي تمتاز بالدفء كفترتي جونز– مندل ومندل – رس فقد ازداد فيهـما البخر من المحيطات ونشطت حركة الرياح وغزرت الأمطار على أوربا وشمالي أفريقية . معنى ذلك أن الفترة غير الجليدية الدفيئة في أوربا تتفق مع ازدياد الأمطار أو حدوث دور مطير خــارج أوربا ولكن الفترة غير الجليدية قد تكون باردة أيضاً كما حدث أثناء الجزء الأوسط من فترة رس – فورم. فالبرودة في هذه الفترة لم تكن شديدة بحيث ينشأ عنها عصر جليدي وإنما كانت أشد قليلاً منها في الوقت الحاضر . لذلك كانت حركة التيارات الهوائية ضعيفة والبخر قليـل . هذه الفترة تتعادل مع فترة جافة في العروض الوسطى .

العصر المطير :

ودراسة العصر المطير دراسة حديثة لم تكتمل بعد إذا مـا قورنت بدراسة

العصر الجليدي. كما أنها دراسة واسعة صعبة يزيد من صعوبتها اتساع المساحة التي تأثرت بالأدوار المطيرة والفترات الجافة واختلاف الظروف المناخية من جهة إلى أخرى . فهنا الأقاليم الاستوائية والمدارية وشبه المدارية كل له ظروفه الخاصة . وهذا بخلاف الحال في شمالي أوربا مثلاً إذا استثنينا مناخ السواحل ومع ذلك فاختلافه يمكن حسابه بسهولة . وجه صعوبة آخر هو أن أدلة العصر الجليدي أبسط في جملتها وأظهر لأن التغير من دور جليدي إلى فترة غير جليدية تغير واضح بخلاف التغير من دور مطير إلى فترة جافة. فالأمر هنا نسبي وخاصة في العروض الدنيا فهذه الجهات تمتاز عادة بغزارة أمطارها فإذا ما جاءت فترة جفاف فلن تتأثر كمية الأمطار إلا قليلاً . هذا فضلاً عن أنه قد تقترن زيادة كمية الأمطار إما بانخفاض درجة الحرارة أو بارتفاعها . وإذا كان الأمر كذلك ما هي الأدلة الطبيعية التي يمكن أن نستدل بها على حدوث عصر مطير ؟ . هذه الأدلة على أنواع :

أدلة على حدوث العصر المطير :

ا ـ ظاهرات فيزيوجرافية ب ـ حفريات نباتية حـ ـ حفريات حيوانية

يكشف نوع تكوينات الظاهرة الفيزيوجرافية وكذلك شكلها عن أمور تفيد الباحث في العصر المطير . فمن حيث النوع تشير تكوينات الترافرتين Travertine حول الينابيع القديمة مثلاً على زيادة المطر وارتفاع درجة الحرارة. كذلك تدل تكوينات الطوفا Tufa على تأثر المنطقة بالأمطار ويرتبط ظهور تربة اللاتريت Laterite ـ وهي تربة حمراء بسبب ارتفاع نسبة الحديد فيها بغزارة الأمطار وارتفاع درجة الحرارة. فاذا ما وجدت الآن في مناطق جافة نسبياً فان ذلك يعني أن المطر كان أغزر والحرارة أعلى في تلك المناطق. أما الرمال المتحركة فتدل على انتشار الجفاف وهبوب رياح جافة . ومثل ذلك يقال عن تكوينات البرشيا Breccia فوجودها يشير إلى الجفاف . هذا عن دلالة نوع

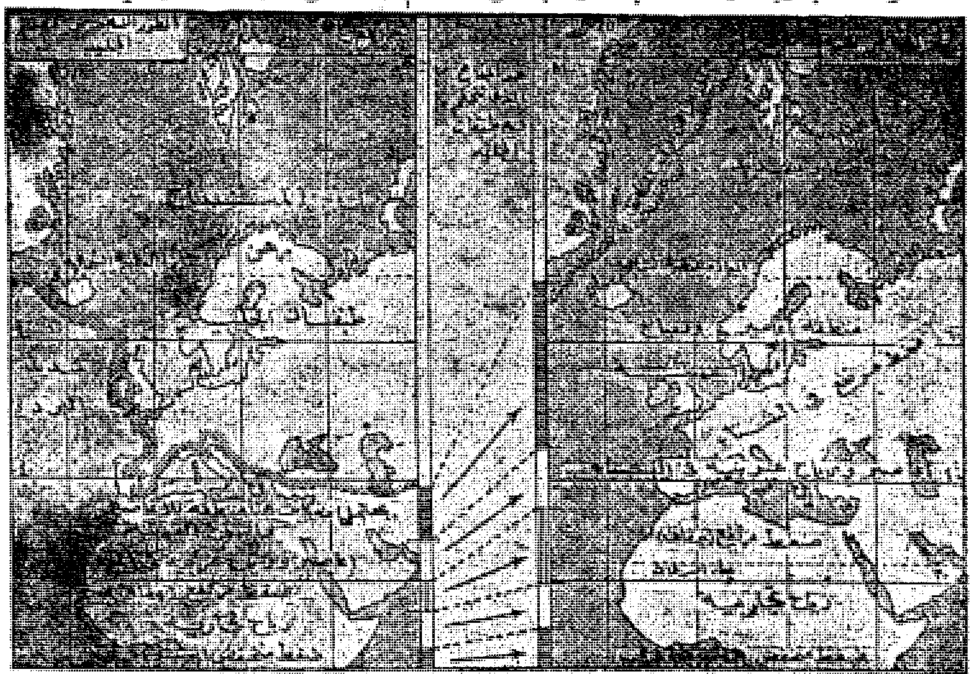
التكوينات . أما دلالة الشكل فلا يقل أهمية في الاستدلال فالمصاطب النهرية تكشف عن تتابع دورات النحت والارساب في الوادي والعلاقة بين مستوى مياه البحر ومياه الأنهار التي تنتهي إليه وارتفاع السهل القديم . كذلك فان وجودها ونوع موادهاقد يشير إلى ازدياد قدرة النهر في النقل والنحت في فترات نتيجة لازديادغزارة الأمطار على حوضه. كما أن دراسة الوديان الجافةوالأرصفة البحيرية يلقي كثيراً من الضوء على تغير ظروف المناخ بين الرطوبة والجفاف .

ومن فحص الحفريات النباتية نستطيع تحديدبعض صفات المناخ السائدوقت نمو هذه النباتات . فاذا ما وجدنا حفريات لنباتات استوائية منتشرة بعيداً جهة الشمال وحفريات لنباتات البحر المتوسط على مرتفعات الصحراء كان في ذلك الدليل على ازدياد المطر عما هو عليه الآن . وينسحب هذا القول إلى حد ما على الحفريات الحيوانية . فوجود عظام حيوانات في غير بيئاتها قد يدل على تغير المناخ. وهنا يجب أن نكون على شيء من الحذر عند إقامة الدليل ذلك لأن الحيوانات على خلاف النباتات تتحرك . ومن أمثلة الحفريات الحيوانية المعروفة القواقع السنغالية التي وجدت في البحر المتوسط وكان معنى انتشارها إلى هذا البحر (قادمة من المياه المدارية في الجنوب) أن حوض البحر المتوسط كان يتعرض لمناخ ادفأ منه في الوقت الحاضر . وبقايا الاسماك والتماسيح التي توجد في بعض وديان الصحراء الكبرى يدل وجودها هي الاخرى على اتصال الانهار التي كانت تجري في الصحراء بالنيل إبان هذا العصر . هذا بالنسبة لحفريات الحياة المائية المالحة والعذبة . أما حفريات الحيوانات البرية فهي كثيرة فقد اكتشفت عظامها في أكثر من مكان وتشير إلى البيئات التي عاشت فيها .فوجود عظام الدببة القطبية والرنة في جنوبي أوربا والفيل والخرتيت والزراف وحمار الوحش في شمالي أفريقية لدليل على اختلاف الاحوال المناخية والنباتية في البليستوسين عما نعرفه الآن.ونضيف أن آثار الإنسان مرتبط بالمخلفات النباتية والحيوانية . فقد عاش الإنسان حيثما أمكنه الحصول على القوت.فاذا عثر على آثار للإنسان في مكان قفر مهجورفان

ذلك يبهض دليلا على أن هذا المكان كان في يوم ما غنياً بمائه وبحياته النباتية والحيوانية .

نطاقات المطر :

امتدت نطاقات المطر في عصر البلستوسين إلى الشمال من صحاري نصف الكرة الشمالي وإلى الجنوب من المناطق الجافة في النصف الجنوبي . ونقصد بنطاقات المطر تلك التي كثرت أمطارها بدرجة غيرت من نمط حياتها النباتية والحيوانية في الأدوار المطيرة . ومع ذلك فان تشارلز ورث Charlesworth (1955)[1] يرجح أن قلب صحراوات العالم ظل جافاً كما نعرفه وكل ما حدث هو أن حدودها تحركت جنوبياً أو شمالاً تبعاً لموقعها من العالم (شكل ٢) . لننظر فيما كانت



شكل (٢) الاحوال المناخية في أوربا وشمال افريقية إبان دور فورم الجليدي مقارنة بالاحوال في الوقت الراهن

---

[1] Charlesworth, J. The Quaternary Era. Vol. 2, London 1955 pp 1112 - 1145,

عليه الحال في القسم الشمالي من افريقيــة . كان شمالي افريقيه امتداداً لأوربا فيما يتصل بالنبات والحيوان وحضارة الإنسان. وربما كانت أوربا هي الامتداد الطبيعي لشمالي افريقية في جزء كبير من هذا العصر . ومهمـا يكن من شيء فقد عرف هذا الاقليم مناخاً شبيهاً بمناخ وسط أوربا ولكن ربما تميز بالبرودة في كثير من الأوقات فقـل البخر. كان كما تشير الأدلة إقليما كثير المياه غطت جباله الغابات والأحراج وكست الأعشاب وديانه وسهوله . وأن ما نراه اليوم من وديان جافة تشق صحراء الحمادة لم تكن غير أنهار تتدفق بالمياه وتعيش فيها صنوف الأسماك والتماسيح وأفراس النهر . ولعل أشهر هذه الوديان في ذلك الجزء من افريقيــة هو وادي الساورة Soara في شرقي مراكش ووادي اغرعز الذي يقرب طوله من طول نهر الراين والذي كان يأخذ من مرتفعات الحجار ويجرى شمالاً إلى غير ذلك من الوديان التي خرجت من مرتفعات الحجــــار وكذلك خرجت من جبال أطلس التي غطت قممها الجليد لارتفاعات منخفضه أنهـار كثيرة قصيرة كونت مدرجات تحكي تتابع النحت والارساب ونشرت ما حملته من رمال وحصى فوق مساحات واسعة .

مناخ رطب هو ذلك المناخ - امتد شرقاً ليشمل برقة وامتد جنوباً ليشمل واحات مصر . ففي هضبة برقة كانت الأمطار أغزر مما هي عليه الآن ودليلنا على ذلك امتداد صحراوات السرير أو الحصى على مساحات شاسعــة . ووجود طوفا الهضبة والوادي في الواحة الخارجـــة وإن كان ماك بيرني Mc Burney يرجح ان القسم الشرقي من الصحراء الكبرى كان أقـــل أمطارا من القسم الغربي [٢] . أما وادي النيل في مصر فكان غابياً وفي المراعي القريبـــة

---

(١) في هذا العصر ارتفع مستوى المياه الباطنية في المنخفضات الصحراوية المصرية الليبية ، ويعزى ذلك لغزارة ما كان يسقط من أمطار على الأقاليم المدارية المطيرة إلى الجنوب

C. B. Mc Burney .The stone Age of North Africa , pp 77 - 80 London 1960 .

منه عاشت أنواع من الحيوانات العاشبة والمفترسة . وبعيداً جهة الشرق كانت الأمطار والماء الجاري أهم عامـــل نحت وارساب . وسنفصل الحديث عن مصر في مكان آخر . وإذا ما انتقلنا إلى بلاد السودان نجد أنه تعرض ابان الأدوار المطيرة لمناخ حـار أكثر أمطاراً منه الآن أدى إلى ظهور بحيرات انتشرت في نطاق يمتد من النيل الأبيض في الشرق إلى ساحل المحيط الأطلسي في الغرب. وربما كانت بحيرة تشاد أكثر اتساعاً وأكثر عمقاًمنه في الوقت الحالي. ومن الارسابات التي تكشف عن تأثر مناطق السودان وغربي افريقية بزيادة الأمطار تربة اللاتريت التي تنتشر حتى خط عرض ١٠° شمالاً . وعلى الجبال المرتفعة في الحبشة و كينيا وجدت آثار الجليد بينما توجد أدلة عديدة على تأثر المناطق السهلية بالمطر . منها الرواسب النهرية القديمة والشطوط المرتفعة لبحيرات شرقي افريقية .

وفي آسيا نجد أن جنوبها الغربي وهو يقع الآن ضمن المنـاخ شبه المداري أو المعتدل الجاف تأثر بمناخ بارد معتدل المطر. كذلك تأثر شمال غربي افريقية بمثل هذا المناخ. وانعكست هذه الظروف المناخية على الحياة النباتية فكثرت الغابات الصنوبرية والنفضية في المناطق المرتفعة وتدرجت الحياة النباتية كلما اقتربنا من سطح البحر وتوغلنا في الداخل حيث ظهرت الاعشاب في المناطق المنخفضـة وارتفع مستوى الماء في البحيرات والبحار الداخلية . فبلغ منسوب البحر الميت نحو ٢٤٠ متراً فوق منسوبه الحالي وإن كان هذا لا يعني أن بقية البحيرات ارتفعت بهذا المعدل . وتتفق الآراء في أن الأقاليم شبه المدارية في العالم القديم تعرضت لدورين مطيرين الأول طويل والثاني أقصر منه ولكن له ثلاث قمم وفصلت بينها فترة جافة .

تحديد العلاقات بين العصر الجليدي والعصر المطير :

والآن يمكننا أن نتصور ما كانت عليـه الأحوال المناخية في عروض مختلفة

إبان عصر البليستوسين إذا نظرنا في العلاقة بين العصر الجليدي وليكن في أوربا والعصر المطير وليكن في شمالي افريقية . هذه العلاقة تتمثل في :

١ — الدور المطير الأول يعادل العصر الجليدي حتى آخر دور رس Riss بما فيه فترة مندل ـ رس لأنها كانت فترة دفيئة ازداد فيها البخر وكثرت العواصف والمطر .

١ — فترة الجفاف القصيرة التي تلت الدور المطير الأول تعادل الجزء البارد من فترة رس — ڤورم غير الجليدية .

٣ الدور المطير الثاني يعادل دور ڤورم وكذلك ذبذبة بول .

٢ — ظاهرات نجمت عن حركات التوازن والحركات الباطنية

الأرصفة البحرية :

يمكن القول أن التغيرات في مستوى سطح البحر إبان البليستوسين كانت نتيجـــة حركات التوازن Eustatic Movements . وأن التغيرات الساحلية جاءت نتيجه للحركات التكتونية . ومع ذلك فإن الظـاهرات التي نجمت عن حركات التوازن تأثرت بالحركات التكتونية بحيث يصعب تحديد أثر كل نوع من هذه الحركات . ولقد تبين أن حركات التوازن هذه أثرت في أقاليم واسعة من أوربا وآسيا وأمريكا الشمالية وشمالي أفريقية وظهر أثرها في شكل شطوط قديمة وتغيرات في توزيع اليابس والماء . وتظهر هذه الشطوط القديمـــة أو الأرصفة البحرية على الخصوص وبشكل منتظم حول البحر المتوسط وإن كانت حركات القشرة والثورانات البركانية أثرت على انتظامها محلياً مثل ما نراه حول مضيق مسينا وعلى جانبي برزخ كورنث . كذلك قد تظهر منخفضة بحيث يصعب تمييز بعضها على الساحل الليبي والمصري والفلسطيني . وبعيداً عن مضيق جبل طارق

يمكن ملاحظتها على طول السواحل الأطلسية لمراكش وشبه جزيرة ايبيريا . وكذلك على طول سواحل غرب فرنسا والقنال الانجليزي . ويميز ديبيريه depèret (١٩٠٦) خمس ارصفة تتوالى من الأقدم إلى الاحدث ومن المرتفع إلى المنخفض هي :

الرصيف	ملاحظات	الارتفاع عن مستوى سطح البحر
١ - الرصيف الصقلي Sicilian Terrace	(يشاهد بالقرب من بالرمو)	٩٠ - ١٠٠ متر
٢ - الرصيف الميلازي « Milazzian	(يشاهد بالقرب من بلدة ميلازو شمال صقلية)	٣٥ - ٦٠ »
٣ - الرصيف التيراني » Terrhenian	(كانت مياه البحر المتوسط دفيئة ويشاهد الرصيف في جنوب إيطاليا)	٢٨ - ٣٢ »
٤ - الرصيف الموناستيري » Monasterian	(يشاهد قرب موناستير بتونس)	١٨ - ٢٠ »
٥ - الرصيف الجريمالدي » Grimaldian	(يشاهد في منطقة جنوة)	٦ - ٨ »
٦ - » الفلندري « Flandrian	(به آلات حجرية حديثة وبه آلات ترجع إلى عصر البرونز ويظهر على الساحل البلجيكي المطل على بحر المانش)	٦ - ٨ »

المعابر البرية :

ويقابل الأرصفة البحرية مصاطب نهرية ترتفع على جنبات كل الوديان التي تنتهي بالبحار ذات الشواطىء القديمة . وهي تتفق مع هذه الأرصفة البحرية في التتابع الزمني وفي الارتفاع (فوق السهل الفضي . وقد اكتشفت هذه المصاطب على جنبات وديان شمالي افريقية بما فيها نهر النيل والأنهار الايبيرية والفرنسية وأنهار الأراضي المنخفضة وأنهار جنوب انجلترا ونهر الراين حتى بازل وأنهار بعيدة في وسط وشرقي أوربا (الدانوب والفستولا والدينيبر). إلى جانب الأرصفة البحرية تغيرت العلاقة بين اليابس والماء في جهات كثيرة من العالم نذكر على

سبيل المثال ما حدث في غربي أوربا. فقد أظهرت الدراسات أنه في أوائل الأدوار الجليدية كانت كتلة اسكنديناوة تظهر عالية وترتبط بها الأجزاء الضحلة القريبة التي كانت تظهر على شكل قنطرة تعرف باسم (Wyville Thomson Bridge) تمتد نحو الغرب لتربط اسكتلنده بجرينلنده [١] وكانت انجلترا تتصل بفرنسا فيصبح بحر الشمال أرضاً يابسة. وكان نهر التيمز رافداً لنهر الراين الذي كان يجري فوق سطح سهل بحر الشمال ليصب في المحيط المتجمد الشمالي غربي النرويج. كما كان البحر البلطي يكون بحيرة انكيلوس Ancylus وهي بحيرة جليدية مغلقة. أما في فترات الهبوط والانخفاض (وهي تتفق مع الفترات غير الجليدية) فقد كان الجليد يذوب وتطغى مياه المحيط على جزء كبير من فنلندة والسويد والدنمارك مكونة بحراً يعرف باسم بحر يولدا Yolida كذلك كانت تنفصل الجزر البريطانية عن القارة.

ويبدو أن الحركات التكتونية وإلى حد حركات التوازن مسئولة عن ظهور الخلجان والمضايق وظهور المعابر البرية واختفائها. ويقول الجيولوجيون أن صلة البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي انقطعت في نهاية عصر الميوسين على أثر حركة أرضية فتحول إلى مجموعة من البحيرات المالحة. وكان البحر يتصل بالمحيط قبل ذلك عن طريق مضيقين واحد يحتل مكانه الآن الوادي الكبير والثاني امتد شمال المملكة المغربية عن طريق فاس. ولم يبدأ عصر البليوسين حتى كان مستوى الماء في هذه البحيرات قد انخفض انخفاضاً شديداً بحيث لا يمكن الآن مشاهدة الارسابات البحيرية التي تنتمي إلى تلك الفترة. ولكن لم يلبث أن اتصل البحر بالمحيط وطغى الماء على جنوبي فرنسا وصعد في وادي الرون حتى موضع ليون وأغرق سهل لمباردي وسواحل شبه الجزيرة الايطالية وسواحل بحر إيجه وجزءاً من سوريا وأغرق دلتا النيل وواديه حتى قرب ثنية قنا وابعد من ذلك في رأي آخر. وبلغ طغيان البحر مداه فيما يسميه سويس Suess

---

(١) يرجح أن هذه القنطرة كانت موجودة قبل حدوث العصر الجليدي.

المرحلة البحرسطية الثالثة والتي انفصلت فيها أفريقية عن بقية العالم القديم . ولم تقف التغيرات في البليستوسين فقدظهرت جزر ومعابر كشفت عنهاحفريات حيوانية ونباتية ودراسة لخطوط الأعماق في البحر . من ذلك جزيرة كابري والجزر الأيونية ومن بعد جزيرة إلبا Elba بعد انفصالها عن الأرض القريبة . وفي الجانب الغربي من البحر انفصلت جزر البليار عن الأرض الاسبانية ربماقبل بداية هذا العصر . وإن كان يغلبعلى الظن أن معبراً ظل موجوداً خلال جزء من عصر البليستوسين وبقي يربط هذه الجزر بأرض اسبانيا . أما سردينيا وكورسيكا فكانتا كتلةواحدة في ذلك العصر انفصلت من شبه الجزيرةالإيطالية قبل حلول الزمن الرابع على الارجح نتيجة لحركة أرضية . ولم يظهر مضيق بونيفاكيو Bonifacio فيما بينهما إلا في وقت متأخر. أما قبرص فهي في واقع أمرها امتداد لجبال طوروس انفصلت على ما يبدو من شبه جزيرة المورة وجزر سيكلادز Cyclades قبل البليوسين ومن رودس في عصر البليوسين وإن كانت رودس ظلت كما تشير الدراسات الجيولوجية والاثرية ـ مرتبطة هي وجزر سيكلادز بالبر القريب وذلك بمعبر أرضي لفترة طويلة خلال البليستوسين . ولكن لم يحدث كما هو مرجح أن اتصلت كريت بقبرص خلال هذا العصر .

ويثور خلاف شديد حول ما إذا كانت الارض الاوربية اتصلت بالافريقية عبر القنال الصقلي في الزمن الرابع. والرأي الراجح أن الارضين لم يتصلا وان الذي حدث هو أن معبراً ربط مالطه بصقليه من ناحية وصقلية بجنوب شبه الجزيرة الإيطالية من ناحية أخرى . كذلك تختلف الآراء حول ظهور معبر ربط بين أوربا وأفريقية من ناحية جبل طارق. والرأي أن معبراً مثل ذلك لم يظهر خلال الجزء الاكبر من البليستوسين وان مضيق جبل طارق كان أقل عمقاً واتساعاً منه الآن. وربما استعان الانسان بالاطواف في عبور المضيق. ونذكر من المعابر البرية القديمة أيضاً معبري ملقا الذي ربط بين سومطره وجاوة وبورنيو ومعبر برنج الذي ربط بين أمريكا الشمالية وآسيا . هذه المعابر كانت بمثابة الجسور التي تحرك عليها الانسان ليعمر اليابس .

٣ – الظاهرات الفيزيوجرافية والارسابات التي خلفها الجليد والمطر .

ترك الجليد والمطر والجفاف ظاهرات فيزيوجرافية وإرسابات مختلفة نجملها فيما يلي : –

١ – بحيرات جليدية تشاهد اليوم في شمالي أوربا وأمريكا الشمالية البحيرات العظمى وفي جبال الالب تكونت إما نتيجة لسوء صرف الماء بعد ذوبان الجليد بسبب وجود الركامات الجليدية وهذه بحيرات مستديرة الشكل كبحيرتي أونيجا ولادوجا . وإما تكونت في منطقة منخفضة في واد جليدي وهذه مستطيلة الشكل وتنتشر في جبال الألب وفي فنلنده وتشتهر فنلندة بأنها بلد البحيرات .

٢ – ركامات جليدية تظهر على شكل خطوط تلالية في وديان جبال الالب والمناطق الشمالية من أوراسيا وأمريكا الشمالية. وهذه فضلاً عن أنها وقفت عقبة في سبيل تصريف الماء مما أدى إلى تكوين المنافع كما في شمال بولندة فقد أدت إلى انحناء مجاري الانهار في زوايا حادة ويظهر ذلك واضحاً في مجاري أنهار شمالي ألمانيا كالإلب والأودر .

٣ – وديان جليدية جرت فيها بعد انقضاء العصر الجليدي كثير من أنهار اسكنديناوة ووسط أوربا وأعالي الراين والرون والدانوب .

٤ – تربات ركامية تركها الجليد بعد تقهقره وهي غالباً ما تكون غير خصبة وتنتشر هذه التربة في شمالي ألمانيا وفي دول بحر البلطيق وشمالي روسيا وكندا .

٥ – تربة اللويس Loess ولعلها أهم الإرسابات التي تكونت في عصر البليستوسين في أوروبا وهي تتكون من ذرات ترابية متجانسة نقلتها الرياح الباردة من مناطق الركام الجليدي وأرسبتها في نطاق يمتد من غربي أوربا ماراً

بوسطها وشرقها ويعبر أوربا إلى وسط آسيا منتهياً في شمال الصين . ومن الثابت أن هذه التربة الناعمة لم تتكون إلا في ظروف مناخية شبيهة بمناخ الاستبس الحالي أو ربما أبرد منه قليلاً . ويرى رختهوفن Richthofen أن تكوينها توقف الآن في أوروبا بينما لا يزال جارياً في آسيا حيث تعتبر صحراء جوبي مصدر الذرات التي تحملها الرياح وان يكن بدرجة أقل مما كانت عليه الحال في الماضي . ومن دراسة هذه التربة في إقليم الألزاس تبين أن هناك نوعان من تكوينات اللويس – اللويس السفلى وهي الأقدم وتمتد تحت تكوينات جليد دور رس Riss وفيها وجدت آلات صناعة آشل . أما التكوينات الأحدث فتقع أسفل تكوينات جليد فورم وفيها وجدت آلات الصناعة الموستيرية والأورنياسية . كما وجدت بها حفريات اليربوع وغيره من الحيوانات القارضة التي تعيش الآن في مناطق الاستبس السيبيرية . ويبدو أن مناطق اللويس هذه كونت نطاقاً مكشوفاً من الأعشاب خال من الأشجار وان كان هناك من الجغرافيين التاريخيين من ينكر هذا الرأي ويرجع الانكشاف لأسباب لا تتصل بنوعية التربة .

٦ – تكوينات التراڤرتين حول الينابيع القديمة والطوفا واللاتريت وتشير كلها كما أوضحنا إلى زيادة المطر وارتفاع درجة الحرارة .

٧ – الرمال المتحركة والبرشيا وهذه تدل حيثما وجدت على انتشار الجفاف .

٨ – الوديان الجافة والأرصفة البحرية وتلقي الضوء على تغير ظروف المناخ بين الرطوبة والجفاف .

٩ – المصاطب النهرية وهذه فضلاً عن أنها تبين العلاقة بين مستوى البحر والنهر وارتفاع السهل الفيضي القديم فإن وجودها ونوع موادها قد يشير إلى ازدياد قدرة النهر في النقل والنحت كنتيجة لغزارة الأمطار .

٤ - الحياة النباتية والحيوانية :

ونستقي معلوماتنا عن هذا الموضوع من دراسة البقايا العظمية والنباتية ومن الرسوم المحفورة في الصخر في جهات جافة مهجورة وعلى جنبات وديان الأنهار .

ولقد انعكست الأحوال المناخية المتغيرة في البليستوسين على الحياة النباتية، والحيوانية . فأثناء الأدوار الجليدية في العروض المعتدلة (عندما كان الجليد يمتد لعروض أدنى كثيراً منها الآن) كانت نطاقات الغابات الصنوبرية وكذلك النفضية تضيق بشكل واضح وتعيش على أطرافها الخنازير البرية والخيول الوحشية والفيلة الصوفية والرنة والدببة القطبية . وفي المناطق التي كثرت فيها الأمطار إلى الجنوب ظهرت الاحراج والمراعي وكثرت الحيوانات العاشبة والمفترسة من كل نوع .

وفي الفترات الدفيئة في العروض الشمالية والفترات الجافة في العروض المدارية وشبه المدارية كانت حدود الغابات المعتدلة والباردة تتسع جهة الشمال ومعها حيواناتها كما كانت حيوانات العروض المدارية وشبه المدارية تهاجر بدورها نحو الجنوب (في نصف الكرة الشمالي) بسبب الفقر الذي حل بالحياة النباتية جهة الشمال . ولنا أن نتصور ما كانت عليه الحياة النباتية في أوروبا إبان دور جليدي وشمالي افريقيه إبان دور مطير .

كانت الغطاءات الجليدية تغطي إقليم البحر البلطي وشمالي بريطانيا وجزيرة ايسلنده وغربي روسيا الاوروبية وشمالي ألمانيا . وإلى الجنوب من الغطاء الجليدي امتد نطاق التندرا ابدأ من أقصى الشمال الشرقي وانحرف غرباً ليشمل وسط القارة وجنوبي الجزر البريطانية . ويحتل هذا النطاق في الوقت الحالي غابات صنوبرية ونفضية . أما نطاق الغابات الصنوبرية والنفضية القديمة فتقدم جنوباً ليشمل حوض البحر المتوسط الشمالي مما يشير إلى ان القسم الاكبر من هذا

الحوض تعرض إبان الادوار الجليدية لمناخ يشابه مناخ غربي أوروبا الحالي في كثير من الوجوه . وفي شمالي افريقيه وأطراف الصحراء ساد مناخ يشبه مناخ البحر المتوسط الحالي فكثرت الاحراج وانتشرت الاعشاب ولهذا الحديث بقية .

الفصل الثاني

ظهور الإنسان

لعل من المفارقات التي تواجه من يبحث في أصل الإنسان ونشأته أن هـذا المخلوق الذي قارب أن ينتصر على كثير من قوى الطبيعة والذي يحاول أن يغزو الفضاء هو نفسه حيوان. حيوان ينتمي إلى المملكة الحيوانية في تركيبه العضوي بل هو جزء من الحيـــاة على سطح الأرض يعيش كغيره من بقية المخلوقات في تلاؤم مع الطبيعة . ولكن الله كرم الإنسان حين منحه العقل وسواه في أحسن صوره. وربما كان انتصاب قامته واتساع مجال رؤيته هو الذي نمى عقله وحرر يديه وساعده على النطق . وبالعقل والكلام والمهارة اليدوية ورغبته الغريزية في مغالبة الطبيعة خلق حضارة وساد في الأرض .

ويؤكد العلم الحديث أن تركيب جسم الإنسان يشبه شبهاً كبيراً تركيب جسم القرد العلوي مما يشير إلى قرابة ما لا تعني بالضرورة أن الانسان ينحدر مباشرة من القردة العليا High Apes . ولعل أقدم الحفريات التي تحكي بداية قصة الانسان كما نعرفها الآن هي تلك التي كشفت في الفترة بين ١٩٢٤ ـ ١٩٦٠ في النصف الجنوبي من القارة الافريقية وخاصة في أرض الاتحاد وتنزانيا ممـــا

يوحي بأن هـذه الأراضي كانت أم مراكز التطور البشري في عصر البليستوسين [1] .

والحفريات تنتمي إلى تحت فصيلة إنسان استراليا وضعـه بعض العلماء في الفصيلة القردية العليا وأسموه القرد الجنوبي Australopithecine . وفضل البعض الآخر أن يضمه إلى الفصيلة البشرية وأطلقوا عليه شبيه البشر . وكانت حجتهم في ذلك أن فكه السفلي وأنيابه أقرب في صفاتها إلى البشرية كما أن الفجوة التي تستقر فيهـا الأنياب صغيرة جداً إذا قورنت بمثيلتها عند القردة العليا . وفوق ذلك فمظام حوضه أبعـد عن القردية . وأغلب الظن أنه عرف النار واستخدم الأدوات الحجرية وعاش في مناطق واسعة جداً. ويبدو أن هذا الانسان القردكان يسير منتصب القامة أو شبه منتصب مما يجعله يحق طليعـة الأناسي اللاحقين من أصحـاب القامات المنتصبة The Pithecanthropians . وربما لا نكون مخطئين إذا قلنا إن ظهور الإنسان منتصباً معتمداً على رجليه في الحركة والسير جاء نتيجة للتطور في أرض مكشوفة متباعدة الأشجار. أمـا القردة العليا رهينة الغابة فما زالت غير قادرة على السير المريح على أرجلهـا لمسافة طويلة . بيد أن أضعف جزء في قصة هذه الحفريات أن عمرها لم يحدد بعد بيقين . والرأي الأرجح أنهـا ترجع إلى بداية عصر البليستوسين (أي منذ نحو مليون سنة) وإن كان ليكي Leaky يزعم أن حفريات تنزانيا (١٩٥٩ ــ ١٩٦٠) أقدم من ذلك بكثير إذ يقدر عمرها بنحو ١٫٧٥٠٫٠٠٠ سنة .

الانسان المنتصب القامة :

وإذا كانت حقيقة هذه البقايا البشرية الأفريقيه ما زالت موضع شك فإن أمر البقايا البشرية التي عثر عليها في شرقي آسيا (في جاوة وشمالي الصين) أضحى أقرب إلى اليقين . هي بقايا لمخلوقات تشاركنا في الجنس ولكن غير عاقـلة .

---

(١) Clark, G. Prehistory of the World, Cambridge 1962, P. 17

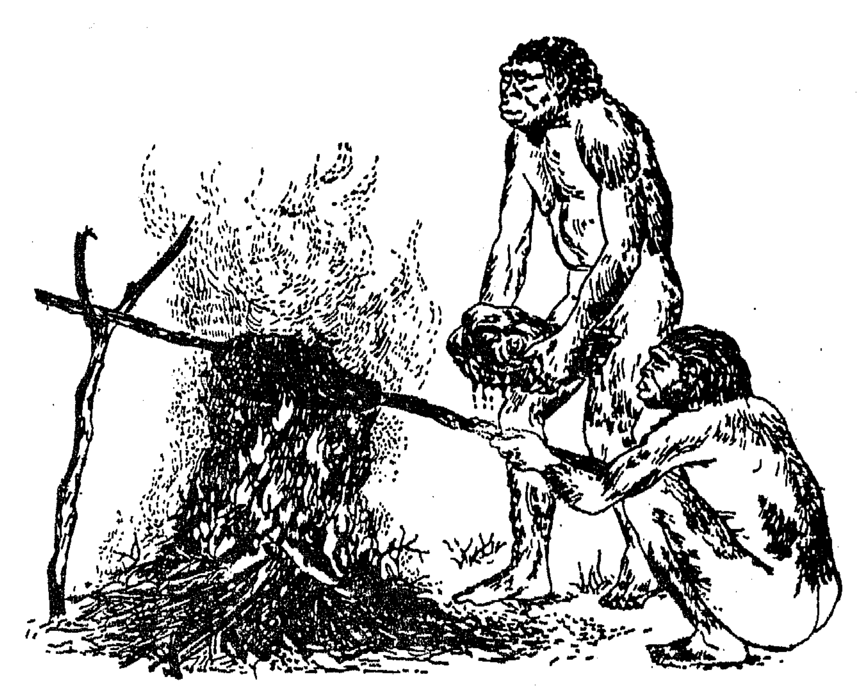
يمكن أن نصف الواحد منها بأنه إنسان منتصب القامة Pithecanthropus Erectus . ومن أشهر هؤلاء الإنس إنسان جاوة P. Javanensis وإنسان الصين P. Pekinensis أو P. Sinanthropus . ولقد ظهر الأول منذ أكثر من نصف مليون سنة أي زامن دور مندل في أوربا وتبعه إنسان الصين بعد ذلك . وتمثل بقايا انسان الصين رغم تفتتها مادة غنية فهي بقايا ٤٠ فرداً في حين ان عظام رجل جاوة اقل كثيراً وان كانت كافية لإلقاء الضوء على أمور هامة .

إنسان جاوة والصين :

مشى انسان جاوة (ومن بعد ذلك انسان الصين) منتصب القامة فقد كانت عظم فخذه شبيه بنظيره في الإنسان الحالي كما كان حجم مخه أكبر من حجم مخ الانسان الاسترالي فقد كان يتراوح بين ٧١٠-١٠٠٠ سم٣. ولكن شكل الجمجمة اختلف عن جمجمة الإنسان الحالي فأعلاها طويل مستو ويصنع عظم الجبهة حافة متصلة فوق العينين تشبه ما عند الشمبانزي والجيبون . أما الفك السفلي فلا ذقن له وأما الأسنان فما زالت تجمع بين الصفات البشرية والقردية . وبالرغم من أنه لم تكتشف أدوات مع ما كشف من بقايا انسان جاوة الا ان ذلك لا يقوم دليلاً على انه لم يعرف صنع أية أداة . ولم تختلف صفات انسان الصين جسدياً عن انسان جاوة . وان كان حجم مخه اكبر فقد قدر بما يتراوح بين ٩٠٠ إلى ١٢٠٠ سم٣ . وهو بالقطع قد صنع بعض الأدوات الحجرية على هيئة شظايا غير مهذبة وما يشبه الفؤوس اليدوية وهي الأخرى تكشف عن صنعة غاية في التخلف . ومع ذلك فثمة بقايا فحمية في الكهوف التي سكنها هذا الانسان تدل على أنه عرف استخدام النار شكل (٣) . وربما استطاع هو وإنسان جاوة الكلام(١) .

---

(١) Childe, V.G. Man makes himself, London 1951.p 26



شكل (٣) إنسان الصين

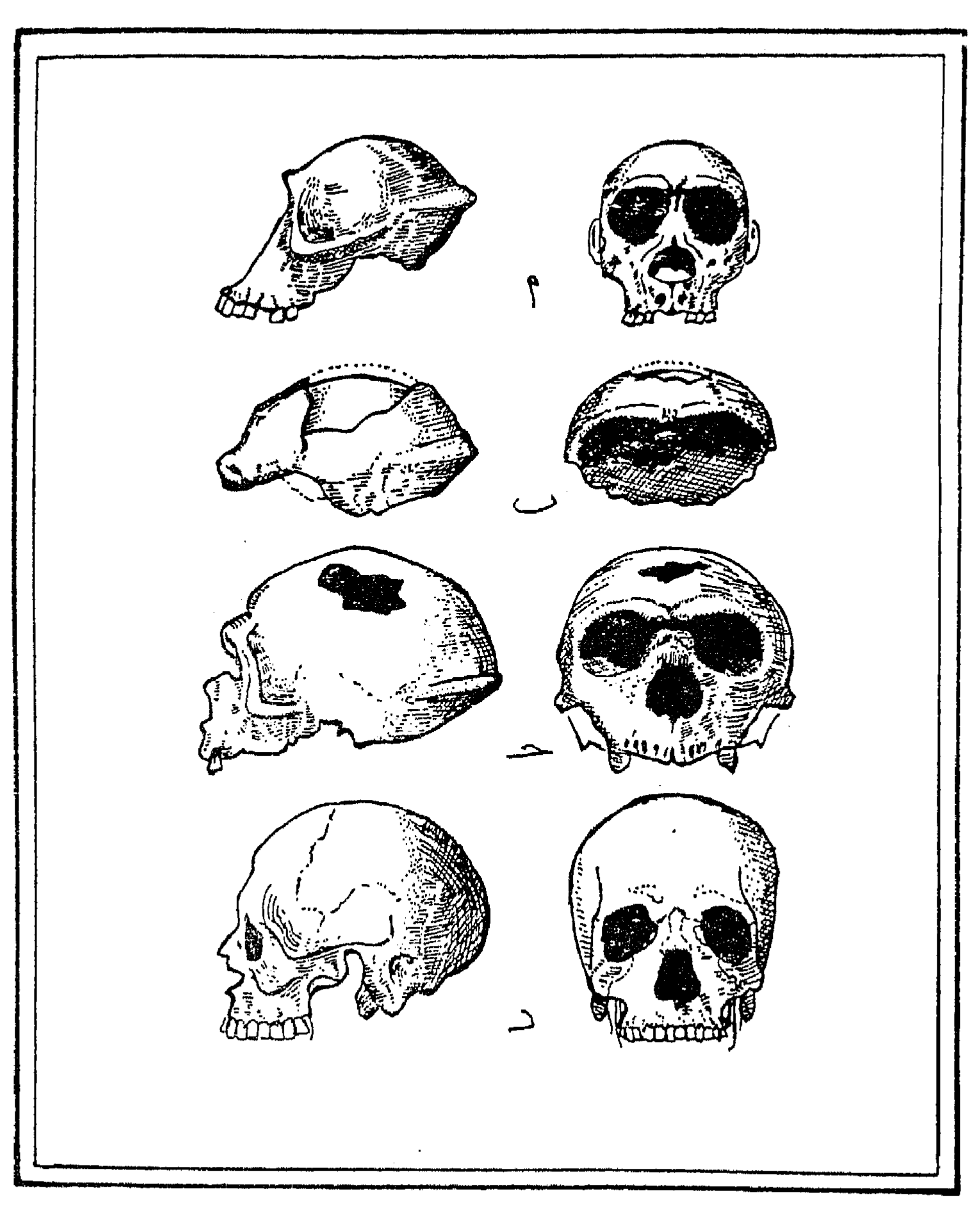
ولكن إلى أي مدى كان انتشار الانسان المعتدل القامة في العالم؟ لقد اكتشفت خارج شرقي آسيا فكوك وعظام تشبه عظام رجل جاوة. ففي الجزائر اكتشفت في مقابر ترنيفين Ternfine بقايا انسان عاش في منتصف البليستوسين وعرف علمياً باسم Atlanthropus Mauritanicus . وفي مور Mauer قرب هيدلبرج وجدت فك عمرها ٥٣٠ ألف سنة هي لإنسان منتصب القامة P. Heidelbergensis . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن هذا النوع من البشر غير العقلاء عرفته أوربا كما عرفته آسيا وأفريقية. ولا شك أن كلاً من إنسان أفريقية P. Africanus وإنسان هيدلبرج يمثل خطوة في سبيل التطور البيولوجي إذا ما قورنا بأسلافهم من أشباه البشر. فالقامة أكثر اعتدالاً وانتصاباً وحجم المخ أكبر بدرجة تسمح بأن نضعها في المرتبة الوسطى بين الإنسان

الاسترالي والانسان العاقل. ولكن على الرغم من هذا التطور الذي يمثل مرحلة نحو الانسانية الحقة الا أن الانسان المنتصب القامة اختلف عن لاحقيه في صفات معينة .

إنسان نياندر :

من صلب هذا الانسان المنتصب القامة خرجت على ما يبدو طلائع الانسان العاقل. لكننا لا نعرف شيئاً كثيراً عنها . ففي أثناء دور فورم الذي بدأ منذ نحو ٧٠ ألف سنة كانت تسكن أوربا سلالة غريبة هي السلالة النياندريه H. Neandertalensis شكل (٤) وكان الاعتقاد لسنين كثيرة أن هذه السلالة نوع وسط بين الانسان الحديث العاقل وأسلافه من أشباه القردة العليا . ولكنه ثبت الآن أنه قبل أن تسكن هذه السلالة أجزاء واسعة من العالم القديم ظهرت سلالة من الأناسي أشبه بناص النيندريين خاصة فيما يتصل بحجم المخ (١١٠٠ – ١٤٥٠ سم^{3}) وعظام الوجه وشكل الفك . وجدت بقاياها في شتاينهايم Steinheim في جنوبي ألمانيا وفي سوانسكومب قرب لندن وفونتشفاد Fontéchvade في وسط فرنسا . وسميت هذه الأناسي بأسماء الأماكن التي وجدت فيها عظامها. كذلك وجدت بقايا مماثلة خارج أوربا قرب باندونج في جاوة وفي زامبيا وفي اتحاد جنوب افريقية . ثم لأمر لا نعرفه انتشر النياندريون في الأرض وزامنهم على ما يبدو جماعات من طلائع الانسان العاقل ثم اختفى النياندريون فجأة ليخلفهم في الأرض ذلك الانسان الحديث الذي ننتمي إليه .

ذكرنا أن الانسان النياندري عاش إبان دور فورم الجليدي الذي امتد جليده ليغطي شمالي أوراسيا وأمريكا الشمالية وجبالها العالية في العروض الوسطى . وامتدت منطقة شبيهة بالتندرا على طول حواف الجليد . وربما كان استجابة وتكيفاً مع هذه الظروف المناخية القاسية ظهور مثل هذا الانسان غير العاقل الذي اكتشفت بقاياه لأول مرة سنة ١٨٥٦ في وادي نياندر ،



شكل (٤) أ ـ جمجمة شمبانزي . ب ـ جمجمة رجل الصين . ج ـ جمجمة رجل نياندر
د ـ جمجمة رجل حديث

القريب من بون . ثم تتابعت الكشوف فوجدت بقايا كثيرة له في فرنسا وبلجيكا واسبانيا وايطاليا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا وفلسطين والقرم وإيران والتركستان وأوزبكستان .

أما صورة هذا الانسان الأوربي فلم تكن سوية . فقد كان انساناً ربعة له رأس كبير شكل (٤) ومخ كبير أيضاً (١٤٥٠ سم٣ في المتوسط) ومنطقة وجه جيدة النمو بالنسبة للمخ وجبهة متراجعة وعظم حاجبيه بارز تشرف على العينين وفك بارزة بلا ذقن وأسنان كبيرة ومحجرين لعينيه كبيرين ويقف ورأسه مائل إلى الامام على الجذع . مشيته غير مريحة فهو إذا مشى ينحنى إلى الأمام ويترنح يميناً ويساراً . وقد عاش في الكهوف والمغارات في الجهات الباردة وربما عاش في العراء في الجهات المعتدلة والدافئة . وعرف استعمال النار وصنع أدوات من الشظايا تنسب إلى الحضارة الموستيرية واللفلواظية . وكان فوق ذلك صياداً وآكلا للحوم وصانعاً لجلود الحيوانات وممارساً لعبادة « الجماجم » وطقوس دينية على نحو ما .

وهنا نقف لنقول إنه ربما كان طول فترة حضانة الطفل البشري من أهم العوامل التي أسهمت في نمو الحياة الروحية والقيم الاخلاقية والتقاليد الاجتماعية خاصة عندما ظهر الانسان العاقل . ويحتدم بين علماء الانسان نقاش حول أصل الانسان النياندري الاسيوي الذي تميز ببعض صفات تقربه من الانسان العاقل فرأى يقول بأنه وليد اختلاط بين عناصر نياندرية وطلائع الانسان العاقل. وثان يرجح أنه يمثل مرحلة في التطور البيولوجي للإنسان وأنه يقف في ذلك بين كل من إنسان سوانسكومب وشتاينهايم من ناحية والانسان الحديث من ناحية أخرى. والرأي الاخير أقرب الى الصواب ويعززه أن نشأة الانسان العاقل في آسيا تكاد تكون مؤكدة وبالتحديد في مكان ما في جنوب غربي آسيا .

ومهما يكن الامر فان صيادي العصر الحجري القديم الأعلى الذين ورثوا الارض بعد النياندريين (منذ نحو ٣٠ أو ٣٥ ألف) سنة كانوا أساساً من سلالة

الانسان العاقل الحديث [1] . قدم هؤلاء الناس غزاة من آسيا وجلبوا معهم حضارة لها أدواتها المميزة (ما قبل الموستيرية) أناس لهم قامة معتدلة يدل على ذلك رقة عظام الأطراف وطولها. جباههم غير متقهقرة ومستديرة كما أن عظام الحواجب معتدلة البروز ولكنها ليست ممتدة في خط واحد فوق العينين. وللفك ذقن واضحة وبها أسنان صغيرة .

الانسان العاقل :

تجمع جمهرة علماء الأجناس على أن الأجناس البشرية الحالية تنحدر بغير استثناء من نوع واحد يمثل وحدة تطورية ذلك هو الانسان العاقل Homo Sapiens ولكن متى وأين انقسمت البشرية إلى أجناس ؟ أسئلة تصعب الاجابة عليها ذلك لأن ما استطعنا العثور عليه من بقايا بشرية لا يزال ضئيلا كما أن كثيراً من الصفات الهامة التي على أساسها تميز الأجناس مثل اللون وطبيعة الشعر لا يمكن مجال الكشف عنها من دراسة الهياكل العظمية. وسوف تكون أية اجابة اجتهاد شخصي حتى تكتمل الأدلة. ولقد بذلت محاولات لتحديد أنواع السلالات التي كانت موجودة في العصر الحجري القديم الأعلى من واقع البقايا التي عثر عليها فقيل أن انسان جريمالدي Grimaldi من سلالة زنجية أو طليعة لسلالة البحر المتوسط وإنسان تشانسلاد Chancelade يمثل سلالة اسكيمية إلا أن كل هذه المحاولات لم تصل إلى نتيجة مرضية وليس في مقدور أحد أن يحدد تاريخاً معيناً لبداية ظهور السلالات البشرية .

الأجناس البشرية :

أما اين انقسمت البشرية إلى اجناس أو بعبارة اخري اين الوطن الثاني للإنسان فنحن نميل إلى الأخذ بالرأي القائل ان جنوب غربي آسيا وشمالي افريقية

---

(١) Clark , C . op . cit ., p . 23

او ما يعرف بالشرق الأوسط هو الوطن الثاني . فهذه البقعة فوق انها منطقة التقاء كانت مركز انطلاق للبشرية بسبب ما تعرضت له من تغيرات مناخية في عصر البليستوسين وما بعده ووجدت فيها كل بقايا الانسان وآثاره منذ البليستوسين الأوسط وفيها الدفء مطلب الانسان في ايامه الأولى . ومن يتمعن في خريطة توزيع السلالات في الوقت الحاضر سيلحظ ان السلالات الكبرى في العالم القديم تكاد تلتقي في هذة البقعة الوسطى ثم إنه ليس صدفة ان تكون هذه البقعة موطن الحضارات القديمة ومهبط الديانات السماوية .

تنوع السلالات :

وتشير كل الهياكل العظمية بأن التنوع في السلالات البشرية قد ظهر منذ أقدم العصور . شجع على ذلك طبيعة الحياة التي عاشها الإنسان . فقد كانت الجماعات البشرية القديمة صغيرة منعزلة وربما لم تزد أكبرها عدداً على خمسين فرداً ومعنى ذلك أن تظل الجماعة التي تتزاوج فيما بينها في حدود هذا العدد المتواضع مما يؤدي في النهاية إلى نقص في الخصوبة وانخفاض في نسبة المواليد بل وارتفاع في نسبة الوفيات بين الاطفال وقصر في أمد الحياة لمن قدر له منهم بأن يعيش ليبلغ مبلغ الرجال . لقد أخذ التنوع والاختلاف بين الجماعات البشرية يتأكد تدريجياً وأخذت فرص انتقالها بالوراثة من الوالدين تزداد . هذه الصفات ولا شك صفات تناسب ظروف البيئة وانتقالها بالوراثة يزيدها توكيداً ويذكرنا في نفس الوقت بقيمة الانتخاب الطبيعي الذي يعمل ولو ببطء شديد على ظهور الاختلافات بين سكان البيئات الجغرافية المختلفة . بمعنى آخر هذا التنوع الجنسي يرجع إلى تغيرات التكيف وتحولات الوراثة البطيئة والفجائية ، تمت من أجل بقاء النوع ووجه اغلبها وليس بالتأكيد كلها الانتخاب الطبيعي. فظهرت صفات تؤثرها البيئة في الشكل الظاهري . من تلك الصفات التي ميزت مجموعات كبيرة من البشر بعضهم عن بعض اللون فهو صفة وراثية لاءمت ظروف البيئة . ففي العالم القديم

نجد اللون الأبيض ومعه الشعر الأشقر والعيون الزرقاء تنتشر في جهات باردة كثيرة الغيوم. ويسود اللون الأسمر في جهات وافرة الأشعة كأقليم البحر المتوسط واللون الأسود الفاحم في الجهات الحارة المكشوفة وخاصة . السفانا أما الألوان المائلة إلى الصفرة وما يصاحبها من شعور مجمدة فتعرفها الغابات المدارية المطيرة في افريقية وآسيا . كذلك ثمة ما يشير إلى وجود علاقة بين شكل الأنف ونوع المناخ. فالأنف الضيق يسود في الجهات الباردة والأنف الواسع في الجهات الحارة. بيد أن ذلك لا يعني كما أشرنا أن كل الاختلافات الجسدية بين الاجناس اختلافات بيئية فقدر منها لا بد أن يكون وراثياً .

وهكذا فأنه منذ بداية ظهور الإنسان العاقل في أواخر البليستوسين وسلالاته تزداد تنوعاً وتبايناً. ومن أقدم البقايا التي ترجع إلى أواخر البليستوسين البقايا العظمية التي تكشف عن أناس يختلفون فيما بينهم في شكل الرأس وحجم الجمجمة وعظام الوجه وطول القامة وبروز الحافة العظمية التي تشرف على العينين وشكل الأنف والذقن والفك والأسنان ، نذكر على سبيل المثال أناسي كرومانيون Cromagnon وكومب كابل Comb Capelle وتشانسيليد Chancelade وكلها في فرنسا وجريمالدي Grimaldi (ايطاليا) وأوفنت Ofnet (بافاريا) وشيدار Cheddar (بريطانيا) وأولدووای Oldoway في تنزانيا وواجاك Wadjak في جاوه. وهناك من يرى أنه لا زالت توجد في بريطانيا في الوقت الحاضر سلالة تشبه إنسان كومب كابل وتتميز بضيق الرأس وطوله وضخامة عظام الحاجبين . وتوجد في فرنسا سلالة تشبه طراز كرومانيون Cromagnon . ويعني ذلك أنه ربما ترجع بعض صفات الإنسان الحديث إلى العصر الحجري القديم الأعلى على الأقل في بعض جهات الارض .

السلالات الحالية :

واليوم وعلى الرغم من ازدياد اختلاط السلالات البشرية فستظل توجد وربما

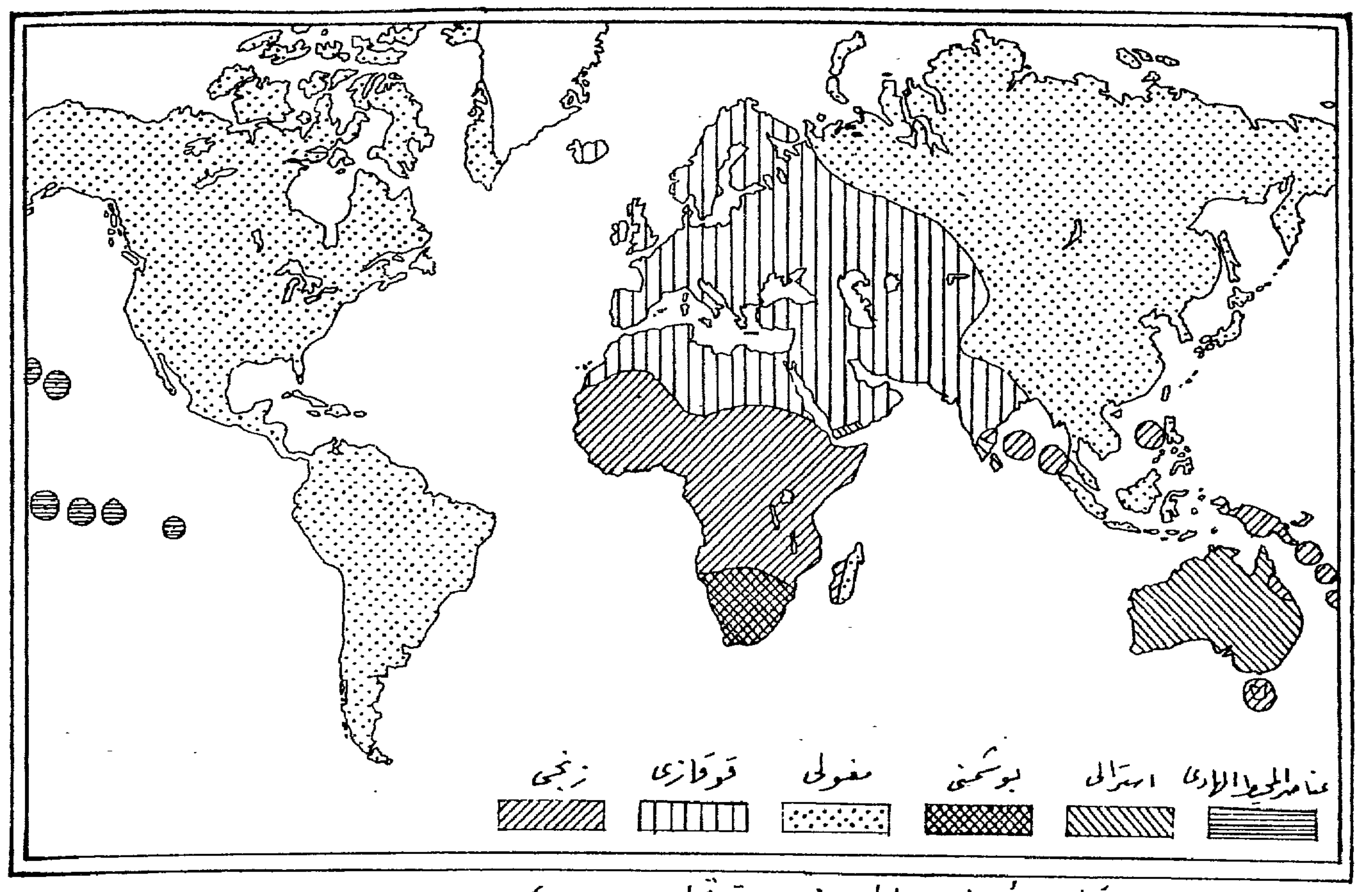
لفترة طويلة بمجموعات ضخمة من البشر (سلالات) لها صفات جسمانية خاصة وسائدة وتعيش في أقاليم معينة. وقد كانت كذلك منذ قرون (شكل ٥)وتوجد اليوم السلالة الزنجية ذات البشرة السوداء والشعر المفلفل والشفاه الغليظة والأنف الأفطس والفك البارز وهي تسكن افريقية وجزر المحيط الهادي ولكن مواطنها غير طيبة ولا جذابة لذلك فاختلاطها ببقية السلالات الرئيسية كان على الأرجح بطيئاً جداً طوال التاريخ . ثم هناك السلالة المغولية ذات البشرة المائلة إلى الاصفرار والشعر المستقيم والوجنات البارزة. وطنها الأصلي في شرقي آسيا ولكن دماءها تسربت نحو الغرب عبر سيبيريا ونحو الجنوب الغربي والجنوب داخل قلب القارة ومن ثم إلى الملايو وهناك امتزجت بدماء غريبة . ومن الوطن الأصلي خرجت جماعات مهاجرة من المغول ربما ادكن لوناً متجهة براً نحو مضيق برنج أو بحراً عبر المحيط الهادي إلى امريكا في العصر الحجري القديم. وانتشرت بمرور القرون في العالم الجديد وظلت لها السيادة في عالمها هذا حتى وصل الأوربيون. وفي نطاق عريض من الارض يمتد من اوربا وشمالي افريقيـة نحو الجنوب الشرقي عبر الشرق الأوسط والهند منتهياً في استراليا القوقازية بشعرها المموج أو الجعد وعيونها ذات الألوان الزرقاء والعسلية والسوداء وبشرتها بظلالها من اللونين الأبيض والأسمر؛ الأبيض في الأقاليم المعتدلة والأسمر في الأقاليم المدارية ودون المدارية .

تطور أعداد البشر :

وقد قدر ديفي E Deevey التطور العددي لسكان العالم وكثافتهم فيما قبل التاريخ وخلال الفترات التاريخية حتى سنة ١٩٥٠ على النحو التالي [1].

سنة مضت	عدد السكان	الكثافة في الكم٢
١٠٠٠,٠٠٠	١٢٥,٠٠٠	٠,٠٠٤٢٥

(1) Deevey , E . 1960 The Human Population , Sc . Amer . 203 pp. 195 - 204



أهم الأجناس البشرية قبل (١٤٩٢م)

٣٠٠,٠٠٠	١٠٠٠,٠٠٠	٠,٠١٢
٢٥,٠٠٠	٣,٣٤٠,٠٠٠	٠,٠٤
١٠,٠٠٠	٥,٣٢٠,٠٠٠	٠,٠٤
٦,٠٠٠	٨,٦٥٠,٠٠٠	١,٠
٢,٠٠٠	١٣,٠٠٠,٠٠٠	١,٠
٣١٠	٥٤٠,٥٠٠,٠٠٠	٣,٧
٢١٠	٧٢٠,٨٠٠,٠٠٠	٤,٩
١٦٠	٩٠٠,٦٠٠,٠٠٠	٦,٢
٦٠	١,٦١٠,٠٠٠,٠٠٠	١١,٠
٢٢	٢,٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠	١٦,٤

من هذا الجدول يتضح أن الإنسان القديم كان حيواناً نادراً منذ مليون سنة فلم يزد عدده في العالم على عدد سكان مدينة متواضعة في وقتنا الحاضر. اما كثافته فلم تزد على ٤,٢٥ فرد لكل ألف كم٢ . ومنذ عشرة آلاف سنة أي في العصر الحجري المتوسط Mesolithic .كان الإنسان في أغلب الظن قد انتشر إلى كل القارات وزاد إلى خمسة ملايين بمتوسط كثافة بلغت ٤ أشخاص لكل مائة كم٢ ومن الملاحظ أن ديفي بالغ في التقليل من عدد سكان العالم فيما بين ٦٠٠٠ و ٢٠٠٠ سنة مضت وليس أدل على ذلك من أن مصر الفرعونية وحدها كان يسكنها في رأي أغلب المؤرخين أكثر من ١٢ مليون نسمة . ومنذ ١٦٥٠ أخذ السكان في الزيادة السريعة كما هو واضح في الجدول . وربما كان السبب الرئيسي في ذلك هو تطور حضارة الإنسان بخطوات واسعة. وكما زادت أعداد البشر على مر الزمن فكذلك طال أمد حياتهم في المتوسط بصفة عامة كما يوضحه الجدول التالي وفق تقديرات ديفي سنة ١٩٦٠ :

	سنة
انسان نياندر	٢٩٫٤
« العصر الحجري القديم الأعلى	٣٢٫٤
« « « المتوسط	٣٥٫٥
« « « الحديث	٣٨٫٢
« اليونان الكلاسيكي	٣٥
« روما الكلاسيكي	٣٢
« انجلترا سنة ١٢٧٦	٤٨
« « في الفترة بين ١٣٧٦ — ١٤٠٠	٣٨
« الولايات المتحدة بين ١٩٠٠ — ١٩٠٢	٦١٫٥
« « « عام ١٩٥٠	٧٠

بين التطور العضوي والتطور الحضاري :

هناك من يحسب أن عصر ما قبل التاريخ ما هو إلا امتداد للتاريخ الطبيعي. وأن هناك تشابهاً بين التطور العضوي والتقدم الحضاري . ولكن القياس مع الفارق فتكيف الحيوان عضوي وتكيف الانسان على المدى القصير حضاري فبينما يحمي جسم الحيوان من البرد الشديد فروة سميكة يلبس الإنسان الملابس الثقيلة وقس على ذلك بقية صور التكيف من أجل البقاء . وهكذا فالملابس والآلات والأدوات والتقاليد حلت خلال التاريخ البشري محل الفراء والمخالب والأنياب والغرائز التي تدفع الحيوان للبحث عن الغذاء والدفاع والحماية . يجب إذن أن نميز بين تصرفات الانسان الحضارية وتحورات في جسم الحيوان بل بين التراث الاجتماعي والإرث البيولوجي. فالوسائل التي يستخدمها الانسان للحصول

على غذائه أو الدفاع عن نفسه وماله يمكن أن يلقيها جانباً أو يتركها.أما الحيوان فلن يستطيع إلى ذلك سبيلا. ذلك لأن امكانيات الحيوان داخلية أو عضوية حتى إذا ما تغيرت البيئة التي ولد وعاش فيها فإنه إما أن يهجر المكان أو يموت حيث هو . أما الانسان فبوحي من عقله وتراثه سرعان ما يتكيف ويتلاءم مع الظروف الجديدة بالرغم من ضعف قدراته الجسدية إذا ما قورنت بقدرات الحيوان على التكيف في بيئة بعينها . فلم يكن له يوماً فروة تحمي جسده من قسوة البرد ثم هو ليس سريـــع العدو كالنعامة أو الأرنب البري وليس له درع واق كالسلحفاة ولا يستطيع تغيير لونه كما تفعل الحرباء .

ومنذ أن أصبح الإنسان عاقلا ووسائله الحضارية التي يبتكرها للتغلب على ظروف البيئة تزداد وتتنوع على الرغم من عدم ظهور أي تطور بيولوجي منذ ذلك التاريخ . ولا نخطىء إذا قلنا أنه قبل أن يبلغ الانسان المرحلة العاقلة كان تاريخه الحضاري هو انعكاس لتاريخه الطبيعي كلما ارتقت أدواته وآلاتـــه وفنونه . حتى إذا ما ظهر الانسان العاقـــل في أواخر البليستوسين (الحجري القديم الأعلى) ثمرة الحياة على الارض توقفت تلك العلاقة التي رأيناها بين أعمال اشباه البشر من ناحية وتطورهم البيولوجي من ناحية أخرى . فبقي شكـــل الانسان وبقي حجم مخه علي ما كان عليه أول مرة . أما الذي تطور فحضارته ومبتكراته التقنيـــة التي ساعدته على أن يعيش في كل البيئات . فاصطاد الحيوانات دهراً بحثاً عن الغذاء ثم تقدم خطوة فعرف تربية الحيوان والنبات فزادت اعداده وتطورت أدواته وقوي ساعده في مغالبة الطبيعة .

ظهر الانسان العاقل إذن وبه كل المكونات والخصائص البيولوجية التي تؤهله أن يكون في يوم من الأيام سيد المخلوقات على الأرض وهو الآن سيدها بل سيد الأرض. يحاول بالعلم أن يفرض ارادته على الطبيعة ،ولا يخفى أن قدرات الانسان العقلية (وخاصة قدراته على التذكر والتفكير في غير المحسوسات) ونطقـــه

بكلمات تنقل شفاهة (ومن بعد كتابة) هي التي ميزته عمن سبقوه من اشباه البشر وعن القردة العليا أقرب الحيوانات إليه في مجرى الحياة.وإذا كان الطفل البشري هو اقل اطفال المملكة الحيوانية قدرة على مغالبة ظروف الحياة ومن ثم أكثرها اعتماداً على والديه لفترة طويلة فان نمو عقله في شبابه عوض ضعف الجسد. وكان اعتماده على والديه حكمة الاهية فلولاه لما قامت الأسرة . وعن طريق الأسرة توارث الأحفاد عن الآباء والأجداد اللغة والعادات والتقاليد الاجتماعية. ولما كان من دأب الانسان ان يسعى إلى الأفضل محاولاً في سبيل ذلك التغلب على كل صعب فإن تراث الانسانية أخذ ينمو ويثرى على مر الزمن.إن الانسان هو المخلوق الوحيد الذي استطاع ان يرث ويورث الحضارة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان . وقد يقال إن هناك بين الحشرات ما هو أكثر تنظيما وتدبيرا من بعض الجماعات البشرية . ولكن شتان بين تدبير الانسان وتدبير الحشرات من النمل أو النحل . فتدبير الإنسان ينبع من عقله الخلاق المتفتح أما تدبير النمل والنحل فمن وحي الغريزة .

الفصل الثالث

آثار الإنسان القديم وتقنيته

أين توجد ؟

تدرس جغرافية ما قبل التاريخ العلاقة المتبادلة بين الإنسان وبيئته مستعينة بوثائق وأدلة علم الآثار من أدوات وأسلحة وبقايا سكن وطعام . وربما يكون من المفيد أن نعرف أين يبحث علماء ما قبل التاريخ عن آثار الإنسان . توجد آثار الانسان على سطح الأرض في العراء أو مطمورة في إرسابات المدرجات النهرية والبحرية وفي تربات اللويس أو مغمورة تحت مياه البرك والمستنقعات ومختبئة في أعماق الكهوف والمغارات .

قد يعثر المتخصص في دراسات ما قبل التاريخ على آثار لفترة معينة أو لفترات من التاريخ. وكان الرأي أن ما يوجد فوق السطح لا يمكن أن يفيدنا في البحث عن الحقيقة والأفضل من ذلك هو محاولة البحث عن آثار فيما تحت السطح. ولكن نظراً لقلة ما نعثر عليه تحت السطح مقارناً بما نجده فوقه فان الآثار الفوقية تنفع في الاستدلال إذا ما طبقنا عليها طرق الاثبات العلمي وهي طرق تحتاج منا إلى صبر وأناة ودقة متناهية . ومهما يكن من شيء فإن قلة ما تحت أيدينا من آثار الإنسان القديم تدفعنا إلى الاهتمام بدراسة أي شيء يوجد فوق السطح أو تحته . وقد وجدت في جهات صارت الآن صحراوات آلات وأدوات للإنسان

مبعثرة على السطح مكشوفة أو مغطاة بطبقة غير سميكة من الرمال السافية تركها الإنسان على ما يبدو عندما اشتد الجفاف . وفي أوربا التي تتأثر بالجليد لا نجد على السطح أو قريباً منه إلا آثار العصر الحجري الحديثة أما الآثار الأقدم فتوجد مختفية تحت ارسابات قديمة .

ولكن نشاهد في بعض جهات أوربا خاصة في غربها اكواماً من البقايا الأثرية تختلط فيها آلات الإنسان الأول مع بقايا طعامه وحيواناته التي كان يصطادها وتنتمي إلى عصر سابق هو الحجري المتوسط . هذه البقايا المتراكمة على سطح الأرض ترتفع إلى ثلاثة أمتار وتمتد من بضع أمتار إلى عدة مئات من الأمتار . وتتميز بما يوجد فيها من أصداف إلى جانب الآلات التي صنعها الانسان . ولذا سميت هذه الأكوام بأكوام الأصداف Shell Mounds خلفها اصحاب حضارة « مخلفات المطابخ » . ومن الآثار التي نجدها في العراء ما وجد فيما يمكن أن نسميه المصانع من بقايا أسلحة وأدوات مختلفة من الحجر واحياناً من قرون الحيوانات تركت عمداً . وقد وجدت في بعض الجهات مصانع شغلت نحو ١٢كم[٢] ينتشر على سطحها بقايا الصوان الذي كان مادة الصناعة الأساسية . بل ظهر بينها تخصص فمنها ما كانت مهمته تقتصر على صقل الأدوات الحجرية وآخر اقتصر نشاطه على صناعة نوع من الأسلحة كالمقاشط أو المدي أو المخارز .

وتوجد آثار الانسان تحت سطح الأرض مغطاة بطبقة أو طبقات من الطين حيلة من حيل الطبيعة لمنع خلط آثار الفترات التي عاش فيها الانسان على الأرض . وغالباً ما توجد آثار كل فترة زمنية في طبقة تفصلها عما قبلها وبعدها طبقة أو طبقات . فاذا ما وجد في كل طبقة أو مستوى صناعة ما فاننا نستطيع في ضوء ما يصاحبها من مواد عضوية نباتية وحيوانية أن نحدد تتابع هذه الصناعات خلال الزمن ومن ثم نستطيع أن نتتبع تطور حضارات الانسان القديم . وربما هناك بعض الصدق في تشبيه ارسابات ومخلفات ما قبل التاريخ بكتاب الماضي أوراقه هي الطبقات الترابية والطينية المختلفة . ولكن يميز هذا الكتاب عن كل

الكتب المعروفة أن قراءته تستوجب تحطيمه وتدميره ، ولذلك لزم علينا أن تكون قراءتنا له دقيقة وكاملة إلى أقصى حد وأن نسجل كلماتهـا على الورق في الحال قبل أن تضيع الى الأبد . ولعل أهم المباحث في مخلفات الانسان هي تلك التي تتم في طبقة يفصلها عما سبقها ولحقها طبقات غير معطـاءة تخلو من كل أثر للإنسـان .

وباستثناء ما وجد في الكهوف والمغارات فان كل مخلفات الانسان التي عثر عليها في الطبقات العميقة كان بطريق الصدفة خلال عمليات حفر الترع أو إنشاء الطرق أو البحث عن المعادن والأحجار الكريمة . لذلـــك لا عجب ان كانت مخلفات الانسان في بعض اراضي العالم الجديد وبعض الاقطـار النامية قليلة أو نادرة . والبحث عن آثار الانسان في وديان الانهـــار بحث تكتنفه كثير من الصعوبات نتيجة للتطورات التي تصيب النهر وتؤثر فيما يقوم به من نحت ونقـل وارساب . فقد يرتفع مستوى البحر أو ينخفض فيزداد ارساب النهر في ادانيه في الحالة الأولى ويزداد النحت في مجراه في الحالة الثانية . وقد يتأثر النهر بالأسر وما يترتب على ذلك من ضعف بعد نشاط وعدم انتظـام مستويات الارساب . ويزيد الأمر صعوبة وتعقيداً عودة بعض الأنهار في أحوال خاصة ونتيجـة لتطورات خارجية إلى اعادة نقل وتوزيع الارسابات القديمـة واختلاط آلات حجرية حديثة بإرسابات قديمة . أضف إلى ذلك ما قد يحدثه ذوبان الماء المتجمد في تربات الأقاليم الشمالية والجبلية من نقل وإعادة توزيع آثار الانسان . ولعل البحث عن آثار الانسان فيما تحت التكوينات الهوائية خاصة تربات اللويس أيسر وأسهل. ذلك لأن هذه التربة رغم انتشارها فوق مساحات هائلة ما تزال تحتفظ بقدر كبير من التجانس لا يغير منه في بعض الأماكن إلا أحداث محلية .

يتجه الباحث عن آثار الانسان تحت السطح إلى تلك الاماكن التي اتخذهـا الانسان القديم ملاجىء مؤقتة له كما يتجه إلى مواضع السكن القديم علّه يجـــد

ضالته . ومن الاماكن التي لجأ إليها الانسان خاصة في فترات الدفء في الاقاليم الشمالية وفي الجهات الدفيئة في العروض الوسطى الصخور الناتئة أو البارزة . Rock Shelters ينزوي تحتها الانسان بحيث يستقبل الشمس ويستطيع منها أن يكشف ما أمامه ويفضل ان تشرف على أحد الوديان النهرية . فقد كانت هذه الوديان طرق الحركة الرئيسية . في هذه الملاجىء ترك الانسان بقايا طعامه ورماد النيران التي أوقدها وبقايا عظام الحيوانات التي تغذى بلحومها . هذا الى جانب بعض أسلحته الحجرية . وقد اضطر الانسان إبان الأدوار الجليدية والفترات الباردة في العروض الشمالية أن يأوي الى الكهوف والمغارات التي صنعتها الطبيعة . في هذه الاماكن قد يكتشف الباحث ما يلقي الضوء على حياة الانسان القديم . ولكن يجب أن يدقق في الأدلة قبل أن يصل الى النتائج ذلك لأن هذه الاماكن كانت تتعرض لعوامل طبيعية تعمل على تغيير داخلها وما بداخلها واعادة توزيع ما تركه الانسان . فكثيراً ما تعرضت لغزو مياه البحر أو تحت مياه نهر قريب أو احتلال حيوانات كاسرة تركت عظامها وراءها .

ويرجع تاريخ المساكن التي شيدها الانسان الى العصر الحجري الحديث الذي بدأ في شرقنا الأوسط قبل ٧ أو ثمانية آلاف سنة ق.م. كانت مساكن هزيلة من القش والطين حيثما وجد القش والطين وسمح المناخ بقيامها أو من الاخشاب حيثما توفر الخشب . وربما لا تزيد عن كونها حفر احتفرها الانسان يحتمي فيها من خطر الحيوانات الضارية وقسوة المناخ . ويهتدي عالم ما قبل التاريخ وعالم الآثار الى مواضع هذه المساكن من دراسة الصور الجوية ومما قد يجده من مخلفات السكن وهي في جزء منها مخلفات عضوية تتحلل وتظهر على أديم الأرض في شكل بقع سوداء . ومن المساكن الخشبية ما شيد على مياه البحيرات وتتصل بالبر بدرجات وتتصل فيما بينها بجسور خشبية تكون قرى بحيرية . وتوجد أمثال هذه القرى البحيرية في بحيرات وسط أوربا . وقد تراكمت مخلفات تلك القرى وساكنيها مياه البحيرات خلال الزمن ومن دراستها عرفت حياة ساكنيها ونمط حضارتهم .

تقنية الانسان القديم :

من الأهمية بمكان أن يعرف عالم ما قبل التاريخ تلك الطرق والاساليب التي اتبعها الانسان القديم في صنع تلك الأشياء التي تركها ونقصد بها الأدلة الاركيولوجية ممثلة على الخصوص فيما صنعه الانسان القديم من الحجر والعظام والفخار . وإذا كان مؤرخ ما قبل التاريخ يعنى بمعرفة هذه الاساليب فان الجغرافي لا شك مستفيد من فهمه لهذه الاساليب ذلك لان مدى استغلال الانسان لبيئته يتوقف إلى حد كبير على نوع الاداة وطبيعتها وكفاءتها. ويمكن أن ندرس هذه الاساليب بالرجوع إما الى الجماعات البدائية الحالية أو بدراسة الندوب والآثار التي تركتها الآلات على الاشياء القديمة أو أخيرا بالتجربة العملية ومحاولة صناعة آلات وأشياء مشابهة .

اختار الانسان القديم ابتداء بعض الاحجار وعالجها كمادة لصناعة الآلات وذلك لما تتميز به من صلابة تصاحبها في كثير من الاحيان طواعية للتشكل سهلت عمليات التشظية والتهذيب وعليه فإن نوع الحجر المستخدم وطبيعته حددا طريقة المعالجة . كما يمكن لنا أن نقول بالمبادلة والهجرة إذا ما خلا المكان منه اصلا . ومن أهم الاحجار التي اختارها إنسان ما قبل التاريخ لصناعة أدواته وآلاته الحجر الجيري. وقد صنع منه رؤوس العصى في مصر وأمريكا الوسطى والسربنتين Serpentine وهو حجر صلب يعالج بالصقل عادة كثر استعماله في صناعة الفؤوس في جهات العالم المختلفة ولعل الصوان أو الظران الذي يوجد في الطبيعة على شكل عقد أو ألواح كان أهم الاحجار عند الانسان القديم وذلك لصلابته وسهولة تشكيله بالتشظية والثقب والصقل وصنع منه مختلف الادوات والاسلحة . وقد بحث عنه الانسان القديم في اماكن كثيرة. وفي المناطق الغنية به في اوربا حفر الانسان الدهاليز والانفاق في جوف الصخر في كل اتجاه وإلى أعماق بلغت عدة امتار . وكانت منطقة نورفوك Norfolk في بريطانيا مركزاً هاماً

لاستخراج الصوان في العصر الحجري الحديث ويبدو أنها صدرته كسلعة قيمة . فقد اكتشف في أحد المواضع فيها نحو ٣٤٦ حفرة لاستخراجه حفرت في الصخر إلى عمق بلغ نحو ١٠ امتار وتتشعب تحت الارض في شكل انفاق تخرج منها ثقوب للتهوية في عدة اتجاهات . كانت مناجم للصوان .

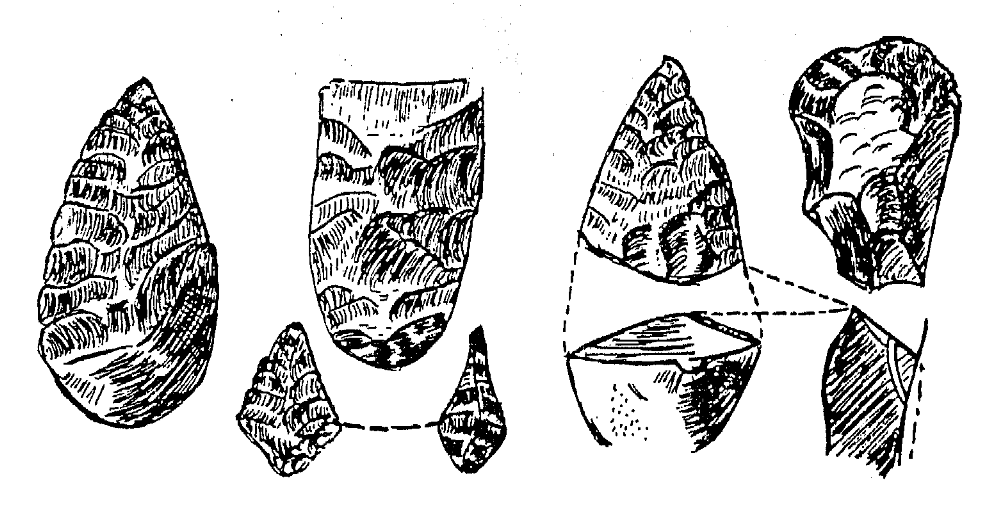
وعندما كان المكان يخلو من الصوان ويصعب الحصول عليه بالمبادلة كان الكوارتزيت يحل محله فهو حجر صلب طيع . ومن الاحجار التي كان يسهل تشظيتها ايضاً ويصنع منها أحد الاسلحة الزجاج الطبيعي. وبسبب هذه الميزة صار سلعة للتصدير صدره سكان جزيرة ميلوت Milos في الارخبيل اليوناني وسكان أراوات في آسيا الصغرى اما الاحجار الصلبة غير الطيعة فهي الاحجار النارية خاصة الديوريت Diorite والجابرو Gabbro والبازلت واليشم Jade . فقد صنعت منها الفؤوس اليدوية واحجار الصقل واحجار الطحن والمدي الحادة . ولصنع الاسلحة والادوات الحجرية كان الحجر يعالج اولاً بالتشظية ثم ثانياً بالصقل Polishing او التهذيب وكان ذلك أقل شيوعاً في المراحل الأولى . والتشظية والصقل عمليتان فنيتان لا طائل من وراء معرفة خطواتها. ولكن يكفي أن نقول إن كل عملية كانت لها قواعد وأصول اختلفت من مكان لآخر خاصة عندما تقدمت صناعة الحجر كما تفاوتت رقياً واتقاناً تبعاً لمستوى الحضارة. إلى جانب التشظية والصقل والتهذيب كثيراً ما عمد انسان ما قبل التاريخ الى معالجة الاحجار الكريمة بقطعها بمنشار وثقبها بثقاب خشبي دوار له سن من صخر صلب أو سن خشبي يزود بالرمل لزيادة فاعليته .

الادوات والاسلحة الحجرية :

في معظم البيئات القديمة وخلال فترات طويلة كثيرة من العصر الحجري عرف الانسان أدوات معينة عرفها بالتجربة وزاد تمسكه بها لأنه وجد فيها ضالته . ونتيجة لانتشارها في ارجاء كثيرة من العالم . فقد شاعت تلك الاسماء

التي أطلقها عليها علماء الآثار . وفيما يلي وصف مقتضب لأنواع ثلاثة أساسية من هذه الأدوات والاشياء يميز الواحدة عن الأخرى طريقة الصناعة .

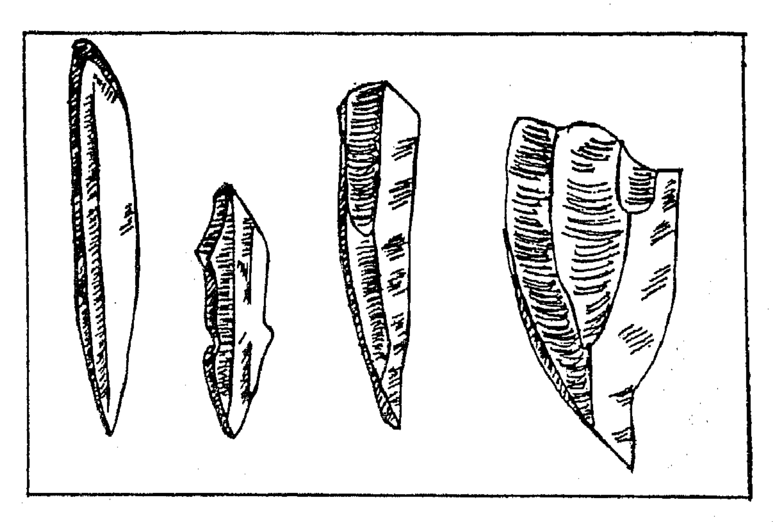
أولا : أدوات صنعت بالتشظية . من هذه الادوات تلـــك الاشياء ذات الوجهين كالفأس اليدوية Coup de Poing والشظية المشظاة من وجهين Double-sided Implements or Flake implement) واكثر الاشكال انتشاراً هي هذه الفأس اليدوية التي تشبه اللوزة (شكل ٦).وكان يقبض عليها باليدمن



شكل (٦) آلات شيلية وأشولية

الجزء العريض السميك اما الجزء المدبب الضيق فهو الطرف الذي كان يستعمل في كثير من الاغراض مثل قتل الحيوان وسلخه ونبش الارض وقطع الاغصان الى غير ذلك وهي تنتمي إلى الحضارة الشيلة الاشولية Acheulian Culture Chelleo . وقد اطلق على هذه الآلة كلمة الفأس Axe في أول الامر .ولكن تطور الاسم فأصبح الفأس اليدوية hand - Axe أو قبضة اليد Coup de Poing كما يفضل الفرنسيون تسميتها . أما الورقة Leaf فاسم يطلق على القطعة الرقيقة

المشظاة من الجانبين وأشهر أشكالها ما يماثل شكل ورقة الغــار أو الصفصاف وتستخدم كالسكين أو الخنجر . واذا ما سوى طرفها السفلي ليصير في شكل لسان أو قضيب فكان ذلك بغرض استخدامها كرأس لرمح أو حربة (شكل ٧) أداة ثالثة هي فأس من شكل آخر يذكرنا بالفأس المصرية المستخدمة في

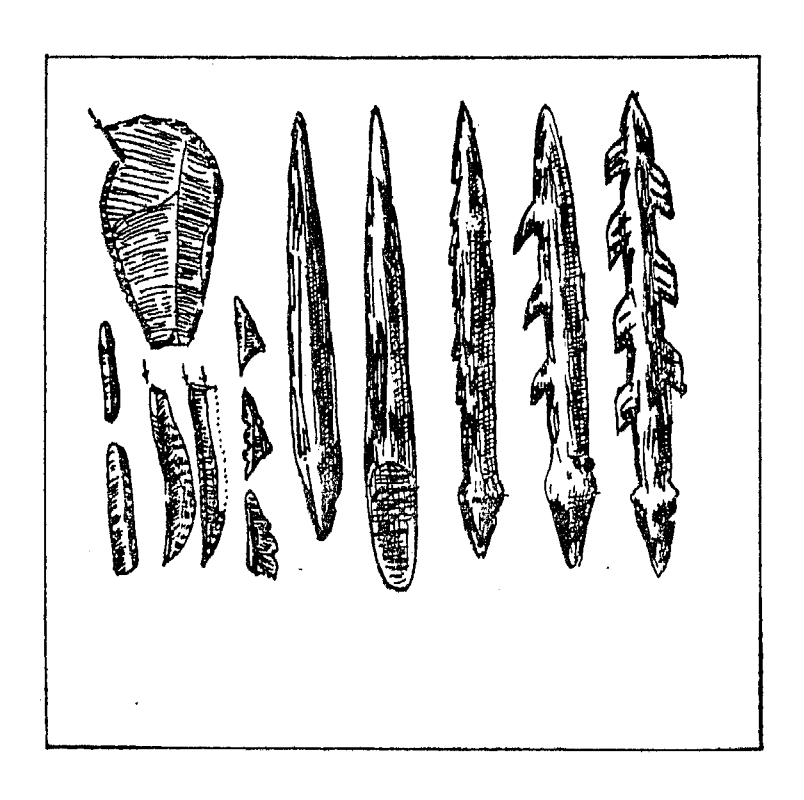


شكل (٧) أسلحة اوريناسية لها حد قاطع . مدي ومقاشط ومخارز النوع الأقدم على اليسار (نوع أودي) والأحدث على اليمين (نوع جرافيت)

الوقت الحاضر وهي أداة مشظاة من الجانبين لكن الطرف القاطع منهـــا هو العريض المقوس قليلا (شكل ٦) أداة رابعة لها شكل الازميل مستطيلة وبحد ليس به رتوش ينجم عن أول طرقة بطرقة التشظية وبعد ذلك تهذب الجوانب. واخيراً المثقاب وهو أداة اسطوانية تقريباً كثيراً مـــا تكون مضلعة ومنتهية بطرف مدبب .

ثانياً : الادوات المشظاة من جانب واحد single - sided implements وهذه كانت تنتزع بالتشظية من النواة الصوانية وتستخدم احيانـاً دون تهذيب

وحيناً آخر بعد أن تهذب برتوش على جانب واحد لزيادة كفاءة الآلة في **القطع**.
وقد تحول الشظية الى ما يشبه السكين ذات النصل المستقيم لها جانب حاد وجانب عريض غير قاطع . فاذا كان الحد القاطع مقوساً فهي مقشط وأنواع المقاشط (أو المكاشط) الحجرية التي وصلتنا متنوعة كما هو واضح من الرسم (شكل ٧) أما الحفر graver فهو أداة ذات حد ضيق قاطع يستخدم في



شكل (٧) أهم أنواع الآلات الجدلية ـ مقاشط ومخارز وخطاطيف

الحفر في مادة صلبة ويمكن أن نضم إلى الأشياء المشظاة من جانب واحد رؤوس الرماح ورؤوس الحراب. ونضيف أنه حيثما تنوعت المقاشط وكثرت فمعنى ذلك

اشتغال الناس بصيد الحيوانات الضخمة وهذا يتطلب تعاوناً بين أفراد المجتمع. ولا شك أن صناعة المقاشط والمخارز مكن النـاس من استخدام جلود الحيوان في الغطاء والكساء وربما كانت المرأة وليس الرجـل هي التي ابتكرت صناعة الملابس والجلود ثم قامت بدبغها وحياكتها.

ثالثا – اشياء صنعت بالتشظية ثم الصقل. هـــذه طريقة بطيئة في صناعة الأدوات الحجرية وتشكيلها وذلك لأن الاحجار التي كانت تعالج شديدة الصلابة. من هذه الاحجار الصلبة صنعت ادوات الطرق والدق والضرب المصقولة مثـل القواديم والبلط والصولجانات ورؤوس الفؤوس الثاقبة وكانت البلط والفؤوس الثاقبة تصنع إما بغرس الرؤوس في الأيدي وهي قطع من الخشب أو ثقب الرؤوس لتثبت فيها الأيدي ويبدو أن الانسان القديم استخدم مثل هذه الأدوات الصلبة في المحاجر والمناجم والمعارك.

الأدوات والأشياء العظمية :

استخدمت العظـام وقرون الحيوان في معظم الصناعات البدائية ولكن بدرجة محدودة وذلك لأن العظام لا تصلح لصناعة أسلحة مرهفة الحد. وربمـا كان أهم استخدام لها هو في صناعة الأدوات المدببة من المخارز والخنــاجر والشصوص والخطاطيف وكذلك الابر والدبابيس. ولقد مكنت الشظايا الحجرية المدببة من استخدام العظام بل والعاج ايضاً. وكانت العظام تستخدم بعد كسرها طلباً للنخاع فتقطع قطعاً مناسبة ثم تكحت ثم تصقل بدعكها في الرمل. ولسهولة القطع كانت العظمة (أو القرن) تحز أولاً بسكين صواني ثم يجري القطع بمنشار صواني مكان الحز. إلى جانب العظام والقرون والعاج استخدم الانسـان بالتأكيد الخشب وإن كانت ادواته الخشبية لم يصلنا منها شيء يذكر بسبب سرعة تلف ما هو خشبي.

الفخار:

للفخار بين الأثريين منزلة خـــاصة فهو بالنسبة لهم كالحفريات بالنسبة للجيولوجيين. فبدراسة نوع الطين المستخدم وشكل الأواني ومـا عليها من رسم وحفر ورمز استطاع الأثريون أن يقدموا تأريخـــاً تتابعياً يبين تطور الحضارة بصفة عامة وصناعة الفخار بصفة خاصة. وتتشابه كل الطرق البدائية في صناعة الفخار في أكثر من ناحية فكانت المادة الخام تختار طيناً مخلوطاً بعناصر تمنع تشققه بعد حرقه من تلك العناصر مطحون الفحم النباتي الذي كان يفيد ايضاً في تلوينه باللون الاسود. وقد تكون الطبيعة سخية فتضيف تلك العناصر المطلوبة وتوفر على الانسان مشقة البحث عنها . وبعد تقليب وعجن الطين قام الانسان القديم بصناعة انواع من الأواني والتماثيل منه مستخدماً اصابعه. ولكن اختراع الدولاب في العصر الحجري الحديث وفر عليه كثيراً من الجهد وساعده على اتقان وزيادة تنويع انتاجه . وكانت الخطوة التالية هي تعريض الاشياء للنـار بعد طبع بصمات الاصابع عليها أو حفر اشكال ورموز في مادتها الطرية. ومتى حرقت قد يعمد الفنان إلى ملء الحفر بمادة مختلفة اللون . اما الرسم على الآنية فجاء متأخراً . ولتكون الأشكال المرسومة جميلة وظاهرة كانت الأواني تغمس في لون احمر (المغرة) او اسود (ثاني اكسيد المنجنيز)

ولم يقتصر التعبير عن الناحية الفنية بتزيين الاواني بالصور والرسوم بل تعداه إلى الحفر والنحت والتصوير على حوائط الكهوف والمغارات . فقد وجدت في ايطاليا والمانيا والاتحاد السوفييتي تماثيل منحوتة من العاج وآلات عظمية عليهـا أشكال محفورة . واكتشفت في الكهوف التي سكنهـــا الانسان في العصرين الحجري القديم الاعلى والحجري الحديـــث في أوربا وجنوب إفريقية صوراً حائطية لافراد يقومون بصيد الثيران والخنازير البرية والوعول .

الفصل الرابع

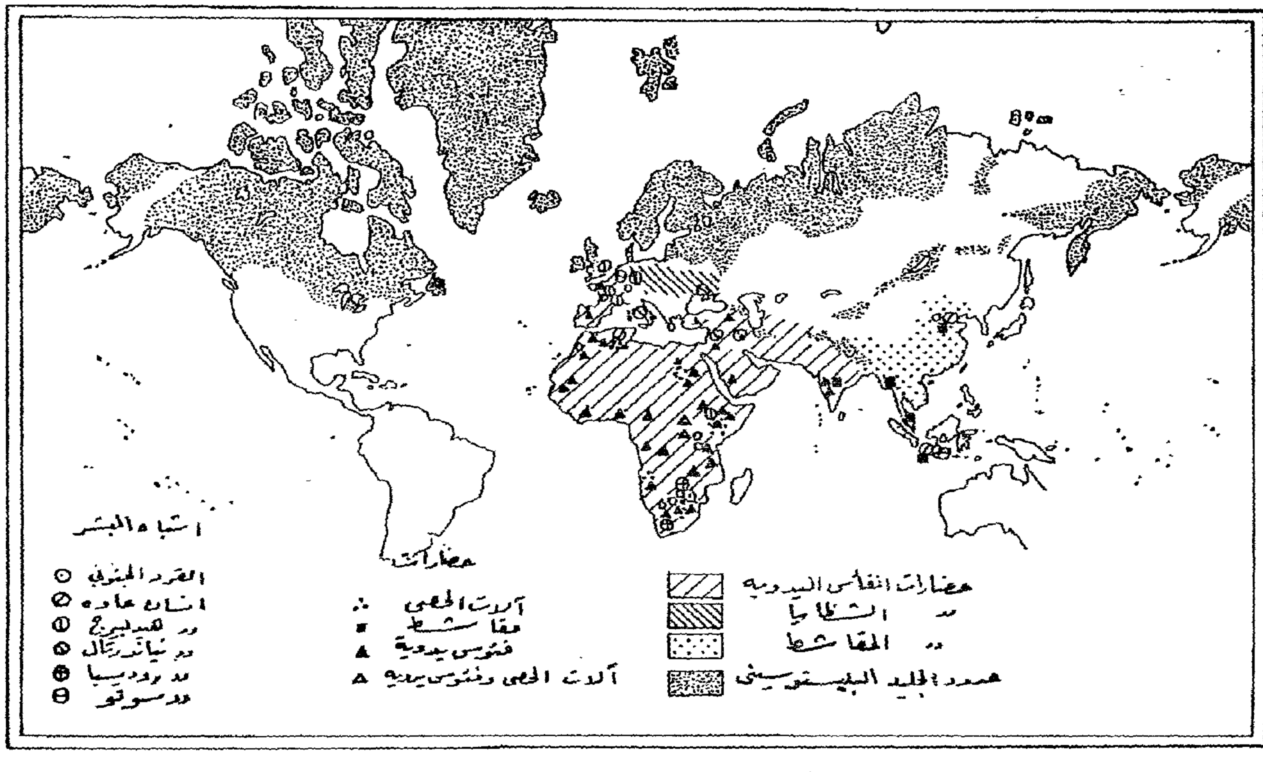
١ ـ صناعات الانسان غير العاقل

في العصرين الحجري القديم الاسفل والحجري القديم الاوسط

ربما كان أهم ما كشفت عنه آثار الإنسان الثابتة والمنقوله هو مدى ما استوعبه من معرفة ومدى تطور تقنيته وما كان يقوم به في سبيل الحصول على الغذاء وتنظيم حياته ومجتمعه من أجل البقاء . ومن خلال دراستنا لنشاطه في سبيل الحصول على الغذاء ووسائله التي استعان بها ونوع حياته الاجتماعية يمكننا أن نقدر مدى تأثيره في بيئته وإلى أي حد كان يستجيب لندائها .

العصور الحضارية :

وقد مر الإنسان خلال تاريخه بمرحلتين أو عصرين رئيسيين هما : ١ مرحلة استخدام الحجر Stone Age . ٢ — مرحلة استخدام المعدن Metal Age . على أنه تسبق وتتوسط هاتين المرحلتين الحضاريتين فترتان مشكوك في أمرهما ربما لأنهما انتقاليتان ليس لهما بداية واضحة . الفترة الأولى



شكل (٨) مواطن أشباه البشر وحضاراتهم في العصرين الحجري القديم والاوسط

هي فجر العصر الحجري القديم The Eolithic والثـــانية هي العصر الحجري المتوسط The Mesolithic. ولكن قبل أن نتابع ركب الحضارة الانسانية لنرى ما قامت به البشرية لتعيش مع الطبيعة في سلام وانسجام لا بد لنا من أن نوضح للقارىء أن أي عصر حضاري ليس كالعصر الجيولوجي عصراً مطلقاًمرت به الإنسانية في كل مكان في وقت واحد. فالشيء الذي لم يحدث هو أن بدايةأي عصر ونهايته كانتـــا متطابقتين تماماً في إقليمين أو أكثر من أقاليم العالم. فالاستراليون السود لا يزالون حتى الآن يعيشون على الأقل من حيث حياتهم الاقتصادية في العصر الحجري القديم. وبدأ العصر الحجري الحديث في مصر منذ ٧٠٠٠ سنة بينما لم يبدأ في بريطانيا أو المانيا إلا بعد ذلك بنحو ٣٥٠٠ سنة. وعندما دخلت بريطانيا العصر الحجري الحديث كانت مصر قـد سبقت ودخلت عصر البرونز منذ أكثر من ألف عام.

فجر الحجري القديم:

يزعم بعض علماء ما قبل التاريخ أنه سبق العصر الحجري القديم فترة طويلة كانت بمثابة فجره. في هذه الفترة قوى الإنسان ساعده عند الهجوم والدفـاع باستخدام ما وجده تحت يده من أغصان الأشجار بعد تهذيبها بعض الشيء ومن حجارة شكلها قليلا ليكون لها حد أو طرف. وقد اطلق على هذه الوسائـــل البدائية Eoliths. ويعتبر روتو Rutot وهو جيولوجي بلجيكي أول من قـال باستخدام أشباه البشر في فجر العصر الحجري القديم لمثل هـــذه الأنواع من الوسائل البدائية. ويزعم أن مـا وجد من آلات صوانية يمثل ليس فقط أول محاولة للانسان لاستخدام الصوان بل أول صناعة حجرية ظهرت في البليوسين Pliocene واستمرت في عصر البليستوسين Pleistocene جنباً إلى جنب معبقية الصناعات اللاحقه. بل لقد أرجع بعض العلماء المضدين هذه الأدوات إلىعصور سابقة على عصر الميوسين Miocene، مع العلم بأن القردة العليا نفسها لم تظهرإلا

في هذا العصر . بيد أنه لم تتجمع حتى الآن الدلائـل الكافية التي تؤكد رأي روتو . ومن العلماء من ينكر وجود مثل هذه الآلات كلية . ويرى أنه إن وجدت أحجار لها أشكال خاصة فمن عمل عناصر الطبيعة وليس من عمل الانسان. غير أنه مما لا شك فيه أن توصل الإنسان إلى عمـل أداة تستخدم في غرض أو أغراض معينة جاء تدريجياً. ولكننا لا نستطيـع أن نقطع برأي في شكل البدايات الأولى للأدوات الحجرية وغير الحجرية التي استخدمها الانسان (١) .

أقدم الآلات الحجرية :

وترجع أقدم صناعة حجرية مؤكدة إلى الفترة الانتقالية التي تقـع بين البليستوسين الأسفل والأوسط قام بها نوع راق من أنصاف البشر منتصبي القامة هو رجل الصين القرد. وإن كان ثمة من يظن أن القرد الجنوبي Australo pithecine كان صانعاً أيضاً Tool - maker (٢) ولكن هذا الرأي الأخير لا زال يفتقر إلى بينة وخاصة ان حجم مخ هذا المخلوق لم يزد مطلقاً على ٦٨٥ سم٣ أي قدر حجم مخ الغوريلا. بل إننا لم نجد مع بقايا إنسان جاوة الذي بلغ حجم مخه ٩٠٠ سم٣، أية أدوات من الحجر وإن كان هذا ايضاً لا ينهض دليلاً قوياً على أنه لم يصنعها. فأكثر الأدوات بدائية قد تغيب عن نظر الباحث لقرب شبهها بما يمكن أن تصنعه الطبيعة .

انسان الصين أو بكين :

وإذا كانت صناعة انسان جاوة للأدوات ليست أمراً مؤكداً فإن استخدام انسان الصين لأدوات مشكلة أو مشظاة وإن كان بطريقة جد بدائية أمر مؤكد

---

(١) Clark, J. op. cit. p. 29

(٢) يقول بهذا الرأي ليكي L. Leakey
راجع كتابه Adam's Ancestors, London, 1953.

بالدليل . صنعها هذا الإنسان المنتصب القامة Pithecanthropian والذي يعد من الناحية البيولوجية متقدماً على انسان جاوة فقد بلغ حجم مخه ١٠٠٠ سم٣ وأحدث منه منحيث التاريخ الجيولوجي(انظر شكل ٣) . صنع أدوات على شكل مقاشط وسكاكين من حصى وأحجار يصعب الحصول عليها مثل الصوان غير النقى والكوارتز والحجر الأخضر صنعت صنعاً رديئاً بحيث كان يصعب التعرف عليها لو لم توجد في نفس الطبقة الجيولوجية التي عثر فيها على عظام هذا الانسان غير العاقل (١) . ولما كانت هذه الأدوات غاية في رداءة الصنعة وغاية في قلة الفاعلية تخلو من تلك الأشكال المسننة المرهفة التي تصلح لقتل الحيوان ، فإن السؤال الآن هو كيف استطاع هذا المخلوق الذي اعتمد في غذائه على اللحوم (على خلاف القردة العليا) أن يقنص حيوانات آكلة للحوم وعاشبة ضخمة ؟ ثمة من يرى أنه لا بد وأن استخدم سهاماً من الخشب زاد من صلابة اطرافها بادخالها النار . واستخدم قرون الوعول وشظايا من عظام الحيوانات في القنص. ولكن الأهم من ذلك في رأي آخر هو أنه كان شجاعاً خرج للقنص في جماعات وحفر الحفر للإيقاع بالصيد واستخدم النار ليقي نفسه من شر الضواري وربما في شي اللحوم . واذا كنا نؤكد أن شبيه البشر هذا كان أول مخلوق صنع آداة فإننا نستطيع ان نقيم الدليل على أنه لم يدفن موتاه . فقد وجدت عظامه مبعثرة ومختلطة بعظام ضحاياه من مختلف الحيوانات بل إن هناك ما يجعلنا نرجح أنه كان آكلا للحوم بني جنسه . فعظام الأطراف مهشمة طلباً لما كانت تحويه من نخاع والجماجم هي الأخرى انتزع ما كان بها من أمخاخ تماماً كما تفعل بعض الجماعات الميلانيزية في الوقت الحاضر . وتعد صناعة هذا المخلوق (والتي يطلق عليها صناعة الحصى) هي أقدم صناعة حجرية لأشباه البشر عرفت حتى الآن وإن كان لا يبعد أن تكتشف صناعة أقدم منها في قابل الأيام .

---

(١) اكتشفت عظام هذا الانسان وأدواته في شوكوتين Choukoutien في شمالي الصين .

صناعات (أو حضارات) العصر الحجري القديم :

ولكن أين حدثت تلك النقلة الواسعة نحو مزيد من البشرية ؟ حدثت على ما يرجح في تلك المنطقة التي ظهرت فيها أول صناعات العصر الحجري القديم . وقبل أن نبحث عن هذه المنطقة يجدر بنا أن نشير الى أنه بسبب طول العصر الحجري القديم The Palaeolithic يقسم إلى ثلاث فترات أو مراحل أو عصور فرعية هي :

ا – الحجري القديم الأسفل Lower Palaeolithic

ب – الحجري القديم الأوسط Middle Palaeolithic

حـ – الحجري القديم الأعلى Upper Palaeolithic

يختلف علماء ما قبل التاريخ حول تحديد هذه المنطقة ، فبينما يرى فلير H. Fleure وبيك H. Peake أنها تلك المنطقة المكشوفة من افريقية شمال خط عرض ١٠° ش [١] يرى كل من كلارك J. Clark وسونيا كول S. Cole أن شرقي ووسط افريقية هو ذلك المكان الذى تطورت فيه آلات صناعة الحصى بسرعة مما يشير إلى أن أصحابها بلغوا درجة متقدمة من البشرية قبل غيرهم فصنعوا الفأس اليدوية لأول مرة . ويضيف كلارك أنه في الوقت الذي تطورت فيه صناعة الحصى في شرقي ووسط افريقية لتظهر صناعة النواة Core Industry بقيت صناعة الحصى Pebble Industry في جنوب شرقي آسيا واستمرت في بعض جهاتها إلى ما بعد العصر الحجري القديم . ومهما يكن من أمر ففي خلال

---

(١) Peake, H. and Fleure. H. Times and Places, London, 1956 p. 14,15

(٢) A. Clark, J. op. cit, p. 35

B. Cole, S. The Prehistory of East Africa, 1924, p. 121

البليستوسين الأوسط كانت الفأس اليدوية قد انتشرت انتشاراً واسعاً في افريقية وفي اجزاء واسعة من آسيا وأوربا . انتشرت كما يعتقد كلارك من شرقي افريقية جنوباً إلى أطراف القارة وشمالاً الى وادي النيل وبقية شمالي القارة. ومن وادي النيل بلغت جنوب غربي آسيا ومن ثم الشرق البعيد بينما عبرت الى جنوبي أوربا من ناحية شمالي افريقية . وفي تصور كل من بيك وفلير أن الجماعات البشرية التي استخدمت الفؤوس اليدويـــة الشيلية أو الابيفيلية Abbevillian والأشولية Acheulian هاجرت من الأرض المكشوفة في افريقية شمالي خط عرض ١٠° شمالاً [١] في اتجاهات عدة على النحو التالي :

١ – صوب الجنوب الى اطراف أفريقية الجنوبية ولا سيما في الفترات الجافة وكانت تحمل عناصر حضارية شمالية ربما بقيت على الزمن فترة طويلة في أقصى جنوبي القارة . وفي سيرها تحاشت هــذه الهجرات الغابات المدارية المطيرة التي كانت أوسع انتشاراً في بعض فترات البليستوسين .

٢ – صوب الشمال إلى أوربا وخـاصة في فترات الدفء ولم يكن ثمة معبر أرضي يربط افريقية بايطاليا في عصر البليستوسين . كذلـك كان مضيق جبل طارق مفتوحاً طوال عصر البليستوسين ولا يتفـق بيك وفلير مع رأي رايت W. Wright الذي يقول بأن المعابر الأرضية كانت موجودة خلال جزء كبير من البليستوسين وغمرت قبل نهايته وأن وجودها سهل على صناع آلات النواة أو الفؤوس الحجرية العبور من الجانب الافريقي الى الجانب الاوربي : والارجح أن المضايق كانت أكثر ضيقاً منها الآن ولم يكن من العسير على الانسان القديم أن يعبرها بأي نوع من الاطواف .

---

(١) كانت أمطار هذه المنطقة تعادل أمطار شمالي السودان في الوقت الحاضر ،

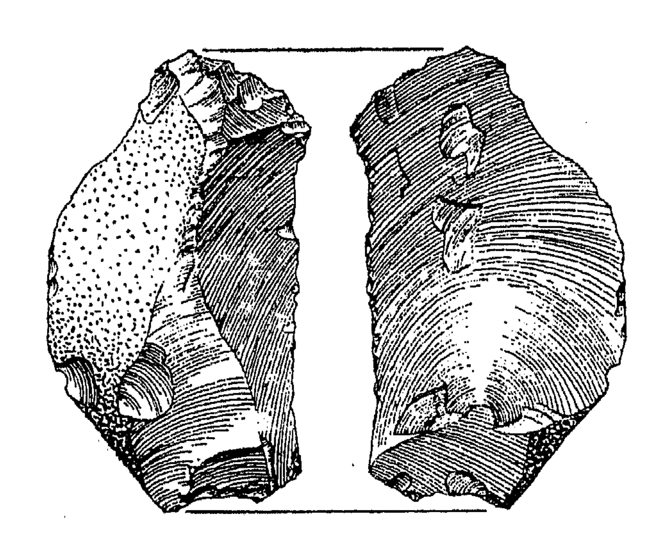
٣ — صوب الشرق الى الهند وربما إلى جزر الهند الشرقية التي يظن أنها كانت اجزاء من قارة آسيا خلال الفترات التي انخفض فيها مستوى مياه المحيطات . واذا كان لنا أن نقول بأن الجروف الساحلية لغربي الهند وجنوبي بلاد العرب هي نتيجة حركة أرضية عيبية لم تحدث إلا في البليستوسين وربما بعده فإن معنى ذلك أن الاتصال من شبه جزيرة العرب شرقاً الى الهند ربما كان أسهل منه في وقتنا الحاضر حينما كان مستوى البحر أقل مما هو عليه الآن .

العصر الحجري القديم الأسفل :

في هذا العصر الحجري القديم الاسفل عمد الانسان أول الامر الى تشظية النواة الحجرية تشظية أولية ثم معالجتها مرة ثانية لصنع فأس حجرية Coup de poing Hand Axe يسهل على اليد البشرية القبض عليها واستخدامها في حفر الارض أو قتل الحيوان أو قطع الاغصان الى غير ذلــــك من الاغراض . وقد سميت أدوات النواة الاولى المشظاة من كلا الجانبين بأدوات شيلية أو ابيڤيلية وتنتمي الى حضارة بنفس الاسم (وهو اشتقاق من ابيڤل Abbeville بـــلدة بشمالي فرنسا) وسميت الادوات والآلات الاحدث منها بالاشولية وتنتمي الى حضارة أو صناعة بنفس الاسم(والاشولية صفة مشتقة من Acheul بلدة في شمالي فرنسا تقع على مقربة من مدينة أمين Amiens) (انظر شكل ٥) . ولقـــد ظهرت الصناعة الاشولية في فترة مندل – رس غير الجليدية وصنعت أدواتها من الصوان وغيره من الاحجار واحتاجت الى مهارة كبيرة مما دفع بعض الباحثين الى القول بان انساناً عاقلاً هو الذي صنعها ولكن هذا الرأي لم يتأيد بعد .

ومن المميزات الواضحة للفؤوس اليدوية المشظاة من الجانبين هو شيوعهـــا وتجانسها (شكل ٥). والمرجح أن الجبال لم تكن عقبة في سبيل انتشارها وإنما الذي عاق انتشارها هو الغابات الكثيفة . كذلك تمتاز هذه الصناعة الحجرية

ببطء تغير طرازها . فيقدر أن الانسان ظل يصنعها دون تطوير يذكر قرابة نصف مليون سنة. وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على مدى بطء تطور الانسان في عصوره الاولى وربما يدل كذلك على مدى سلطان العادة على هؤلاء الصناع القدماء . الى جانب الفأس اليدوية المصنوعة من نواة الصوان ظهرت في نهاية العصر الحجري القديم الاسفل شظايا حادة فصلت من النواة . كذلك وجدت بين آثار انسان ذلك العصر وهو انسان هيدلبرج آلات من الشظايا المشطوفة بشكل غير دقيق اكتشفت على هوامش منطقة انتشار الفأس اليدوية وبخاصة في بريطانيا وبلجيكا وشمالي فرنسا والمانيا وباكستان . وتسمى بالآلات الكلاكتونية نسبة إلى بلدة Clacton - on-Sea في اسكس بانجلترا(شكل٩).



(شكل ٩) آلة كلاكتونية

ومهما يكن من أمر هؤلاء الصناع فإنهم كانوا من صيادي ضخام الحيوانات وأنهم كانوا يسكنون مناطق غابية مكشوفة ويفضلون العيش بقرب الأنهار وشواطىء البحيرات فقد وجد كثير من مخلفاتهم وآثارهم في وديان أنهار التيمز والنيل

والزمبيزي وإراوادي وعلى شواطىء بحيرات الدوواي Oldoway في شرقي افريقية وتورالبا Torralba في اسبانيا وكارار Karar في الجزائر . عاشوا على صيد أنواع كثيرة من الحيوانات كما يظهر ذلـــك من دراسة بقايا غذائهم واستخدموا ربما لأول مرة حراباً من الخشب كما يفعل أقزام وسط افريقية الآن عند قنص الأفيال .

تغير المناخ :

وبنهاية البلستوسين الأوسط تغير المناخ فحل الجفاف واختفت الغابات المكشوفة من جهات واسعة من العالم القديم . اختفت من القسم الشمالي من افريقية والجهات المجاورة من آسيا وأوربا . ولما كانت هـــذه الغابات أصلح بيئة لصناعة الفؤوس اليدوية فقد كان على الإنسان إزاء هذا التغيير في الغلاف النباتي أن يطور أدواته وآلاته وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بأن العامــل الجغرافي كان وحده دافعاً للتغيير . وهكذا أخذت صناعة النواة تضمحل وتختفي لتحل محلها تدريجياً صناعة الشظايا وخاصة في الاجزاء الشمالية من العالم القديم .

العصر الحجري القديم الأوسط :

ولقد تميزت أوربا بصناعة من الشظايا تعرف بالموستيرية Mousterian (نسبة إلى كهف Le Moustier في حوض الدوردوني) وتميزت افريقية بالصناعة اللفلواظية (نسبة إلى بلدة Le Vallois بشمالي فرنسا) . ظهرت هاتان الصناعتان في الفترة الحضارية المعروفة باسم العصر الحجري القديم المتوسط Middle Palaeolithic . أما أين نشأت صناعة الشظايا هذه أول مرة فسؤال لايزال يشغل بال كثير من علماء ما قبل التــاريخ وفي رأي فلير أنها نشأت في أواسط آسيا حيث ظهرت آلات يمكن أن نسميها ما قبــل الموستيرية ومن ثم انتقلت مع أصحابها في هجراتهم إلى أوربا من ناحية وإلى افريقية عن طريق السهوب

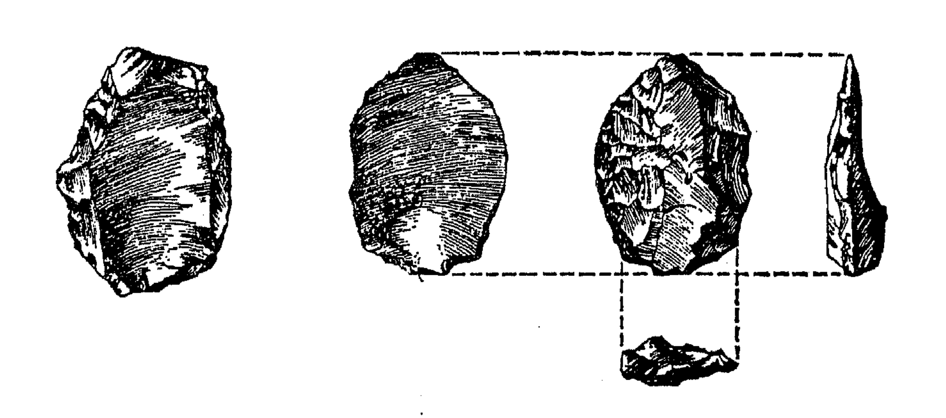
الأسيوية من جهة ثانية. وفي جنوب شرقي آسيا أزاحت الكشوف الأثرية الحديثة الستار عن أن البدايات الاولى لتطور صناعة العصر الحجري القديم الاوسط ربما زامنت آخر الفترات غير الجليدية في أوربا . ولكن من الثابت أن الصناعة الحجرية التي انتشرت في بداية العصر الجليدي الاخير في أوربا كانت لا تزال تشبه في صفاتها الاساسية تلك التي عرفناها في العصر الحجري القديم الاسفل . ولكن أصحابها كانوا من نوع بشري مختلف كانوا من النياندريين ومن شابههم. وقد وجدت أدواتها في جهات واسعة من غربي أوربا وخاصة تلك المنطقة المحصورة بين نهر اللوار والبرانس وخاصة في كهف Le Moustier الذي نسبت إليه الصناعة . ولعل أهم ما يميزها قلة تنوع آلاتها فلم نجد غير مقاشط وأدوات مدببة من ناحية أو ناحيتين إلى جانب بعض الفؤوس اليدوية بعضها مستطيل والبعض الآخر كمثري الشكل. وتكاد الفؤوس تختفي ليحل محلها مثاقب يدوية وذلك في جنوب أوربا ووسطها وشرقها كما تكثر معها الآلات ذات الاطراف المسننة والمدببة . وإذا ما تقدمنا جنوباً إلى سورية وفلسطين والعراق وأبعد من ذلك جنوباً في افريقية نجد صناعة أخرى متأثرة إلى حد ما بالصناعة الأشولية ذات الآلات المشظاة من الوجهين (آلات النواة) عاصرت الصناعة الموستيرية في الشمال .

حياة النياندريين :

لم يكن النياندريون أمهر ممن سبقوهم من أشباه البشر في قنص الحيوانات . فقد بقيت وسائلهم في القنص كما عرفها صيادو العصر الحجري القديم الأسفل كما أننا لم نجد دليلاً يؤكد أنهم حولوا العظام أو قرون الحيوانات إلى أدوات أو اسلحة محددة الشكل. بل إنه لا تظهر أية علامة لهم على أن هناك تطوراً في احساسهم بالجمال . وإذا كان النياندريون لم يتقدموا عمن سبقوهم في هذه المجالات فقد تفوقوا على أسلافهم في ناحيتين هامتين: الأولى هي انتشارهم في العروض الشمالية

في أوراسيا أبعد ممن سبقوهم من أشباه البشر. هذا بالرغم من شدة البرودة بسبب حلول الدور الجليدي الأخير ڤورم Würm . إلى أي حد انتشروا جهة الشمال وهل سكنوا سيبيريا ؟ سؤال لم يجد الإجابة المؤكدة بعد .

ومن المحتمل أن تكون قسوة الظروف المناخية في العروض الشمالية هي التي دفعت الانسان النياندري إلى سكنى الكهوف اينما وجدت والى تغطية جسده بجلود الحيوانات على الأقل عندما كان يترك مأواه للبحث عن الغذاء. ومما يدعونا إلى القول بأنه غطى جسده بجلود الحيوانات استخدامه في الأغلب لمقاشط وسكاكين لها حد يصلح لسلخ جلود الحيوانات. أما الناحية الثانية التي اظهر فيها هذا الانسان تقدماً على سلفه هو معاملته للموتى . فكان أول انسان يدفن موتاه في قبور وإن كنا وجدنا في بعض الجهات ما يشير إلى أنه كان في مراحل تطوره الأولى آكلا للحوم بني جنسه تماماً كما فعل إنسان الصين . أن يدفن هذا المخلوق موتاه لدليل على أن حياته الروحية ربما كانت اغنى من حياته المادية (١) .

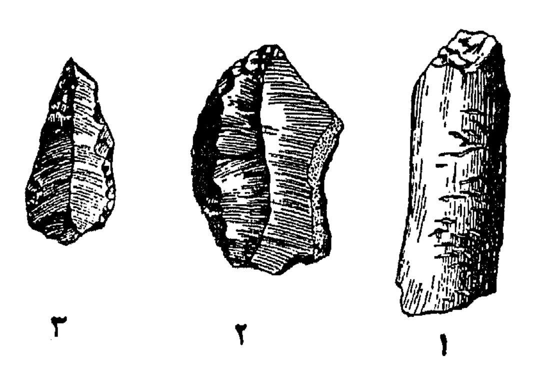


(شكل ١٠) آلات لفلواظية

(١) Childe, G. Man Makes Himself, London 1955, p. 3

صناعة الشظايا الموستيرية واللفلواظية :

في هذا العصر يبدو أن صناعة الآلات من الشظايا (الآلات ذات الوجه الواحد (شكل ١٠) كانت السائدة فقد ظهرت ارهاصاتها الاولى كما رأينا في شكـــل آلات كلاكتونية . وكان صناع آلات الشظايا الموستيرية واللفلواظية يبدأون أولاً بشطف سطح النواة الصوانية على مراحل حتى يصبح قاعدة للآلة الحجرية التي تفصل من النواة بضربة فنية بقطعة من العظام أو الخشب. واذا ما أحسنت معالجة الشظية تصنع آلة حادة. كانت لها طرف مدبب وقاعدة مثلثة في الصناعة الموستيرية في أوربا . وتختلـف آلات الشظايا اللفلواظية في شمالي افريقية وغربي آسيا اختلافات يسيرة عن تلك التي عرفتها أوربا(شكل ١١) .



١ ـ قطعة من العظم كأداة ضاغطة ٢ ـ مقشط ٣ ـ شظية مدببة

شكل (١١) آلات موستيرية

فلم تكن لها قاعدة مجهزة كما كان بعضها يشظى من الجانبين على طريقة صناعة النواة الاشولية . لذلك يمكن القول ان صناعة العصر الحجري القديم الاوسط

في شمالي افريقية تطورت قليـلا عن الاشولية ثم تحولت في أواخر العصر الى لفلواظية متدهورة تضاءل فيها حجم الشظايا . ومن المحتمل أن هذه الشظايا الصغيرة كانت تركب أو تربط في قطع العظام أو الخشب ويمثل هذه الصفات في شمالي افريقية الصناعة العاطرية [1] (انظر شكل ١٥) .

---

(١) نسبة إلى بئر العاطر في تونس .

الفصل الخامس

٢ ــ حضارات الانسان العاقل

في العصر الحجري القديم الأعلى

يتفق هذا العصر مع الجزء الأخير من دور ڤورم الجليدي [٢] ويقدر طوله بنحو ٢٠ ألف سنة . وهو يختلف عن كل المراحل الحضارية التي سبقته في أنه شاهد بالتأكيد ظهور الإنسان العاقل Homo - Sapiens فكل البقايا البشرية التي وجدت بين آثاره تنتمي إلى نوعنا البشري الذي يسكن الأرض الآن وإن كانت بعض سلالات جنوب شرقي آسيا تحمل قليلا من صفات إنسان الصين وتحمل بعض السلالات الأوربية قليلا من صفات إنسان نياندر . وإذا جاز لنا أن نختصر تاريخ الحياة على سطح الأرض إلى سنة واحدة فإن الإنسان العاقل ظهر قبيل أن

---

(١) نسبة إلى بئر العاطر قرب تيبسه في تونس .

(٢) ينقسم دور فورم الجليدي إلى ثلاثة أدوار فرعية هي :
ا ـ ڤورم الأسفل من ٧٠,٠٠٠ ـ ٢٩,٠٠٠ سنة ق.م
ب ـ ڤورم الاوسطمن ٢٩,٠٠٠ ـ ١٢,٠٠٠ « « «
حـ ـ ڤورم الأعلى من ١٢,٠٠٠ ـ ٨,٠٠٠ « « «

تنتهي بعشر دقائق [١] . وكان ذلك حدثاً خطيراً بالنسبة لتطور الحياة وتطور الحضاره. فلقد ظهر المخلوق الذي توحي خلقته وتصرفاته بأنـــه سيكون سيد الأرض بلا منازع . وقد كان . ولنـــا أن نزعم أن جغرافية الإنسان في الماضي بدأت بظهور هـــذا المخلوق الحكيم العاقل فقد ترك بصماته واضحة على الأرض بالرغم من أنه كان آخر الوافدين .

وينقسم دور ڤورم إلى أدوار فرعية أو غزوات فصلت فيما بينها فترات تحسن فيها المناخ شيئاً ما فتقهقر الجليد نحو الشمال وارتفعت درجات الحرارة . ويبدو أن بداية العصر الحجري القديم الأعلى اتفقت مع أول هذه الفترات وما صاحبها من تغيرات مناخية أدت إلى هجرات بشرية واسعة . فقـــد أصبح الإنسان أكثر قدرة واستعداداً على مواجهة ظروف لم يكن في وسعه مغالبتها عند نهاية الأدوار الجليدية السابقة . ومع تقهقر جليد هذا الدور نهائيـــاً ازداد جفاف شمالي افريقية ومع ازدياد الجفاف زاد الفقر النباتي بينما تحسنت الظروف المناخية في جنوب غربي أوربا وفلسطين ووسط أوربا وذلك بفضـــل توغل الأعاصير الأطلسية شتاء إلى هذا العمق البعيد (أنظرشكل ٢) . وعلى الرغم من أن النيل كان يفيض كل عام إلا أن واديه كان مليئاً بالمستنقعات وتكتنفـــه الأحراج . كان بيئة موبوءة طاردة لم تغر صيادي ذلك العصر بالإقامة . وظل كذلك حتى اكتشفت فنون الري والزراعة في العصر الحجري الحديث ولهذا الحديث عودة .

وعلى الرغم من أن انتشار الجليد في هذا الدور كان ضيقاً في وسط آسيا (وفق بعض الآراء) فإن البرد الشديد السائد فوق المرتفعات حال دون انتقال الناس وانتشارهم من غربي القارة إلى شرقيها وإلى شماليها الشرقي. ولكن ما أن

---

(١) Nourgier, L-R. Géographie Humaine Préhistorique, Paris 1959, p. 15

خفت قسوة الظروف المناخية في أواخر هذا الدور حتى رأينا الإنسان وقد استوطن سيبيريا الشمالية فسكن في أعالي أنهار أوب وينسي ولينا حتى خط عرض ٦١°ش . وقد انتشر من سكن أوربا من صيادي هذا العصر في نطاق الحشائش الباردة ، وهناك قاموا بصيد البيسون الذي عاش على تلك الحشائش وقنصوا الماشية المتوحشة التي عاشت على أطراف الغابة واصطادوا الخيول البرية والحمير الوحشية في مناطق الأعشاب الفقيرة . وبحثوا عن الغزلان والخنازير البرية في غابات الصنوبر والشربين ، وعن الأغنام البرية فوق التلال وعن الفيلة الصوفية Mammoth والرنة في نطاق التندرا إلى الشمال .

في هذا العصر صار للانسان مواضع تجمع يعيش فيها ويعسكر وهو في هذا يختلف عن أغلب من سبقه من أشباه البشر الذين عاشوا هائمين على وجوههم في العراء . بل إنه أقام لأول مرة في تاريخ البشرية مساكن يلتجيء إليها ويحتمي بها . ففي غربي أوربا سكن المغارات والكهوف المزينة بالرسوم المحفورة والملونة على الأقل خلال فصل الشتاء وإن كان ثمة من يقول بأن هذه الكهوف كانت أماكن للعبادة ومخازن لحفظ الطعام (١) فحسب . وفي شرقي أوربا والجهات الداخلية من آسيا (حيث كان الجليد أقل انتشاراً) وفي شمالي افريقية وجنوب غربي آسيا. ربما سكن الإنسان الخيام المصنوعة من جلود الحيوان فبعض صورها توجد على جدران المغارات. وفي مناطق أخرى كسيبيريا التجأ إلى حفر في الأرض تغطى بالجلود والأعشاب . وإلى جانب هذه الملاجيء الارضية أثبتت الأبحاث أن إنسان هذا العصر تمكن من صنع أكواخ مستديرة طينية في وسط أوربا وفي روسيا الأوربية . كل ذلك غير بعيد من موارد المياه وخاصة المجاري المائية التي صنعت طرقاً سهلة ميسرة للانتقال .

---

(١) نذكر من علامات هذا العصر أيضاً ظهور تماثيل للنساء لا سيما الحوامل منهن وكثرة صور الاناث على جدران الكهوف وقلة صور الذكور . وربما كان تفسير ذلك هو أن العرف كان ينهي عن رسم صور للذكور .

ويوحي وجود تجمعات بشرية في أماكن معينة وكذلك تشير الرسوم على جدران الكهوف إلى قيام حياة تعاونية في طلب الغذاء وخاصة عند قنص الحيوانات الكبيرة وقطع أوصالها بأسلحة ما برحت غير فعالة . ولم تكن كثافة السكان منخفضة فحسب بل انهم كانوا في حركة مستمرة تبعاً لفصول السنة المختلفة [1] . ومع ذلك فلا بد وأن كانت لكل جماعة وطن ينظر إليه على أنه ملك لها ، غالباً ما كان يقع على الطرق التي كانت تتبعها قطعان الحيوانات العاشبة من الماموث والوعول والثيران والمواشي والخيول البرية في هجرتها الفصلية من المراعي الشتوية إلى الصيفية .

ولما كان الصيد لا يقوى عليه إلا الرجال الأشداء فقد خرج الرجال وحدهم دون نسائهم وأطفالهم وبقي هؤلاء في انتظار عودة الغائبين . في تلك الأثناء قامت النسوة يساعدهن الاطفال بأعمال أخرى كتهيئة الجلود لصنع الملابس وتنظيف ما سوف يؤكل من طعام ورعاية النار حتى لا تنطفيء [2] . ومن ثم امتدت فرص الحديث بين النسوة وأطفالهن فانتقلت المعرفة بل وكل التراث الثقافي من جيل إلى جيل . وعلى ذلك يمكن استنتاج وجود تقسيم في العمل بين الجنسين وبين الكبار والصغار ومقدرة كل عائلة أو جماعة على أن تكفي نفسها بنفسها من مطالب الحياة . ومع ذلك فهناك اشارات إلى وجود تبادل في المنتجات أو شيء من التجارة بين جماعات مختلفة . بيد أن الأشياء التي كان يجري تبادلها كانت من أشياء الترف التي يمكن أن يستغنى عنها فقد وجدت

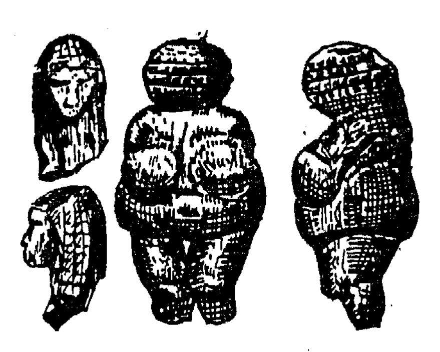
---

(١) كانت الكثافة منخفضة بالنسبة لما صارت عليه الحال في العصور اللاحقة ولكنها كانت مرتفعة نسبياً إذا ما قورنت بكثافات العصور السابقة ونبني حكمناهذاعلى كثرة الهياكل العظيمة التي عثر عليها والتي يستدل منها على أن الناس كانوا يتزايدون تزايداً محسوساً بفضل وفرة المواد الغذائية وازدياد براعتهم في الحصول عليه .

(٢) كان اعداد الملابس يتطلب أدوات متخصصة مثل المخارز والسكاكين والأبر العظمية والعاجية وهذا ما وفره صيادو هذا العصر .

أصداف من البحر المتوسط في كهوف حوض الدوردوني بفرنسا. وعثر على بعض قطع الصوان في جاجارينو Gagarino على نهر الدون في جنوبي روسيا مجلوبة على ما يبدو من مكان يبعد نحو ٧٠ ميلاً في الوادي الأدنى للنهر إلى غير ذلك من الأمثلة مما يشير إلى أن صيادي هذا العصر لم يكونوا في عزلة تامة وأن تبادلهم الأشياء المادية أتاح فرصة لتبادل الأفكار أيضاً.

كما أن كثرة تماثيل النساء وخاصة الحوامل (شكل ١٢) والاهتمام بالجنس والولادة ربما كان مقدمة لظهور فكرة الروح. وتدل طريقة دفن الميت وما كان



شكل (١٢) تماثيل نسائية ـ عصر حجري قديم اعلى

يترك معه من أدوات وأشياء للزينة على فكرة البعث بعد الموت. وهناك من الشواهد ما يدل على أنهم عرفوا التضحية لإرضاء الأرواح ومصادقتها مما يجعلنا نرجح أن الحياة الروحية أخذت في الظهور منذ هذا الزمن البعيد. ولا بد وأن السحر (ومراسيمه المعقدة) قد لعب دوراً هاماً في هذه الحياة الروحية فكانت لصور الكهوف فائدة سحرية وكذلك كانت لتماثيل النساء المصنوعة من الصخر أو العاج أو حتى الطين علاقة بالطقوس الخاصة بزيادة الخصب والنماء. وربما استخدمت الأصداف وأسنان الحيوانات التي كانت تنظم في شكل عقود كزينة شخصية وكتعاويذ لها فعل السحر لنقل إن ثالوث الفن والسحر والخرافة تأصل

في هذا العصر. وإن الساحر الفنان كان أول الاخصائيين الذين عاشوا على فائض من الغذاء لم يسهم بجهد في جمعه [1] .

نعود فنقول أنه في نطـــاق عريض من الأرض امتد من قلب آسيا حتى سواحل أوربا الأطلسية ظهرت حضارات هذا العصر الحجري الأعلى متطورة إذا ما قورنت بحضارات جهات أخرى وفي تسلسل واضح غير منقطع [2] . ولعل أهم ما تتصف به هذه الصناعات هو شدة تنوعها وتخصصها إذا ما قورنت بصناعات العصرين الحجري القديم الأسفل والأوسط سواء منها السابقة أو التي ظلت باقية في جهات واسعة من أفريقية المدارية وجنوب شرقي آسيا حتى أواخر العصور الحجرية ، وعلى الرغم من أنه ظهرت دلالات قوية تشير إلى قيـــام حضارات العصر الحجري القديم الأعلى في جنوب غربي آسيا إلا أن تسلسل حضاراته في الجزء الجنوبي الغربي من فرنسا لا يزال أساس كل دراسة تبتغي الدقة .

تسلسل مبسط لحضارات العصر الحجري القديم الأعلى
في جنوب غربي فرنسا (من الاقدم إلى الاحدث)

الحضارة	التاريخ
الشاتلبيرونية (أو البيريجوديه السفلى) (Lower Perigordian) Chàtelperonian	٣٢,٠٠٠ — ٢٨,٠٠٠ سنة
الاورنياسية Aurignacian	٢٨,٠٠٠ — ٢٢,٠٠٠ »

---

(١) Childe, G. What Happened in History, London 1955

(٢) Clark, G. op. cit., p 51

الجرافيتية (أو البيرجوردية العليا) (Upper Perigordian) Gravettian	٣٢,٠٠٠ – ١٨,٠٠٠ سنة
السلوترية Solutrean	٢٨,٠٠٠ – ١٥,٠٠٠ »
المجدلية Magalenian	١٥,٠٠٠ – ٨,٠٠٠ »

وأقدم هذه الحضارات هي الاقل أهمية فمعظم آثار الحضارة الشاتليبرونية من النوع الموستيري الذي رأيناه وإذا وجدت آلات متطورة فإن تطورها محلي وإن كنا لا نجزم بأنها لم تتأثر بعناصر دخيلة من وسط أوربا ويطلق على هذه الصناعة أيضاً إسم البيريجوردية السفلى . وأقدم آلاتها نصل أودي Udi الذي يتميز بطرف مستقيم بعد أن كان في السابق منحنياً وقد يطلق عليه أحياناً اسم المكان الذي وجد فيه وهو شاتلبيرون Chàtelperron . ولحق الشاتلبيرونية الحضارة الاورنياسية ثم الجرافيتية. وتتميز هاتان الحضارتان بأن اصحابها صنعوا أقدم آلات الشظايا وأوسعها انتشاراً من النصال والأزاميل والمخارز Burins (أنظر شكل ٦) واختصت الحضارة الأورنياسية بنصال عظمية ومقاشط صوانية ذات حواف حادة تكونت بعد تشظية ثانية فضلاً عن مخارز تشبه مناقير الطير . ومن ناحية أخرى تختص بمدى صوانية ونصال وخطاطيف مشظاة تشظية حادة . وتنتشر الآلات الأورنياسية بين أفغانستان وشمالي العراق في الشرق وجبال كانتبريان في الغرب في نطاق تشمل القوقاز والقرم وسوريا وفلسطين ويمتد غرباً ليشمل رومانيا والمجر والنمسا السفلى وجنوب ألمانيا وفرنسا . وعاش أصحاب الصناعة الجرافيتية في نطاق آخر يبدأ من جنوبي روسيا وخاصة على جوانب نهري دون والدينيبر وروافدهما ويمتد غرباً إلى وسط أوربا وينتهي في اسبانيا بعد أن يخترق فرنسا .

ولا يعرف إلا القليل جداً عن أصل هاتين الحضارتين ولكن يمكن القول

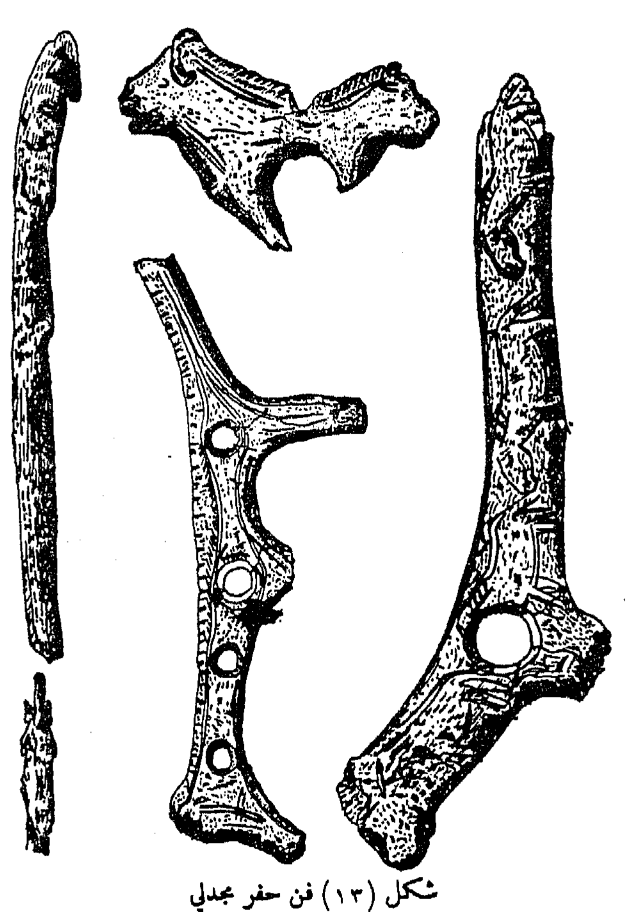
في ضوء الكشوف الاثرية أن الصناعتين الأوريناسية والجرافيتية شعبتان متخصصتان ترجعان لاصل واحد نشأ في نطاق واسع في جنوب غربي آسيا ويحدد تاريخ الصناعة الأوريناسية في آسيا بنحو ٣٥ ألف سنة ق.م. بينما يقدر عمر الجرافيتية في وسط أوربا بنحو ٢٨٠٠٠ ق.م. ولنا أن نتبين الفرق بين صناع النصال والازاميل والمخارز الأوريناسية والجرافيتية من ناحية وصناع آلات الشظايا الموستيرية واللفلواظية من ناحية أخرى. الفرق كبير ليس فقط فيما ابتدعته يد الاوريناسيين والجرافتيين وفي ملاءمة مساكنهم للظروف الطبيعية. ولكن في إحساسهم الجمالي وأهم من ذلك في استعدادهم ومقدرتهم الزائدة على التطور الحضاري. وهذه الصفات هي بالتأكيد التي ميزت أهل العصر الحجري القديم الأعلى على من سبقوهم من أشباه البشر وهي التي دفعت بهم في طريق الحضارة بخطى ثابتة.

الحضارة السولترية :

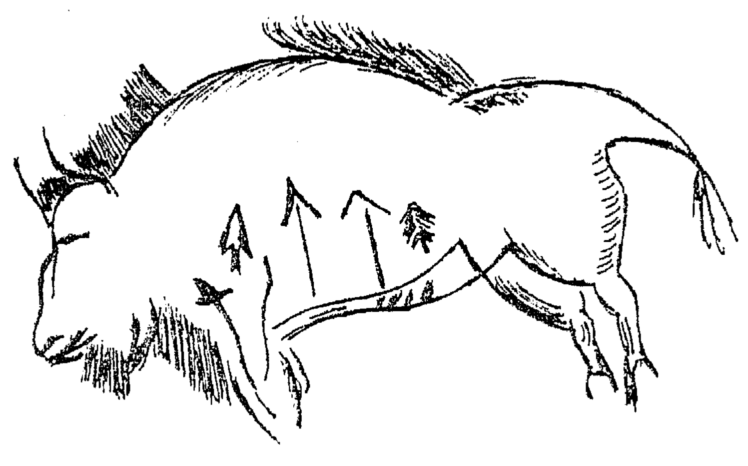
أن تقليد حضارة لاحقة حضارة سابقة أمر لا يدعو إلى الاستغراب طالما أن في ذلك استجاجة ناجحة للظروف المحيطة. وهذا على ما يبدو هو ما فعله أصحاب الحضارة السولترية اللاحقة والتي يغلب على الظن أنها وافدة من شمالي المجر وبلغت في انتشارها شمالي فرنسا وجنوبها الغربي. ولم يهتم السولتريون بالفنون التشكيلية ولكنهم صنعوا آلات من الصوان كبيرة ولكنها دقيقة الصنع تحاكي في شكلها ورق الغار ولذا سميت مسننات ورق الغار Laurel leaf points. وهم ولا شك يدينون لصناع السهام الموستيرية بل وصناع آلات النواة الأشولية بشيء من الفضل. فهناك تشابه في الشكل رغم بعد الزمن. وتشير الدراسات الأثرية إلى أن هذه الجماعات السولترية قامت بصيد الخيول الوحشية وهذه كانت كثيرة في نطاق الحشائش في أوربا آنذاك ولكنها هجرت أوربا في نهاية أيامهم إلى آسيا على أثر تغير الأحوال المناخية وحلول الغابات محل المراعي. كذلك هجرت الرنة فرنسا وحل محلها الوعل الأحمر من اسبانيا.

الحضارة المجدلية :

في تلك الأثنــاء تقهقرت الحضارة السولترية لتخلفها الحضارة المجدلية التي تميزت بمدي رديئة الصناعة إلا أن الازاميل والمثاقب كثر استخدامهــا بدليل وفرتها وفي نفس الوقت قلت صناعــة المقاشط والسهام . وتُقسم هذه الحضارة إلى ست مراحل كانت الاولى منها فقيرة في انجازاتها الفنية ولكن تميزت المرحلة الرابعة بسهام وخطاطيف وأبر مصنوعة من العظام والعــاج وقرون الوعول (شكل ٧) وربما كان مرجع ذلك إلى تحسن أحوال الصياديين وكثرة صيدهم واتساع وقت الفراغ لديهم مما سمح لهم بصناعة هذه الآلات الدقيقة وتزيينهــا بالصور والرسوم كما برعوا في الرسم على الحجر (شكل ١٣ ، ١٤) . فلما زاد



شكل (١٣) فن حفر مجدلي



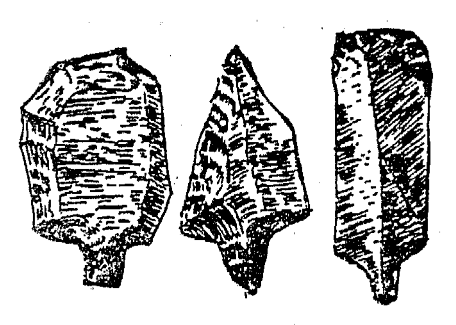
شكل (١٤) فن رسم مجدلي

طغيان الغابة على مراعي الاستبس هاجرت قطعان الماموث والوعول والثيران البرية وكان ذلك ايذاناً بتلاشي الحضارة المجدلية .

حضارات العصر خارج فرنسا :

هذا عن حضارات العصر الحجري القديم الاعلى في فرنسا فماذا عن حضارته في بقية العالم المعمور ؟ . وجدت في فلسطين آلات أوريناسيه عبارة عن سهام عريضة ومخارز ومقاشط ومدي غير مرهفة الحد ولكنها أدق نوعاً في صنعتها من مثيلاتها في غربي أوربا . وقد ظهر من دراسة الادلة الاثرية أن حضارة فلسطين هذه شابهت في منجزاتها المادية تلك الحضارات التي ظهرت في القرم وفي وسط أوربا وإن كنا لم نعثر على ما يهدينا إلى نشأتها الاولى . وإن انتقلنا إلى افريقية نجد أن ازدياد الجفاف جلب معه الفقر وأن الصناعة العاطرية (شكل ١٥) استمرت في هذا العصر وأسلمت منجزاتها للعصور اللاحقة . كما أن مصر صارت على ما يبدو في عزلة نسبية وظهر في جنوبها صناعة لقلواظية متدهورة وتسمى سبيلية وتتمثل في شظايا صغيرة يماد تشظيتها كلما ثلم حدها كما تخلو من المخارز والازاميل . هذا في جنوب مصر أما في شمالها فقد ظهرت

في شمالي حلوان أسلحة تشبه في خصائصها تلك التي عرفها جنوب غربي آسيا مما يشير إلى قيام صلة بين مصر وجنوب غربي آسيا منذ هذا الزمن البعيد .

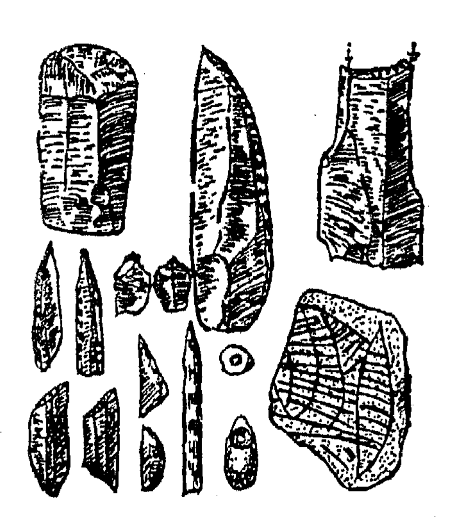


شكل (١٥) آلات عاطرية

وبعيداً في جنوب تونس وشرقي الجزائر ظهرت الصناعة القفصية متمثلة في مدى رقيقة وطويلة ومخارز وأسلحة قزمية متخذة شكل مثلثات ومعينات (شكل ١٦) وقد صارت هذه الأسلحة القزمية فيما بعد هي السائدة في العصر اللاحق. وقد بقيت هذه الصناعة المحلية دهراً طويلاً مما يشير إلى أنها افريقية النشأة وليست وافدة من اسبانيا كما يعتقد بعض العلماء . وعلى مقربة من الصناعة القفصية من جهة الغرب ظهرت الصناعة الوهرانية وهي صناعة فقيرة تتميز بقلة الأسلحة القزمية ذات الأشكال الهندسية .

وتتفق نهاية العصر الحجري القديم الاعلى مع نهاية العصر الجليدي وتقهقر الجليد نحو الشمال . فبدأ صيادو الرنة في اوربا في التقدم شمالاً فغزوا السهل الاوربي الشمالي حتى بلغوا شمالي هولندة وجنوبي انجلترا غرباً وبلغوا في هجراتهم خط عرض ٥٥° ش. ويرجح أن مساكنهم قامت فوق سطح الارض فهناك أدلة من شمالي ألمانيا تشير إلى أنهم سكنوا خياما من جلود الحيوانات وإن كان بعض سكان بريطانيا لجأوا إلى الكهوف حيثما وجدت . ونضيف أنه ما كاد العصر الجليدي ينتهي حتى بدأ الانسان في سكنى سيبيريا لاول مرة وذلك في منطقة

يحدها من جهة الشمال نطاق من البحيرات والمناقع يقع بين جبال الاورال ونهر ينسي ومن جهة الجنوب مرتفعات وسط آسيا التي كانت لا تزال في أغلبها مغطاة بالجليد . سكن هذا الانسان بيوتاً يقع أسفلها تحت سطح الارض وبني أعلاها من الطين والحجارة تماماً كما يفعل الاسكيمي عند بناء مسكنه. وصنع مثله ملابس من فراء الحيوانات . ولا شك أن دراسة حضارات سيبيريا في هذه الفترة سيلقي ضوءاً قوياً على حضارة الغزاة الاوائل للعالم الجديد . وإذا كنا لم نعثر شمالي خط عرض ٦١° ش على آثار الإنسان فليس معنى ذلك أنه لم يتوغل شمالاً أبعد من ذلك وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن السهل الذي يقع إلى الشمال من جبال سيبيريا الشمالية الشرقية الموحشة والذي ربط يوماً بين ألسكا والجزء الادنى من وادي نهر لينا غمرته مياه البحر في الفترة التي أعقبت العصر الجليدي فمحت بصمات الانسان من وجه الطبيعة .



شكل (١٦) آلات قفصية

الفصل السادس

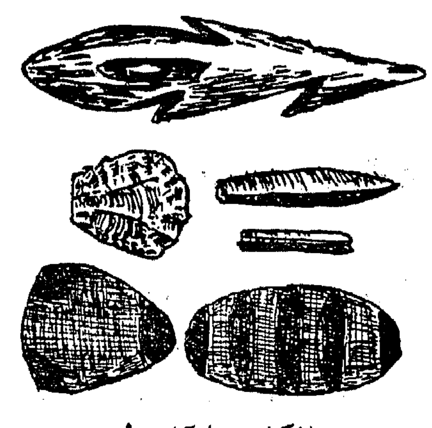
٣ ـــ حضارات العصر الحجري المتوسط

تلاشت الحضارة الجدلية إذن نتيجة لتغير ظروف المناخ وانتشار الغابات وحل عصر يسمى حضاريا بالعصر الحجري المتوسط Mesolithic .بدأ في غربي أوربا والشرق منذ نحو ١٠ آلاف سنة. بيد أنه لا يعترف بوجوده إلا في الجهات التي تغير مناخها بشكل ملموس . وهي تلك المناطق التي ارتفعت فيها درجات الحرارة و كثرت امطارها كما في شمال غربي أوربا . أو زاد جفافها كما في شمالي أفريقية . أما في المناطق الوسطى كإيطاليا واسبانيا فإن من الصعب التمييز بين حضارة هذا العصر والحضارة السابقة . فقد تدرجت الحضارة فيها ببطء من حجرية قديمة متأخرة إلى حجرية متوسطة .

في هذا العصر ظهرت في شمال غربي أوربا حضارات كشف عنها النقاب في أواخر القرن التاسع عشر.فقد ظهرت الحضارة الأزيلية Azilian [١].وتتميز بأن أصحابها قنصوا الغزال الأحمر وكلب الماء والأرانب واصطادوا الأسماك . أما الرنة التي كانت سائدة في هذا الاقليم في العصر السابق فقد اختفت إذ لم نعثر على عظامها بين مخلفات الحضارة الأزيلية . وتتميز آلاتها الحجرية بصغر الحجم فهي شظاياصوانية تأخذشكل المدى الصغيرة ذات الحد الواحد والمقاشط

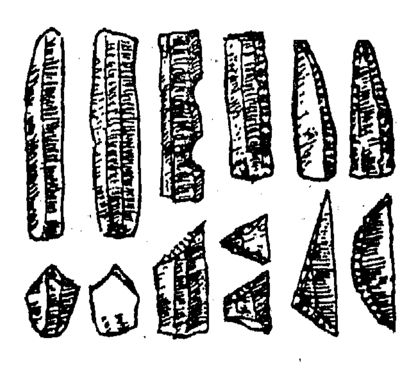
(١) نسبة إلى كهف Mas d'Azil في مقاطعة أريج Ariege في جنوب غربي فرنسا

المستديرة . واتخذوا من العظام وقرون الحيوانات الخطاطيف لعل من أكثرها انتشارا خطاف من قرون الغزال صغير مفلطح له ثقب في قاعدته وذو شوكات غير منتظمة الترتيب (شكل ١٧) واختفى فن صناعة التماثيل ليحل محله تلوين الحصى الصغير بخطوط وبقع ربما رموز بلون المغرة الأحمر (الشكل نفسه) .



(شكل ١٧) آلات أزيلية

وظهرت أيضاً الحضارة الطردنوازية [١] وتتميز بأسلحتها الحجرية القزمية وبأشكالها الهندسية ففيها المثلث والمربع والمنحرف والمستدير (شكل ١٨) .



شكل (١٨) آلات طردنوازية قزمية

(١) نسبة إلى اقليم Feré - en - Tardenois

ولعل أهم الآلات المميزة الحفر القزمي . ويبدو أن هذه الحضارة ظلت فترة طويلة فقدوجدت آثارها في بضعة مواضع بفرنسا مختلطة بآثار العصر اللاحق – الحجري الحديث من الفخار ورؤوس الرماح والأحجار المصقولة . وتشبه الطردنوازية حضارة تسمى السوفتيرية Sauveterrian [1] ولكنها تختلف عنها في كثرة الأسلحة القزمية ذات الشكل المثلث والمربع والمنحرف الأضلاع .

وتعتبر الحضارة الماجليموزية تطوراً محلياً لحضارة العصر . كانت هي السائدة في إقليم البحر البلطي والأراضي المطلةعلى بحر الشمال عندما بلغت الغابة الصنوبرية مداها في الانتشار نحو الجنوب وعاش أصحابها بقنص الحيوانات والطيور وصيد الأسماك ولهذا الحديث عودة .

رأينا كيف بدأ الناس يهجرون الكهوف ليسكنوا الخيام والأكواخ في أواخر أيام الحضارة الجدلية . أما في هذا العصر فقد انتشروا في جماعات صغيرة في الغابة الواسعة وعلى سواحل البحار أو حول المستنقعات وعلى شواطىء الأنهار يصطادون الأسماك ويقنصون حيوانات الغابة وطيورها . وعلى خلاف ما كانت عليه الأحوال في المرحلة السادسة من الحضارة الجدلية فإن مجتمعات هذا العصر الوسيط تبدو غاية في الفقر . ومع ذلك ففضلها على الحضارة كبير . فقد بدأ الإنسان لأول مرة محاولته لاستئناس الحيوان . وربما تربية النباتات في مكان ما في غربي آسيا وذلك بعد محاولات صعبة بطيئة . ومن بين الحيوانات التي ألفت الإنسان وحامت حوله مدة قبل ذلك الكلاب . فقد وجدت عظام لنوع مستأنس منها في مواضع في البرتغال وفي فرنسا ومنطقة بحر البلطيق والقرم . ولا شك أن الكلب ساعد الإنسان على قنص بعض ما كان يطارده في الغابة الأوربيه من الغزلان والخنازير البرية والأرانب [2] . إلى جانب الكلب أستأنست

---

(١) نسبة إلى Sauveterre - la- L'emance

(٢) Childe , G . (1950) op . cit ., P . 43 .

هذه المجتمعات أو حاولت استئناس كل الحيوانات المعروفة الآن . وأخذت قبيل نهاية العصر في زراعة الحبوب . وكان عملها هذا بداية لمرحلة جديدة في تطور اقتصاديات البشر .

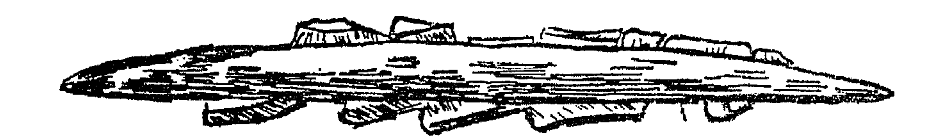
ففي خلال بضعة قرون أصبحت الزراعة وتربية الحيوانات لأول مرة الأساس المتين لاقتصاد بعض المجتمعات في الشرق الأوسط في الوقت الذي احتل فيه الصيد والقنص المرتبة الثانية. وهكذا بدأ ارساء قواعد الحضارة الزراعية في العالم القديم . وإلى هذه المجتمعات يرجع الفضل أيضاً في نقل نمط الحياة القديمة حياة الصيد والقنص إلى كل الجهات الشاسعة التي انتقلت إليها الزراعة (خلال آلاف السنين) من المراكز الأولى في الشرق إلى أطراف العالم ، مما سمح بتنوع الحضارات المحلية في العصر اللاحق .

الماجليموزيون :

ولما كانت الغابة هي الظاهرة البارزة في أوربا (بين بريطانيا والأورال) فقد ابتكر الماجليموزيون [1] أدوات لقطع الأشجار وإزالة الغابات وتجهيز الأخشاب ، أدوات كالفؤوس والمطارق والأزاميل . كذلك تمكنوا من نقل هذه الأخشاب على مزالج تتحرك على الجليد وجدت آثارها مطمورة في مستنقعات فنلندة. وكما برع الماجليموزيون في استخدام الخشب وتفننوا في استخدام العظام والقرون على أوسع نطاق . فصنعوا منها رؤوس المعاول والسهام المسننة من كل شكل وحجم (شكل ١٩) وشصوصاً لصيد الأسماك وابراً لصنع الشباك ومخارز لصناعة الجلود . وكانت علامة بلوغ هذه الحضارة قمتها عندما وجه أصحابها اهتماماً كبيراً للفن رسماً ونحتاً وحفراً . وربما كان سبب ازدهار الفن أن البيئة كانت مثالية للصيد والقنص وجد فيها الماجليموزيون الغذاء بوفرة فاعطوا جانباً من وقتهم للفن. وإنه لرأي مقبول ذلك الذي يقول بأن الذي دفع مجتمعات هذا العصر إلى استئناس الحيوانات وتربية النباتات هو الجفاف الذي أخذ يزداد شدة

---

(١) نسبة إلى مغيض Magle mose في الدنمارك .





(شكل ١٩) آلات صيد ماجليموزية

بعد انتهاء الدور المطير الأخير وذلـــك في بعض جنوب غربي آسيا والصحراء الكبرى وشمالي أفريقية ،فقد اندفع سكان الصحراء الكبرى وشمالي أفريقية نحو الشمال أو الجنوب أو نحو وادي النيل . كما دفعت هذه الظروف القاسية الناس نحو سوريا من ناحية ونحو العراق من ناحية أخرى. ومن ثم أصبح النيل والفرات وربما بعض المناطق المجاورة أيضاً من مواطن الزراعة الأولى (زراعة الحبوب). بعد أن كانت مراتع لجمع الطعام . عاش هؤلاء الصيادون الجماعون على هوامش الاودية النهرية أول الأمر فتعلمت نساؤهم في العصر الحجري الحديث كيف تعتني بالنباتات التي تمدهم بالحبوب ولكنهم لم يتعلموا تهيئة الحقول إلا بعد تجارب كثيرة وطويلة. خلق الجفاف إذن حالة كان على الإنسان أن يقابلها إما بتقليل أعداده أو بتحسين أساليبه للحصول على غذائه وقد أختار الأمر الثاني فبدأ يعاون الطبيعة بعد أن كان يعيش على ثمارها .

الناطوفييون :

ونحن أكثر معرفة بالناطوفيين من غيرهم من الجماعات التي سكنت جنوب غربي آسيا في ذلك العصر . وقد حفظ لنا الوادي الذي ينتسبون إليه أغلب

آثارهم . وتدل الأبحاث أنهم تركزوا في نطاق ضيق من الأرض يقع غير بعيد من ساحل البحر المتوسط يحده شمالاً منطقة بيروت وجنوباً صحراء النقب.ولكن كانت لحضاراتهم امتدادات أبعد من ذلك شمالاً في سوريا وجنوباً في منطقة حلوان بجمهورية مصر العربية سكن أغلبهم في الكهوف وإن كانت الدراسات الحديثة أثبتت أنهم عرفوا السكن في الخلاء وذلك في أول ظهورهم . كما دفنوا موتاهم في مكان إقامتهم وتركوا مع البعض منهم أشياء للزينة . وتكشف آلاتهم التي خلفوها في مراحل تاريخهم الأول أنهم كانوا يعتمدون أساساً على القنص. وكان صيد الأسماك وجمع الحبوب البرية (وربما غير البرية) يأتيان في المرتبة الثانية . ويدل ما اكتشف من شصوص وخطاطيف وما وجد من شراشر Reaping -knives ومدقات حجرية على أنهم مارسوا هاتين الحرفتين الثانويتين .

هذا الشعب لم ينس تقاليد العصر الحجري القديم الأعلى وفنونه فصنع المدي الحجرية والأزاميل واستخدم العظام وقرون الحيوان في صناعة كثير من الادوات وأشياء الزينة كما اتقن رسم الحيوانات . بيد أن كثرة الاسلحة القزمية Microliths في هذه الحضارة تذكرنا دائماً بأننا في العصر الحجري المتوسط . وكان الشكل الغالب على هذه الاسلحة الصغيرة هو الشكل الهلالي ويبدو أن هذه الاشكال الهلالية من الصوان كانت تركب بسهولة في ثقوب تحفر في أيد عظميه وربما خشبية لصنع أداة للحصاد أو آلة للقتل .

هل كانت النباتات التي يجمعها الناطوفيون برية ؟ وهل عرفوا الحيوانات المستأنسه؟الحق أنه ليس تحت أيدينا ما يكشف عن نوع هذه النباتات ولا مدى تحسن نوعها بالتربية إذا كانت هناك تربية .ولكن يمكننا القول أن وجود أدوات حصاد متخصصة يوحي بأن الناطوفيين تمكنوا نتيجة لما بذلوه من جهد وما أظهروه من عناية بالنباتات أن يجدوا في بيئتهم أنواعاً لا تلقي ببذورها متى نضجت وإنما تنتظر من يجمعها . أما عن معرفتهم بالحيوانات المستأنسة فغير

مؤكدة بل ربما ينفيها عدم وجدد عظام لحيوانات مستأنسة واستخدامهم لمدقات حجرية في شكل حوافر حيوانات الصيد ورسمهم لرؤوس هذه الحيوانات على مقابض الشراشر. ويرجح في نفس الوقت أن القنص كان مصدر غذائهم الأساسي على الأقل في المراحل الأولى .

لنترك جنوب غربي آسيا ونعود إلى أوربا مرة أخرى لنرى ماذا حدث في أواخر هذا العصر . هناك من الدلائل ما يشير إلى أنـــه في أواخر هذا العصر أخذ سكان الشواطىء يوجهون اهتماماً متزايداً نحو صيد الثدييات البحرية والاسماك والقواقع . ولكن بعض العلمـاء يشك في ان هذا التطور كان شيئاً جديداً وأن طغيان مياه البحر على الشواطىء كان السبب في هذا التحول الجديد . ومهـما تكن الاسباب فإن ثروات المياه الساحلية استغلت في الفترة الا طلسية (بلغت قمتها في نحو ٤٠٠٠ ق.م) بنشاط ظاهر واستهلكت بكميات كبيرة يكشف عن ذلك وجود أكوام كثيرة من مخلفات الغذاء البحري في الدنمـارك وجنوب السويد وعلى جوانب القنال الشمالي الذي يفصـــل بين شمال شرقي ايرلندة [١] وجنوب غربي اسكتلندة وساحل موربيهان Morbihan في جنوبي بريتاني والسواحـل الشمالية لشبه الجزيرة الايبيرية . ويطلق علماء ما قبل التاريخ على حضارة سكان هذه السواحل عامة حضارة مخلفات المطابخ Kitchen - middens Culture .

وتتميز حضارة مجتمعات أواخر العصر الحجري المتوسط ممن سكنوا على مقربة من بحار أوربا الشمالية بوجود عناصر دخيلة من حضـارة العصر الحجري الحديث نقلها زراع من الداخل أو من جهة ما في الجنوب. وتتمثل هذه العناصر في الفخار وفي أشكال رؤوس السهام وطريقة تشظية الفؤوس الصوانية وأكثر

---

(١) عرف سكان شمال شرقي ايرلندة في العصر الحجري المتوسط باسم اللارينيين Larinians أما سكان الجانب المقابل في بريطانيا فيعرفون باسم الأوبانيين Obanians

من ذلك دلالة الجمع بين اسلوب الحياة القديمة (صيد وقنص) وتربية الحيوانات والزراعة .

وما من شك في أن هذه الصلات السابقة مهدت الطريق لعمليــــة تحضرية نشطة أدت إلى انفراد شمالي أوربا بخصائص حضارية منذ أوائل العصر الحجري الحديث . ويمكن أن يقال مثل ذلك ولو بصفة عامة على حضارات جنوب غربي أوربا . فقد تأثرت بعناصر دخيلة تنتمي إلى حضارة أكثر رقياً قادمة من مكان ما إلى الشرق . فقد قام أصحابها برعي الماعز والأغنام إلى جانب ما توارثوه من قنص وصيد . من هذا يتبين ان حضارة سكان أواخر العصر الحجري المتوسط في أوربا كانت مرحلة انتقالية بين تلك التي قامت على جميع الطعام من الطبيعة وتلك التي قامت أساساً على الزراعة . ونضيف أن هذه الفترة تمثل مرحلة هامة في انتشار الإنسان إلى اطراف أوربا الشمالية بعد أن تقهقر الجليد بعيداً جهــــة الشمال . فقد انتشر شمالاً حتى السواحل الشمالية لاسكتلندة وايرلندة الشماليــة والنرويج وروسيا الأوربية واستخدم في هجرته القوارب حيثما اعترضته مياه البحر .

الفصل السابع

٤ ـ حضارات العصر الحجرى الحديث

يتفق هذا العصر مع فترة تحسن المنـاخ في أوربا في أعقاب العصر الجليدي ومع دور مطير ثانوي في شمالي افريقية وجنوب غربي آسيا . فيه تقدمت حدود الغابات في أوراسيا وفيه عادت للجهـات التي جفت (في العروض شبه المدارية وأطراف الصحراء) إبان العصر الحجري المتوسط بعض الحياة التي عرفتها إبان الأدوار المطيرة السابقة . أما الإنسان فقد زرع ولكن لم يترك تربية الحيوانات والقنص والصيد على الأقل في المراحل الأولى [١] .

فن الزراعة :

وإذا كان الظن أن انسـان العصر الحجري المتوسط هو أول من بـدأ بتربية

---

(١) ظل الانسـان قانصاً وصائداً لمختلف الطرائد قرابة مليون عام . بل لم يترك حرفته هذه حين صار عاقلا (منذ نحو ٥٠ ألف سنة) فقد ظل أكثر من ٣٠ ألف سنة أخرى يعيش على ما تقدمه الطبيعة إذا ما أراد أن يأكل او يسكن أو يلبس. حياته كلها ركض وسعي وراء الغذاء ليس له من متاع الدنيا شيء يقتنيه بل لا يفكر في اقتناء شيء قد يعوقه عن حركته وسعيه الدائب طلباً للغذاء . حتى الاطفال والنسـاء كانوا عالة وعبئاً ومعوقاً .

النبات وتربية الحيوانات فان انسان العصر الحجري الحديث هو بالتأكيد الذي ابتدع فن الزراعة منذ سبعة أو ثمانية آلاف عام وقام بنشره في قارات العالم القديم . وهكذا بدأ الإنسان بتدبير منه يساعد الطبيعة بل ويتحكم فيها لصالحه. فاختار البذور وبذرها في أرض طيبة بعد تطهيرهـا من الأعشاب الضارة . وحصد محصولاً صار عماد حياته في مرحلة تالية . ولم يقف الأمر عند حد اكتشاف موارد جديدة للغذاء فقد اكتشفت المرأة في هذه الفترة كيف يتحول نوع من الطين إلى فخار وكيف يصنع الخبز بعد إضافة الخميرة وكيف تستخرج المشروبات الروحية من بعض الحبوب والثمار [1] .

واكتملت هذه الثورة الحضارية بصنع آلات خاصه باعداد الأرض كالمحراث وآلات لحصد المحصول كالمنجل المستقيم ذي الأسنان الصوانية وأدوات لفصل الحب عن القش ورحى لطحنه بعد ذلك . ولما كان من أركان اقتصاد هذا العصر أن تجمع أطعمة كافية في كل موسم وأن تخزن لتدوم حتى موعد نضج محصول السنة التالية فإن المخازن كانت ظاهرة بارزة في أية قرية زراعية قديمة . وقد ربطت الزراعة الإنسان بالأرض فاستقر وعاش في قرى ثم كان في مقدوره أن يملك اشياء كثيرة ويحتفظ بها ويعيش معه اطفاله ويورثهم ممتلكاته من بعده [2] . وفضلا عما وفرته هذه الزراعة المختلطة من استقرار فقد ضمنت له وفرة في الغذاء فزادت أعداده وكبرت آماله .

وسبق أن أشرنا إلى البدايات الأولى لتربية النباتات واستئناس الحيوان هنا

---

(١) Childe, G (1950) What Happened in History, London, p. 58

(٢) Hawkes, J. & Sir Leonard Woolley, Prehistory and the Beginning, of Civilization, vol. I, p. 220, London 1964.

في الشرق الأوسط في أواخر العصر الحجري المتوسط . وهنا ايضاً تم اكتشاف هذا الفن فن الزراعة في هذا العصر ومن ثم ذاع في العالم القديم شرقاً وغرباً وان كان ببطء شديد . فقد بلغ غربي أوربا بعد ثلاثة أو أربعة آلاف سنة منذ أن عرف في الشرق الأوسط. ويعزز هذا الرأي أنه في هذه البقعة من العالم تنمو الأصول البرية للقمح Triticum dicoccoides والشعير Hordeum Spontaneum وعاشت أغنام برية وماعز ومواشٍ وخنازير . وفوق ذلك توجد خامات معدنية وخاصة النحاس والقصدير والحديد أسهمت ولا شك في قيام حضارة المعدن بعد أن مهدت لها الزراعة .

صفات مشتركة :

ومع اعترافنا بأن الاقليمية كانت الصفة المميزة لحضارات العصر الحجري الحديث فإن هناك معالم مشتركة بينها جميعاً. منها صناعة الأواني الفخارية وصناعة الخشب ونسج الصوف والكتان والقطن وصناعة أنواع من القواديم والفؤوس المصقولة المشحوذة ذات الأيدي الخشبية والعظمية. ولكننا لا نعالج حضارة واحدة وإنما نحن إزاء عدد لا حد له من حضارات هذا العصر كل منها يتميز بأنواع من النباتات التي كانت تزرع والحيوانات التي كانت تربى واهتمام غير متساو بالزراعة وبتربية الحيوانات وتباين في مواضع القرى وفي تخطيط المساكن وبنائها وهناك فضلاً عن ذلك اختلافات لا حصر لها في أشكال الفؤوس وسائر الأدوات الأخرى وفي شكل الأواني وزخارفها بل هناك اختلافات أوسع في طقوس الدفن والشعائر وأساليب الفن . ويرجع هذا التنوع إلى تعدد الاكتشافات البسيطة المحلية والتي كانت تخدم غرضاً محلياً . وربما إلى اختلاط المعارف القديمة بكثير من الطلاسم والطقوس . وهكذا فإنه يمكن القول أن كل حضارة من حضارات العصر الحجري الحديث كانت انعكاساً لظروف البيئة الطبيعية وأفكار

وتقاليد أصحابها ومدى قدرتهم على استيعاب الأفكار المفيدة الواردة من خارج البيئة .

وقبل أن نضرب أمثلة محلية من هذه الحضارة خارج مصر لنحاول الآن أن نجيب عن كيف كان هذا الاقتصاد الذي تمتزج فيه الزراعة بتربية الحيوانات يطبق بها ثم ننظر بعد ذلك في الحياة الروحية لاصحاب هذه الحضارات ثم ننهي الموضوع بإشارة إلى ما يعتقد أنه من عيوب نظام الحياة الجديدة .

اكتفاء ذاتي :

في هذا العصر كان أغلب سكان أوربا وجنوب غربي آسيا يعيشون في قرى صغيرة يتراوح عدد مساكن الواحدة منها بين ٢٥ — ٣٥ مسكناً وتشتمل على مساحات متواضعة لا تزيد على ستة أفدنة ونصف الفدان . وكانت هذه المجموعات الصغيرة من السكان تشكل وحدات اجتماعيه يتعاون جميع أفرادها في جلب الخير المشترك ودرء الشر المشترك . فالطرق التي اصطفت على جنباتها المساكن كما في مرمدة بني سلامة (مصر) والازقة المسقوفة في بعض قرى اسكتلندة والخنادق والحواجز التي كانت تحمي بعض المحلات في البلقان وغربي أوربا كانت كلها من الاعمال الجماعية . وكما كانت الاسرة وحدة اقتصادية تكتفي نفسها بنفسها فكذلك كانت القرية ولكن على نطاق أوسع . فكل قرية كانت تزرع محاصيلها الغذائية وتصنع جميع الاسلحة والادوات والحاجات الاخرى اللازمة لسد مطالب الحياة اليومية . وفي نفس الوقت قامت كل اسرة بزراعة ما يكفيها من حبوب وتعاونت على اعداد الطعام وصنع الاواني والثياب والاسلحة والأدوات . وكانت تقوم بكل ذلك على أساس من تقسيم العمل بين الجنسين . فكان من شأن النسوة فلح الأرض وطحن الحبوب وصنع الخبز وغزل الخيوط ونسجها وصنع الأواني . أما الرجال فمن المحتمل أنهم كانوا يقومون بتنظيف

الحقول ويعدونها للزراعة ويبنون المساكن ويربون الماشية ويخرجون للصيد والقنص ويصنعون الآلات والاسلحة .

صلات خارجية :

على أنه يجب أن نوضح أن القرى في هذا العصر لم تكن تتبع في الغالب سياسة الاكتفاء الذاتي اتباعاً دقيقاً وخاصة تلك التي لا تعيش فى عزلة عن بقية العالم . فقد وجدت بين مخلفات كثير مما اكتشف منها مواد استجلبت من مسافات بعيدة . فأصداف البحر الأحمر كانت مطلب سكان الفيوم والمعادي لصنع العقود ولبس فلاحو الدانوب في المجر وأراضي الراين أساور وأنواعاً من الخرز صنعت من أصداف مجلوبة من البحر المتوسط . ونقلت بعض الأحجار الممتازة كالزجاج الطبيعي والصوان والحجارة الخضراء لصنع الفؤوس إلى مسافات بعيدة . حتى الاواني الفخارية التي يظن أنها كانت تحوي أشياء في داخلها حملت هي الاخرى مسافات كبيرة على مياه الانهار . وفوق ذلك فقد كانت هناك ارهاصات تخصص اقتصادي بين هذه الجماعات . فجماعة عرفت كيف تستخرج الصوان من مناجمه وتصنع منه فؤوساً نجدها موزعة في مناطق واسعة . وفي مقابل هذه الاحجار الممتازة حصلت على حاجتها من القمح واللحم وأخرى كانت تستبدل ما تنتجه من حبوب بجلود الحيوانات وثمار الغابة تماماً كما تفعل بعض الجماعات البدائية الآن في غربي افريقية .

الحياة الروحية :

ومع تبادل السلع والمنافع جرى على الأرجح تبادل الافكار والمعارف. وكما كانت لا توجد حضارة حجرية حديثة واحدة وإنما عدد كبير منها فإننا لا نستطيع التحدث عن « علم » حجري حديث واحد أو ديانة واحدة كما يقول جوردون تشيلد . فقد كانت هناك تقاليد علمية كثيرة مبنية على التجربة ،

تقاليدُ علمية في صنعة الخزف والجعة والخبز وتربية النبـاتات والحيوان وكانت كل جماعة تضيف إليها بالاسلوب الذي تراه مستعينة في ذلك بخبرتهـا الخاصة في بيئتها المحدودة . وبالمثل يمكن أن يقال أن الحياة الروحية على ضعفها اختلفت في الرمز لقوى الخير والشر والنماء والموت وإن كانت كل المجتمعـــات الحجرية الحديثة اتفقت في دفن موتاها بل وفي تكريمهم مما يشير إلى مدى الاحترام الذي بدأ يكنه الإنسان لموتاه .

ولكن على الرغم من كل ما جلبته حضـارة العصر الحجري الحديث من تغيير نحو الأفضل في حياة الإنسان الا أنها لم تســـلم من القيود التي حدت من تكاثره . فقد أدت التناقضات في الاقتصاد الجديد إلى انكماش في نمو السـكان لولاه لزاد العدد زيادة أكبر. ذلك أن زيادة الغذاء أدت إلى زيادة السكان واستتبع ذلك بحث عن حقول ومراع جديدة . وهكذا اضطر أهـــل القرى أو منتجو الطعام أن ينتشروا في الأرض ولكن على حساب جمـاعي الطعام من القانصين والصيادين والملتقطين. فكانت الحرب والمذابح التي حدت من نمو السكان. عامل آخر وقف في طريق زيادة مطردة في عدد النـاس هو زيادة خطر الكوارث الطبيعية على الحياة. فبممارسة الإنسان للزراعة والرعي صار هو ونباتاته وحيوناته عرضة لخطر الجفـــاف أو السيول أو العواصف أو الآفات القاتلة وخاصة أن موارده الاحتياطية كانت لا تزال متواضعة لا يمكن أن تسد مطالبه بعد سلسلة متعاقبة من الكوارث .

نجاح الانسان في الشرق الأوسط :

ولكن حدث في أواخر عصر ما قبل التاريخ أن نجح سكان الشرق الأوسط في التغلب على أسوأ العيوب في النظام الاقتصادي الذي عرفـه العصر الحجري الحديث. فقد استطاعوا بالتجربة العملية وبعد تعديـــل في الصلات الاجتماعية والاقتصادية من زيادة انتاج الأرض وبالتالي تكوين فـائض غذائي يسمح بإعالة

قسم من المجتمع لا يشترك بطريقة مباشرة في انتاج الطعام . وربما كانت الألف الرابعة قبل الميلاد هي اخصب فترات التاريخ قبـــل القرن السادس عشر من حيث كثرة ما ظهر فيها من ابتكارات واكتشافات مفيدة . أدت إلى ما يمكن ان نسميه بالانقلاب الحضري وظهور المدن . ونعود فنؤكد ان في هذه المنطقة من العالم لعبت الظروف الطبيعية دوراً في تطور الحضارة. ففيها وجدت الخامات المعدنية من النحـــاس والقصدير والحديد . وتشق أجزاء منها أنهاراً كبيرة تستدعي الاستفادة منها في الري تعاوناً في سبيـل الخير المشترك . كما يتطلب درء خطر فيضاناتها عملاً جماعياً وتنظيماً . وهي فضلاً عن ذلـــك طرق مُيسرة للحركة ونقل المتاجر .

وتنمو فيها في الأحوال الطبيعية أنوع مختلفة من الأشجار المثمرة من النخيل والكروم وأشجار التين والزيتون. استفاد منها الانسان بعد أن غرسها وتعهدها بالرعاية . والاقليم فوق ذلك متنوع البيئات فيه صحار وجبال هي في الغالب مواطن للرعاة الرحل إلا حيثما سمح المـــاء الباطني أو ماء السماء باستقرار في واحات وبقاع مبعثرة . وفيه سهول فيضية وبحرية تسمح بحياة مستقرة بفضل الأنهار ومياه الأمطار . ولا يمكننا التقليل من اهمية صفـــاء السماء في الأطوار الأولى للحضارة . فقد كانت سماء الشرق الأوسط الصافيـــة تتيح كل ليلة رؤية القبة السماوية وما فيها من نجوم وكواكب . وكانت هذه الملاحظة بداية موفقة لعلم الفلك .

ويحسن بنا قبل ان نتعرض لحضارات الشرق الأوسط أن نلقي بعض الضوء على نشأة الزراعة في هذه البقعة من العالم . يرى كلارك ان اكتشاف الزراعـــة حدث في الشرق الأوسط قبل بداية العصر الحجري الحديث وذلـك في الألف الثامنة قبل الميلاد [1] ، وقت ان كان الإنسان لا يزال يجهـــل صناعة الفخار

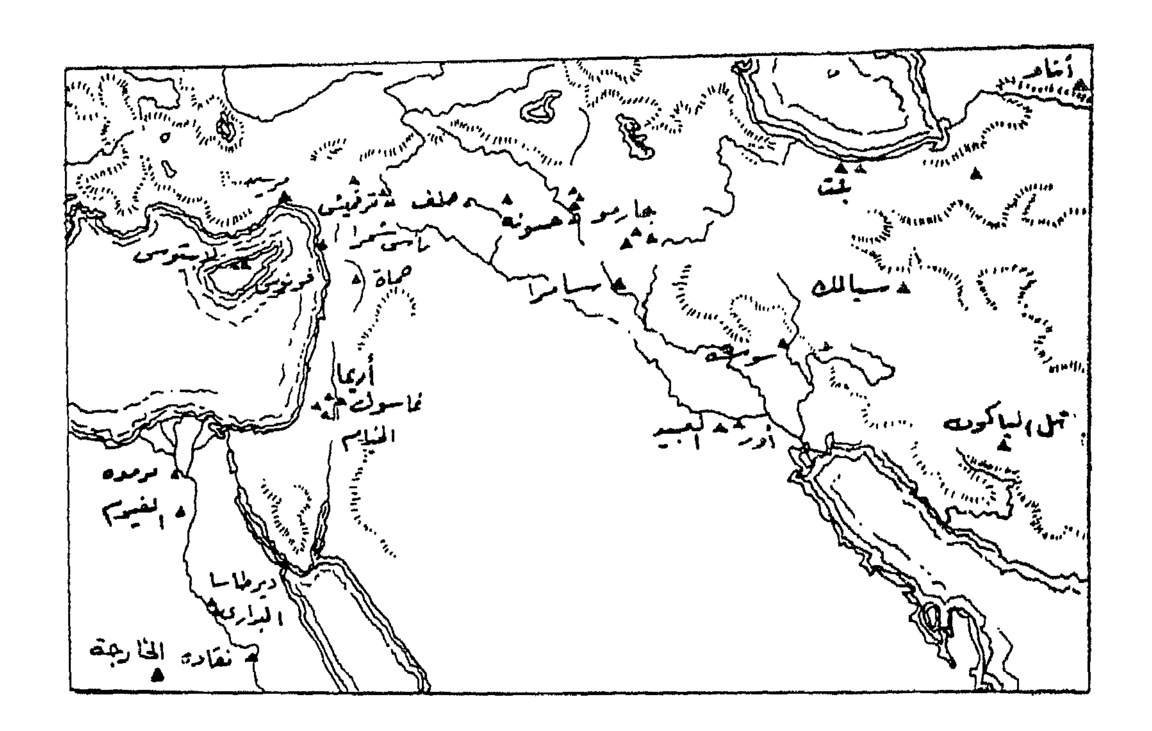
---

(١) Clark , G . op ., cit ., p . 77

بيد أنه يؤكد ان هذاالاختراع العظيم حدث خارج وديان الأنهار الكبيرة كالنيل ودجلة والفرات . فهذه الوديان لم تستوطن كما يزعم إلا بعد ان بلغ سكانها مرحلة اجتماعية وحضارية متقدمة . وعندما بلغوها قاموا بري الأرض وباستيراد المواد الخام اللازمة . وعلى الرغم من وجاهـــة هذا الرأي فإننا نختلف مع كلارك في تجاهله وديان الأنهار الكبرى كأوطان أولى للزراعة . ففي وادي النيل مثلاً لم تكن نشأة الزراعة مرتبطة بمعرفة الإنسان بالري . فقد كفى فيضان النهر المنتظم الإنسان مشقة نقل الماء إلى الأرض . كل ما كان عليه ان يفعله هو ان يلقي بالبذور في الأرض الرطبة وينتظر المحصول من الرب . على أننا لا ندعي ان مصر سبقت غيرها من أوطان الشرق الأوسط (بما في ذلك ايران) في معرفة الزراعـــة . فالأرجح ان هذا الكشف امتدت إليه مجتمعات الشرق الأوسط في وقت واحد أو في أوقات متقاربة ليس من السهل تحديدهـا . وإلى أن يتم تأريخ كل الآثار الحضارية في هذا الإقليم فستظل مشكلة تحديد الوطن الأول قائمة .

من حضارات الشرق الأوسط :

بدأ زراع الشرق الأوسط وصناع الآلات الحجرية يدخلون مرحلة جديدة من الحضارة عندما نجحوا في صناعة الفخار وذلـك في أواخر الألف السادسة ق.م ويمثل هذا التاريخ بصفة عامة البداية الحقيقية للعصر الحجري الحديث في هذا الاقليم . في هذا العصر ظهر في جنوب غربي آسيا ثلاثة مراكز حضـــارية ترتبط فيما بينها بعلاقات ووشائج تكشف عما يمكن أن نسمية بالحضارة السورية القيلقية Syro - Cilician . المركز الأول يشغـــل قيلقية Cilicia في جنوبي تركيا وتمثله مرسين ويمتد ليشمل غربي سوريا (أوغـاريت) وشمالي فلسطين . ويمثل المركز الثاني شمال غربي العراق وشرقي سوريا . أما الثالث فيقع على الهضبة الايرانية (سيالك) . في كل هذه المراكز الثلاث (شكل ٢٠) عاش أهـــل القرى في بيوت مكونة من حجرات مستطيـــلة الشكل (وهي التي كونت انقاضها خلال العصور اللاحقة تلك الاكوام الأثرية التي تجذب علماء ما قبل



(شكل ٢٠) أهم محلات العصر الحجري الحديث في جنوب غربي آسيا ومصر .

التاريخ والأثريين) . وصنع صناعها أوان فخارية بسيطة الشكل ذات فتحات ضيقة تزينها خطوط أفقية حزت في الآنية قبـــل ان تحرق بجد صدفة . وإلى جانب صناعة الآواني الفخارية عرف أصحاب هذه الحضارات النسيج وصناعة أنواع مختلفة من الأسلحة الصوانية والحجرية لعل أهمها مدي الحصد Reaping knives والفؤوس المصقولة ورؤوس الرماح المسننة .

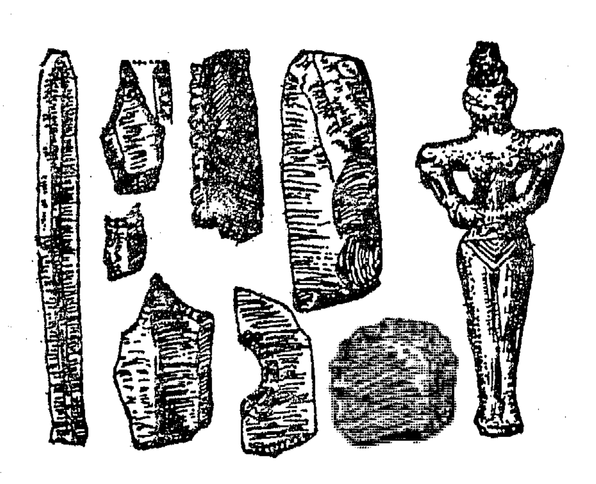
وتشابه حضارة تل حسونة (وهي أحدث من جارمو) هذه الحضارات وإن كانت تميزت بأن اصحابها سكنوا محلات مؤقتة وان الاهتمام كان موجهاً أساساً إلى تربية الحيوان. أما زراعة القمح فكانت في الدرجة الثانية من الأهمية والأخذ

عن الحضارة السورية القيلقية واضح في ذلك التشابه في الآلات الحجرية وطريقة تشظيتها وإلى حد ما في الفخار. الحق أن المنطقة الممتدة من مرسين في شرقي البحر المتوسط إلى دجلة في الشرق كانت في المراحل الاولى لهذا العصر وحدة حضارية . ولنا ان نأخذ تشابه الاشكال الهندسية على الآواني الفخارية في مرسين (٢٠ ، ٢٤) وحسونة (١ ب ، حـ ٢) ونينوى (١) وبيبلوس وأريحا كخير دليل على هذه الوحدة .

ولعل أول بادرة تشير إلى ان آشور بدأت تكون مركزاً حضارياً متميزاً بعد نهاية حضارة حسونة (١) تمثلت في فخار ذي صنعة متقدمة ومتميزة ظهر في تل حلف في أعالي الخابور . ولقد قامت على هذا التل في الالف الخامسة ق.م قرية مبنية من اللبن ذات حوائط مستقيمة وبين مبانيها طرق مغطاة بالحجارة. كان الحلفيون زراعاً وصناعاً مهرة فقد صنعوا من الفخار بأيديهم الاطباق وقنينات ذات اشكال جميلة زينت بمختلف الاشكال الهندسية وصور الاشخاص والحيوانات والالوان ذات البريق من الاحمر والبرتقالي والاصفر والاسود . حرقت على ما يبدو حرقاً جيداً في أفران حديثة ضخمة لها قباب بلغت درجة الحرارة في داخلها ١٢٠٠° م. ويدل تصميم بعض الاشكال الهندسية على أنهم عرفوا صناعة الحصر والنسج والسلال . واتقنوا صناعة الحجر الصلب فصنعوا منه بعض الاواني والاختام وحبات للعقود. واستخدموا آلات حجرية متنوعة (شكل ٢١) وبحثوا عن الزجاج الطبيعي في جهات بعيدة . فقد بلغ بهم السعي في طلبه بحيرة فان Lake Van في الشمال. وكانت لهم طقوس واعتقادات تكشف عنها تماثيل صغيرة للنساء ورسوم وعلامات على الاواني الفخارية ولكنهم لم يعرفو المعدن على الاقل في أيامهم الاولى .

في فلسطين :

ولم تكن سوريا وفلسطين ولبنان أقل عراقة من العراق من حيث قدم الزراعة



(شكل ٢١) آلات وتمثال من الحجر من حضارة حسونة

المستقرة. فوديان العاصي والأردن وسواحل الشام كانت مسرحاً لنشاط الإنسان في العصر الحجري الحديث. وقد سبق أن أشرنا إلى الناطوفيين في العصر الحجري المتوسط وكيف أنهم نشروا حضارتهم من حلوان جنوباً إلى سوريا شمالاً. وأنهم سبقوا جيرانهم في صناعة الأدوات وأشياء الزينة والرسم . وربما حاولوا في أواخر ايامهم استئناس الحيوان وتعهد النباتات البرية بالعناية والحراسة. وبحلول العصر الحجري الحديث كانت الحضارة الناطوفية قد تطورت في وادي الأردن في فلسطين على مقربة من نبع وافر المياه . ففي غور الأردن وعلى أرض تقع تحت مستوى سطح البحر بنحو ٣٣٠ متراً وقف تل أريحا رمزاً للحياة الزراعية المستقرة التي بدأت منذ أوائل الالف السابعة ق.م .

فقد أخذ أهل أريحا يهجرون حياة القنص وجمع الثمار البرية ليتحولوا تدريجياً إلى تربية النباتات والحيوانات ويقيموا في مساكن من الطين لها أسقف من الغاب. وبمرور الزمن تحولت قريتهم إلى محلة كبيرة وحصينة يشبهها بعض العلماء بالمدينة. يسكنها مجتمع مستقر يستورد الزجاج الطبيعي والصوان وغيره من الأحجار

ويصنع الاواني وأشياء الزينة من عقود وأساور ويصنع فضلاً عن ذلك الفؤوس والبلط المصقولة الملمعة والمناجل والرحى المختلفة . ولكن أدوات أهل أريحا كانت مع ذلك قزمية مما يجعلنا نرجح ان تقاليد العصر الحجري المتوسط لم تكن قد اختفت بعد . وكان أهم ما زرعه أهل أريحا قمح Emmer وهو نوع من القمح الصلب الرومي الصغير Eincorn وكذلك زرعوا الشعير. اما ما وجدناه من عظام الحيوانات فكانت للضأن والماعز والثور والخنزير والكلب . ولكننا لا نستطيع ان نؤكد ما إذا كانت كل هذه الحيوانات مستأنسة تماماً . اما الفخار فلم يعرفه الناطوفيون في مراحل حضارتهم الأولى. وفي النصف الثاني من الالف السابعة ق.م حل سكان جدد لسبب غير واضح محل السكان الاصليين وجلبوا معهم حضارة متميزة وإن كانت لها صلة بالحضارة الناطوفية في طورها الاول. في هذه الحضارة الجديدة تغير شكل المساكن من الشكل المستدير إلى الشكل المستطيل كما صارت لها اقبية وصار شكل المسكن اكثر رونقاً. اما التحصينات حول المحلة فلم تختلف عما كانت عليه . وكما فعل أهل جارمو [1] في تلك الفترة فقد صنع اهل اريحا الاطباق والاقداح من الحجر وبعض الاواني من الجلد والخشب والآلات من الصوان والحجر الطبيعي احياناً . ولعل خير دليل على أهمية الزراعة في هذه الفترة هو كثرة المناجل المتقنة والرحى الحجرية وإن كنا لم نعثر على فؤوس . واختفاء الفؤوس لا يمكن ان يتخذ دليلاً على جهل بالزراعة ، فكثرة ما وجد من احجار مثقوبة تجعلنا نرجح أن أهل أريحا استخدموا عصي الحفر بدل الفؤوس . هناك ما يشير أيضاً إلى أن السكان لم يهجروا قنص الحيوانات فعظام الحيوانات البرية كثيرة بدرجة تجعلنا نؤكد أهمية القنص وجمع الغذاء في اقتصاد هؤلاء الزراع .

ماذا عن الحياة الروحية ؟ هناك ما يؤيد وجودها بل تقدمها . فالتماثيل

---

(١) موضع يقع شرقي دجلة قبالة الموصل وبه آثار حضارة تنتمي إلى العصر الحجري الحديث

النسائية والجماجم المزينة تكشف عن عبادة الأجداد وعبادة آلهة الخصب والنماء. لكن لماذا بلغت أريحا هذا المستوى الحضاري الممتاز ؟ ولماذا عاش فيها ثلاثة آلاف من البشر عيشة مريحة في مساكن متقنة بينما عاش جيرانهم ممن عاصروهم في الكهوف أو في أحسن الأحوال في محلات صغيرة جداً ومتواضعة . تفسير ذلك أن أريحا قامت على مقربة من نبع وفير الماء مما شجع على زراعة الحبوب أو ربما الفواكه بنجاح . ولم تشجع كثرة المياه الدائمة على الزراعة فحسب بل شجعت على تنظيم الاجتماعي والتعاون واحترام حقوق الآخرين .

وفي النصف الثاني من الألف السادسة ق.م . عرف أهل أريحا الفخار ولكن أوانيهم كانت رديئة الصنع قبيحة اللون . وخزنوا الحبوب في حفر مبطنة باللبن ولكن الشيء الذي يثير الانتباه في حفائر أريحا التاسعة هو اكتشاف ثلاثة تماثيل طينية مقدسة لرجل له لحية وامرأة وطفل تشير إلى عبادة ثالوث مقدس منذ بضعة آلاف من السنين .

انتشار حضارة العصر غربا :

ويبدو ان انتشار الحضارة الحجرية الحديثة غرباً إلى بلاد البحر المتوسط . بدأ من الركن الشرقي للبحر المتوسط في المنطقة الممتدة من مصر إلى سوريا حتى جنوبي تركيا . وكانت علامة هذا الانتشار تلك الأواني الفخارية التي صنع منها اصحاب الحضارة السورية القيلقية والتي عرفت في مصر ايضاً . فقد وجدت في كريت ومالطة جنوبي ايطاليا وصقلية وجنوبي فرنسا وعلى الساحل الشرقي لاسبانيا وسواحل شمال غربي افريقية استخدمتها في كل تلك الأقاليم اقدم المجتمعات الزراعية التي حلت بها قادمة من الشرق عبر البحر . والرأي ان هذه الموجة الحضارية بدأت في الشرق قبل ان تبدأ الألف الرابعة ق .م . ولكنها لم تبلغ فرنسا واسبانيا إلا بعد فوات الف عام . ولكن يجب ان نشير إلى ان هذه الجماعات الزراعية القديمة لم تكن اول من حل بهذه الأقاليم فقد عاش فيها

من قبل مجتمعات العصر الحجري المتوسط . عاشت قبل مجيء هؤلاء الزراع من القنص والجمع والالتقاط وحاولت في وقت متأخر ان تحاكي اهل القرى في ناحية من نواحي حياتهم .

ولعل أقدم ما يمثل حضارة العصر الحجري الحديث في الغرب هو ما تركه اهل اقليم الميرية في جنوب شرقي اسبانيا في ذلك الوقت . وبدراسة آثارهم تبين أن فنونهم وطريقة حياتهم لم تختلف كثيراً عن فنون وطرائق حياة أصحاب حضارة مرمرة بني سلامة وحضارة العمرة عصر ما قبل الاسرات في مصر مما يشير إلى هجرة حضارية بلغت هذا الساحل من مصر واختلطت على الأرجح بهجرات أقدم قادمة من جنوب شرقي آسيا . ومن إقليم الميرية غزت حضارة العصر الحجري الحديث غربي أوربا [1] عن طريق إقليم برفانس ومن ثم انتقلت إلى شمالي القارة . وقد عرفنا أهم خصائص حضارة العصر الحجري الحديث في الغرب من دراسة حضارة سكان البحيرت السويسرية في ذلك العصر. فقد عاشت هذه الجماعات في مساكن قليلة خشبية مقامة على الماء الضحل القريب من شاطىء البحيرات . وقاموا بقطع الأشجار بقواديم وفؤوس حجرية ضخمة وكانت الماشيه أهم من الخنازير والأغنام والماعز . وزرعوا مساحات صغيرة بنوع رديء من القمح والشعير والبازلاء والفول والعدس والكتان . وجمعوا التفاح والبرقوق من أشجاره البرية وربما غرسوا هذه الأشجار فيما بعد . ونسجوا ملابسهم من ألياف الكتان وإن كانت جلود الحيوانات وفراؤها قد استخدمت لعمل الملابس الثقيلة . وفي الوقت الذي غزت فيه جماعات الزراع أوربا من ناحيه الجنوب الغربي قامت جماعات أخرى بغزوها من ناحية الجنوب

---

(١) ظهرت في أوربا في العصر الحديث حضارات محلية نذكر منها : حضارة سكان البحيرات في وسط أوربا وحضارة الدنمارك وحضارة الدانوب والحضارة المينوية في كريت وبعض جزر اليونان والحضارة الجاليثية على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط وحضارة مخلفات المطابخ في حوض البحر البلطي والحضارة الكامبينية Campignian في شمالي فرنسا .

الشرقي قادمة من جنوب غربي آسيا ومتخذة طريق البر عبر وادي الدانوب وانهار شمالي أوربا. وقد واصلت هذه الجماعات تقدمها حتى بلغت الدنمارك وجنوبي السويد في نحو ٣٠٠٠ ق.م. وهناك في الدنمارك قطعت الغابات وعاشت كما أثبتت الابحاث الأثرية في بيوت جماعية ضخمة يبلغ طول الواحد منها ٨٥ متراً . ومارست زراعة الحبوب وربت الماشية ولكنها لم تبد اهتماماً كبيراً بالقنص . ولتكملة رسم الصورة استطاعت هذه الجماعات وغيرها ان تنتشر في نطاق الغابات الشمالية في أوراسيا في وقت لاحق محاولة وضع اساس حياة الاستقرار بين جماعات كانت حتى العهود الحديثة ما برحت تقوم بجمع الطعام . اما في العالم الجديد فالرأي ان الزراعة هناك نشأت نشأة منفصلة وإن كانت في تاريخ متقارب مع تاريخها في الشرق الأوسط وانها عرفت محاصيل لم يعرفها العالم القديم وخاصة الذرة ولكنه لم يكن أقدم ما زرع . وكذلك لم يعرف زراع امريكا الشمالية وقسم كبير من امريكا الوسطى من الحيوانات المستأنسة والأليفة غير الكلب والديك الرومي والنحلة (١) .

انجازات حضارة هذا العصر في الزراعة :

ألمحنا فيما سبق إلى انجازات هذه الحضارة أو هذه الحضارات التي تنتمي إلى هذه الفترة المثيرة في حياة بني الانسان . ولكن هذة الانجازات تستحق منا وقفة قصيرة قبل أن نتابع مسيرتنا الحضارية .

الحبوب هي بلا جدال أهم وأعز ما زرعه الانسان في تاريخه الطويل سواء في العالم القديم أو الجديد . فالقمح والشعير والأرز والدخن في قارات العالم القديم والذرة في الأمريكيتين كانت بالنسبة لأجدادنا زراع العصر الحجري

(١) Hawkes , J & Woolley , L . op ., cit ., p . 245.

الحديث محاصيل أساسية. والأرجح أن زراعة هذه المحاصيل أخذت تنتشر منذ أوائل الألف الرابعة ق.م. عبر البحر إلى جزيرتي كريت وصقلية قادمة من سواحل البحر المتوسط الشرقي ومن ثم انتقلت إلى جنوبي القارة الأوربية ومن ثم أخذ الزراع الأوربيون يتحركون ببطء شديد نحو الغرب وربما لم يبلغوا فرنسا كما ذكرنا إلا بعد فوات ألف عام.ومع انتشار الزراعة في أوربا انتشرت القرى المستقرة والمدن الصغيرة والحضارة وزاد سكان المعمورة . ومن جنوب غربي آسيا أيضاً انتشرت الزراعة المختلطة شرقاً إلى الهند فالصين . وبمرور الزمن امتد نطاق الزراعة ليشمل مساحات أكبر (شكل ٢٢) ولينعم جزء كبير من البشرية بالاستقرار والحضارة .

ولقد لعبت البيئات المحلية دوراً هاماً في تحديد نوع الحبوب. فساد الأرز في أغلب جهات جنوب شرقي آسيا وساد القمح والشعير في أغلب جهات جنوب غربي آسيا وأوربا وشمالي افريقية. وإذا سلمنابأن الزراعة نشأت في العالم الجديد نشأة ذاتية فإن الوطن الأول لزراعة الذرة مختلف عليه . كما أن هناك من الشواهد ما يشير إلى أنه سبقت زراعته زراعة أنواع من القرع والبطيخ والشمام وجدت بقاياها (التي ترجع إلى أبعد من الألف السادسة ق.م) في المكسيك . أما الذرة فلم تزرع إلا في الألف الثالثة ق.م[١].

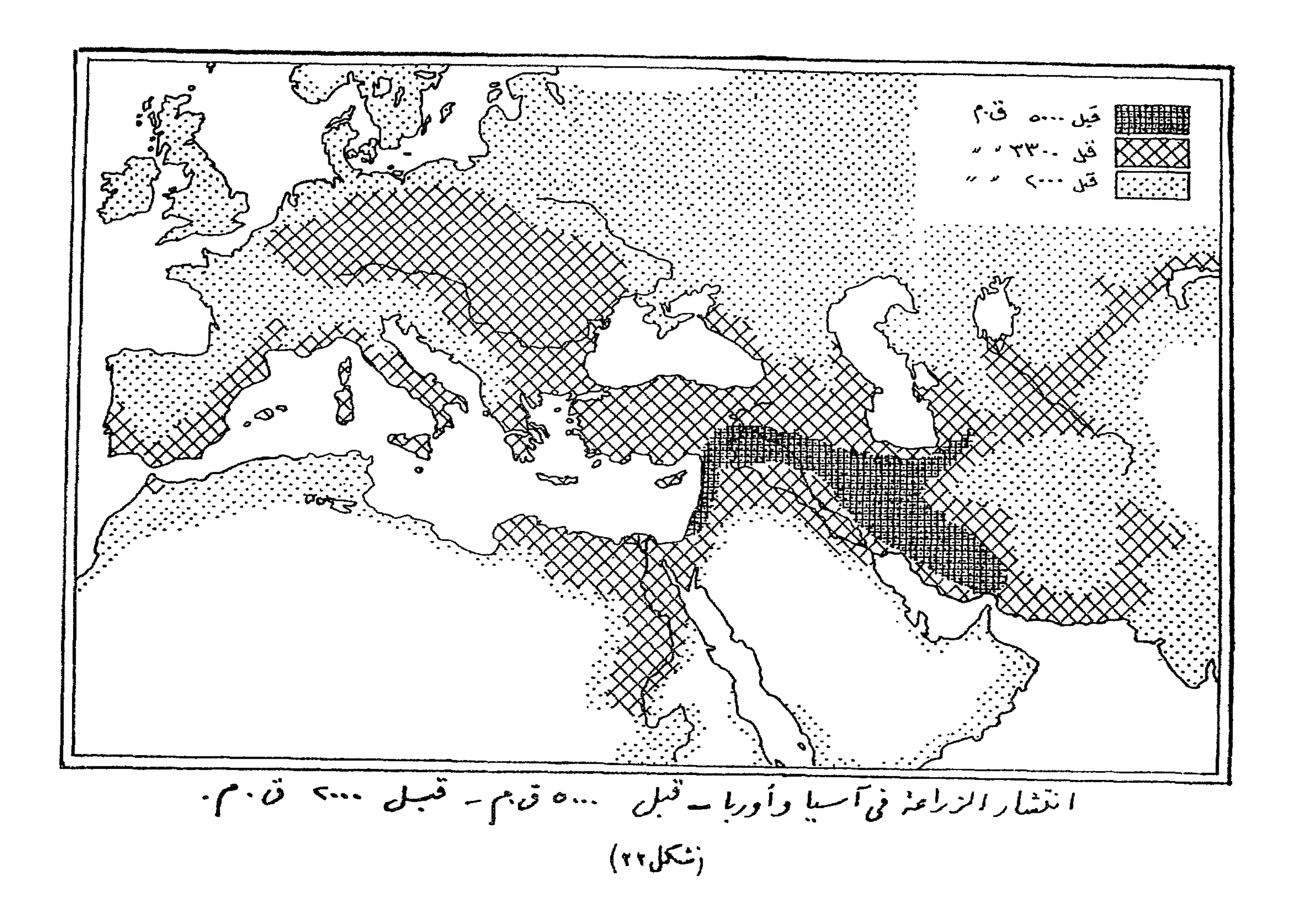
زراعة الحبوب :

لعل أهم اختلاف بين الأصول البرية للحبوب وتلك التي زرعها الانسان أن الأولى تلقي بحبوبها متى نضجت بينما تحتفظ الثانية بحبوبها حتى يحين ميعاد الحصاد . وربما قضى الزارع القديم ردحاً من الزمن قبل أن يوفق في تهجين تلك السلالات النباتية. وعلى الرغم من خطورة وأهمية فترة التجارب النباتية القديمة

---

(١) راجع A. Haukes J. & Woolley, L. op., cit., pp. 240 - 326

B. Sauer, C. Agricultural Origins and Dispersals, N. Y: 1955

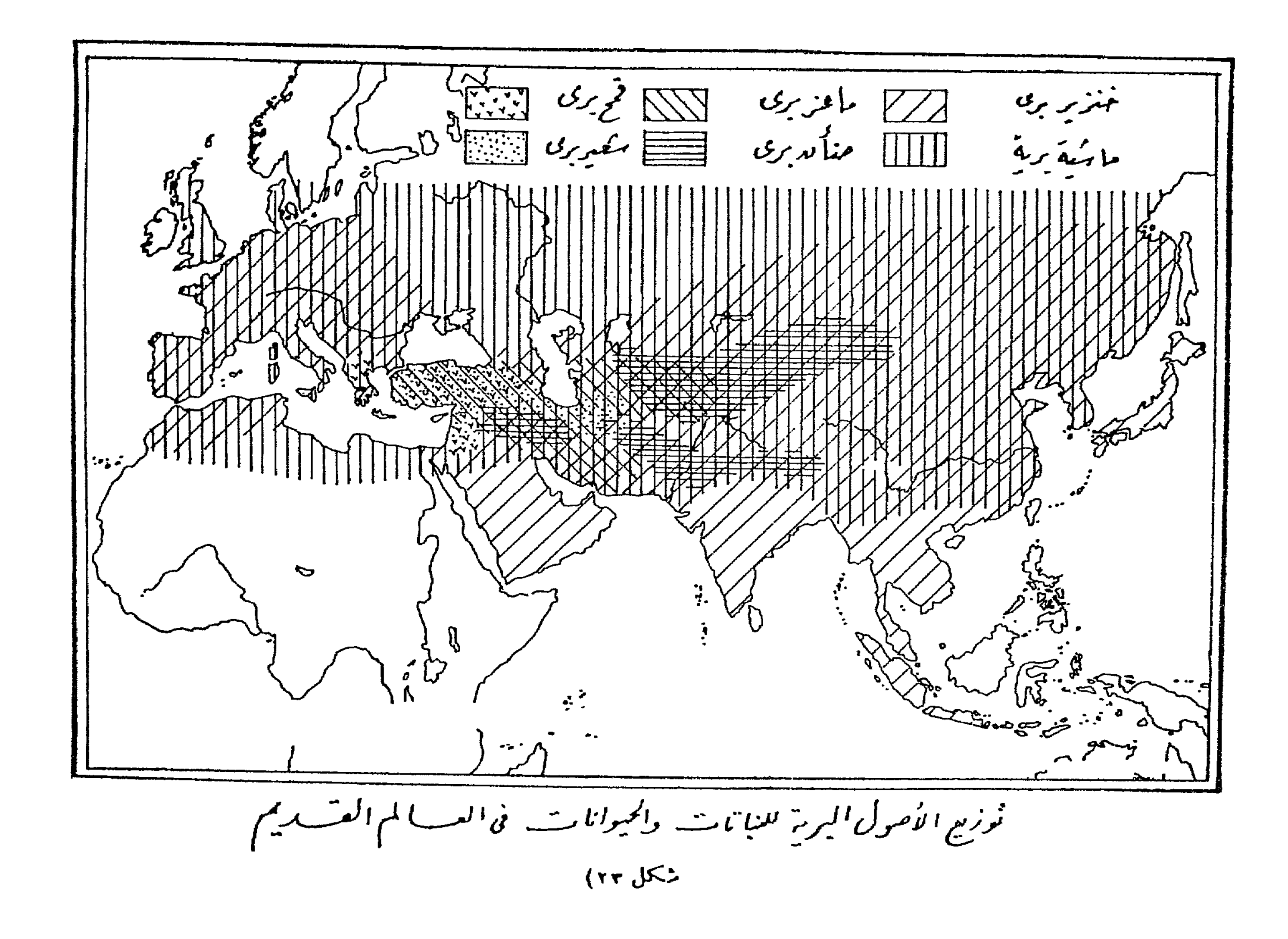


انتشار الزراعة في آسيا وأوربا - قبل ٥٠٠٠ ق.م - قبل ٢٠٠٠ ق.م.

(شكل ٢٢)

فإنه ليس تحت أيدينا من الأدلة ما يكفي لدراستها . ومن الحقائق التي تثـــير الانتبـــاه أيضاً أن كل مراكز الحضارة الزراعية الباكرة قامت بزراعة القمح والشعير معاً . ولا تعرف حضارة حجرية حديثة استعاضت بأحدهما بدل الآخر وإن كانت المنزلة الأولى للقمح في أغلب الأحوال. ويعتبر قمح المكرونة (أو الدكر Emmer) هو أوسع القموح انتشاراً في كل المواضع الأثرية القديمـــة (باستثناء بعض القرى الدانوبية) فقـــد وجد في الخرائب الأثرية في مصر وبريطانيا واسكنديناوه . ويشبه هذا القمح المزروع أصله البري المعروف علمياً تحت اسم Triticum dicoccoides (والذي ينمو في نطاق يمتد من سوريا وفلسطين في الغرب حتى ايران في الشرق) شبهاً كبيراً . ولولا تحقق العلماء من هذا النسب لظلت النظرية القائلة بأن الموطن الأصلي لهذا النوع من القمح هو الحبشة . ومن جنوب غربي آسيا انتقلت زراعته إلى بقية جهات العالم عن طريقين أساسيين : طريق جنوبي إلى مصر ومن ثم إلى أوربا حيث زرع بنجاح في حوض الدانوب وحول البحيرات السويسرية وفي بريطانيا واسكنديناوة. وطريق شرقي إلى جنوبي شرقي آسيا . ولكننا لا نعرف أصلا بريا للقمح الذي يعرف علمياً باسم T. Vulgare . والظن أن قمح الخبز هذا نجم عن طفرات حلت بقمح المكرونة في مكان ما وراء جبال القوقاز وإن كان هناك من علمـــاء النبات من يرى غير ذلك ويرجح أنـــه نتيجة لعملية تهجين تمت بين قمح المكرونة والقمح الرومي الصغير Small spelt . ونضيف أنه ما من حضارة حجرية حديثة اعتمدت أساساً على القموح التي تخرج من قشرتها بسهولة Naked Wheats فهذه انتشرت زراعتها في وقت متأخر وإن لم تكن مجهولة لدى أصحاب حضارات العمري في مصر والدانوب والدنمارك وقرى البحيرات السويسرية في أوربا .

ولأنواع الشعير المزروعة أصلان بريان (شكل ٢٣) واحد ينمو في فلسطين وبلاد العرب وآسيا الصغرى وايران وأفغانستان وينمو الثاني في التبت . وهذا يؤكد الرأي القائل أن زراعة الشعير انتشرت من مركزين أسيوين : واحد في



توزيع الأصول البرية للنباتات والحيوانات فى العالم القديم

(شكل ٢٣)

الشرق والآخر في الغرب . وقد وجدت أقدم أنواع الشعير (وكذلك القمح) في جارمو بشمالي العراق مما يشير إلى صلة بأصله البري في مكان قريب . وبفضل الزراعة المستمرة خلال الزمن اختلف هذا النوع عن أصله البري ويظهر هذا الاختلاف بصفة خاصة في شعير الفيوم وأناو . أما النوع الآخر الذي ينمو برياً في التبت فانه انتشر على نطاق واسع في أوربا في العصر الحجري الحديث وكذلك عرفته حضارتا الفيوم والبداري في مصر . وهذا ان دل على شيء فعلى أن هذا النوع الشرقي وجد ظروفاً مناسبة في الغرب أكثر مما وجده في الشرق الأقصى .

ولعل أشهر أنواع الدخن التي عرفها الأقدمون نوعان : الدخن الحقيقي أو الأصلي True Millet والدخن الايطالي Italian Millet . ولقد زرع الدخن الحقيقي قديماً في الهند ووسط آسيا وكان أساس اقتصاد الفلاح الصيني القديم . ويبدو أن زراعته انتشرت نحو الغرب عن طريق أوكرانيا وتراقيا والدانوب ومن ثم إلى سويسرا وألمانيا وفرنسا . وأما الدخن الايطالي فيعيش في جو أدفأ وينمو أصله البري في غربي آسيا (على شواطىء البحر المتوسط) وفي أوربا . ومن الجدير بالذكر أنه بينما حل القمح والشعير في الوقت الحاضر محل الدخن في الأقاليم المعتدلة فإنه لا زال عظيم الأهمية في الأقاليم المدارية التي لا ينجح فيها القمح . أما الشيلم والشوفان فربما ظلا قليلا الأهمية الاقتصادية حتى الألف الأخيرة قبل الميلاد .

والذرة هو هدية العالم الجديد إلى القديم أحضرها كولمبس معه بعد رحلته الشهيرة في عام ١٤٩٣ . ومنذ هذا التاريخ وهذه الغلة توسع مجال انتشارها . فبعد أن انتشرت زراعتها في جنوبي افريقية انتقلت عن طريق البنادقة إلى شمالي افريقية . وهي تزرع اليوم في بيئات متباينة في كل القارات . وكما أن الذرة هو هدية العالم الجديد إلى القديم فإن الأرز (ومن قبل القمح والشعير) هو هدية العالم القديم إلى الجديد وإن كان لا ينتشر فيه كإنتشاره في وطنه القديم . ويرجح أنه زرع

في وقت متأخر بعد معرفة زراعة القمح والشعير وانه دخل الهند قبيل غزوة الاسكندر ومن ثم عرفه الأوربيون ونقلوه إلى سوريا وشمالي أفريقية.ولكنهم نظروا اليه كنبات طبي حتى جاء العرب فاهتموا بزراعته واحضروا أنواعاً جديدة من الهند إلى مصر . ومن ثم انتقلت زراعته إلى أوربا في أعقاب الحروب الصليبية ولكنه لم يعرف في الولايات المتحدة إلا في أواخر القرن السابع عشر.

الجذور والفواكه والثمار الزيتية والبقول :

كانت الدرنات والجذور مطلب الانسان قبل أن يعرف الزراعة . ومع ذلك فبداية زراعة أنواعها المختلفة أمر ليس من السهل تحديده . وربما كانت معلوماتنا عن الجزر والفجل من هذه الناحية أقرب إلى الصواب. فقد وجدت بقايا جزر في مواضع أثرية في سويسرا وألمانيا تعود إلى العصر الحجري الحديث. وتبين من الدراسة المقارنة أن هذا النوع من الجزر نشأ في منطقة شرقي البحر المتوسط وانتشر من ثم إلى وسط أوربا. ومن ناحية أخرى يمكن أن نستشف من وصف هيرودوت لغذاء بناة الأهرام أن الفجل والكرات والبصل كانت من نباتات الحديقة التي عرفتها مصر القديمة وزرعتها على نطاق واسع مما يشير إلى أنها عرفت في مصر قبل أن يبدأ التاريخ .

وتاريخ زراعة الفواكه غامض كتاريخ زراعة الدرنات والجذور. ويزيد الأمر غموضاً ان الأنواع التي غرسها الانسان في أول عهده بالزراعة لم تختلف عن أصولها البرية . ولذا فليس بالأمر الهين معرفة التاريخ الباكر لزراعة أشجار الفاكهة . فالدانوبيون أكلوا نوعاً من التفاح الصغير الحجم لا يختلف كثيراً عن نوع بري ينمو في ألمانيا . وفي وقت متأخر من العصر الحجري الحديث استطاع سكان البحيرات في سويسرا انتاج نوع أكبر من التفاح. وأكلوا فضلاً عن ذلك الكمثرى. وأنواعاً من البرقوق والكرز ولكنها كانت على الأرجح برية .

ويأتي أقدم دليل على زراعة أشجار الزيتون من جنوب شرقي اسبانيا . بيد أن الوطن الأصلي لهذه الشجرة غير معروف على وجه الدقة ولكن ربما كان آسيوياً. فالزيتون البري ينمو في أفغانستان وبلوخستان وغربي الهند.والأرجح أن زراعته لم تبدأ في شرقي البحر المتوسط إلا في العصور التاريخية المبكرة فقد عرفت مصر القديمة زيت الزيتون المستورد من فلسطين وسوريا . ومن المحتمل أن الزيتون لم يكتسب اية أهمية سواء في العراق أو في إقليم السند ذلك لأن السمسم كان مصدر الزيت منذ بداية العصر التاريخي .

أما أنواع البقول من الفول والبازلاء والعدس فكانت من الأغذية التي اعتمد عليها الانسان في عصر ما قبل التاريخ وذلك لغناها في البروتينات ولإمكان تجفيفها وخزنها لوقت الحاجة . ويبدو أن أصول أنواع الفول التي تغذى بها الأمريكيون الأوائل كانت تنمو في جبال الأنديز بينما تنمو أصول الفول العريض في شمالي افريقية . وانتقلت زراعته فيما بعد إلى أوربا عن طريق اسبانيا من ناحية وعن طريق آسيا الصغرى والبلقان من ناحية ثانية . وإذا كنا على علم بتاريخ انتشار البازلاء والفول فليس تحت أيدينا أية أدلة أثرية تفصح عن بداية زراعة فول الصويا Soya beans الذي يلعب دوراً أساسياً في تغذية سكان الصين واليابان . كلمة أخيرة عن نبات ليفي هو الكتان . فقد زرع أهل مصر انواعاً منه في عصر ما قبل التاريخ . زرعه اصحاب حضارتي الفيوم والبداري كذلك وجدت آثار انواع مزروعة في آسيا الصغرى ترجع إلى أكثر من ٣٠٠٠ ق.م. ومن الثابت ان الدانوبيين عرفوا انواعاً برية منه زرعوا بعضها بل قاموا بنشر زراعتها بين سكان البحيرات السويسرية القدماءوبين اهل اسكنديناوة قبيل نهاية العصر الحجري الحديث.

٢ — استئناس الحيوان :

لا زالت المراحـــل الأولى التي قطعت لاستئناس الحيوانات البرية من الماعز والضأن والماشية والخنازير غامضة . وربما لن يكشف النقاب عنـها في يوم من الأيام . ومع ذلك فهناك من النظريات ما يحاول القاء بعض الضوء على ما حدث منها تلك التي عرضها جوردن تشيلد [١] . ويزعم تشيلد أنه في وسط آسيا حيث

---

(١) ربما يكون مفيداً أن نشير بكلمة إلى تاريخ استئناس بعض هذه الحيوانات . تنحدر كل الاغنـــام المستأنسة من ثلاثة أنواع برية لا زالت موجودة : النوع الاول هو الاوريال Urial وهو الاقدم إذ يعد أول ما استأنسه الرعاة الاول في جنوب غربى آسيا . وينتشر انتشارا واسعا في قلب اسيا من جبال البرز حتى التبت . وتتميز الانثى منه بقرون تشبه قرون الماعز.وللكبش قرون ملتوية ، كما أن لون قرونه بني فاتح يقسمها خط غامق على الظهر. وربما كان هذا النوع هو الذي نقلته جماعات الزراع إلى أوربا . فقد وجدت عظامه بين آثار سكان البحيرات السويسرية الاول . والنوع الثاني هو الموفلون Mouflon . وهو نوع اكثر انتشارا جهة الغرب من الاوريال. فلا زال يوجد ولكن على مجال ضيق في صقليـــة وكورسيكا وسرديليا وفي قبرص . وتمتد منطقة انتشاره شرقاً لتشمل آسيا الصغرى وايران . ويتميز بفروة ذات لون بني يميل إلى الحمرة وليس للاناث قرون . ولا نعرف على وجه الدقة متى استؤنس الموفلون ولكن من المؤكد أنه عرف في أوربا في وقت لاحق للأوريال فعظامه لم تظهر في المواضع الأثرية بوسط أوربا إلا في أواخر العصر الحجري الحديث . والنوع الثالث هو الارجالي Argali ووطنه مرتفعات وسط آسيا . وهو حيوان كبير له قرون طويلة تبرز نحو الامام في التواء . انتشر بعد استئناسه نحو الغرب في وقت متأخر . ومنه خرجت سلالة المرينو . وإذا كنا نعرف شيئاً من تاريخ استئناس الاغنام فمعلوماتنا جد قليلة عن الماعز التي ربما كانت الحيوان الحلوب الاول الذي عرفه الإنسان. والرأي أن نوع البزور Bezoar الذي يعيش في تركستان وأفغانستان هو أهم نوع بري تنتسب إليه أنواع الماعز الحالية .

ومن المرجح أن الماشية التي ليس لها سنام تنتمي إلى نوع بري يعرف علميـاً باسم Bos Primigenius وطنه الاصلي الاقليم الممتد من جنوب روسيا إلى جبال الالتاي . الثور من هذا النوع ضخم وله قرون كبيرة والبقرة أصغر ولها قرون صغيرة ملتوية . ولكنها على أية حال أكبر من تلك التي كونت قطعـــان زراع العصر الحجري الحديث في جنوب غربي آسيا ومصر وأوربا . ربما كان السبب أن الإنسان فضل في أول عهده استئناس صغار الابقار وضعافها.ولما =

تنمو الأصول البرية للقمح والشعير وأيضاًتعيش الحيوانات البرية من الأغنام والماعز والماشية والخنازير .(شكل ٢٣) حدث في البداية أن النسوة كن يقدمن الطعام للحيوانات التي ينجح أزواجهن في قنصها . وعندما ازداد الجفـــاف واقترب الحيوان والإنسان من موارد المياه تفهم الإنسان عـــادات كثير من الحيوانات النافعة فبدأ يستأنسها بعد أن كان يقتلها . وكانت طريقتـه في ذلك أن يخطف صغار الحيوانات ويخفيها عن أمهاتها فتأتي الأمهات بحثاً عن صغارهـــا فينتهز الإنسان الفرصة ويوقعها في الحبس.لذلك كانت إناث الحيوانات أول ما استؤنس وجاءت الذكور في مرحلة تالية.وبمرور الزمن ألفت الحيوانات الحياة مع الإنسان. غير أننا نميل إلى القول بأن الاستئناس عمليـة عرفتها شعوب عدة في أماكن متفرقة وفي أوقات متقاربة .

ولكن هل استأنس الإنسان ما استأنس دفعة واحدة ؟ هناك من العلماء من يرى أن الاستئناس كان تتابعيا بمعنى أن الإنسان بدأ بأنواع وانتهى بأنواع أخرى . فأول الحيوانات التي استؤنست كان الكلب من بين أكلة اللحوم . ثم تلا الكلب في قصة الاستئناس حيوانات الرعي من الماعز والأغنام والرنة وتبع ذلك تلك الحيوانات التي تنفعها حياة الاستقرار مثل الماشية والخنازير. ثم اختتم

=فهم اسرار استئناس الحيوان في وقت متاخر قام بعمليات تهجين واسعة واستعان بدماءبرية في تحسين أنواع حيواناته ومنها الابقار . أما الماشية ذات السنام فليس هناك ما يشير إلى أن لها أصلا بريا ، وربما كان اكتناز الدهن في السنام وفي الذيل كما في بعض أنواع الاغنام من نتائج الاستئناس والتهجين.ويمكن أن نشير هنا إلى الخنازير على أساس أنها كالماشية تتطلب في الغالب حياة زراعية مستقرة ، وإن كانت أصولها البرية آكلة اللحوم . وتنتمي الخنازير المستأنسة إلى نوعين بريين : نوع عاش في نطاق عريض من الأرض يشمل أوربا وشمالي افريقية ووسط آسيا بل يمتد شمالاً ليشمل سيبيريا هذا النوع Sus scrofa هو الذي تنتمي إليه أقدم أنواع الخنازير التي عرفها أصحاب الحضـــارات الحجرية الحديثـــة في جنوب غربي اسيا ومصر وأوربا . والنوع الثاني وهو Sus vittatus فهو الأصل البري للخنازير التي تربى في جنوب شرقي آسيا وخاصة في الصين .

الإنسان بتلك التي تنفع في النقل كالحصان والحمار واللاما والجمل [1] . يبدو أن الإنسان بدأ ايضاً باستئناس الضعيف والصغير الجسم من أنواع الحيوانات بدليل ما وجد من عظام صغيرة في المواضع الأثرية في جنوب غربي آسيا . ولكنه قام في وقت متأخر وبعد أن تم استئناس كل الأنواع المعروفة بعملية اختيار واسعة هدفها انتقاء الأكبر والأحسن .

٣ – الأدوات الحجرية المصقولة والملمعة وأدوات الزينة :

من بين ما يميز الحضارات الحجرية الحديثة في جهات العالم المختلفة آلاتها من الفؤوس والبلط والقواديم والمقاشط المصقولة. وكانت هذه الأدوات بالغة الأهمية في ظل الاقتصاد الجديد الذي اهتم بتقليب التربة للزراعة وبإزالة الغابات وتصنيع الجلود والفراء والنجارة وغيرهـا من الحرف اليدوية . ولذا كان البحث عن الأحجار الصالحة لتصنيعها من المهام الأولى لمجتمعات ذلك العصر. كانت الاحجار الصوانية والنارية تجمع ثم تشظى لتتخذ أشكال الفؤوس والبلط والقواديم وغيرها من أدوات النجارة كالمحفر والمنشار المسنن والمثقـاب تلمع وتصقل . وبلغ هذا الفن قمته عندما عمد الإنسان في أواخر العصر إلى ثقب رؤوس الفؤوس الزراعية والبلط والقواديم بمثقاب حـاد لتركيب أيد خشبية عرفت في فلسطين ومصر والعراق والصين واسكندينافه . ومن أسلحة القتـال والصيد القوس والسهم (شكل ٢٤) وهي أسلحة عرفت في العصور السابقة ولكنها حسنت في هذا العصر فعرفت رؤوس السهام المسننة ، عرفها أهل الفيوم ومرمدة بن سلامة والبداري في مصر وهناك المقلاع لقذف الاحجار والصولجان لقتـل الاعداء ومطاردة الحيوانات وفأس القتال التي اتخذت أشكالاً محليـة تتميز بالجمال ودقة الصنعة . إلى جانب هذه الادوات والاسلحة صنع أصحاب هذه الحضارات أدوات الزينة من العقود والاساور والاقراط والاصباغ للوجه والجسم .

Childe , G New light on the Most Ancient East. London 1952.(١)



(شكل ٢٤)سهام مسننة ونصال وفؤوس اسطوانية من الصحراء الكبرى - حجري حديث

٤ — القرى والطرق :

تتباين قرى هذا العصر الحجري الحديث فيما بينها تبعاً لاختلاف الظروف المحلية . ولكن لا نبعد عن الصواب ، إذا ما قلنا أن وسائل الدفاع والحراسة عن القرية في أوائل العصر كانت في الاغلب غير موجودة أو متواضعة لعدم وجود ما يثير الاحقاد والحروب . فكل ما قام به أهل القرى لم يتعد حفر خندق أو سور لدرء خطر الحيوانات المفترسة أو منع الماشية الشاردة من الخروج إلى الخلاء. أما غير ذلك مما يبلغ حد الاستحكامات العسكرية فهو الاستثناء والخروج على القاعدة مثال ذلك تلك القلعة والحصون التي أحاطت بأريحا وتذكرنا بأسوار وقلاع العصور الوسطى . هذا في نفس الوقت الذي كانت فيه جارمو أقدم محلة زراعية بشمال العراق وبقية قرى جنوب غربي آسيا مفتوحة ومكشوفة تماماً . وعندما ضاقت الارض الزراعية الخصبة في أواخر العصر بدأ أهل القرى في جنوبي بريطانيا وفي جنوب غربي المانيا باقامة اسوار واقامة أماكن مرتفعة محيطة للحماية. أما تركيب القرية من الداخل فهو متباين وفقاً للنمط البنائي المتبع . فبينما كانت قرية مرمدة في مصر تتميز باستقامة طرقاتها التي تجري بين الاكواخ ذات الافنية أو الحدائق الامامية ، كانت طرقات كثير من قرى جنوب غربي آسيا وأوربا أزقة ضيقة ملتوية تربة أو

حجرية. أما الطرق خارج القرى فلم تعبد قبل ظهور وسائل النقل ذات العجلات. ومع ذلك فالطرق في هذا العصر خاصـة التي ربطت بين القرى الكبيرة كانت أوسع وأطول من المدقات التي سار عليها جماعو الطعام في العصور السابقة .

وبعد فهذه بعض انجازات حضارات العصر الحجري الحديث نتبين من خلالها مدى التطور الذي بلغه الإنسان اقتصاديا واجتماعيا وتقنيا تطور يشهد بأنـــه أصبح يقف على أرض ثابتة في طريقه الطويل إلى مستقبل مشرق .

الفَصْل الثّامِن

عصر المعدن

يميز الاثريون والمؤرخون بين عصرين في مسيرة الإنسان الحضارية . عصر حجري وعصر برونزي . تقسيم له ولا شك مغزى وقيمة إذا ما ربطناه بفنون الإنسان وحرفه المختلفة . فالهوة الحضارية الواسعة بين إنسان العصر الحجري وانسان عصر البرونز لا ترجع فقط إلى أن الاول استخدم الحجر والثاني المعدن . ولكن إلى جملة من الفنون والحرف اليدوية كالنحت والنجارة والصياغة ظهرت مع استخدام المعدن وزادها استخدامه تطوراً . لذلك فيمكن القول أن العصر البرونزي Bronze Age له دلالات أبعد كثيراً مما يوحي به ظاهر التسمية . ومع ذلك فإن الخط الفاصل بين العصرين الحجري والبرونزي ليس من السهل تحديده ، ذلك لان استخدام البرونز سبق في بعض الاماكن استخدام النحاس وهو في حد ذاته انحراف عن الخط الطبيعي للتطور : حجر ثم نحاس فبرونز فحديد . وخروجاً من هذه المشكلة اقترح بعض العلماء فترة انتقالية يطلق عليها العصر الحجري النحاسي Chalcolithic تبدأ من منتصف الألف الخامسه قبل الميلاد في مصر والعراق . وتفصل بين العصر الحجري وعصر البرونز كما تتميز بأن الإنسان جمع فيها بين استخدام الحجر في صناعة الأدوات واستخدام النحاس (وربما الذهب) في

صناعة أشياء صغيرة كالإبر والدبابيس والحلى . وفي رأينا أنــه يمكن اعتبار هذه الفترة ختاماً للعصر الحجري الحديث إذ العبرة ليست في استخدام الإنسان للمعدن أي معدن ولكن في مدى معرفته بطبيعته وباسلوب صناعته . وما أن عرف ذلك حتى قفز قفزة مثيرة إلى الامام ليس لها مثيل في تاريخ البشرية كما يقول ج . تشيلد .

قبيل عصر المعدن :

رأينا أن الإنسان عاش قبل العصر الحجري الحديث كاتعيش بقية الحيوانات تحت رحمة الطبيعة ووفقاً لمطالبها . ولكنــه في العصر الحجري الحديث حاول لأول مرة أن يكيف بيئته لمطالبه مستعيناً بالنار والمسكن والملبس وبالأدوات والأسلحة . واخيراً وليس آخراً بتربية الحيوانات والنباتات . وعندمـــا زرع وربى الحيوانات كان عليه أن يستقر ففضل جوانب وديان الانهار (في المنطقة شبه المدارية) والواحات في بادىء الأمر . وعلى الرغم من ظهور اختلافات محلية ترجع إلى اختلاف هذه البيئات الفيضية وغيرهـا من البيئات كانت حضارات هذا العصر حيثما قامت متشابهة في أسسها. في هذا المناخ الحضاري المتشابه وفي ظل هذه البربرية البطيئة التطور وضعت بذور التغيير لتنمو بسرعة مذهـلة منذ اوائل الألف الرابعة قبل الميلاد أو ربما قبيل ذلك . لتنمو في وديان الأنهار تلك التي فضلها الإنسان لما تتمتع به من تربة خصبة ومناخ مناسب لظروف حياتــه ومستوى حضارته . فنزل إلى وادي دجلة والفرات والنيـــل والسند ، وانشأ الحضارة الزراعية المستقرة بما تعنيه من نشاطات اقتصادية واجتماعيــة ومنجزات مادية وروحية . وربما كانت القوة الدافعة والثورة الحضارية الناجمة متشابهة في كل من العراق ومصر . ولكن نمط التغيير وخط التطور اختلف فيما بينهما فبينما انقسم المجتمع المتحضر في العراق إلى دويلات مدنية متنازعة ومتنافسة ظهر في وادي النيل في بدء التاريخ بل ربما قبل أن يبدأ مملكة يحكمها ملـــك

واحد . ولا يمكن أن نجد تفسيراً لهذا التباين في التنظيم السياسي بين القطرين إلا في اختلاف روح الحضارتين وربما أيضاًفي اختلاف دقائق جغرافية البيئتين الفيضيتين .

استخدام النحاس :

وليس في مقدور أحد أن يحدد على وجه الدقة متى بدأ صهر خام النحاس ومن هو الشعب المكتشف وفي أي البلاد تم الاكتشاف .وترجع أهمية النحاس إلى أنه بخلاف الحجر قابل للطرق والذوبان يمكن شحذه وتغيير شكله واستخراج صفائح منه . فالنحاس يتميز عندما يستخدم في صنع الأدوات بجميع صفات الحجر والعظم والخشب بالاضافة إلى صفات اخرى . فعند صنع آلة من الحجر أو الخشب كان الامر يقتصر على اقتطاع أجزاء صغيرة من الكتلة الاصلية . أما بالنسبة للنحاس فكانت الآلة تصنع بلحم قطع بعضها بالبعض الآخر. ثم إن الفأس أو السكين النحاسية إن وجدت تقطع بشكل أفضل من الفأس الحجرية أو النصال الصوانيه التي لا تحتفظ عادة بحدها القاطع إلا مدة يسيرة فضلاً عن أنه يمكن شحذ السلاح النحاسي من جديد . وحتى في حالة الكسر يكون من السهل صب الآلة النحاسية من جديد وهذا ما لا يمكن أن يحدث للآلة الحجرية .

ظهور البرونز :

كان ذلك كله ثمرة ابتكارات حاذقة من الموقد المزود بمجرى هوائي لإعطاء حرارة كافية لصهر المعدن والاواني الضرورية لصب المعدن المذاب والقوالب التي تعطي المعدن المذاب الشكل المطلوب. وصارت عملية الصب اكثر سهولة عندما أضيفت إلى النحاس ذرات القصدير . وقد تم ذلك لاول مرة في الالف الثالثة ق.م وظهر نتيجة لذلك البرونز . ولما كان البرونز أصلب من النحاس فقد أسهم هذا المعدن الجديد في زيادة مقدرة أهل الشرق على استغلال البيئة ومغالبتهم

لتحدياتها . وربما كان ذلك أوضح ما يكون في دلتا دجلة والفرات حيث يندر الحجر. فقد وجد السكان في استخدام الادوات النحاسية والبرونزية الصلبة ما يكفيهم مشقة البحث الدائم عن الحجر والزجاج الطبيعي . هذا فضلاً عن أن السكين أو النصل الصواني قد ينكسر قبل أن يقتل العدو فيهلك صاحبه . فلما صنع السكين من النحاس ثم من البرونز صارت الاسلحة المعدنية قوة في يد الانسان وصار البرونز بعد النحاس هو صلب العالم القديم .

نتائج اجتماعية واقتصادية :

ولما كان تصنيع المعادن عملاً يحتاج إلى خبرات ومهارات معينة ويستغرق الوقت كله فإن هؤلاء الصناع القدماء كانوا اخصائيين يعتمدون على ما ينتجه غيرهم من غذاء ويحتفظون بأسرارهم المهنية لأولادهم.ثم هم فوق ذلك أكثر حركة ومقدرة على الهجرة وبالتالي أقل انقياداً للنظام الاجتماعي من منتجي الطعام . وربما كانت مقدرتهم على الحركة هي التي ساعدت على انتشار الاكتشافات وتشابه الادوات المعدنية على الاقل قبل بداية التاريخ . وهكذا أفسح استعمال المعدن المجال أمام طبقة جديدة في اطار اقتصاد حجري حديث مما أدى ولا ريب إلى تعديل هذا الاقتصاد . فبمرور السنين صارت القرية مضطرة أن تبحث عن المعادن وتحصل عليها ببيع ما لديها من فائض الغذاء أو الاواني الفخارية .

وقد دخل الحديد متأخراً إلى حياة الناس وإن كانت أشياءالزينة اتخذت من حديد الشهب قبل ذلك بكثير. وقد بدأت صناعته على مايبدو في أرض الحيثيين في جنوب شرقي آسيا الصغرى ومن ثم انتشر شرقاً وغرباً براً وبحراً . ولكن الحديد المطاوع كان لا يستطيع منافسة البرونز . وقد بدأ عصر الحديد بالفعل عندما عرف الانسان كيف يصنع حديداً صلباً . حدث ذلك في أوائل الالف الاولى قبل الميلاد في مكان لا زلنا نجهله ومن ثم انتشرت صناعته في العالم القديم . ويقسم العلماء حضارة الحديد في أوروبا إلى دورين أو مرحلتين . تبدأ

الاولى في حوالي ١٠٠٠ ق.م وتعرف بمرحلة هلشتات Hallstatt وبدأت المرحلة الثانية لاتن La Tenė في نحو ٥٠٠ ق.م [١] وقد أحدث استخـــدام الحديد ثورة جديدة في حياة الناس وخاصة بعد أن انتشر استخدامه . واليوم نعيش عصر السبائك Alloys وعصر اللدائن Synthetics معاً .

الزراعة في عصر البرونز :

وعندما بدأ عصر المعدن كان الإنسان قد اكتسب مهارات وأضاف إليها أخرى .وزاد استقراره في وديان الانهار حيث تتجدد خصوبـة الارض كل عام ولم تكن تحتاج إلا لمزيد من جهد الإنسان ومهارته لتمنحه ما يريد . ولم يأت التطور في أساليب الزراعة وفي أدواتها إلا بعد تجارب طويلة تردد صداهـــا بطيئاً في العالم القديم. وتمشياً مع روح العصر لم يحدث التحسن في أنواع النباتات والثمار إلا بطيئاً أيضاً . ويعد المحراث الذي تجره الثيران من الأدوات الزراعية الذي تطور عن الفأس.فبعد أن كان سلاحه حجرياأوخشبياًصارمعدنياً.وقد أدى ذلك إلى توسيع الرقعة الزراعية وزيادة الانتاج . ومن الأدوات التي وفرت جهد الفلاح لما هو أجدى المنجل الذي صنع من النحـــاس والبرونز بعد أن كان من الصوان أو الطين المحروق. وانتشرت في مصر وجنوب غربي آسيا أنواع القموح التي تنفصل أغلفتها عن الحب بسهولة Naked Wheats وازداد الاهتمام بالعدس. ودخل القمح الصيني في هذا العصر وكانقد سبقه الدخن والشعير والارز.وتوصل الزراع في كل مكان إلى تحديد مواعيد مناسبة لاعداد الارض وزراعة المحاصيل ومواعيد حصادها .

وباستخدام الثور في جر المحراث أصبحت الابقار هامة للفلاح . كذلك

---

(١) هلشتات مكان في جبال الألب الشرقية وجدت فيه اسلحة كثير من الحديد ولاتن مكان في سويسرا .

استخدمت الثيران في سومر في جر العربات وفي هرس أعواد القمح لفصل الحب عن القش . وكذلك عرف السومريون الضأن ولبسوا فراءه . أما في مصر فلم تعرف الاغنام على ما يبدو إلا في بداية عصر الاسرات . وكانت الماعز هي السائدة قبل ذلك . وربما عرف المصريون الجمل وحيد السنام عن طريق بدو الصحراوات المجاوره ولكن لم يرب في وادي النيل إلا منذ العصر الروماني . والمرجح أنه استؤنس وربى في صحراء بلاد العرب موطنه الاصلي قبل عصر المعدن. أما الحصان فلم يعرفه أهل الشرق الاوسط إلا في أواخر الالف الثانية ق . م استخدم في أول الامر ولفترة طويلة في جر العجلات الحربية ثم في الركوب بعد ذلك . واحتفظ بالفيل وحيد القرن في قصور الاغنياء وإن كان الفيل استخدم أحياناً في الحرب والنقل في الهند . ومن الطيور استأنست الصين في عصر سابق الدجاجة البرية وانتشرت تربيتها غرباً. وفي عيلام أقلمت ومن ثم دخلت مصر وذلك في عهد الاسرة الثامنة عشر. وقد تفاخر أحد فراعنة هذه الاسرة بأنه تلقى من عيلام هدايا من الطير « الذي يبيض كل يوم » .

في هذا العصر حاول الزراع ادخال نباتات أجنبية وأقلمتها في بيئتهم. فيحكى أن سارجوس الأكادي جلب معه من غزواته في بلاد الاناضول أشجار الكروم والتين والورود . ومن أكاد انتشرت زراعتها إلى كل بلاد الشرق الأوسط . ويبدو أن زراعة الزيتون لم تبدأ في الشرق الاوسط إلا في العصور التاريخية المبكرة فقد زرع وعصر زيتاً في فلسطين قبل ٣٠٠٠ سنة ق.م ثم عرفته كريت فى منتصف الالف الثالثة ق.م وعرف فى سوريا فى نحو ١٥٠٠ ق م ومن سوريا وفلسطين استوردته مصر الفرعونية . وبالتدريج وببطء شديد انتشرت زراعته فى بقية بلاد البحر المتوسط. إلى جانب النباتات التي تمد الإنسان بالغذاء زرعت مصر الكتان لصناعة الملابس وزرع إقليم السند القطن وربت الصين دودة القز على أشجار التوت لصناعة الحرير . وهكذا اتخذ الاقتصاد الزراعي للعالم فى عصر البرونز (بين أوائل الالف الثالثة ومنتصف الالف الثانية ق.م)

صورته التي عرفتها العصور الوسطى بل والحديثـــة مع شيء قليل جداً من التغيير .

ومن أصحاب الحضارة في الشرق الاوسط منذ أن عرف المعدن أهل مصر والعراق وأهـل شمال سوريا والحيثيون في جنوب غربي آسيا الصغرى وأهل كريت . وربما كانت معرفة الانسان بالبرونز سبباً في خلق مطالب بـل وعلاقات جديدة بين كل تلك الحضارات التي قنع أهلها بالعيش في عزلة خلال العصر الحجري الحديث . لنذكر ان أقوى وأغنى شعبين إذ ذاك وهما المصري والسومري لم تمنحها الطبيعة غير القليل من النحـاس والقصدير مما اضطر الحكام إلى استيرادهما من الخارج. بل إن مصر والعراق كانا بحاجة مستمرة إلى أخشاب ممتازة لا تنتج محلياً وخاصة عندما انتشر العمران المدني بعد أن بدأ التاريخ المدون . وهكذا نشطت التجارة ونمت وربطت بين بلاد لم تعرف عن غيرهـا شيئاً كثيراً حتى ذلك الوقت . وربما كانت تجارة المعادن أبعد أثراً من غيرها في تعريف شعوب العالم بالبلاد ذات الثروات المعدنيـــة وما ترتب على ذلك من هجرة واستقرار .

من حضارات جنوب العراق :

ومن حضارات جنوبي العراق التي عرفت النحاس ولم تهمل الحجر العبيد Ubaid وأريدو Eridu وأور Ur وتبـــة كوره Tepe Gawra . وفي مصر ظهرت البداري والعمرة وجرزة وسماينة . وسنعود إلى الحديث عن حضارات مصر في مكان آخر . وربما يسمح المقام هنا بمتابعة حضارات جنوبي العراق من بداية العصر الحجري النحاسي حتى نهاية عصر البرونز . بدأ العصر الحجري النحاسي بوفود الجماعات السومرية من مرتفعات جنوب وغربي ايران تصنع فخاراً ذا لون أصفر . هذه الجماعات هي التي أرست قواعد أولى الحضارات التاريخية

في جنوبي العراق وهي التي خرج منها شعب العبيد[1] صاحب حضارة العبيد . وقد أدخل المستوطنون الجدد زراعة مختلطة ومعرفة بالمعادن لأول مرة في جنوبي العراق . وكان على السومريين وقد استوطنوا أرضاً جافة المناخ لا يأتي نهرها بالفيضان بانتظام أن يعاونوا الطبيعة بحفر الترع وإقامة الجسور . وقد عاونوها خير معاونة فكان جزاؤهم الخير العميم والثراء العريض وخاصة أنهم كانوا على قدر مناسب من التقنية وقدر أكبر من التكامل الاجتماعي مما سمح بقيام سلطة سياسية ترعى المشاريع العامة . ولم تمض ألف سنة حتى كانت الحضارة السومرية بكل تفرعاتها قد شملت حوض دجلة والفرات بل ورحفت نحو الغرب .

وقد استقر أصحاب حضارة العبيد في جنوب العراق في أواخر الألف الخامسة ق. م وأقاموا محلتهم فوق بقعة جافة كانت على ما يبدو بحيرة قديمة طمتها الرواسب . وعرف العبيديون الفخار الملون المصنوع باليد والفؤوس الحجرية وزرعوا الشعير وشقوا القنوات محاولين ضبط الفياضانات وكانوا فوق ذلك على علم قليل بالنحاس . وقد استمرت محلة العبيد قائمة أكثر من قرنين إلى أن أغرقها طوفان كاسح في حوالي ٤٠٠٠ ق.م ترك وراءه ارسابات بلغ سمكها نحو من ٣,٥ متر. وهكذا انتهت المرحلة الأولى من حضارة العبيد . وتعرف المرحلة الثانية بالوركاء جاء أهلها من الشمال ولكن قامت على كل أسس المرحلة الأولى وأضافت إلى تراثها المادي عجلة الفخار وصناعة المعدن واستخدام الحجارة في البناء . ويمتاز فخار هذه الفترة بسيادة اللونين الأحمر والرمادي وبتناسق خطوطه لأنه صنع بالدولاب. وقد استخدمت الوركاء كتابة تصويرية وأرقاماً كانت الصور فيها تنقش على ألواح من طين ثم تحرق في النار . ويبدو أن أهل الوركاء وربما أهل العبيد عرفوا استخدام المحراث تجره الثيران بعد

---

(١) نسبة إلى تل العبيد الذي يقع على مقربة من خرائب أور Ur .

خصبها . وكان لذلك أبعد الأثر في تطور الحضارة الزراعية . فبالمحراث شقت الأرض فزادت خصوبتها وباستخدام الثيران في الجر اعطيت الفرصة لإناث البقر كي توفر مايكفي من حليب لصغارها وحسن اعداد الأرض لأن الثيران أقوى من الاناث وقدرتها على العمل أكبر. وعليه فيمكن القول أنه في هذه الفترة حدث تطور ملموس في فنون الزراعة والتعدين والفخار ليس في أرض العراق فحسب بل في كل منطقه الشرق الأوسط . ويكفي أن نذكر أنه بفضل هذه المنجزات تمكن سكان جنوب غربي آسيا ومصر من صناعة البرونز وذلك قبل أوائل الألف الثالثة ق. م.

ولقد قضي على مدينة الوركاء فجأة وبلا مقدمات على يد غزاة قدموا من الشمال من محلة جمدة نصر[1]. ودليلنا على ذلك وجود فخار يختلف اختلافاً واضحاً عن فخار الوركاء . فهذا الفخار الطارىء يمتاز بلونه الأحمر الغامق وبنقوشه السوداء . واشتهر غزاة جمدة نصر بعد ذلك بصناعة أوان من الحجر الجيري والكالسيت الشفاف وبمعرفتهم بكتابة تمثل البدايات الأولى للخط المسماري أو الأسفيني . ويبدو أن الغزاة الجدد نجحوا في زراعة مساحة أكبر من الأرض وأنتجوا فائضاً سمح بالتبادل . وهذه خطوة أسهمت ولا شك في تغيير الصفة المميزة لاقتصاد العصر وهو الاكتفاء الذاتي .

ويذكر المؤرخون أن أهل الوركاء نهضوا فطردوا الغزاة ونشطوا في استغلال الارض أكثر مما فعلوا في السابق فنشطت التجارة كما صنعوا أواني فخارية بسيطة الشكل ذات ألوان سوداء وحمراء إلا أن كتابة غزاة جمدة نصر بقيت من بعدهم . وقد أمدتنا الوثائق المكتوبة بعد هذا التاريخ بمعلومات مفيدة عن المدن التي ظهرت هنا في بداية عصر الاسرات السومرية . فقد ظهرت المدينة محاطة بسور

---

(١) موقع على بعد ٥٠ كم إلى الجنوب الشرقي من بغداد .

من آجر وخندق عميق لحماية سكانها من هجوم الاعداء وتتوسط منطقة زراعية تشقها الترع وتزدهر بالخضرة والشجر اقتطعهـــا الاجداد من برار مستنقعية موحشة غير صالحة للسكن . كانت مدينة تحتل بمعابدها ومنشآتها بضعة كيلو مترات مربعـة ويسكنها آلاف البشر وتطل على ما حولها من حقول وترع وأنهار بكل مهابة وجلال .

ولعل أهم ما يتميز به عهد الاسرات الاولى في سومر هو وجود دلائل على حياة الغنى والترف واختفاء ما يشير إلى ظهور مستحدثات تقنية ، فكثير من أصول الحضارة كان قد أرسي منذ أيام العبيد . ومن علامات الغنى المتزايد والثروة المتكاثرة في صدر عصر الاسرات السومرية وفرة الادوات والاسلحة المعدنية وأشياء الزينة من الذهب والفضة والاحجار الكريمة والاواني المزينة بالصور والفؤوس . وتلك الاخيرة تطورت أشكالها وانتشرت فيما بعدإلى سوريا والاناضول وبلاد بحر ايجه والقوقاز ووسط أوربا ومن ثم إلى جهات واسعة في روسيا . ومع الغنى والوفرة بدأت تظهر بوادر تغيرات في التركيب الاجتماعي للشعب السومري . من هذه التغيرات ظهور الامير أو الحاكم . ظهر أول مـا ظهر كقائد حربي مؤقت . ولكنه تحول إلى حاكم لدولة المدينة التى شهدت أرض العراق العديد منها في هذا الزمن وما تلاه. وربما دفع إلى ذلك في المقـام الاول حرص كل دولة مدنية على الدفاع عن ثروتها والطمع في ثروات الآخرين ومحاولة الاستيلاء عليها بالعدوان. وكان ذلك بداية تطور فكرة الحرب وتطور نظمها وأساليبها تلبية لظروف مواتية . وباستثناء فترات قصيرة كانت أرض العراق فيها قلبا لأمبراطورية كبيرة (أيام سراجون ٢٣٤٠ - ٢١٨٠ ق. م. وفي عهد حامورابي ١٨٠٠ - ١٧٦٠ ق.م) كان التاريخ السياسي لهذه الارض في خلال العشرين قرناً التالية (حتى قيام امبراطورية فارس) نزاعاً وصراعاً على السلطة بين الدويلات التي قامت. وزاد من الفوضى تعرض المدن في بعض الفترات لهجمات

رجال الجبال المدمرة المخربة [١] .

تمدين المجتمع :

في سجــل التاريخ الاقتصادي أن الحضارة الحقيقية لا تنشأ إلا في تلك الأقطار التي تسمح ظروف تربتها ومناخها بظهور فائض يحصل عليــه الإنسان في سهولة ويسر. هنا يصير الإنسان قادراً على أداء أعمــال أخرى غير طلب الطعام . أعمــال يسخر لها عقله ومواهبه . وبالمقايضة يحصل على أشياء تزيد من رقيه ورفاهيته . وكلما مر الزمن كلما زادت مطالب المجتمع وتعددت اهتماماته وحرفه وكثرت انجازاته المادية والروحية . هكذا تنشأ الحضــارة الحقيقية وفي ظلها تنشأ المدينة . وقصة المدينة بدأت في أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد وقبل ذلك في رأي ج. تشيلد . وكانت مصر والعراق بيئتين نهريتين وجد فيهما الانسان ظروفاً مثالية عاونته على خلق حضارات زراعية كانت المدينة منارتها .

المدن السومرية :

ويميل المتخصصون في حضارة سومر إلى القول بأن أهلها كانوا أسبق إلى إقامة المدن من أهل مصر وذلك لإن المدينه كانت ضرورة استوجبتها ظروف البيئة الطبيعية. فماء الري من الفرات لا يستطيع أن يبلغ ويسقي الأرض البعيدة بسبب انخفاضها بالنسبة لمستوى الماء في النهر . كان الري دائماً لكن مشاريعه كانت

---

(١) بظهور الفرس كقوة امبراطورية في القرن ٦ ق.م. سقطت بابل وآشور وصار العراق وبقية مراكز الحضارة في الشرق الأوسط القديم جزءاً من هــذه الامبراطورية. ولكنها لم تدم طويلاً فقد ظهر الاسكندر في القرن الرابع ق.م ليقضي عليها وليبني أول قوة أوربية على مسرح السياسة العالمية .

أكثر تعرضاً للتخريب والتدمير بسبب عنف فيضان دجلة والفرات وعدم انتظام حدوثه. ثم إن هذا النظام لم يتطلب تنسيقاً وتعاوناً على مستوى الدولة كما تطلب نظام الري في مصر. فحيثما استطاع الحاكم المحلي أن يركز السلطة في يديه ويوجه رعاياه لجلب الخير المشترك ودفع الشر المشترك نجح النظام وحل الرخاء. في ظل هذا النظام كان لا بد أن تقوم محلة رئيسية في وسط رقعة الأرض التي نجح أهلها في ريها وزرعها عبر القنوات وصرف الماء الزائد. وصارت هذه المحلة قبيل أن يبدأ التاريخ مدينة لها الاهها ويسكنها أصحاب الحرف وأهل الدين والرأي ممن أخذوا على عاتقهم تنظيم الري وحشد الجهود للعناية بالترع والجسور التي تحمي الأرض من خطر الفيضان. وبمرور الزمن ظهر لهذه المدينة الأولى توابع وانقسم مجتمع المدينة إلى طبقات وطوائف تعيش حياتها الخاصة ولكل منها مكانة في المدينة. هكذا ظهرت دول المدن في سومر كنتيجة منطقية للأحوال الاقتصادية السائدة وساعدها على احتفاظها بشخصيتها اعتقادها في اله ارتضته حامياً لها. أما في مصر فلم يسمح نظام الري الموحد بقيام دول المدن وإنما سمح بقيام دولة موحدة قبل أن يبدأ التاريخ. وربما كانت أور Ur أقدم مدينة سومرية عاش فيها في وقت من الأوقات ١/٣ مليون نسمة وكان للحي المقدس فيها مكانة خاصة. مدينة عرفت الغنى والرخاء وكل تقاليد الحياة المدنية الحقيقية.

المدن الفينيقية والسورية :

وفي أواخر الألف الرابعة ق.م وفد على سواحل الشام مهاجرون قادمون على الأرجح من ساحل الخليج هؤلاء هم الفينيقيون الذين لم يعيشوا يوماً في إطار مملكة متحدة وإنما عاشوا في ممالك مدنية تشتمل كل منها على مدينة ساحلية وأرباضها يجلس على عرشها أمير من التجار ذلك لأن هذه المدن أسست تجارة وعاشت منها. ومنذ البداية توثقت العلاقات التجارية بين فينيقيا ومصر وغيرها

من بلاد البحر المتوسط فقد وجدت مصر في فينيقيا ما تحتاج إليه من أخشاب الأرز اللازمة لبناء المعابد والقصور والسفن وقام الفينيقيون كوسطاء تجاريين بين مراكز الحضارة في حوض البحر المتوسط ويذكر المؤرخون أنه بوفاة سارجون الأكادي (نحو ٢٣٠٠ ق.م) الذي نشر نفوذه ونشر الحضارة الأكادية حتى الساحل الفينيقي عمت الفوضى والخراب مينائي بيبلوس وأوغاريت (رأس الشمرة) وألالاخ (قرب انطاكية) وهساريك Hissarlik (في آسيا الصغرى) [١] .

ولم يطل عهد الاضمحلال طويلاً فقد قامت الأسرة الثالثة في أور ونشطت أوغاريت وبيبلوس مرة أخرى وأقامتا علاقات تجارية مع فراعنة الدولة الوسطى في مصر . ومال الزمن على المدن الفينيقية مرة أخرى لمدى مئتي عام (١٧٠٠-١٥٠٠ ق.م). وربما كان سبب هذا الاضمحلال هو سيادة الفوضى والاضطراب نتيجة لغزو البرابرة أصحاب العجلات التي تجرها الخيول . وما لبثت المدن الفينيقية أن تغلبت على ما أصابها ولكن لفترة قصيرة فقد وقعت مدينتا فينيقيا الرئيسيتان أوغاريت وبيبلوس (في النصف الثاني من الألف الثانية) فريسة للزلازل وللتخريب على يد شعوب البحر. واختفتا في النهاية لتحل محلها صيدا وصور . في هذه الفترة استقر شعب على ساحل فلسطين هو الشعب الفلسطيني الذي يرجح أنه وفد من كريت وجزر بحرايجة. وارتفع إلى شأن كبير في حوالي ١٠٠٠ ق.م وبعد هذا التاريخ اتسعت تجارة صيدا وصور لتشمل أغلب بلاد البحر المتوسط . وغامر الفينيقيون بالخروج في رحلات بحرية طويلة فبلغوا بعض سواحل المحيط الأطلسي وأسسوا مدناً عبر البحر لعل أهمها قرطاجة .

وهنا يجب أن نشير إلى أن المدن الفينيقية اختلفت عن السورية في العوامل

---

(١) Peake & Fleure. op. cit., pp. 82 - 113.

التي حددت مواقعها وبالمثل في وظائفها الأساسية . فبينما تحكمت خصوبة التربة ووفرة المياه في قيام المدن السورية الداخلية في مواضع معينة كانت سهولة الصلة بالبحر من ناحية وبالداخل من ناحية أخرى عاملاً قوياً في تحديد مواقع المدن الفينيقية . حتى ألالاخ السورية تلك المدينة ذات الصلات التجارية الواسعة كان لها نصيب في ثروة سهل العمق الزراعية . ولئن كانت وجهة المدن السورية الداخل أو البر فقد كانت وجهة المدن الفينيقية الخارج أو البحر . ويتضح ذلك بالنظر في أغلب المواقع التي اختارتها هـذه الموانى الفينيقية على ساحل البحر . فأوغاريت بمرفئها الأبيض قامت على أحد الخلجان القليلة على الساحل والتي لا تكاد تصلح لحماية السفن الصغيرة. وأرواد Arwad (جنوبي طرطوس)لم تكن غير مدينة صغيرة على شاطىء صخري يحوطها سور مرتفع (إلا من ناحية الشرق ناحية الطريق التي تربطها بالأرض القريبة) ويأتيها الغذاء من الداخل . ومثلها طرابلس التي قامت على نتوء صخري بارز في البحر يمكن الدفاع عنه وهذا هو سر إقامتها في هذه البقعة وليس وقوع أرض زراعية في ظاهرها. وينطبق هذا القول على بيروت التي قامت على رأس ضارب في البحر وفصلها عن الداخل مستنقع كان موجوداً حتى الألف الثانية ق.م قبل أن يردمه نهر بيروت برواسبه . ومثل ذلك يقال عن صيدا وصور [١] .

هذه المدن الفينيقية لم يبنها زراع كما رأينا في سوريا وإنما بناها شعب بحري تحكي الاساطير أنه جاء من سواحل الخليج العربي من أجل العمل بالتجارة. ومما يميز الفينيقيين كأهل مدن ومدنية أنهم لم يطمعوا يوماً في توسيع دويلاتهم بالحرب طلباً لارض جديدة أو مصادر للغذاء وافرة . كل مـا فعلوه هو تأمين مصادر غذائهم من الارض القريبة بالوسائل السلمية وبعد ذلك تفرغوا للنقل والتجارة والحرف اليدوية . كانت سلعة التجارة الرئيسية هي خشب الارز من جبل لبنان

---

(١) راجع : Hawkes , J. & Woolley, L. op. cit., pp. 445 - 448.

ونقلوا إلى العالم الخارجي سلعاً كالصموغ والبخور واشتهروا بصناعة صبغة ارجوانية وحلى ذهبية وبالحفر في العاج وعمل المطرزات. لقد أحس الفينيقيون بالطمأنينة والقناعة طالما وجدوا البحر مفتوحاً لسفنهم وسلامة أوطانهم ليست في خطر . أما أن يتملكوا الارض ويورثوها لنسلهم فلم تجل في خاطرهم . وكل ما حدث عندما زاد عدد سكان مدنهم الصغيرة أن خرجت منهم أفواج مهاجرة تبحث عن وطن فيما وراء البحر وكانت قرطاجة أحد الاوطان الفينيقية فيما وراء البحر منذ الألف الأولى قبل الميلاد .

وقد يفيد أن نشير إلى المدن السورية التي قامت على طرق التجارة بين بلاد الرافدين من ناحية وساحل البحر من ناحية أخرى . وقد نقلت هذه المدن السلع ومعها عناصر الحضارة إلى مدن الساحل . من هذه المدن حران Harran التي ظلت على صلة بأرض الرافدين حتى القرن السادس ق.م .وقرب الساحل قامت ألالاخ على نهر العاصي الادنى وتحكمت في الطريق التي نقلت عليه أخشاب جبال أمانوس إلى بلاد الرافدين. كانت ألالاخ من فرط التأثر بالمؤثرات السومرية أشبه شيء بالمدن السومرية . وقد اعتمدت ألالاخ أساساً على الاتجار في أخشاب الارز وحافظت على استقلالها وحكمها الذاتي بصعوبة في وجه الطامعين من حولها. ومن مدن الداخل التي لم نذكرها تبقى دمشق وحلب ومجدو وبيت المقدس. فأما دمشق فقد ظهرت كمحطة تجارية للقوافل في وسط عالم مضطرب نتيجة لصراع القوى السياسية والتجارية . وقد ساعد علي استمرار وجودها على الرغم من كل ما مر بها من أحداث موردها المائي الذي لا ينضب . وتقع المدينة على الطرف الجنوبي الغربي لطريق طويلة تتبع سفوح التلال حتى نهر الفرات وهي طريق لا تعدم بعض العشب في فصل الشتاء . ومن أسف أننا لا نعرف عن هذه المدينة التجارية شيئاً قبل النصف الثاني من الالف الثانية ق.م . ولكن ما من شك في أن هذه المدينة لعبت دوراً بارزاً كوسيط تجاري في بعض العصور وزادت أهمية موقعها تبعاً لذلك . ويمكن أن نضيف أن دمشق بلغت ذروة

أهميتها في تاريخ لاحق وذلك في صدر الاسلام تحت حكم الخلفاء الامويين (٦٦٥ — ٨٥٠ م) .

وعلى الطريق التجارية بين الفرات وساحل البحر المتوسط وبين هضبة إيران وآسيا الصغرى بل وبين مصر وبلاد الرافدين قامت حلب في أوائل عصر البرونز. وهي كدمشق عاشت حياتها في وسط صراع الطامعين من العموريين والحوريين والحيثيين وغيرهم لذلك فتاريخها حافل وهي كدمشق أيضاً استفادت من وجود مورد لا ينضب من الماء وهذا سر استمرارها حتى اليوم. أما مدن فلسطين فمعلوماتنا عنها لا تكاد تذكر . فخرائب مدينة مجدو Megiddo في سهل مرج ابن عامر لا تكشف عن شيء من بنائها وحياتها خلال عصر البرونز وبيت المقدس لم تكن غير بلدة صغيرة متواضعة [١] .

---

(١) لم نذكر من المدن الداخلية الأخرى في سوريا ولبنان والأردن حماه وحمص وتدمر وبعلبك وبصرى وجرش والبطراء وهذه اما أن تاريخها في عصر البرونز غير معروف كبعلبك أو أن ظهورها وشهرتها ترجع إلى عصور لاحقة مثل بصرى وجرش والبطراء في الأردن والتي ازدهرت في العصر الروماني .

راجع حول مدن فلسطين في هذا العصر .

Albright, W. The Archeology of Palestine, London 1954, pp. 110 - 145

الكتاب الثاني

مصر

مصر

بعد هذه المسيرة الحضارية الطويلة آن لنا أن نقف لننظر في جغرافية مصر الماضية علنا ننجح في رسم صور لبيئاتها القديمة في تطورها ونحدد تلك العلاقات المتبادلة المتغيرة بينهـــا وبين السكان . وفي بلد يتميز تاريخه بالقدم والاستمرار يصعب أن نضع خطاً حضارياً يفصل بين العصر التاريخي وما قبله. ذلك لأن كل منجزات المصريين بما فيها الكتابة كانت قد توطدت دعائمها قبيل أن يبدأ التاريخ . ومع ذلك فهناك بعض المغزى في تقسيم جغرافية مصر الماضية إلى جغرافيتين :

أ – جغرافية ما قبل التاريخ

ب – جغرافية العصر التاريخي .

وهذا ما سوف نفعله في الفصول التالية

جغرافية مصر فيما قبل التاريخ

تبدأ جغرافية مصر فيما قبل التاريخ مع بداية عصر البليستوسين عصر ظهور الانسان كما قدمنا . أما ما سبق ذلك من أعصر فلا تدخل في البعد الزمني للجغرافية التاريخية لسبب بسيط هو غياب الانسان. فالجغرافية كما يقول ڤيدال دي لابلاش Vidal de la Blache تدرس المكان الذي سكنه ويسكنه الانسان عاقلاً كان أو غير عاقل . ويعادل معظم البليستوسين في مصر عصر حجري وهي في ذلك لا تختلف عن مواطن الحضارة في العالم القديم . ولم يكن العصر حجرياً فحسب بل كان مطيراً تتخلله فترات جفاف . ولعل هذه الصفة الأخيرة هي التي جعلت مصر الجبال والهضاب أهم من مصر الوادي على الأقل في الدور المطير الأول. فقد كان الوادي إبان هذا الدور مستنقعياً موبوءاً تكتنفه الأحراش مما دفع السكان — وكانوا قلة — إلى العيش في وديان الهضبتين الشرقية والغربية وقريباً من موارد المياه . ولكن الوادي أخذ يستقبل أعداداً متزايدة من البشر منذ نحو ٢٠ ألف سنة مضت . وببداية التاريخ كان كل السكان قد نزلوا إلى الوادي والدلتا . ولقد ترك المطر وراءه كما ترك الجفاف آثاراً في شكل مظاهر فيزيوغرافية أو ارسابات ومخلفات نباتية وحيوانية تقف شاهدة على تغير الظروف المناخية في مصر خلال هذا العصر . وتأتي آثار الانسان بعد ذلك لتحكي قصة التطور الحضاري ومدى تكيفه مع ظروف البيئة . ولسهولة الدراسة سننظر في جغرافية مصر فيما قبل التاريخ في إطار عصرين :

١ ـ العصر الحجري .

٢ ـ عصر المعدن .

الفصل التاسع

العصر الحجري في مصر
تغير البيئة وتطور الحضارة

ا – تغيرات بيئية

١ – تغيرات مناخية :

ذكرنا فيما سبق أن الأقاليم المدارية وشبه المدارية مرت خلال البليستوسين بأدوار مطيرة تتفق مع أدوار جليدية في العروض العليا من القارات وتخللتها فترات جافة تتفق مع بعض فترات أقل برودة في الشمال. وكانت أرض مصر بواديها وهضابها من بين تلك البقاع التي تأثرت أيما تأثر بأدوار المطر وفترات الجفاف . وحتى قبل أن يبدأ البليستوسين كانت مصر وصحاري شمال افريقية تمر بدور مطير ازداد فيه المطر بالتدريج واستطاع النيل أن ينحت مجراه ويشهد على هذه الفترة مدرجا ١٥٠ ، ١١٥ متراً فوق مستوى السهل الفيضي . ثم جاء الدور

المطير الأول الذي يتفق مع جزء كبير من عصر المليستوسين . ومن أسف أن معلوماتنا عنه قليلة وإن كان يرجح أن منتصفه امتاز بارتفاع درجة الحرارة وانتشرت فيه حيوانات شبه استوائية وسودانية . كذلك يتفق هذا الدور مع حضارة آشل وتظهر آلات هذه الحضارة في الوديان الصحراوية وعلى مدرجات النيل الوسطى ٤٥ ، ٣٠ ، ١٥ مترا مما يشير إلى أن الإنسان كان يفضل المعيشة في الوديان حيث يتوفر الماء . في هذا الدور المطير الأول تكونت طوفا الهضبة على حافة منخفض الواحة الخارجة وشقت الوديان الكثيرة في الصحراء الشرقية وكانت هذه بمثابة أنهار قصيرة تحمل مع المياه فتات الصخور والحصى وتلقي بها في وادي النيل. كذلك تكونت المدرجات الوسطى السالفة الذكر. وأعقب هذا الدور فترة جفاف قلت فيها الأمطار وعلى الخصوص في الجنوب ولا يعرف طولها وإن كان يرجح أن صناعة آشل ظهرت في جزء منها . في هذه الفترة حدثت اضطرابات في القشرة الأرضية فخرجت اللابا في بعض جهات مراكش ونيجيريا. كذلك ظهرت الكثبان الرملية على حافتي الصحراء في الشمال والجنوب. ولكنها تصلبت فيما بعد بسبب الأمطار التي سقطت في الدور المطير الثاني . ولقد جفت وديان الصحراء الشرقية في هذه الفترة وتكونت البرشيا في الواحة الخارجة وتكونت تربة تشبه اللويس في بعض واحات الصحراء الغربية .

ثم جاء دور مطير ثان أقصر من الدور الأول وربما أبرد بدليل انتشار الحيوانات الآسيوية الشمالية في شمالي افريقية . في هذا الدور تكونت في الواحة الخارجة طوفا الوادي . وظهرت صناعات العصر الحجري القديم الأسفل (آشل العليا) والعصر القديم الأوسط. وقد تميز هذا العصر بقمم مطرية ثلاث تميل كل منها للانخفاض بالنسبة لما قبلها وفصلت فيما بينها فترات جفاف نسبي تكونت فيها برشيا الوادي في الواحة الخارجة . أما بقية التفصيلات فنحن في جهل منها . وتلت هذا الدور الثاني فترة جفاف اتفقت مع جزء من العصر الحجري القديم الأعلى وقد اشتد الجفاف أولاً في جنوب مصر وانتشر بعد ذلك شمالاً. وفيها جفت وديان

الصحراء الشرقية مرة أخرى وتوقف وصول رواسبها إلى الوادي وجفت الينابيع والعيون في الواحات . وإذا كان الجفاف والفقر هو السمة المميزة لهذه الفترة فإنها لم تكن في شدة الجفاف الحالي وجاء الى مصر فيها الخير . فقد بدأ وصول الطمي الحبشي إلى مصر وأخذت تربة مصر الخصبة المعطاءة تتكون عاماً بعد عام.

وتشير الأدلة الأركيولوجية إلى أن دوراً مطيراً ثانوياً أعقب تلك الفترة الجافة واستغرق العصر الحجري الحديث [1] . هذا الدور كان دفيئاً ممطراً (وإن كان المطر في الجنوب أقل منه في الشمال) مما جذب حيوانات كالفيل الافريقي إلى شمال غربي افريقية ، وسمح بقيام حياة عشبية تتخللها الأشجار وتكثر بها الحيوانات العاشبة والمفترسة . وكان من أثر ذلك كله ان انتشر السكان مرة أخرى فيما كان صحراء قبل ذلك وتركوا وراءهم رسوماً توجد اليوم في مناطق مهجورة في جبل عوينات وعلى حافتي الهضبة الشرقية والغربية . ومن الأدلة الأخرى التي تشير إلى ازدياد المطر في هذا العصر طبقه رقيقة من الحصى حملتها السيول لتقف فوق أول مخلفات حضارة مرمدة بني سلامة . ولم تكن مصر وحدها التي تأثرت بزيادة الأمطار . فهناك دلائل على نشاط الماء الجاري في النحت والنقل في الاطراف الجنوبية للصحراء الليبية وعلى اطراف الصحراء السودانية . ويرجح أيضاً أن نشاط الماء الجاري كان أقوى في الجزء الغربي من الصحراء الكبرى [2] . ومنذ الألف الثالثة ق.م أخذ الجفاف في مصر وشمالي افريقية يحل تدريجياً حتى وصل إلى ما يشبه حالته الراهنة في حوالي ١٨٠٠ ق.م ولهذا الحديث عودة .

---

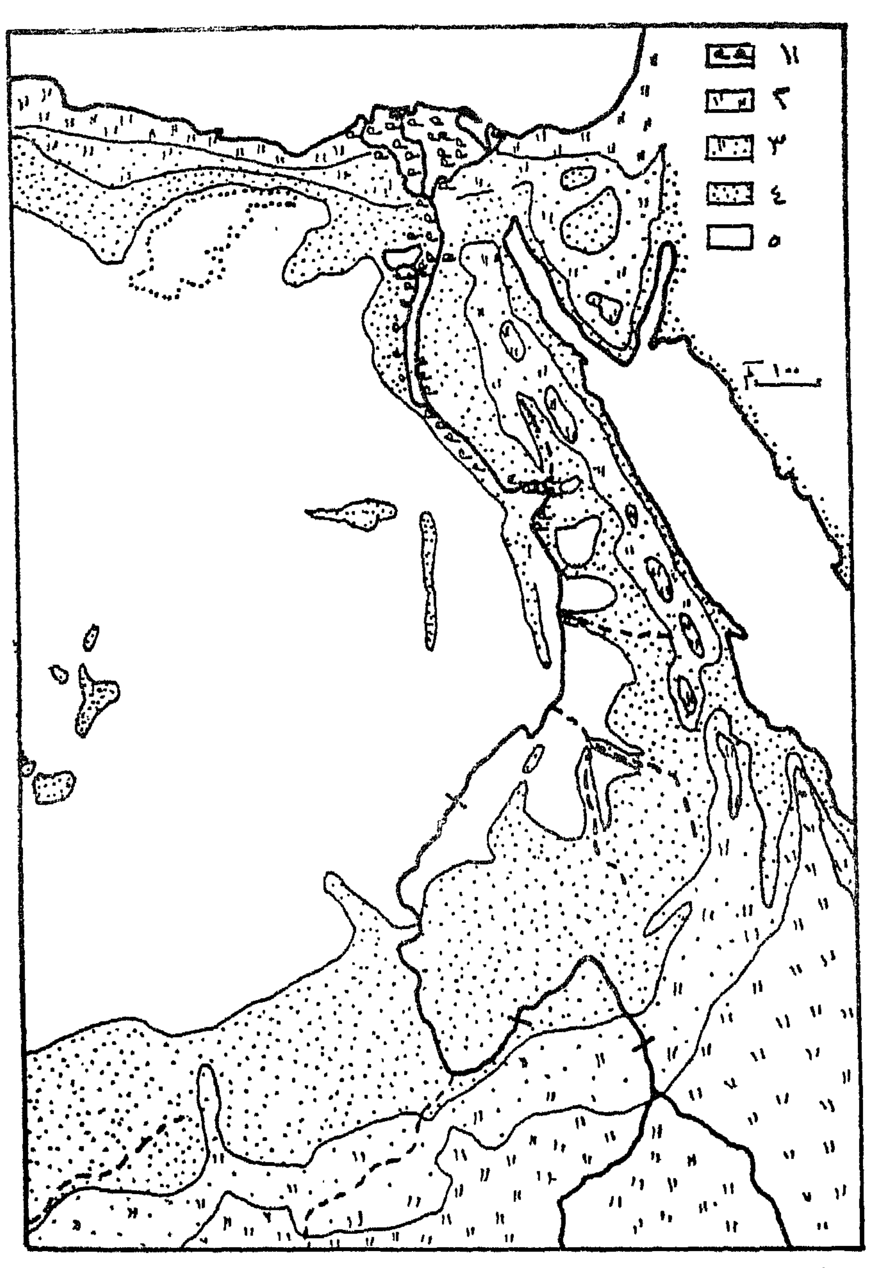
(١) Butzer,K. Environment & Human Ecology in Egypt During Predynastic and Early Dynastic Times. Soc. de Gèog. D'Egypte, T. XXXII , 1959, pp. 66 - 70.

(٢) Ibid.

٣ — تغيرات في الحياة النباتية والحيوانية :

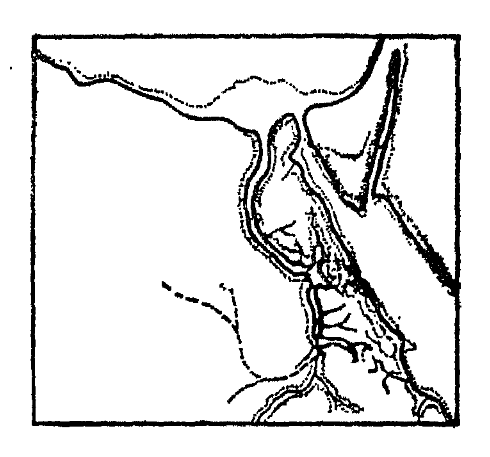
في ضوء البقايا العظمية والنباتية التي اكتشفت في الصحراء الكبرى ووادي النيل ومن الصور والرسوم المحفورة على صخور جبال البحر الاحمر وفي الواحات وعلى جانبي الوادي تبين أن صحراوات مصر والصحراء الكبرى كانت إبان الادوار المطيرة مناطق معشوشبة تنتشر فيها الاشجار وتشبه في ذلك مناطق السفانا في شمال السودان . هذا الغنى النباتي جاء نتيجة لوفرة الامطار ووفرة الماء السطحي الذي كان يشق لنفسه ودياناً تنتهي معظمها في وادي النيل . وكان وادي النيل نفسه تغطيه المستنقعات والادغال . وتوضح الخريطة شكل (٢٥) أن الامطار والنباتات كثرت في أطراف الصحراوات الشمالية وفي المناطق الجبلية وأنها قلت بالبعد عن الجبال وعن الشمال . أما وادي النيل فكان حرجياً .

في هذه البيئة عاشت مع أصحاب الحضارة الشيلية والأشولية أفراس النهر والتماسيح والسلاحف المائية والفيلة والثيران والخنازير البرية في المراعي الممتدة على الهضاب الشرقية والغربية وفي الوديان . ثم حدثت فترة جفاف أثناء حضارة آشل ولكنها كانت فترة جفاف نسبي أدت فقط إلى فقر الحياة النباتية وقلة عدد الحيوانات وهجرة بعضها إلى الجنوب . ثم جاء الدور المطير الثاني وفيه عادت الحياة النباتية والحيوانية السابقة بل زاد غناها على ما يظهر فانتشر وحيد القرن وفرس النهر والتماسيح والسلاحف المائية قرب مجاري المياه كذلك انتشرت الحيوانات العاشبة من الافيال والثيران والخيول البرية . وفي أواخر العصر الحجري القديم الاعلى بدأ الجفاف يزحف على مصر والصحراء الكبرى وجنوب غربي آسيا . فجفت الانهار الصحراوية واختفى مابها من أسماك وتماسيح وسلاحف . وهاجرت الحيوانات البرية نحو الجنوب . ولكنه لم يكن جفافاً بنفس درجة الجفاف الحالي فكان لايزال هناك بعض الاعشاب تقتات عليها قطعان من الزراف والغزال والنعام . حتى الفيلة لم تختف ولكن الإنسان بدأ يقترب من نقط الماء في



(شكل ٢٥) النطاقات المناخية والنباتية في مصر والسودان فيما بين ٥٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م
١ - غابات الدهاليز . ٢ - مراعي غنية تستقبل أمطار تزيد على ١٥٠ مم. ٣ - مراعي متوسطة الغنى يسقط عليها ما بين ١٥٠ - ١٠٠ مم . ٤ - مراعي تظهر في أعقاب الأمطار من ٥٠ - ١٠٠ مم . ٥ - مراعي فقيرة جداً يسقط عليها أقل من ٥٠ مم .

الصحراء ومن وادي النيل وجمع بين الصيد من منـاطق الاسبتس الفقيرة ومن وادي النيل ولكنه لم يكن قـد استقر بعد . ثم جـاء العصر الحجري الحديث وكان عصراً مطيراً نسبياً وعادت فيه الحياة النبـاتية والحيوانية إلى الصحراء وامتد نشاط السكان مرة أخرى إلى داخل الصحراء وإلى الواحـات وإن كان بعضهم فضل السكنى على حافتي الوادي وفي منخفض الفيوم في محلات ثابتة . ويدل على ذلك الصور والرسوم التي تركها في جهات كثيرة من الصحراء. وقد بدأ الجفاف يحل مرة أخرى منذ ١٨٠٠ ق.م كما أشرنا .



(شكل ٢٦) مصر في نهاية عصر البليوسين

٣ - تغيرات فيزيوغرافية وارسابات :

رسمت الخطوط العريضة لمصر ونيلها قبل أن يبدأ عصر البليستوسين (شكل ٢٦) وبحلول هذا العصر وضعت اللمسات الأخيرة في صورة مصر التي عرفهـا التاريخ . لمسات نجمت إما عن اختلاف ظروف المناخ من الرطوبة إلى الجفاف أو عن حركات التوازن التي تؤثر في السواحل وفي علاقة البر بالبحر والنهر بالبحر

وما يرتبط بكل ذلك من ظاهرات نحت وإرساب. ففي هذا العصر تأثرساحل مصر الشمالي بعدة ذبذبات ارتبطت نشأة المدرجات النهرية بها أشد ارتبـاط . وقبل أن يبلغ العصر نهايته اتصل النيل في مصر بروافده في السودان وهضبة الحبشة. فوصلت مياه النيل تحمل الغرين وتكونت أرض مصر الطيبة. وظهرت الرواسب البحيرية والطينية في منخفض الفيوم وتكونت الكثبان الرملية في الصحراء الغربية وغربي سيناء وظهرت الارسابات الرملية في الأودية الجـافة في الصحراء الشرقية وصحراء سيناء وعلى طول بعض المنـاطق الساحلية وتكونت التلال الجيرية الأيوليتية في غربي الاسكندرية . وظهرت الطوفا الجيرية فى الواحـــة الخارجة كما تعرضت سواحل خليج السويس والبحر الأحمر لحركات رفع لا زالت آثارها باقية . وفيما يلي دراسة لبعض هذه المظاهر الفيزيوغرافية .

ا - مدرجات نهر النيل والرواسب الفيضية الحديثة :

تسهم المدرجات النيلية اسهاماً كبيراً في تأريخ عمر الانسـان في مصر كما سنرى [١] . فعلى هذه المدرجات عـاش الانسان القديم وترك آلاته وعظامه . والقديم من هذه المدرجات هو بصفة عامة المرتـفع فوق مستوى السهل الفيضي والحديث هو المنخفض . وتتكون هذه المدرجات من الرمال والحصى وهي في نشأتها مرتبطة أشد ارتباط بتذبذب مستوى سطح البحر المتوسط كما ترتبـط تكويناتها بطريق غير مباشر بتغير أحوال المناخ من الرطوبة إلى الجفـــاف والعكس . فإذا ما تكرر ارتفاع اليابس بالنسبة لمستوى مياه البحر فإن النهر يحاول أن يغير مستوى القاعدة Base - level فيزداد نحته كلما ارتفـــع اليابس أو انخفض مستوى سطح البحر وينتج عن ذلك مدرجات على جانبي النهر تتفق في عددها مع مراحل الارتفاع التي أصابت اليابس . أما إذا أغار البحر على اليابس

(١) Mc Burney, e. op. cit. , pp. 121 - 125.

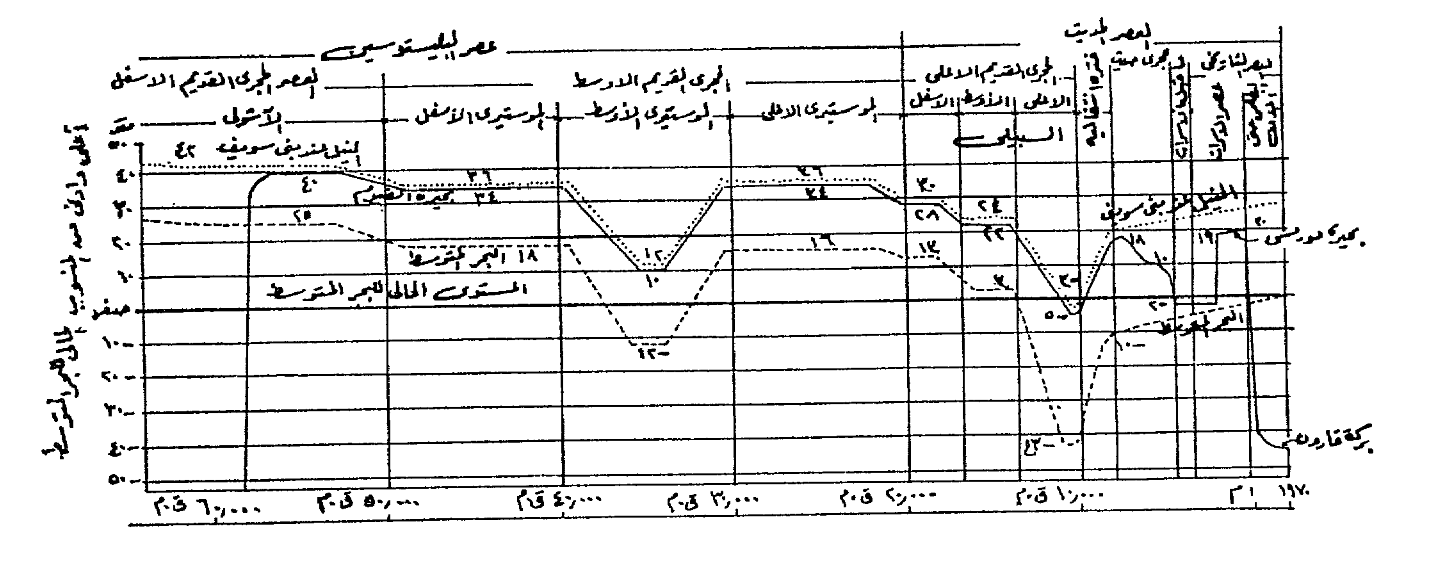
أو انخفض الساحل بالنسبة لمستوى سطح البحر فإن النهر يرسب بدل أن ينحت وخصوصا في جزئه الأدنى. وعندما يكون النهر نشطاً (إما لكثرة مايسقط على حوضه من مياه أو بسبب انحدار مجراه وروافده انحداراً ملموساً) تتكون مدرجات من الحصى والحصباء يدل ارتفاعها فوق السهل الفيضي على مقدرة النهر على النحت والنقل. أما المدرجات التي تتكون من مواد أقل خشونة فتشير إلى مرحلة نضج في تاريخ النهر.

ومن دراسة ذبذبات خط الساحل في أواخر عصر البليوسين وأثناء عصر البليستوسين تبين بصفة عامة أن مستوى سطح البحر كان في انخفاض ولكنه كان انخفاضاً متقطعاً وغير منتظم حتى نهاية البليستوسين. ويوضح شكل (٢٧) العلاقة بين مستوى سطح البحر المتوسط ومستوى مياه النهر عند بني سويف من ناحية ومستوى مياه البحر ومستوى بحيرة الفيوم من ناحية ثانية وذلك خلال البليستوسين والحديث. هذا ويمكن من دراسة الشكل أن نلحظ المراحل الآتية بالنسبة لعلاقة اليابس بالماء في شمالي مصر.

العلاقة بين البحر المتوسط والنيل :

المرحلة الأولى : استمر النيل منذ انتهى البليوسين إلى قرب منتصف البليستوسين (أوائل الحجري القديم المتوسط) في نحت مجراه في الرواسب البليوسينية وحدث ذلك قبل ظهور الانسان العاقل. كان نهراً قوياً تحمل إليه روافده التي تنبع من الصحراوين الشرقية والغربية كميات كبيرة من المياه والرواسب الغليظة.

المرحلة الثانية : وصل مستوى سطح البحر إلى ما دون مستواه الحالي بنحو ١٢ متراً في منتصف العصر الحجري القديم الأوسط بينما انخفض مستوى مياه النيل عند بني سويف إلى ١٢ متراً فوق سطح البحر الحالي.



(شكل ٢٧) العلاقة بين مستوى سطح البحر المتوسط ومنسوب النيل وبين منسوب النيل ومستوى سطح بحيرة الفيوم

المرحلة الثالثة : في أواخر العصر الحجري القديم الأوسط أخذ مستوى سطح البحر في الارتفاع تدريجياً حتى بلغ ١٦ متراً فوق مستواه الحالي كذلك ارتفع مستوى مياه النيل إلى نحو ٣٦ متراً فوق سطح البحر .

المرحلة الرابعة : هبط مستوى سطح البحر هبوطاً كبيراً في أثناء العصر الحجري القديم الأعلى فبلغ – ٤٣ بالنسبة لمستواه الحالي وتبع ذلك انخفاض النيل عند بني سويف إلى – ٣ متر .

المرحلة الخامسة : أخذ مستوى سطح البحر في رأي بول وكذلك مستوى مياه النهر يرتفعان تدريجياً وذلك ابتداء من العصر الحجري المتوسط حتى الوقت الحالي . ولكن بوتسر يرى غير ذلك فمستوى سطح البحر كان كما يقول في انخفاض متقطع منذ العصر الحجري المتوسط .

المدرجات :

وقد أدت الذبذبات التي تعرض لها مستوى سطح البحر إلى تكوين المدرجات النهرية وظهور الدلتا بشكلها الحالي. وتقسم المدرجات إلى ثلاثة أقسام أو مجموعات وفق رأي كل من ساندفورد وآركل .

المجموعة الأولى : ترجع إلى عصر البليوسين وأوائل البليستوسين وتشتمل على خمسة مدرجات أو مصاطب ارتفاعها بالامتار فوق السهل الفيضي في الصعيد على التوالي ١٥٠ ، ١١٥ (وهذه بليوسينية) ٩٠ ، ٦٠ ، ٤٥ .

المجموعة الثانية : وتشتمل على مدرجين ارتفاعهما فوق السهل الفيضي ٣٠ ، ١٥ متراً على التوالي ويرجعان إلى العصر الحجري القديم الأسفل .

المجموعة الثالثة وتشتمل على مدرجين ارتفاعهما ٩ ، ٣ أمتار ويرجح أنه كانت

---

(١) يعتبر كل من ساند فورد واركل حجة في المدرجات النهرية والبحرية بمصر – راجع
Sand ford, K. S. & Arkell, W. Palaeolithic Man and The Nile Valley, Chicago, Vols . XVIII, 1933 & XLV, 1939.

هناك مدرجات ترتفع أقل من ٣ أمتار.ولكن طمي النيل الذي جاء بعد اتصال النيل بالحبشة ثم الارسابات الحديثة طمرت هذه المدرجات الصغيرة التي لا بد أنها حوت آثار الإنسان في العصر الحجري القديم الأعلى. هذا وقد تأثرت المدرجات فوق السهل الفيضي بعوامل التعرية ، فزالت كثير من أجزائها وينطبق ذلك على وجه الخصوص على مدرجي ١٥٠ ، ١١٥ متر .

أما في الدلتا فالمدرجات ليست واضحة. ولكن يمكننا تمييز مدرج ٣٠ متراً بها فتوجد بقاياه قائمة فوق الأرض الزراعيه قرب حلوان والعباسية وفي وادي طميلات . ويرجع كنظيره في الصعيد إلى العصر الحجري القديم الأسفل. كذلك أمكن اكتشاف بقايا مدرج ١٥ متراً في نفس المناطق السابقة ولكنه تآكل وكاد يختفي بفعل السيول والرياح . ويرجح أن مدرجي ٩، ٣ أمتار كانا موجودين أيضاً ولكنهما اختفيا بفعل عوامل التعرية ويدل على وجودهما كثرة ما وجد من آلات العصر الحجري القديم المتوسط. وينطبق هذا القول على المدرجات الأقل من ثلاثة أمتار فربما جرفتها الميـــاه الجارية . ولكن آلات الإنسان الذي عاش عليها توجد منتشرة في سهل العباسية وفي طريق القاهرة السويس . ولما كانت العلاقة بين النيل والبحر المتوسط قوية كما قدمنا فإننا نستطيع أن نجد رابطة بين المدرجات النهرية في وادي النيل والأرصفة البحرية التي تظهر في بعض مناطق حوض البحر المتوسط . فمدرج ٩٠ متراً وافق ظهور الرصيف الصقلي ومدرج ٦٠ متراً وافق ظهور الرصيف الميلازي . أما مدرج ٣٠ متراً فيعاصر الرصيف التيراني وربما زامن مدرجا ١٥ ، ٩ معاً الرصيف الموناستيري [١] .

الرواسب الفيضية الحديثة في الوادي :

أول الرواسب الطينية السوداء التي وصلت وادي النيل هو الطمى السبيلي [٢]

---

(١) راجع الحديث عن الأرصفة البحرية ص ٥٠

(٢) نسبة إلى بلدة السبيل مركز كوم امبو

الذي يحتوي كثيراً من آثار الإنسان ويمثل أول دفعة من طمى الحبشة تبلغ مصر بعد أن اتصل النيل المصري بالنيل في السودان عن طريق خانق سبلوكة وذلك في العصر الحجري القديم الأعلى [1] . هذا الطمي خصب لا يختلف في تركيبه وطبيعته عن الطمي الحديث ولو أنه أكثر منه صلابة وتماسكا . وهو يظهر فوق مستوى أرض الوادي غير أن سمكه يقل كلما اتجهنا شمالاً . فسمكه عند وادي حلفا يصل إلى ٣٠ متراً فوق مستوى السهل الفيضي الحديث ثم ينخفض إلى أقل من ستة أمتار عند مدينة قنا ثم يصير مستواه في مستوى السهل الفيضي عند نجع حمادى . ثم يختفي تحت الرواسب الحديثة شمالي نجع حمادى . وقد عثر على هذا الطمى عند حافة الوادي في طره وجد تحت الرمال السافية القادمة من الصحراء . ولا يقتصر وجود هذا الطمى على وادي النيل فقد اكتشف عند مصبات الأودية الصحراوية الجنوبية التي تنحدر إلى نهر النيل من الهضبتين الشرقية والغربية . ويمكن تفسير وجود هذا الطمى القديم قرب مصبات الأودية بأنه بعد أن قلت الأمطار وانتشر الجفاف في العصر الحجري القديم الأعلى قلت المياه الجارية في الوديان فتراكمت هذه الارسابات الطينية عند فوهاتها . وقد تبين بعد جس التكوينات الفيضية في الوادي أن سمك طبقة الرواسب الفيضية الحديثة يبلغ في المتوسط ٨,٤ متر تمتد تحتها طبقة سميكة من الحصى والرمال الخشنة ترجع إلى عصر البليستوسين . أما قاع النهر نفسه فتقع تحته طبقة من الرمال الخشنة والجلاميد والحصى .

الارسابات الفيضية في الدلتا :

كانت الدلتا في أواخر البليوسين وفجر البليستوسين خليجاً بحريا (انظر

---

(١) راجع في هذا الموضوع Huzayyin,S . Recent Physiographic Stages in the Lower Nile Valley and their Relation to Hydrographic and Climatic changes in Abyssinia and East Africa , 1949 .

شكل ٣٢) يأتي فيه النهر الجاري الجانبية على الخليج بكميات ضخمة من الحصى والرمال تتكوم بغير نظام وقد تعرضت هذه المواد فيما بعد للتآكل والتعرية بفعل الماء الجاري في الفروع المختلفة. فقد اشتد نحت هذا الماء حينما انخفض مستوى سطح البحر في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى. ثم جاء طمي النيل الحديث وغطى هذه الرواسب الغليظة . ولكن نظراً لعدم استواء هذه الرواسب Sub -deltaic Deposits واختلافها في درجـــة التماسك فان مجهود الماء الجاري لم يستطـــع تسـويتهـــا بدرجة واحدة وكان من أثر ذلك أن الرواسب الحديثة لم تتمكن من أن تخفي بعض البروزات التي تكون الآن جزراً من الحصى والرمال القديمة تقف وسط التربة الزراعيـــة السوداء . وقد اطلق على هذه البروزات « ظهور السلاحف » Turtle Backs . وأكبر هذه الجزر الحصوية تقع بين بـلدتي قويسنا وقليوب وجنوبي فاقوس كما أن هناك سلسلة من الجزر الصغيرة تمتد إلى الجنوب من مدينة السنبلاوين . ومن دراسة القطاعات الرأسية في أرض الدلتا تبين أنها مكونة من الطبقات الآتية من أعلى إلى أسفل ١ – طبقة الرواسب الفيضية الحديثة وهذه يبلغ متوسط سمكها حوالي ٨,٩ متر وقد استغرق تكوينها نحو عشرة آلاف سنة ، ٢ – طبقة سميكة من المواد الطينية المختلطة بالرمال بلغ سمكها ٢٦,٦ متراً في بعض المواضع وهي مصدر الماء الجوفي في الدلتا ٣ – طبقة رواسب بلايستوسينية تتكون من الحصى والرمال .

نمو الدلتا :

نمت الدلتا على مراحل . ففي أواخر البليوسين كان الساحل يقع إلى الشمال من خط عرض القاهرة . وفي أوائل البليستوسين قدر بعد الساحـــل عن خط عرض القاهرة بحوالي ٤٨ كلم. ثم تقدم الساحل بعد ذلـك إلى الشمال في العصر الحجري القديم الأسفل فوصل إلى قرب خط عرض بنهـا ٣٠° ٣٠َ أي على بعد حوالي ٦٠ كلم من القاهرة . وفي العصر الحجري القديم المتوسط تقدم الساحـــل

فصار قريباً من موقع المنصورة الحالي ، أي صار على بعد نحو ٩٠ كلم من موضع القاهرة . ولكنه تقهقر على ما يبـــدو نحو الجنوب في أواخر هذا العصر . فأصبح يبعد عن موضع القاهرة بحوالي ٨٢ كلم وصار ينتهي قرب موقعي المحلة الكبرى وأجا . ولما انحسر البحر انحساراً كبيراً في العصر الحجري القديم الأعلى كما رأينا تقدم ساحل الدلتا تقدماً لم يبلغه ذلك وتمت عملية التكوين . فقد تقدم الساحل إلى مسافة ١١ كلم شمالي الساحل الحالي وصار يقع على بعد ١٨١ كلم من موقع القاهرة . غير أن الساحل تقهقر للمرة الثانية في منتصف العصر الحجري الحديث . فتقهقر إلى الوراء وصار لا يبعد عن موضع القاهرة بأكثر من ١٧٣ كلم أي كان لا يبعد عن الساحل الحالي بنحو ثلاثة كيلو مترات جهة الشمال . ومنذ ذلك التاريخ وساحل الدلتا يتقهقر نحو الجنوب حتى وصل إلى امتداده الحالي . ولكن بوتسر (١٩٥٩ ص ٥٨) يرى غير ذلك فهو يقول بأن مستوى البحر كان مرتفعاً عنه الآن بنحو ٤ أمتار في أول العصر التاريخي ثم أخذ في الانخفاض التدريجي حتى بلغ – ٢ متر في أوائل العهد الميلادي ثم أخذ في الارتفاع حتى بلغ مستواه الحالي في صدر الاسلام وبلغ ساحل الدلتا امتداده الحالي . أما اتساع نطـــاق المستنقعات في شمالي الدلتا فيرجع إلى استمرار ارتفاع سطح البحر منذ القرن الثاني الميلادي. ومما هو جدير بالذكر أن قمة الدلتا كانت تتقدم نحو البحر طوال عصور ما قبل التاريخ وأن فروع النيل كانت كثيرة اختفى معظمها قبل القرن الثاني عشر الميلادي ولهذا الحديث عودة .

ب — المنخفضات :

من الظواهر الفيزيوغرافية التي عرفتها مصر في عصر البليستوسين وربما قبله المنخفضات في الصحراء الغربية وعلى جانبي وادي النيل . والمنخفضات كمظهر فيزيوغرافي يكشف أولاً وقبل كل شيء عن تطور الأحوال المناخية في مصر في هذا العصر كمـــا تشير دراسة منخفض كمنخفض الفيوم مثلاً عن العلاقة المتغيرة بين النيل والبحيرة التي كانت تشغل المنخفض . وفيما يلي دراسة لبعض هذه المنخفضات .

منخفض الفيوم :

يقع هذا المنخفض العميق إلى الجنوب الغربي من القاهرة وتبلغ مساحته حوالي ١٧٠٠ كلم٢ وينحدر بصفة عامة نحو الشمال الغربي نحو بركة قارون التي تمثل البقية الباقية من البحيرة القديمة وتحتل الآن أعمق جزء فيه . ومستوى سطح البركة يبلغ اليوم – ٤٥ م تحت مستوى سطح البحر كما لا تزيد مساحتها عن ٢٠٠ كلم٢ بعد أن كانت تشغل أغلب المنخفض كما تشهد بذلك شواطئوها القديمة . ويختلف منخفض الفيوم هذا عن منخفضات الصحراء الغربية في أنه يتصل بنهر النيل عن طريق بحر يوسف وهو فرع قديم للنيل يبلغ المنخفض عبر فتحة اللاهون وأن تربته كتربة الوادي أرسبتها مياه النيل [1] .

ويختلف العلماء في متى وكيف حفر هذا المنخفض، فبينما يرى H. Beadnell [2] أن الرياح بدأت في حفره في البليوسين يرى كل من ساندفور وآركل [3] أن حفره لم يبدأ إلا بعد انتهاء البليوسين وكان الماء الجاري هو السبب والعامل الوحيد . ولكن الأرجح أن حفره بدأ في أواخر البليوسين وأن أكثر من عامل أسهم في تكوينه فالكسور (على جوانبه) والماء الجاري والرياح كلها تعاونت على تعميقه وتوسيع جوانبه . ولم يكن المنخفض متصلاً بوادي النيل عند نشأته الأولى. ولم يتصل به إلا عندما تمكنت المياه الجارية من أن تزيل الحاجز الضيق الذي كان يقف في طريقها إلى المنخفض وفتح لنفسه فتحة تعرف بفتحة اللاهون أو الهوارة.

---

(1) راجع Caton - Thompson, G. and Gardner, F. The Desert Fayum London, 1935

(2) Beadnell , H . « The Topography and Geology of the Fayum province of Egypt . » Cairo 1905

(3) Sandford , k & Arkell , W . Palaeolithic Man and the Nile valley in Nubia and upper Egypt . 1933 .

وقد تم ذلك في أوائل عصر البليوسين وأوائل عصر البلستوسين . وما أن دخلت مياه النيل إلى المنخفض حتى تحول إلى بحيرة ضخمة تغذيها جزئياً مياه الأمطار ويعيش على جنباتها إنسان غير عاقل . وقد بلغ مستوى سطح البحيرة في تلك الفترة ٤٣ متراً فوق مستوى سطح البحر (أو ما يقرب من ٨٨ متراً فوق منسوب البحيرة الحالي) وبلغت مساحتها ٢٨٠٠ كلم٢ أي كانت أكبر من بحيرة قارون الحالية بنحو ١٤ مرة .

ولم تكن صلة المنخفض بالنيل صلة مستديمة ففي فترات انقطعت الصلة وفي فترات أخرى قامت الصلة. وربما كان اتصال المنخفض بالنيل أو عدم اتصاله هو أهم عامل في انكماش البحيرة وظهور المدرجات البحيرية حولها . أما العامل الآخر الذي ساعد على شدة الانكماش وسرعته فهو تغير المناخ وحلول الظروف الصحراوية . ولقد انكمشت البحيرة وصغر حجمها بدرجة كبيرة في العصر الحجري القديم الأعلى الذي تميز بالجفاف وفيه هبط منسوب البحيرة إلى ـ ٣ أمتار ثم ارتفع المنسوب فبلغ ١٨ متراً واتسعت البحيرة قليلاً في أوائل العصر الحجري الحديث ولولا انقطاع الصلة بالنيل في هذا العصر لارتفع المنسوب أكثر من ذلك خاصة وأن الصحراوات في شمالي افريقية مرت بدور مطير ثانوي يتفق حدوثه مع هذا العصر . وقد واصل منسوب البحيرة انخفاضه خلال الفترة اللاحقة حتى بلغ ـ ٢ متر في أوائل عصر ما قبل الأسرات واستمر في العصور التاريخية بشكل سريع بعد أن حل الجفاف وكثر البخر حتى وصل إلى ـ ٤٥ متراً في الوقت الحاضر .

وتحكي المدرجات التي تحيط بالبحيرة مراحل تذبذب مستوى البحيرة وانكماشها . فمدرج ٤٣ متر فوق سطح البحر يشير إلى مستوى البحيرة عندما بلغت اعظم اتساع وأعلى منسوب وكان ذلك في أوائل البليستوسين ثم انكمشت البحيرة ووصل منسوبها إلى ٣٤ متر وتكون رصيف بنفس الارتفاع.

ويتفق تكوين هذين المدرجين السابقين مع نهاية صناعة آشل (شكل ٢٧) ثم واصلت البحيرة الانكماش حتى بلغ مستوى سطحها ٢٨ متراً وذلك في أواخر العصر الحجري القديم الاوسط بعد هبوط شديد في منتصف هذا العصر. وهكذا تكون مدرج ٢٨ متراً تلاه مدرج ٢٢ الذي تكون في منتصف العصر الحجري القديم الأعلى. وتدهور المنسوب بسرعة كبيرة بعد ذلك ليصل إلى -٣ أمتار في أواخر هذا العصر. ولكن يبدو أن البحيرة اتصلت بالنيل في الفترة الانتقالية التي سبقت العصر الحجري الحديث مما أدى إلى ارتفاع منسوبها من جديد فوق سطح البحر إذ بلغ ١٨ متراً. ولكن ما لبثت الصلة أن انقطعت خلال العصر الحجري الحديث وتكونت مدرجات ١٨ ، ١٠ ، ٤ أمتار فوق سطح البحر. وعلى الرصيفين الاخيرين اكتشفت أغلب مخلفات حضارة الفيوم. وكما ذكرنا استمر انخفاض البحيرة بشكل سريع بعد أن طال انقطاع البحيرة عن النيل وبعد أن حل الجفاف فبلغ المنسوب – ٣٦ متر أثناء العصر الروماني ، – ٤٥ متراً في الوقت الحالي [١].

منخفض الواحات الخارجة :

لا تشغل الواحة إلا مساحة ضئيلة من المنخفض تبلغ ١ ٪ منه عاش عليها الانسان منذ أيام الحضارة الأشولية. وتختلف الآراء أيضاً حول عوامل نشأة هذا المنخفض. ولكن الأرجح أن منطقة المنخفض تعرضت أولاً للكسور والفوالق وكان لذلك أثره في تسهيل عملية نحت الماء الجاري ثم الرياح فيما بعد. وربما حفر هذا المنخفض في أواخر البليوسين أو أوائل البليستوسين. والذي يهمنا من دراسة هذه الظاهرة تلك الارسابات التي توجد على الحافة الشرقية وفي

---

(١) راجع : Ball, J. Contributions to the Geography of Egypt, Cairo. 1939 pp. 178 - 285.

الأودية التي تخترق هذه الحافة والتي تكشف عن تغير الأحوال المناخية في القسم الجنوبي من الصحراء الغربية . وقد درست كيتون ـ طومبسون Caton - Thompson وجاردنر Gardner التطورات التي أصابت الحافة الشرقية والشمالية للمنخفض حيث تنحدر منها أودية إلى قاع المنخفض . وقد تبين لهما أن حافة المنخفض والوديان تعرضت لتغيرات فيزيوغرافية نتيجة لتتابع فترات المطر والجفاف .

فعلى حافة الهضبة وجدت تكوينات من الطوفا Tufa وهي تكوينات جيرية مختلطة بالرمال والبقايا النباتية مما يدل على تعرض المنطقة لفترة مطيرة يرجح أنها تتفق مع الدور المطير الأول ثم عندما بلغ الدور المطير قمته حفرت الوديان التي تنتهي إلى المنخفض ومن دراسة تتابع الارسابات في هذه الوديان تبين أن المنخفض تعرض بعد ذلك لفترات مطر تخللتها فترات جفاف . وفي فترات المطر تكونت طوفا الوادي وفي فترات الجفاف تكونت البرشيا Breccia وهي مواد حادة الزوايا تدل على أن المياه لم تؤثر فيها وإنما الذي أثر فيها هو الرياح .

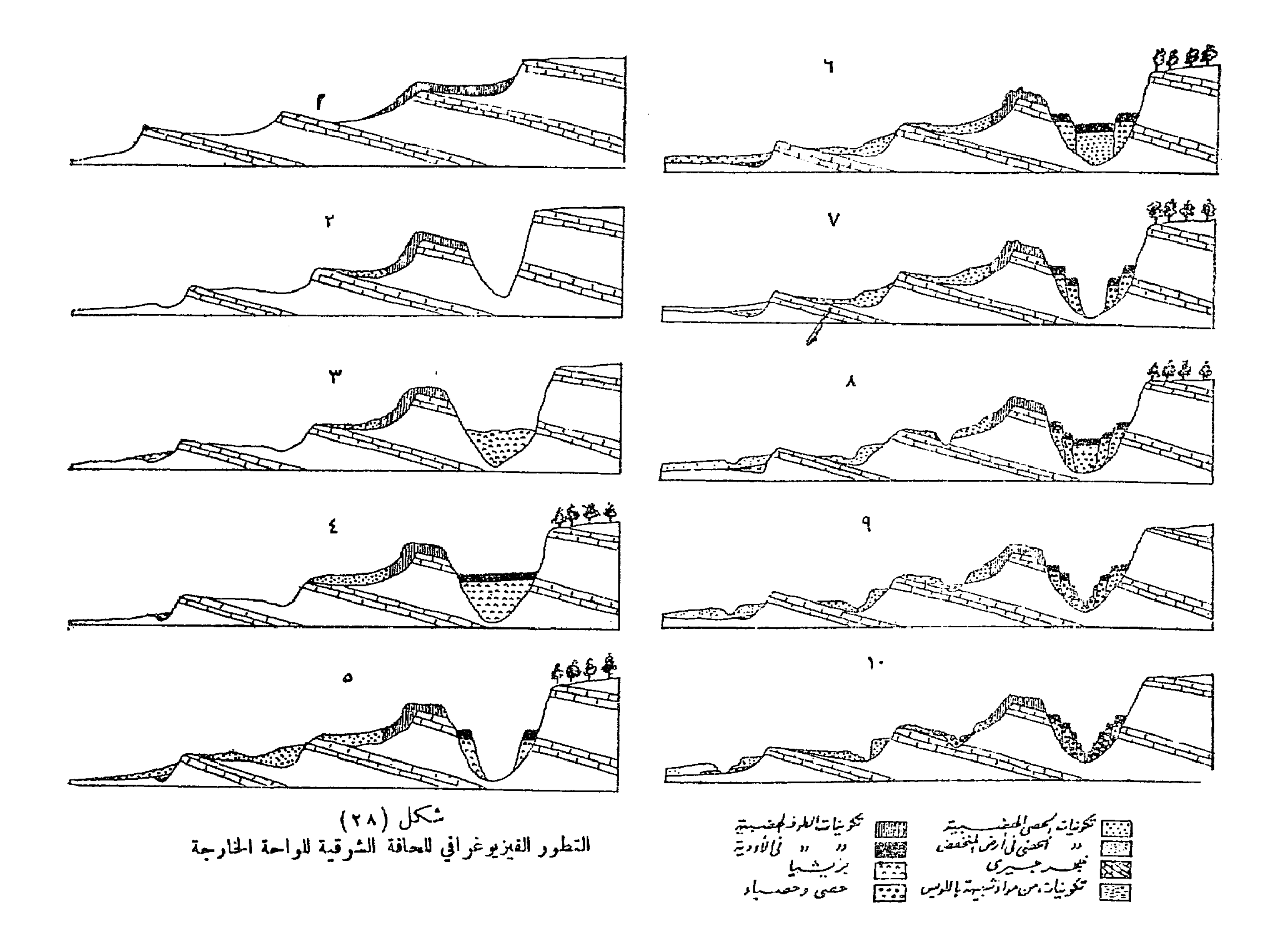
وعلى هذا الأساس يمكن استنتاج تذبذب المناخ في البليستوسين. فقد تعرض المنخفض إلى دور مطير تكونت خلاله طوفا الهضبة (شكل ٢٨) وشقت الوديان الكثيرة في الحافة الشرقية . ثم حدثت فترة جفاف ردمت فيها الوديان بالبرشيا. وفي الدور المطير الثاني والذي يعتقد أن أمطاره بلغت في كميتها تلك

---

(١) راجع :

A. Ball, J. « Kharga Oasis : Its Topography and Geology » Cairo 1900.

B. Caton - Thompson , G. and Gardner, E. « The Prehistoric Geography of kharga Oasis» geog. J. vol. LXXX, 1932



شكل (٢٨)
التطور الفيزيوغرافي للحافة الشرقية للواحة الخارجة

التي تسقط حالياً على حوض البحر المتوسط (ويتميز بثلاث قمم) حفرت وديان صغيرة وتكونت أنواع من طوفا الوادي كما ظهرت مدرجات حصوية على جوانب هذه الوديان. وفي الفترات الجافة التي فصلت بين القمم المطيرة تكونت البرشيا . وكما ذكرنا عثر على آثار الانسان القديم ولكن آثاره لا ترجع إلى أبعد من الفترة الأشولية والتي تتفق مع بداية الدور المطير الثاني . ووجد إلى جانب الآلات الأشولية آلات لفلواظية ثم ظهرت آلات العصر الحجري القديم الأعلى وتشبه من بعض الوجوه آلات الحضارة العاطرية في شمال غربي افريقية . ويبدو أن الانسان هجر المنخفض بعد حلول الجفاف في أواخر العصر الحجري القديم ولكن رجع إليه مرة ثانية في العصر الحجري الحديث الذي اتفق مع دور مطير ثانوي كما أشرنا. وتكشف عنه آثار لبرك من الماء فوق سطح الهضبة ووجود رواسب ينبوعية قديمة تشير إلى أن الماء كان يخرج من طبقة سطحية وليس من الحجر النوبي الذي تستمد منه آثار الواحة الآن أغلب مياهها . حول هذه الينابيع عاش الانسان ولكنه هجرها بعد أن اشتد الجفاف ونضبت مياه الينابيع . هـــذا وسنهمل دراسة بقية منخفضات الصحراء الغربية على أساس أن دراستها لم تكتمل من حيث الاستقرار البشري فيها .

منخفض أو حوض كوم أمبو :

لحوض كوم أمبو أهمية حضارية ففيه تتابعت حضارات الانسان في العصر الحجري القديم الأعلى وما بعده وعرفت بالحضارات السبيلية نسبة إلى بلدة السبيل كما أن دراسة مظاهره الفيزيوغرافية ألقت ضوءاً على تطور الأحوال المناخية في جنوب مصر بصفة خاصة . وقد تكون هذا الحوض المتسع (شمال بلدة دراو في محافظة أسوان) في البليوسين . وفي أواخر هذا العصر وفي أوائل البليستوسين انتشرت المياه في الحوض وتكون ما يشبه البطائح والمستنقعات المعروفة في إقليم السدود بجنوب السودان ورسب في قاعها كميات من الحصى

والحصباء جلبها رافدان من روافد النيل إذ ذاك هما واديا خريط وشعيت الآن . ثم بعد ذلك انكمشت البحيرة بسبب الجفاف ولكن زاد عمقها نسبياً نتيجة للنحت الرأسي وكان ذلك في العصر الحجري القديم المتوسط . ثم اتسعت البحيرة في أوائل العصر الحجري القديم الاعلى بسبب تغير المناخ وازدياد سقوط المطر . ولكن المستنقعات أخذت تنكمش وتجف تدريجياً في أواخر هذا العصر وذلك بسب ازدياد الجفاف .

وقد تبين أنه يوجد في هذا الحوض ثلاثة مستويات تشير إلى تغير مساحة المستنقعات التي شغلته وانكماشها في فترات الجفاف . وقد وجد في المستوى الاول آثار الحضارة السبيلية في أولى مراحلها وهي السبيلية السفلى ثم لما انكمشت المستنقعات ظهر المستوى الثاني وبه اكتشفت آثار السبيلية الوسطى. وظهر المستوى الثالث عندما اشتد الجفاف وزاد انكماش المستنقعات في أواخر العصر الحجري القديم الاعلى وبه وجدت آثار الحضارة السبيلية العليا. وسنشير إلى هذه الحضارة عندما نتعرض لحضارات مصر في العصر الحجري .

حـ ــ الوديان :

تمتاز الصحراء الشرقية وسيناء بتقطعها الشديد بوديان جافة تفيض بالسيول في فصل الامطار أحياناً . ووديان الصحراء الشرقية منهـــا ما يصب في وادي النيل ومنهـــا ما يصب في البحر الاحمر . وتتخذ هذه الوديان دليلاً على تغير المنـــاخ وحدوث العصر المطير . كما أدت ذبذبات المطر إلى ظهور مدرجات وادية مكونة من حصبـــاء ورمال حملتها وكونتها المياه الجارية. على هذه المدرجات وجدت آلات وأسلحة الانسان القديم. فمثلاً وجد في وادي قنا آلات الصناعة الاشولية على مدرج ٣٤ متراً فوق مستوى قاع الوادي وآلات ما قبل الموستيرية على مدرج ١٥ متراً وآلات الصناعة

اللقلواظية على مدرج ٩ أمتار وآلات الصناعة اللقلواظية المتأخرة على مدرج ٣ أمتار .

د — الكثبان الرملية :

يشير وجود هذه الارسابات الرملية إلى انتشار الجفاف تدريجياً في أعقاب الدور المطير الثاني وتنتشر هذه الكثبان في الصحراء الغربية وعلى طول ساحل الدلتا الشمالي وفي شمالي سيناء . وتظهر على شكل كثبـــان هلالية في جنوبي الصحراء الغربية وعلى شكل نطاقـــات طولية في الهضاب الوسطى من هذه الصحراء تتجه بصفة عامة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. وهذه الكثبان الطولية متحركة تمتد عشرات الكيلومترات وترتفع إلى أكثر من ٣٠ متراً كونتها ووزعتها الرياح الشمالية الغربية . ولعل أهم غرودها غرد أبي محاريق الذي يمتد بين الواحة البحرية والواحات الخارجة بل يمتد في داخل منخفض هذه الواحات أي يمتد مسافة ٣٥٠ كيلومتراً. وقد قدر بيدنل Beadnell وبول Ball عمر هذا الغرد بنحو ٣٥ ألف سنة على أساس أنه ينمو بمعدل ١٠ أمتار كل عام [١] .

وفي جنوب واحة سيوه يمتد بحر هائل من الرمال ينتهي جنوبـاً عند هضبة الجلف الكبير يقدر طوله بنحو ٥٠٠ كم وعرضه ٢٠٠ كم أما سمك رمـاله فيزيد على ٨٠ متراً . ويقف هذا البحر الرملي الآن عقبة في سبيل المواصلات البرية بين مصر وليبيا . ويمتد نطاق متقطع من الكثبان الرملية على طول ساحل الدلتـا وشمالي سيناء أرسبتها الرياح الشمالية الغربية والغربية وكومتها الرياح الجنوبية .

---

(١) راجع .Beadnell, H.« The Sand dunes of the Lybian Desert», Geog. J., vol. 35 - 1910

Ball, J.« Problems of the Lybian Desert » Geog. J. Vol. 20, 1957, p. 12 .

وبسبب تحرك كل هذه الكثبان فقد اختفت تحتها كثير من آثار الانسان وخاصة في الواحات التي أغارت على بعض أجزائها .

هـ - السلاسل التلالية في مريوط :

هذه سلاسل تلالية من الصخور الجيرية الأيوليتية Oolitic تمتد بجوار الساحل إلى الغرب من مدينة الاسكندرية لا يزيد ارتفاعها عن ٣٥ متراً فوق سطح البحر وتحصر فيما بينها ودياناً تشغل بعض اجزائها المستنقعات والسبخات أو أراض صلصالية صالحة لزراعة الاشجار وبعض الحبوب . وأهم هذه السلاسل وأعلاها سلسلتا أبي صير التي يفصلها عن البحر نطاق شبه متصلب من الكثبان وسلسلة مريوط التي تشرف على منخفض بحيرة مريوط من جهة الجنوب . ويرى زوينر أن هذه السلاسل ما هي إلا شطوط قديمة تشير إلى المستويات القديمة لمياه البحر المتوسط [١] . وهناك الآن قرب خط الساحل نطاق من الكثبان الجيرية بدأ تكوينه في العصور التاريخية .

و - المدرجات البحرية والشعاب المرجانية على طول خليج السويس والبحر الأحمر :

تظهر بقايا هذه المدرجات والشعاب القديمة في مناطق متفرقة على طول خليج السويس والبحر الأحمر . فمثلاً في المنطقة بين سفاجة والقصير تظهر عدة مدرجات وشعاب مرجانية يبلغ ارتفاع أعلى رصيف فيها وأبعدها عن البحر ٢٣٨ متراً بالنسبة لمستوى سطح البحر وأقل الأرصفة ارتفاعاً وأقربه إلى البحر هو رصيف ٢٤ متراً فوق منسوب سطح البحر . وفيما بين أعلى الأرصفة وأقلها

---

(١) راجع Zeuner, F. Dating the Past, London 1952

ارتفاعاً تقوم أرصفة وسط ترتفـــع على التوالي إلى ٧٢ ، ٩٠ ، ١١٤ ، ١٥٦ ، ١٦٨ متراً فوق سطح البحر . هذا ولا تتبع كل الأرصفة عصر البليستوسين وإنما الذي يتبعه منها تلك التي لا ترتفع أكثر من ١٠٠ متر ولا تبعد عن خـــط الساحل كثيراً (١) .

ب – تطور الحضارة

أ – صناعة العصر الحجري القديم الأسفل :

رأينا في الفصل الرابع كيف أن صناعات العصر الحجري القـديم الأسفل كانت صناعات عالمية . انتشرت في أجزاء واسعة من العـــالم . انتشرت إلى الجنوب وإلى الغرب من خط يمتد بين الجزر البريطانية وشمال الهند . وكان من بين البلاد التي انتشرت فيها مصر . وتوجد آلات الصناعة الشيلية من الفؤوس اليدوية على مدرجات النيل والوديان الجافة التي ترتفـع إلى علو ٣٠ متراً فوق السهل الفيضي (٢) . أما الآلات الأشولية أو الأبيفيلية فقد وجدت في رواسب مدرجات ١٥ متراً ومعها آلات كلاكتونية وفي الواحـة الخـارجة وفي جهات كثيرة من الهضاب المحيطة بوادي النيل . وعرفت الدلتا مثل هذه الآلات فقد اكتشفت آلات شيلية في العباسية على عمق عشرة أمتار من السطح فيما كان خليجاً قديماً . ووجدت معها أيضاً آلات ما قبل الشيلية مما يشير إلى أن الدلتا لم تكن حضارياً أقل عراقة من الوادي . ويمكن أن نتخذ آلات ما قبل الشيلية التي اكتشفت في أكثر من مكان على أن مصر كانت جزءاً من الوطن الذي نشأت فيه حضارة الإنسان الحجرية أول ما نشأت . فمناخها ومناخ الأراضي المجاورة

---

(١) Ball, J. 1939 op. cit., pp, 59 - 30

كان في ذلك الوقت دفيئاً رطباً يسمح بظهور حياة نباتية تقبل عليها حيوانات الصيد العاشبة . ولم تكن كل الآلات التي اكتشفت من الصوان فقد كان بعضها من الحجر الرملي . وتشير الأدلة إلى أن منطقة الجبل الأحمر قرب القاهرة كانت مصدراً هاماً للصوان واكتشفت فيها مصانع له .

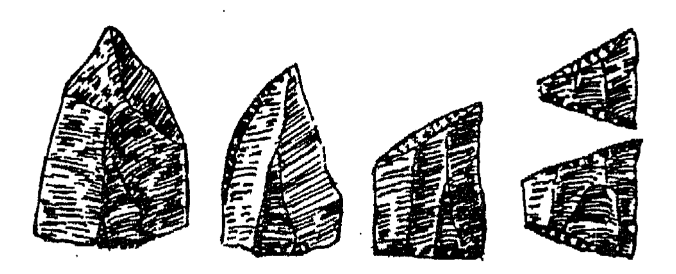
٢ - صناعة العصر الحجري القديم الأوسط :

في هذا العصر زالت صفة العالمية عن حضارة الانسان وظهر نوع من التخصص القاري. فأوراسيا اشتهرت بالصناعة الموستيرية التي نشأت في داخلية آسيا ثم انتشرت إلى أوربا . أما الصناعة اللفلواظية فقد انتشرت في افريقية ومن ثم انتشرت إلى آسيا عن طريق مصر وإلى أوربا عن طريق شمال غربي افريقية . ولا ندري شيئاً عن صاحب حضارة العصر الحجري القديم المتوسط في مصر فلم نعثر على عظامه . ولكن يمكن القول أنه كان من النوع النياندري عاش في العراء واعتمد في غذائه على الصيد والجمع والالتقاط وكان عصره مطيراً . أما آلاته فأغلبها لفلواظية وظلت هذه الآلات تصغر حجماً حتى أصبحت لفلواظية متدهورة Diminutive Levalloisian . وتوجد آلات هذا الإنسان مغطاة برواسب الطمي في كثير من جهات الوادي، وقد اكتشف كثير منها على مدرجي ٩ ، ٣ أمتار أما في منخفض الفيوم فوجدت على مدرج ٢٨ متراً فوق سطح البحر .

٣ - حضارات العصر الحجري القديم الأعلى والحجري المتوسط :

حضارات هذا العصر كانت كما ذكرنا أكثر تنوعاً وانتشاراً في انحاء العالم من صناعات العصرين السابقين . ولا عجب فصاحبها هو الانسان العاقل . كان المناخ في مصر في هذا العصر لايزال رطباً وإن كان يميل ببطء نحو الجفاف. ويحتمل أن يكون الانسان قد نزل إلى الوادي في وقت مامنه . وإذا كانت حضارات هذا العصر في أوربا

لم تتطور عن حضارات العصر السابق فان الحضارة السبيلية في مصر متطورةعن اللفلواظية المحلية المتدهورة. ومعنى ذلك أن حضارات مصر في هذا الزمن البعيد لم تتأثر بمؤثرات خارجية . بل إنه ظهر شبه تخصص حضاري داخل حدود مصر [1] . فظهرت السبيلية في كوم امبو والخارجية في الواحة الخارجة وحضارة أخرى في شمالي مصر عثر على آلاتها في أبي صوير والعباسية . وكان ذلك كله تمهيداً للتخصص الواضح في العصر الحجري الحديث . وليس من سبب يفسر قلة الآثار النسبية في هذا العصر إلا أن أغلبها انطمر تحت طمي النيل الحديث الذي وصل في أواخره . وتنقسم كل حضارةمن الحضارات المشار إليها إلى ثلاث مراحل تتبع الأولى والثانية هذا العصر وتتبع الثالثة العصر التالي — الحجري المتوسط . فالسبيلية ١ و ٢ تتفقان مع المرحلتين الأولى والثانية في كل من الخارجة وشمالي مصر . ويسترعي الانتباه أن الآلات كلها قزمية وأن آلات المرحلة السبيلية الأولى كانت من المدببات والأشكال الهندسية (شكل ٢٩)



(شكل ٢٩) آلات سبيلية

---

(١) Huzayyin,S. New Light on the Upper Palaeolithic of Egypt, Proceedings of The First Pan African Congress on Prehistory,
راجع ايضاً حضارات مصر الحجرية في كتابه :
The Place of Egypt in Prehistory, Cairo, 1941.

صنع أغلبها من الصخور النـــارية . ولكن نسبة الآلات الصوانيه ارتفعت في السبيلي الأوسط كما وجدت آثار آلات لطحن الغلال ممــا يدل على أن الإنسان ابتدأ يستخدم الحبوب البرية في غذائه . وربما هداه ذلـك فيما بعد لزراعتها . ويبدو أن أصحاب الحضارة العاطرية في تونس نقلوا حضارتهم إلى الواحة الخارجة ومنطقة الأقصر إبان المرحلة الأولى للحضارة الخارجية . فقـد اكتشفت بعض آثارها هنا رغم بعد المسافة . وحضارة العصر الحجري المتوسط هي امتـداد لتلك الحضارات التي أشرنا إليها . آلاتها كما في أورباقزمية ذات أشكال هندسيه يرجح أنها لم تكن تستخدم بمفردها ولكن بعد تثبيتها في قطع الخشب أو ربطها إلى قطع من العظام .

٤ – حضارات العصر الحجري الحديث :

قامت في شمال مصر في هذا العصر أقدم محلات زراعية في افريقية قامت على حواف الوادي وفي منخفض الفيوم . ولم تقتصر السكنى على هذه المناطق فقد انتشر قسم من السكان فوق الهضاب المجاورة – بعد أن عـــادت الأمطار – ولكن قرب العيون والينابيع وعاش قسم ثالث فوق مستوى الفيضان في الوادي والدلتا وكان الأمر في الدلتا مختلفاً عن الوادي فقد بحث السكان عن ضفاف عالية فلم يجدوها ولكنهم وجدوا أرضاً عاليـــة في الجنوب والشرق هي مـــا تعرف « بظهور السلاحف » فسكنوا فوقها وزرعوا ما حولها. وقد حالت فروع النهر بين هؤلاء الزراع وأعدائهم من سكان الهضاب المجـــاورة الذين طمعوا في محصولاتهم وحيواناتهم [1] . وقد اكتشفت في العقود الأولى من هذا القرن أربع من هذه المحلات الزراعية هي : العُمري ومرمَدة بني سلامة والفيوم وديرتاسا

---

(١) Butzer, K. op., cit., p. 66.

ينسب إليها حضارات مصر في هـــذا العصر . في هذه المحلات الأثرية وجدت بقايا مساكن وجبانات وآثار منقولة من آلات وأشياء للزينة وغيرهـــا تشير أقدمها إلى أنها ترجع إلى الألف السابعة قبل الميلاد وأنها كانت أرقى من غيرها في كثير من جهات الشرق الأوسط .

زرع أصحاب هذه الحضارات المصرية القمح والشعير واستأنسوا المـــاشية والأغنام والماعز والخنازير والحمير . وصنعوا الآنية الفخارية والسلال ونسجوا المنسوجات وجهزوا الجلود . وعرفوا الآلات المشظاة من الوجهين واستخدموا الفؤوس الصوانية في قطع الاشجار والزراعة . وكانت لهذه الجماعات فضلاً عن ذلك معتقدات دينية ونظم اجتماعية واهتمامات بالزينة . فقد وجدت أدوات ومواد مختلفة للزينة . وقد أثبت التأريخ الكربوني أن أقدم هذه المحلات هي التي ظهرت في الفيوم تلتها مرمدة ثم العُمري ثم دير تاسا [١] .

السكان :

ولكن قبل أن نشير إلى هذه الحضارات لا بد من وقفـــة لننظر في أثر الزراعة في زيادة السكان في وادي النيل وأثر زيادة الامطار في انتشار قسم من السكان في الصحراء . لم يزرع الانسان في مصر مباشرة بعـــد أن انتهت فترة الجفاف التي اتفقت مع العصر الحجري المتوسط مما يشير إلى أن الجفاف لم يدفع إلى انتاج الطعام [٢] كما لم يكثر نزوله إلى الوادي إلا بعدفوات بضع مئات من السنين [٣] . وعندما نزل عاش فوق مستوى مياه الفيضان . ويمكن القول أنه منذ أن استقر

---

(١) Clark, G. op., cit.p, 100 - 103.

(٢) Butzer, K. op., cit., p. 81

(٣) Ibid., p. 51

هناك اختلاف حول نزول الانسان الى الوادي في هذا العصر الذي ز د فيه سقوط المطـــر . ففي رأي أن تحول الوادي بعد سقوط الأمطار إلى نطاق مستنقعي موبوء طرد السكان وفي رأي آخر أن المستنقعات لم تكن واسعة الانتشار وأن الانسان التجأ الى الأرض العالية القريبة من النهر حتى يتفادى مياه الفيضان .

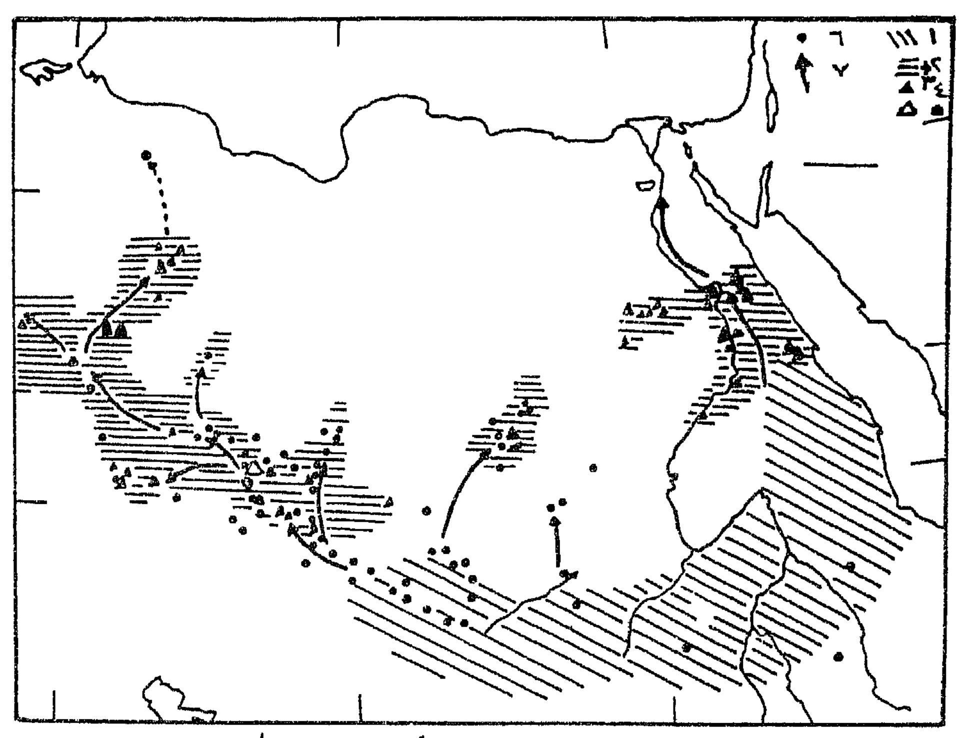
السكان على حواف الوادي وفي مواضع منه ومن الدلتا وقـــاموا بالزراعة وتربيـــة الحيوانات زادت أعدادهم . فبعد أن كانت كثافتهم لا تزيد على ٥ لكل ١٠٠ كم٢ في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى ارتفعت إلى١٠٠٠ نسمة لكل ١٠٠كم٢ [١] في هذا العصر حتى لقد بلغ عدد سكان مرمدة نحو ١٦ ألف نسمة في رأي بريدود وريد BraidWood & Reed وهو عدد لا يستهان به في ذلك الزمن البعيد.وبالنظر إلىماوجد من عدد لا يحصىمن المواضع التي سكنت على حواف الوادي وما وجد فيها من آثار كثيرة تنتظر الدراسة يمكن القول بأن سكان وادي النيل تراوح عددهم في نهاية العصر بين ١٠٠٠٠٠ـ ٢٠٠٠٠٠ نسمة بعدما كانوا لا يزيدون على نحو ١٠٠٠ شخص في بدايته [٢] .

وإذا ما تركنا وادي النيل إلى الهضاب المجاورة نجد أن السكن لم يقتصر على الواحة الخارجة بل انتشر في الوديان وعلى طول الطرق . وهذا ما تكشف عنه الصور والرسوم على الصخر التي تركها هؤلاء السكان في جهات صار أغلبها مهجوراً الآن. حدث ما يشبه الانفجار السكاني في الصحراء الكبرى بعد ٥٠٠٠ ق.م بفضل سقوط الأمطار وظهور حياة عشبية وربما شجرية وخاصة في المناطق المرتفعة . إلى هذه المناطق المرتفعة جاء الصيادون من الأطراف المتاخمة للصحراء في الشمال والجنوب.ومن جنوب شرقي السودان جاءت المجموعة الثانية من سكان الصحراء القدماء وهم رعاة الماشيـــة من أشباه الحاميين (شكل ٣٠) ومن ثم انتشر قسم منهم شمالاً إلى تلال البحر الأحمر وإلى جبـــل عوينات واتجـــه قسم آخر نحو الشمال الغربي عبر الصحراء الوسطى إلى فزان وهضاب تاسيلي والحجار وإلى شمال نيجيريا من بعد ذلك. ومن سكان الصحراء

---

(1) Braidwood ' R. and Reed' C· « The Achievement and Early consequences of food - Production » Sym .Quant . Bio ., vol.XXII 1957 , pp . 19 - 31 .

(٢) قدرت المساحة المسكونة بنحو ١٠ آلاف كم٢



الصيادون والرعاة القدماء في الصحراء الكبرى في العصر الحجري الحديث

(شكل ٣٠)

١ ـ مجال انتشار حضارة الرعاة الحاميين في نحو ٤٠٠٠ ق ٠ م

٢ ، ٣ ـ مجال انتشار الصيادين الشرقيين

٤ ـ مواضع الرسم على الصخر في مناطق الصيادين القدماء

٥ ، ٦ ـ مواضع الرسم على الصخر في مناطق الصيادين ورعاة الماشية القدماء

٧ ـ طرق الرعاة

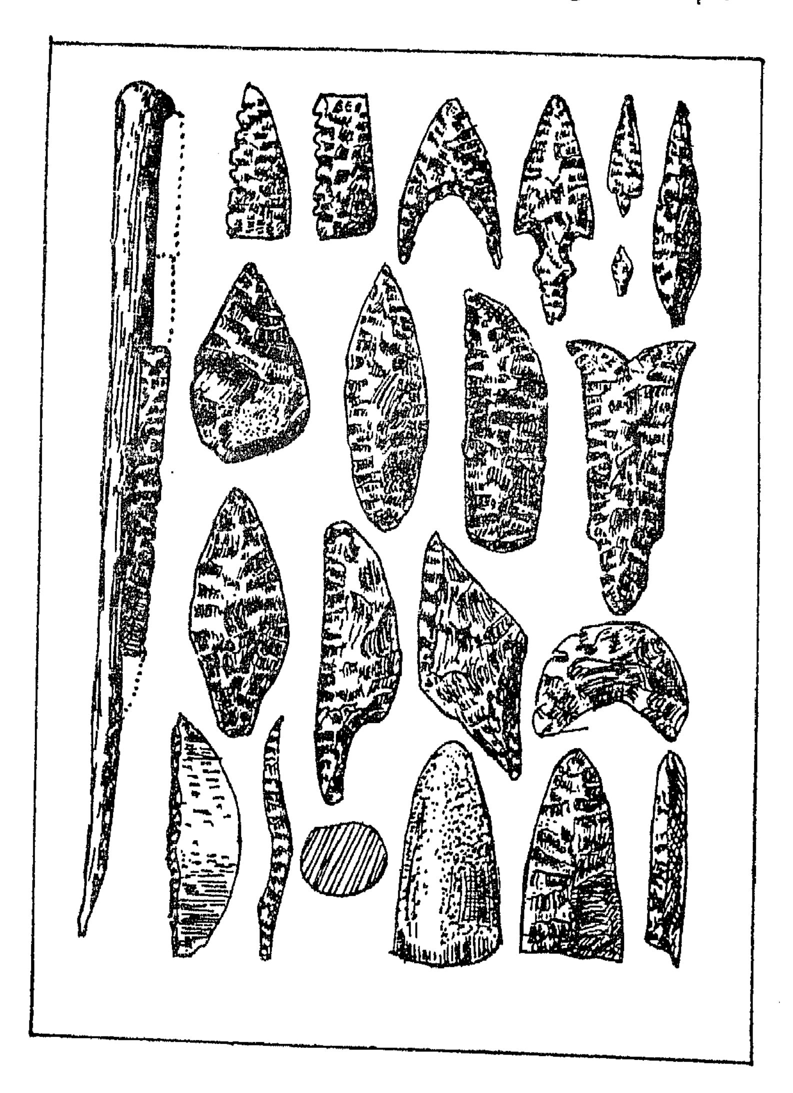
غير الرعاة تلك المجموعات الزراعيه التي سكنت الواحـــات في صحاري مصر الغربية . وبانتهاء هذا الدور المطير هجر الرعاة المراعي التي جفت إلى الأطراف في الشمال وإلى المناطق المرتفعة في الجنوب .

أ ــ حضارة الفيوم أ ، ب :

تبين من الدراسة الدقيقة التي اشتركت فيها كل من كاتون طومسن وجاردنر في الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٤ــ١٩٢٩ أن أغلب آثار حضارة الفيوم توجد على مدرج ١٠ متر فوق سطح البحر والباقي على مدرج ٤ أمتار مختلطاً ببعض آثار الفيوم ب . أما اغلب آثار الفيوم ب فعثر عليه مطموراً في مدرج ــ ٢ متر مختلطاً أيضاً بمخلفات ما قبل الأسرات بل وبآثار العصر الفرعوني. كان أصحاب هذه الحضارة يسكنون محلات صغيرة مكونة من عشش بسيطة استخدمت فيها الأخشاب فقد كانت الأشجار كثيرة، وتقوم عادة في حماية أكوام من تكوينات البحيرة . كذلك وجدت مخازن للغلال مبطنة بالقش تقع مرتفعة قليلا وبعيدة عن البحيرة . ولم يعثر على مقابر ومن المؤكد أنها لم تكن بين السكن كما كانت الحال في مرمدة ، وتشبه آلات الفيوم آلات مرمدة. فهنا المناجل المستقيمة ذات الأسنان الصوانية ورؤوس السهام والسكاكين والفؤوس الصوانية (شكل ٣١) وعرف الفيوميون نسج الكتان وصناعة الفخار وصنع السلال من القش . هذا ويلاحظ أن آلات الفيوم ب آلات قزمية ويرجع ذلك إلى تأثر حضارة الفيوم بموجة حضارية قادمة من الصحراء .

وكانت أسس الحياة الاقتصادية مختلفة . فقد زرع السكان الحبوب على ماء المطر وربوا الحيوانات في المراعي الواسعة التي كانت تمتد في المنخفض وخارجه كالأغنام والأبقار والخنازير واصطادوا الفيل وفرس النهر والأسماك. وأغلب الظن أن حياة أهل الفيوم لم تكن مستقرة تماماً فربما كان السكان يعيشون في عشش مؤقتة وقت الزراعة يتركونها بعد الحصاد للرعى وصيد الحيوانات البرية والأسماك . هذه الحياة غير المستقرة كانت أكثر تعرضاً لأن تطغى عليها حضارة الصحراء كما كانت أقل تنظيما . وتشير كل الأدلة الأثرية على اتصال هذه الحضارة بالوادي والدلتا وواحات الصحراء الغربية. بل لقد جلب أصحابها

بعض مطالبهم من القواقع وغيرها من البحر الأحمر .



(شكل ٣١) آلات حجرية حديثة من الفيوم

ب – حضارة مرمدة بني سلامة :

ظهرت هذه الحضارة في جنوب غربي الدلتا عند حافة الوادي في مكان مرتفع في حمى الهضبة وقامت المحلة في مكان يعرف الآن بمرمدة بني سلامة فيها يزيد سمك الرماد على ٧٥ متراً مما يشير إلى أن الموضع عمر لمدة طويلة . وقد أوضحت الدراسات الأثرية أن قرية كبيرة قامت في هذا المكان[١]. قرية لا يساويها في حجمها أية محلة من تلك التي اكتشفت ربما لغنى بيئتها ولاتساع الأرض المحيطة . كانت مساكنها منظمة في صفين يخترقها ما يشبه الشارع لذا تعد مرمدة أقدم قرية في مصر ومن أقدم قرى العالم التي ظهر فيها شيء من التنظيم . أقام أهل هذه القرية مساكنهم في شكل أكواخ مستديرة في الغالب هيكلها من الأغصان والغاب تغطيه طبقة من الطين . وإلى جوارها كانت المقابر وهي حفر مستديرة وجدت فيها بعض الهياكل البشرية تشير إلى أن أرجل الموتى كانت تثنى لتلامس البطون وأن الرؤوس كانت توجه نحو الشرق أو النيل . ولم يعرف أهل مرمدة المعادن فكل الآلات وأدوات الزينة من الصوان أو الصخور النارية أو العظام وإن كان استخدام العظام محدوداً . وقد عثر على قطع صوانية مشظاة هي فؤوس صغيرة ومناجل وكانت هذه المناجل تستخدم إما في قطع الأعشاب أو حصد القمح أو الشعير . أما الفخار فكان أسودا رديئاً غير محروق بعناية .

ولم يكن الاعتماد كله على الزراعة فقد وجدت عظام لحيوانات مستأنسة كالخنزير والبقر والاغنام والماعز كما عثر على ما يدل أن أهل مرمدة كانوا يصطادون أفراس النهر والاسماك كذلك[٢] . وتتمثل آثار الزراعة فيما عثر عليه من مخازن للغلال مبطنة بالقش المضفور في داخلها حبوب متفحمة من القمح والشعير وفي كثرة الفؤوس والمناجل الحجرية . ومن دراسة المقابر وطريقة الدفن وما كان

(١) اكتشفها جماعة من العلماء الألمان على رأسهم يونكر Junker في عام ١٩٢٨ .

(٢) راجع : Baumgartel, E. The Cultures of Prehistoric Egypt. Oxford. 1947.

يوضع مع الميت من قرابين (حزمة من سنابل القمح أو الشعير) وما وجد من تماثيل صغيرة فخارية يوضح أنه كان لهذا المجتمع معتقدات وطقوس دينية ربما كانت أصلاً للحياة الدينية المعقدة التي عرفتها مصر الفرعونية . ولا بد أن مرمدة كانت على صلة بالفيوم فقد كانت الصحراء في ذلك الوقت أوفر ماء ونباتاً .

جـ ـ حضارة العُمري:

لمنطقة العمري موقع ممتاز فهي تقع إلى الشمال من حلوان قرب مصب وادي حوف يرتفع مستواها على مستوى السيول ثم هي في نفس الوقت قريبة من النيل فهي تقع على حافة السهل الفيضي . وجدت في هذه المنطقة آثار لمحلة أغلب مساكنها مستديرة مصنوعة من الطين وأغصان الاشجار . إلى جانبها وجدت بعض المقابر . والمقبرة ما هي إلا حفرة بسيطة دفن فيها الميت القرفصاء . ولكن لم توجه الرأس في اتجاه معين . وقد اكتشفت أحجار لطحن الغلال مما يدل على احتراف الزراعة ووجدت آلات مختلفة بعضها مصقول وبعضها مشظى من الجانبين من بينها المقاشط والفؤوس المصقولة والسكاكين ورؤوس السهام . ومن الآثار المنقولة أيضاً بعض الاواني الفخارية ولكنها غير متقنة الصنع . وقد عثر على عظام لحيوانات مختلفة وكثير من الاصداف البحرية مما يدل على الاعتماد على الصيد إلى جانب الزراعة . ونظراً لوجود بعض عناصر متشابهة بين هذه الحضارة وحضارتي الفيوم ومرمدة بني سلامة فيغلب على الظن أنه كان هناك اتصال بينهما .

د ـ حضارة دير تاسا :

ظهرت هذه الحضارة في مصر الوسطى ـ محافظة أسيوط ، وتقع دير تاسا إلى الشمال قليلاً من البداري على الحافة الشرقية للوادي . وإلى الآن تعد هذه الحضارة المثـــل الوحيد لحضارة الصعيد في العصر الحجري الحديث . وآثار

ديرتاسا آثار قليلة لمحلة صغيرة عثر عليها الدكتور سامي جبرة سنة ١٩٣٠ . لذلك فمعلوماتنا عنها قليلة وتشير مخلفات أصحابها إلى أنهم كانوا يسكنون في عشش وأكواخ من القش . وكان الموتى ومعهم القرابين يدفنون في حفر بسيطة بيضاوية الشكل تقع خارج المساكن. وتمتاز هذه الحضارة بفؤوس مصنوعة من الحجر الجيري المصقول كانت تستعمل في الحفر وقطع الأشجار . هذا إلى جانب آلات أخرى كالتي رأيناها في حضارة الفيوم مثل المناجل والسكاكين ورؤوس السهام . أما عن الفخار فكان أحسن من فخار الشمال صنعت منه آنية جميلة تشبه زهرة اللوتس وملونة من الخارج. وقد ورثت هذا الفخار من بعدحضارة البداري التي تنتمي إلى العصر اللاحق عصر ما قبل الأسرات . وقد زرع التاسيون القمح والشعير وربوا الأبقار والأغنام وربما جمعوا إلى جانب الزراعة وتربية الحيوانات قنص الحيوان وصيد الأسماك . وقد عثر على بعض جماجم وهياكل في مقابرهم تبين من دراستها أنهم كانوا يميلون إلى استدارة الرأس مع ان الغالب بين أهل حضارات الشمال السابقة هو الرأس المستطيل مما يشير إلى اختلاط. ولم تكن هذه الحضارة منعزلة فقد كانت لها صلات بالفيوم ومرمدة والواحة الخارجة .

والخلاصة أن محلات الدلتا في العصر الحجري الحديث كانت أكبر من محلات الصعيد فقد سكن مرمدة نحو ١٦٠٠٠ نسمة وهو رقم لم تعرفه محلة في الصعيد ولكن نظام الحياة الاقتصادية كان متشابهاً بين محلات الشمال والجنوب كما كانت الصلات قائمة بينها . أما صلات مصر بالعالم الخارجي في ذلك العصر فغير واضحة .

الفصل العاشر

عصر المعدن

عصر المعدن في مصر أعم في مدلوله من عصر ما قبل الأسرات فعصر المعدن يبدأ منذ أن استخدم المصريون النحاس في حضارة البداري أي قبل ٤٠٠٠ ق.م. ثم تلا عصر النحاس عصر البرونز في الدولة القديمة ثم عصر الحديد في الدولة الحديثة . ونقصد بعصر ما قبل الأسرات تلك الفترة التي تقع بين نهاية حضارة البداري وقيام الأسرة الأولى الفرعونية ، وكلها تدخل ضمن العصر الحجري النحاسي ويقدر طولها بما يتراوح بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ سنة . وأول من حاول دراسة عصر ما قبل الأسرات في مصر هو دي مورجان De Morgan [1] سنة ١٨٩٤ . فقد عثر على آثار في نقادة (أمام قوص) ولكنه اعتقد أنها تمثل حضارة العصر الحجري الحديث .

ثم قام بعض العلماء الألمان بعد ذلك وتأكدوا أنها تتبع عصر ما قبل الأسرات وقسموا

---

(١) انظر كتابه De Morgan ,J. Prehistoric Man, London 1924.

الفترة إلى نقادة الأولى ونقادة الثانية. ثم جاء بتري J. Petrie [1] وهو أشهر من درس عصر ما قبل الأسرات وقد اعتمد في مباحثه على المقابر وما بها من فخار وآلات حجرية وقام بدراسته هذه في العَمرة (عند العرابة المدفونة) وفي جرزة (في محافظة بني سويف) وفي سماينة في ثنية قنا قرب العمرة. وقد خرج من هذه الدراسة بالتأريخ التتابعي Sequence Dating بعد أن نجح في تتبع تطور أنواع الفخار والآلات الحجرية. وابتدع تقويماً قسمه إلى ١٠٠ قسم وعندما نسق نتائجه فضل أن يعطي أقدم الانواع رقم ٣٠ وترك من ١ — ٢٩ لما عسى أن يجد من اكتشافات وسار التقسيم كالآتي :

العَمرة تقع بين ٣٠ — ٣٩

جرزه تقع بين ٤٠ — ٥٩

سماينة تقع بين ٦٠ — ٧٨

ثم لما اكتشفت حضارة البدارى بعد ذلك ووجد أنها أقدم في آثارها من آثار العمرة وضعت في التأريخ التتابعي بين ٢١ — ٢٩ . أما من ٧٩ — ١٠٠ فأدخله بتري ضمن العصر التاريخي .

وعلى أساس ما سبق يمكن أن نقسم عصر النحاس أو بالأحرى العصر الحجري النحاسي في مصر إلى :

١ — حضارة البداري وفيها بدأ المصري يستخدم النحاس وهي سابقة لعصر ما قبل الأسرات .

٢ — حضارة نقادة الأولى أو العمرة .

---

(١) Petrie, F. Prehistoric Egypt, London, 1421

٣ – حضارة نقادة الثانية أو جرزةوسماينة معاً. وتمثل نقادة الأولىوالثانية عصر ما قبل الأسرات . ويقسم بتري عصر ما قبل الأسرات إلى ثلاث مراحل وتمثل كل مرحلة حضارة معينة . هذه المراحل هي من الأقدم إلى الأحدث :

ا – عصر ما قبل الأسرات الأسفل وتمثله العَمرة .

ب – عصر ما قبل الأسرات الأوسط وتمثله جِرزه .

حـ – عصر ما قبل الأسرات المتأخر وتمثله سماينة .

وكما هو واضح فكل الاسماء السابقة من الصعيد وقد دفع ذلك بعض العلماء إلى القول بأن الصعيد كان مهد الحضارة في تلك الفترة وظل هذا الاعتقاد قائماً حتى سنة ١٩٢٥ حين بدأ كشف الغطاء عن حضارات شمال مصر في منطقة المعادي .

البيئة :

وقبل أن نتحدث عن الحضارة في هذا العصر ماذا عن البيئة ؟ بلغت أمطار العصر الحجري الحديث قمتها في نحو ٣٥٠٠ ق.م ثم أخذت تقل تدريجياً حتى كادت تتلاشى ومعها أغلب الحياة النباتية من مساحات واسعة من الصحارى الجنوبية (باستثناء الجهات المرتفعة) في أواخر الألف الثانية ق م.معنى ذلك أن الصحارى المصرية كانت حتى بداية التاريخ (في نحو ٣٤٠٠ ق.م) غنية بنباتاتها وسكانها . وبالرجوع إلى الخريطة (شكل ٢٥) نجد أن صحراوات مصر كانت مراعي طيبة خلال عصر ما قبل الأسرات وبداية العصر التاريخي جذبت إليها ولا شك جماعات رعوية أثرت في تاريخ وادي النيل وجددت دماء سكانه .

ونحن نعلم الشيء الكثير عن نباتات مصر الطبيعيةفي عصر ما قبل الاسرات بفضل أبحاث شفاينفورث G. Schweinfurth (١٨٨٤) وفيفي لورنت تاكولم Vivi Laurent - Tachölm بمعاونة محمد درار منذ عام ١٩٤١ . فقد

اكتشفت بقايا أشجار مصر المعروفة حالياً من السنط والإثل والصفصاف والجميز والخرنوب ونوع بري من النخيل في الواحة الخارجة . ولكن يغلب على الظن أن أنواع النخيل الحالية لا ترجع مباشرة إلى أصول برية محلية . ولعل أهم نباتات المستنقعات في هذا العصر والدولة القديمة اللوتس والبردى وقد اختفيا من مصر منذ بداية العصور الوسطى . وكان البردى المصري يتميز بساق يتراوح طولها بين ٣ – ٥ أمتار ويعيش في مياه راكدة لا يزيد عمقها على ٦٠ سم . ونما في مصر أكثر من نوع من اللوتس لعل أشهرها اللوتس المصري واللوتس الازرق ومع اللوتس نمت في المستنقعات وعلى جوانب المجاري المائية الغاب والحلفا .

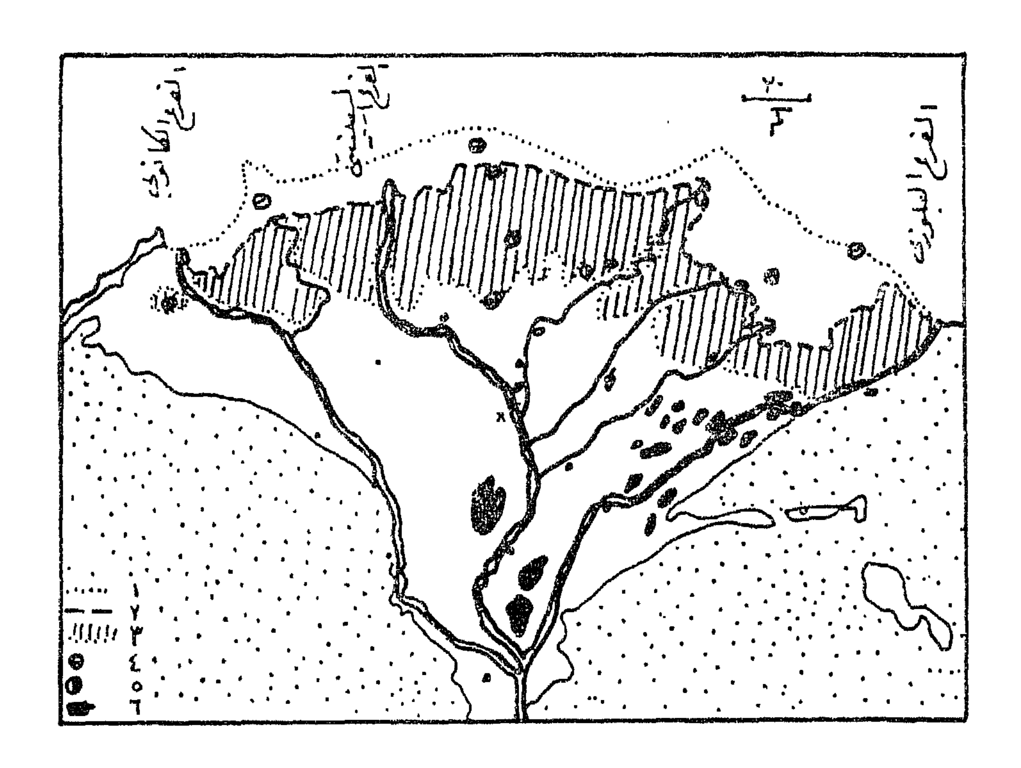
وكانت مناطق انتشار الانواع المختلفة من النباتات في وادي النيل في الفترة التي نحن بصددها وخلال الدولة القديمة ثلاث هي :

١ – المناقع الشمالية ونمت فيها نباتات البردى واللوتس والغاب .

٢ – السهل الفيضي الذي يتعرض لفيضان موسمي نمت فيه شجيرات وأعشاب ونباتات شوكية .

٣ – ضفاف النهر العالية ونمت عليها أشجار السنط والإثل والجميز .

وكانت الضفاف والارض العالية (ظهور السلاحف في الدلتا) بصفة عامة أصلح المناطق لإقامة المحلات وملاجىء يلتجىء إليها الانسان وحيواناته وقت الفيضان . أما الارض المنخفضة خلف الضفاف وحول « ظهور السلاحف » في الدلتا فكانت للزراعة والرعي . واستغلت المستنقعات حيثما وجدت في صيد الاسماك وقنص الطيور والحيوانات البرمائية ويعتقد بوتسر أن سكان وادي النيل في هذا العصر لم يقضوا وقتهم كله في صرف ماء المستنقعات كما يزعم البعض . ففضلاً عن أن تلك المستنقعات لم تكن تغطي إلا مساحة محدودة من شمال الدلتا (شكل ٣٢)



(شكل ٣٢) الدلتا في عصر ما قبل الاسرات

١ ـ خط الساحل الحالي .

٢ ـ خط الساحل فيما بين ٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م

٣ ـ المستنقعات الدلتاوية فيما بين ٥٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ ق.م

٤ ، ٥ ـ مواضع مجسات التربة

٦ ـ ظهور السلاحف

ظلت كما توضح الرسوم على المعابد والمقابر الفرعونية مكانا للصيد والقنص حتى أيام الدولة الحديثة .

ويعتقد بوتسر أن الحياة النباتية تعرضت لفترتين قاسيتين نتيجة لانخفاض كمية المطر لمدى قرن أو قرنين ، الفترة الأولى بدأت في نحو ٣٧٠٠ق.م. والثانية امتدت من الاسرة الاولى للثانية (٢٨٥٠-٢٦٠٠ق.م) . وببداية الأسرة الخامسة كانت الأمطار قد قلت كثيراً . ويمكن أن نعتبر بداية الأسرة السادسة ختام الدور المطير الثانوي وفي نحو ١٨٠٠ ق.م حل جفاف يشبه الجفاف الحالي. وكان من نتيجة اختفاء الحيوانات البرية بعد جفاف الهضاب المحيطة بوادي النيل أن عمد الفراعنة إلى حجزها في مخصصات حتى يمكنهم مزاولة رياضة القنص . وبالتدريج أخذت الرمال السافية تنشط وأخذت الكثبان الرملية تغزو مصر الوسطى من ناحية الصحراء الغربية وغطت برمالها بعمق كبير قسماً من الارض السوداء بلغ طوله ١٧٥ كم بعرض تراوح بين ½ ، ٣½ كم وربما سهل هذا الغزو ضعف الارساب النهري نسبياً في تلك الآونة وتقهقر بحر يوسف نحو الشرق .

وكان لتحول المناخ نحو الجفاف أن اختفت كثير من الحيوانات البرية العاشبة والمفترسة اختفت من الصحاري ومن الوادي بعد ذلك . ومن الحيوانات التي عرفتها مصر واختفت بحلول الجفاف الأفيال والأسود والثيران والحمير الوحشية والضأن البري والزراف والغزلان والنعام وأفراس النهر والتماسيح وأنواع من القوارض والطيور. وسنعود إلى ذبذبات المناخ في العصر التاريخي في مكان آخر.

في هذا العصر كان مستوى البحر أعلى منــــه الآن بنحو ٤ أمتــــار فاشتد ارساب النهر ولكن حد المستنقعات الشمالية لم يتعد خط كنتور ٣ متر ولم تتسع هي أكثر منه الآن . ونتيجة لشدة الارساب فإنه يرجح أن نحو ٦٠٪ من الطمي النيلي الحديث ارسبت قبل الأسرة الأولى . ثم ضعف الارساب نتيجة لانخفاض مستوى البحر ونشاط النحت النهري في الفترة بين ١٩٦٠ — ٩٠٠ ق.م تقريباً. وكثر الارساب مرة ثانية بعد أن أخذ مستوى البحر في الارتفاع بعد القرن الثاني الميلادي . ويقدر أنه أرسب نحو ٢٥ ٪ من الغرين منذ ٥٠٠ ق.م(١) .

وقد زاد السكان في هذا العصر وكثرت المحلات . وإذا كنا لم نعثر في هذه الفـــترة على محـــلات غير المعادي فليس ذلك دليلاً على أن الدلتا كانت أقل عمرانا من الوادي ذلك لأن محلات الدلتا ردمت آثارها تحت رواسب النيل . وبمرور السنين أخذ السكان ينزلون تدريجياً إلى الوادي تاركين خلفهم حافة الوادي والصحراء حتى لم يزد عدد المقيمين على حافة الصحراء وما وراءها على النصف في أيام الحضارة الجرزية .

الحضارة :

حضارة البداري :

تأتي هذه الحضارة من الناحية الزمنية بين حضارتي دير تاسا (حجري حديث) والعمرة (عصر ما قبـــل الأسرات) . وهي تختلـــف عن حضارات العصر الحجري الحديث التي أشرنا إليهـــا في أن أصحابها عرفوا النحاس واستخدموه إلى جانب الحجر . وسكنوا عششاً صغيرة ودفنوا موتاهم بعيداً عن المساكن في حفر صغيرة بيضاوية غطيت بالقش . وتمتاز البداري بتنوع

(1) Butzer, K.(1960). op .cit., p. 58

جيد من الفخار صنعت منه أوان حمراء اللون إلا من حافة سوداء . وقد ظهر هذا النوع من الفخار فيما بعد في العمرة وجرزة مما يدل على وجود أثر حضاري امتد بضعة قرون ولكن صناعته كانت تضمحل كلما تقدم الزمن. إلى جانب ذلك استخدم أهل البداري الشراشر والنصال والحراب من الحجر . كان بعضها مصقولاً ومشظى من الجانبين والبعض الآخر غير مصقول . كذلك صنعوا بعض الآلات من العظم والخشب وصنعوا أشياء الزينة والدبابيس والشصوص من النحاس ومارس البداريون زراعة الحبوب وربوا الأبقار والأغنام والماعز والخنازير ولكن على نطاق محدود [1] . كذلك قاموا بصيد الأسماك من النهر وقنصوا حيوانات البر . ومن دراسة عظامهم تبين أنهم تأثروا ببعض الدماء الزنجية قادمة من شرقي افريقية وهذا لا يقلل من اصالتهم ومصريتهم [2] .

حضارات عصر ما قبل الأسرات :

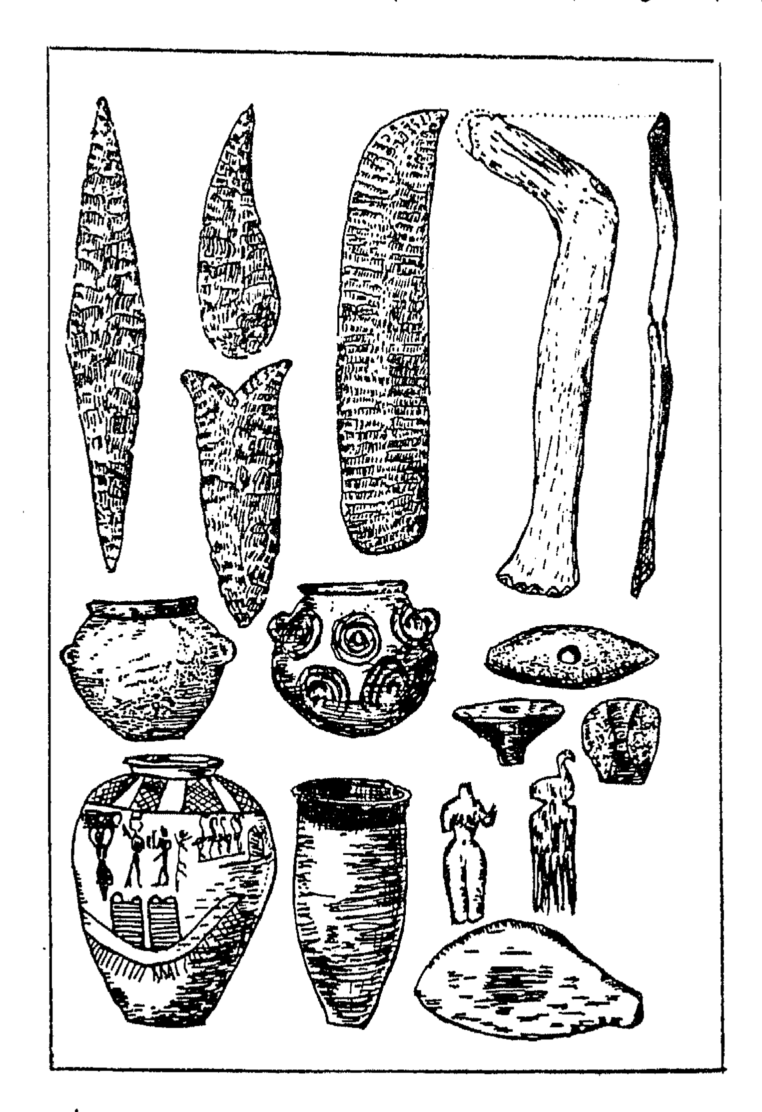
هي كما ذكرنا حضارات العمرة وجرزة وسمابنة والمعادي. كان أصحاب هذه الحضارات في واقع الأمر أكثر استقراراً من أصحاب حضارات العصر الحجري الحديث نزلوا إلى الوادي فأزالوا الاحراش ثم شقوا االترع وأقاموا الجسور للاستفادة من مياه النهر وقت الفيضان وعرفوا السنة والشهر وربطوهما بالمواسم الزراعية وبمواعيد الفيضان. وزاد اهتمامهم بتربية الحيوانات للانتفاع بها في الغذاء والانتقال والعمل في الحقل كل ذلك ساعد على وجود وفرة وفائض المواد الغذائية سمح بتفرغ جزء من المجتمع للاشتغال بالصناعة والتجارة والفنون . فظهرت صناعات شملت صناعة

---

(١) Brunton and Caton - Thompson , G . The Badarian Civilization , London , 1928 .

(٢) يقول ا . ويرسنسكي A . weircinski في بحث له عن التركيب الجنسي لمصر القديمة أن العناصر الزنجية لم يكن لها تأثير يذكر في مصر قبل الدولة الوسطى . راجع Bull . Soc . Géog . D'Egypte vol . xxxl , 1958 , P : 83 .

الأسلحة والأدوات المتنوعة الجميلة من الحجارة والمعدن والخشب والعاج والأواني من البازلت والمرمر والجرانيت إلى جانب الأواني الفخارية ذات الرسوم والاشكال البديعة (شكل ٣٣) . وتقدمت التجارة فامتدت الصلات التجارية عن طريق



(شكل ٣٣) آلات وأوان مصرية تنتمي إلى عصر ما قبل الأسرات

النهر بين مناطق مصر المختلفة . وعن طريق البحر بالبلاد المجاورة وخاصة فلسطين . ونهضت الفنون فنحتت التماثيل من الحجر أو العاج ورسمت المناظر الطبيعيه ومناظر الحروب والصيد. وزاد الاهتمام بأدوات الزينة وانتقل السكان من المرحلة القبلية إلى الأقليمية وسكنوا القرى .

ومن دراسة النقوش والرسوم تبين أنه أصبح لكل إقليم طوطم يرمزإليه. ويبدو أن وحدة ما بين هذه الأقاليم أدت إلى ظهور إمارات صغيرة أصبحت فيما بعد أقسام مصر الادارية إبان العصر الفرعوني . ولم تكن الحياة الروحية أقل تطوراً فقد تطورت فكرة ما بعد الحياة وانعكس أثر ذلك على فن بناء المقابر فظهرت جبانات واسعة بها مقابر مستطيلة صنعت من الطين مقسمة إلى قسمين : قسم للدفن وقسم للأثاث الجنائزي . وكان ذلك مقدمة لظهور المصطبة ثم الهرم المدرج ثم الهرم الكامل في الأسرة الرابعة .

ونختم الحديث عن عصر ما قبل الأسرات المصرية بالنظر في حضاراته لنرى كيف أسهمت كلها مجتمعة في خلق حضارة مصر التاريخية .

حضارة العمرة :

تمثل حضارة عصر ما قبل الاسرات الأسفل ويطلق عليها أحياناً نقادة الاولى وهي حضارة محلية ظهرت في جنوب الصعيد وتأثرت بحضارة البداري التي سبقت عصر ما قبل الاسرات[1] وأثرت بدورها في الحضارتين اللاحقتين الجرزية والسمابنية . وقد وجدت في العمرة بعض المقابر وقليل من المساكن وأنواع من الفخار . ولكن أهم ما تمتاز به هذه الحضارة نوعان من الفخار نوع أحمر عليه

(1) Mc Burney , C. The Stone Age of Northern Africa . London 1960, P. 245 .

خطوط متقاطعة باللون الابيض والنوع الآخر فخار أسود عليه رسوم محفورة وملىء الحفر بمادة بيضاء [١] والرسوم المحفورة كانت لحيوانات مثـــل فرس النهر والزراف والتمساح ونباتات وأشخاص وقوارب. وكذلك ظهرت علامات على هذه الأواني ربما تدل على شعارات العشائر في الفترة القبلية السابقة . ووجد إلى جانب الاواني الفخـــارية الشراشر والسكاكين وبعض الاواني من البازلت وتماثيل وأدوات للزينة من أمشاط ودبابيس . في هذه الحضارة وضحت صلات مصر مع الخارج [٢] فقد كثر استعمال الذهب المجلوب من بلاد النوبة وظهرت نباتات غريبة جلبت من بلدان شرقي البحر المتوسط ، أمـــا النحاس الذي صنعت منه بعض الآلات والادوات فقد استخرج من مناجم سيناء. ورغم ذلك فلم يكن التبادل التجاري أساساً من أسس الحياة الاقتصادية المصرية وإنما كانت الزراعة وتربية الحيوانات .

حضارة جرزة وسماينة :

الفصل بين هاتين الحضارتين ليس دقيقاً ولا واضحاً لذلك فيمكن اعتبـــار حضارة سماينة امتداداً واستمراراً للحضارة الجرزية ويطلق بعض العلماء عليهما معاً حضارة نقادة الثانية. ويغلب على الظن أنها قادمة من شمال مصر وانتشرت في جزء كبير من مصر الوسطى . وهي أرقى من حضارة العمرة ففيها أرسيت قواعد الحضارة الزراعية المصرية وتعقدت الحياة الدينية وقد استطاع أصحاب هذه الحضارة تحديد المواسم الزراعية بما يتفق مع مواعيد ارتفاع النهر وهبوطه

---

(١) Peake , H. and Fleure. H. Times and places. Oxford, 1956, p. 118

(٢) Mc Burney. p. 245.

وظروف المناخ[1] وحددوا طول السنة وقسموها إلى اثني عشر شهراً . ونشطوا في توسيع الرقعة الزراعية واستغلوا مياه الفيضان أحسن استغلال بعد أن حفروا الترع وصنعوا الجسور . فزاد انتاج الأرض وفاض الغذاء وقد ترتب على ذلك تنوع المهن والحرف وظهور صناعات جديدة ونشاط التجارة وخصوصاً مع العالم القريب . وربما ظهرت الكتابة في أواخر هذه المرحلة الحضارية فقد اكتشفت قائمة بأسماء ملوك محليين مدونة على بعض الآثار .

ومما يدعو للدهشة ماوصلت إليه الآلات الحجرية من تطور لم تبلغه في أي عصر سابق أو لاحق . فقد صنعت أنواع مختلفة من السكاكين مشظاة بمهارة عجيبة ولها مقابض عاجية حفرت عليها رسوم تدل على تأثر الفن المصري بالفن السومري [2] . كذلك ظهرت سكاكين تشبه ذيل السمكة ومقاشط وخناجر وحراب ورؤوس سهام إلى غير ذلك من الأسلحة (شكل ٣٣) . وكان من أثر استخدام النحاس بكثرة في صناعة الآلات والأسلحة أن سهل تشكيل الأخشاب وتصنيعها . أما الفخار فقد صنعت منه أشكال جديدة غير الأشكال القديمة المعروفة فظهرت أوان لها مصبات وعليها رسوم ملونة وشعارات إقليمية وأخرى قاتمة اللون ذات مقابض مموجة بها آثار زيت [3] . ولما كان لهذه الأواني الأخيرة ما يشبهها في سوريا فقد ظن بعض العلماء أن مصدرها سوريا وأنها نقلت بواسطة تجار الزيت من سوريا وفلسطين إلى مصر . ولكن

---

(١) Childe, G. Man makes himself, London, 1951, p. 137.
أنظر أيضاً : Breasted, J. A. History of Egypt London, 1935 p. 33

(٢) Peake and Fleure, (1956) op, cit. p. 20

(٣) Ibid,

الأرجح أنها نشأت في مصر نشأة مستقلة لأنه من الصعب القول أن هذه الاواني الفخارية كانت تتحمل هذا السفر الطويل الشاق بين سوريا ومصر دون أن يصيبها كسر أو تلف . كذلك امتد التطور إلى المساكن والمقابر فقد أخذت المساكن ذات الجدران الاربعة في الظهور وأصبحت المقبرة قبيل بدء العصر التاريخي مستطيلة الشكل لها جدران من اللبن يدفن الجثمان في قسم منها ويخصص القسم الثاني للأثاث الجنائزي. وكانت هذه المقبرة هي كما أشرنا الاصل الذي تطورت عنه المصطبة والاهرامات فى العصر التاريخي

حضارة المعادي :

تمثل حضارة المعادي [1] حضارة الشمال أو الدلتا وهي تتبع نقادة الثانية ، تنتشر آثارها على مساحة تقدر بحوالي ٥٤ فدانا تمتد إلى الشرق من ضاحية المعادي خارج الارض الزراعية . والآثار لقرية كبيرة من بينها بقايا مساكن من فروع الشجر والاغصان تنتشر بينها مقابر وضع فيها الموتى القرفصاء. كذلك وجدت مواقد وأفران وآنية ضخمة لخزن الغلال . ولكن يلاحظ أن الفخار أقل جودة من فخار نقادة الاولى. ولقد وجدت بعض أوان فلسطينية وبازلت وصوان من مناطق أبي زعبل والفيوم وأبي رواش ونحاس ومنجنيز من سيناء وأحجار جرانيتية من جبال البحر الاحمر وأسوان . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى الصلات الجغرافية والحضارية التي أقامها أهل المعادي في هذا الزمن البعيد . ومن بين ما اكتشف أيضاً آلات حجرية وعظمية وأوان بازلتيه كثيرة

---

(١) بدأ الكشف عن هذه الحضارة في عام ١٩٣٠ . قام به أول الأمر الاستاذ مصطفى عامر بالاشتراك مع الأستاذ منجيني ثم تولاها الأستاذ عامر بمفرده .

متنوعة الاشكال وبقايا تماثيل وأشياء للزينة [1] .

وكان المجتمع زراعياً يشتغل بعض أفراده بالحرف اليدوية والبعض الآخر بالتجارة ربما في المعادن والأواني التي كانت تجلب من الأماكن البعيدة . كذلك اهتم أصحاب هذه الحضارة بتربية الخنازير والابقار والاغنام والحمير[2]. ويبدو أنهم سكنوا مساكن من الاغصان وفروع الشجر بما يشير إلى وفرة الاخشاب في البيئة كما سكنوا كهوفاً أو مغارات يبلغ عمقها نحو ثلاثة أمتار تحت السطح وهناك من يرجح أنهم أول من حاول بناء المسكن الحجري الذي لم يصبح من معالم مصر التاريخية إلا في الالف الثالثة ق.م.

وكان لمجتمع المعادي حياته الروحية التي ظهرت بعض شعائرها على أوانيهم الفخارية . فصورة التمساح على احداها يشير إلى أن عبادة التمساح التي عرفت في مصر الفرعونية ترجع في أصولها إلى هذه الفترة . ودفن الاجنة في أوان فخارية لكل منها ثقبان لكي تعود منهما الروح إلى الجسد يشير إلى عقيدة البعث بعد الممات تلك العقيدة التي كانت محور الحياة الروحية لمصر الفرعونية . ومن دراسة هياكل الموتى ظهر أن أهل المعادي لم يكونوا يختلفون سلالياً عن سكان مصر الفرعونية فقد كانوا من الساميين والحاميين أو بحرسطيين بمعنى أدق .

من هذا يتبين أن الدلتا لم تكن أقل حضارة من الصعيد ولم يكن دورها في تطور الحضارة وظهور المدنية المصرية دوراً ثانوياً كما ادعى بعض العلماء . الحقيقة أن الدلتا كانت طوال عصر ما قبل الاسرات منطقة غنية تمتاز بكبر قراها واتساع أراضيها الزراعية ومراعيها ومستنقعاتها حيث الطير والسمك كما

---

(١) راجع : Amer, M. (With Menghin, O.) Excavations at Maadi, Cairo, 1932 - 36

حضارة مصر والشرق القديم ـ تأليف ابراهيم زرقانه وأنور شكري وعبد المنعم أبو بكر وحسن أحمد محمود .

كانت صلاتها بما حولها سهلة مما ساعد على نقل المؤثرات الحضارية منها وإليها[1] .
وكما عرف الصعيد الامارات أو الممالك الصغيرة فقد عرفتها الدلتا أيضاً وقد اتحدت هـــذه الامارات قبيل عصر الأسرات وظهرت مملكة الشمال في نفس الوقت الذي ظهرت فيه مملكة الجنوب . ويبدو أن مملكة الشمال حاولت أن تضم مملكة الجنوب لتؤسس أول وحدة سياسية بين الدلتا والوادي . وقـــد قامت هذه الوحدة بالفعل ولكنها لم تدم طويلاً . ثم جاء نارمر مؤسس الأسرة الأولى ووحد الوجهين ولبس تاجاً واحداً يمثل تاجي مملكة الشمال والجنوب . الدلتا إذن لم تكن أقل حظاً من الصعيدولم تكن متخلفة عنه في الاخذ بأسباب الحضارة بل أسهم أهلها قبل الوحدة السياسية في وضع الاسس الثابتة لحضارة مصر التاريخيه . والآن ماذا عن دور مصر الحضاري في افريقية فيما قبل التاريخ؟.

دور مصر الحضاري في افريقية فيما قبل التاريخ :

على الرغم مما يقال أن المصريين لم يحاولوا نشر حضارتهم في جهات افريقية فإن تأثير الحضارة المصرية فيما قبل التاريخ وفي فجره يمكن أن نتلمسها في أركان بعيدة من القارة : في شمالها الغربي وفي شرقهـــا وغربهـــا عن طريق السودان . فلقد أخذ أصحاب الحضارة القفصية (في بلاد شمال غربي افريقية) عن مصر تربية الحيوانات وقلدوا المصريين في حفر صور الحيوانات المحلية وتلوينها . فقد وجدت في جهات كثيرة من بلاد المغرب صور بهذه الصفة للأفيال والثيران والزراف وأغنام مستأنسة تشبه ما نراه في مصر العليا . ويبدو أن فن الحفر والتلوين هذا ظل معروفاً حتى أيام الدولة الحديثة في مصر فصور العربات التي تجرها الخيول انتقلت من مصر إلى الصحراء الجزائرية . بل لقـــد ظلت صور الابل المستأنسة تحفر في الصخر في بلاد المغرب حتى العهد المسيحي .

---

(١) Breasted, J. op., cit., p, 32..

وأخذ القفصيون عن مصر فضلاً عن ذلك أنواعاً من الادوات كرؤوس السهام التي لها حد كحد المحفر والفؤوس الحجرية المصقولة وأنواعاً من الاواني الفخارية. وانتشرت صناعة الاواني الفخارية ورؤوس الحراب الحجرية من مصر جنوباً حتى منطقة الخرطوم فقد قلدها وصنع مثلها جاعو الفذاء في شمال السودان. هذا بالاضافة إلى أن استئناس الحيوان دخل السودان عن طريق مصر . وإذا كان القرطاجيون هم الذين ادخلوا صناعة الحديد إلى افريقية في أوائل القرن السابع ق.م. فمن مصر خرجت هذه الصناعة لتنتشر على أوسع نطاق في وسط وجنوب القارة وذلك بعد أن كثر استخدام المصريين لهذا المعدن ابتداء من منتصف القرن السادس ق.م. ولقد كان دور مصر الحضاري في العالم القديم أعظم من ذلك بعد أن بدأ التاريخ. فخلال العصر الفرعوني ظلت أرض الكنانة منارة علم وفن لكل طلاب التحضر والرقي .

جغرافية مصر التاريخية

يبدأ التاريخ المصري المدون بقيام مصر الموحدة في نحو عام ٣٤٠٠ ق.م. توحدت بفضل الانسان وبفضل وحـــدة الشكل ووحدة النهر . فمصر الوادي واضحة القسمات واحـة طويلة في قلب صحراء. والنهر يحمل الماء لكل الأرض(شريطة أن يوزعه الإنسان بالعدل) وينقـل الناس أجمعين . وهي فوق ذلك دولة تتنفس تاريخاً تبلورت شخصيتها خلال زمن طويل وتاريخ مستمر فجاءت أصيلة خصبة قادرة على المنح والعطاء . ويكمن سر بقائها وحيويتها في الموقع وفي النهر . موقع وسط مكنون ونهـر مبارك الغدوات والروحات علم المصريين الزراعة .

وإذا تغاضينا عن فترة الحكم الفارسي القصيرة فإنه يمكن القـــول أن مصر الفرعونية ظلت سيدة بل وقاهرة ثلاثة آلاف عـــام . ودالت دولة الفراعنة لتخلفها دولة من وراء البحر دولة الاغريق والرومان (٣٣٣ ق.م – ٦٤٠ م) وانتهى حكم الرومان بدخول مصر في حوزة العرب وفي حمى الاسلام (٦٤٠ – ١٥١٧ م) ثم فقدت استقلالهـا ودخلت عصراً مظلماً هي وكل العالم العربي في عهد الأتراك .

ولعل الجغرافية التاريخية هي من بين الجغرافيات أكثرها مقدرة على التقويم في غياب الاحصائيات والأرقـــام ومن ثم كانت المعبرة عن البدايات والتطور خلال الزمن . وفيما يلي محاولة لتصوير بعض جوانب مصر التاريخية نرجو أن تكون موفقة .

الفصل الحادي عشر

العلاقات المكانية

أطلق المصريون القدماء على وطنهم أسماء تخالف أسماءه في العصور اللاحقة. أطلقوا عليه اسم كمى ــ أوتا ــ كمى [1] في نهاية الدولة القديمة ومعناه « الأرض المثمرة » امتدت على جانبيها أرض صحراوية حمراء هي « دشرت ». وفي عهد آخر اصبحت الأرض المثمرة تعرف بـ « كمى » (الأرض السوداء) وأحيانــاً سميت « تامرا » (أرض الفأس أو الفلاحة) . ثم اندثر هذا الاسم وتردد اسم « أخت » (الأرض الطيبة) التي تنقسم إلى « تامحيت » أرض الشمال و «تاشمع» أرض الجنوب . هذه الأرض الطيبة المثمرة كانت تقع في وسط العالم ويرويهــا النهر العظيم « حابي » (المختفي) الذي ينبع من نهـــر سماوي عند شلال في البلاد الجنوبية ويجري شمالاً ليصب في « الأخضر الفاقع » (البحر المتوسط) . « أما الشديد السواد (البحر الأحمر) فكان الطريق إلى « بونت » Punt بلاد

---

(١) سليم حسن . أقسام مصر الجغرافية . القاهرة ١٩٤٤ ص ٦

البخور والحيوانات الغريبة [١] .

وقد تغيرت هذه الأسماء وتبدلت على مر العصور . ففي العصر الإغريقي الروماني عرفت مصر باسم « إيجيبتوس » Aegyptus ربما نسبة إلى بلدة « Coptos » (قفط) . وقد صارت « ايجيبتوس » المصدر لأسماء مصر في اللغات الحديثة . أما البحر المتوسط فسمي البحر الداخلي في العصر الإغريقي Mare Internum [٢] والمتوسط Mare Mediterraneum في العصر الروماني كما كانت أقسامه تعرف بأسماء محلية « كالبحر المصري » « والبحر التيراني » « والبحر الإيجي » كذلك أطلق على البحر الأحمر الخليج العربي Arabicus Sinus وإن كان هذا الاسم أطلق على خليج السويس أحياناً . وتغير اسم حابي فأصبح « نيلوس » (أي النهر ذو اللون الطيني) [٣] . ومنذ دخول العرب وادي النيل حلت كلمة مصر محل إيجيبتوس وهي كلمة أشورية الأصل ولو أنها تعني في العربية الصقع أو القطر أو المدينة . وعرف البحر المتوسط ببحر الروم وأطلق على أقسامه أسماء محلية كبحر الاسكندرية وبحر الشام وأطلق على البحر الاحمر بحر القلزم نسبة إلى مدينة كليزما Clysma الرومانية التي كانت تقع إلى الشمال من مكان مدينة السويس الحالية . أما نهر النيل فاحتفظ باسمه الإغريقي وعرب فأصبح النيل .

الحدود :

ولم يكن لمصر خارج وادي النيل حدود ثابتة خلال تاريخها الطويل . ويحدثنا استرابون ٦٣ ق.م ـ ٢٤ م في هذا الشأن فيقول أن القدماء قبله كانوا يطلقون اسم مصر على ذلك الشريط الضيق من الارض الزراعية التي كونها النيل ورواها

---

(١) Ball, J. Egypt in the Classical geographers. Cairo,1942,p.384

(٢) Atlas of Ancient & Classical geography, London, 1952, p. 5.

(٣) Poole, R. The Cities of Egypt, London, I882, p. 8.

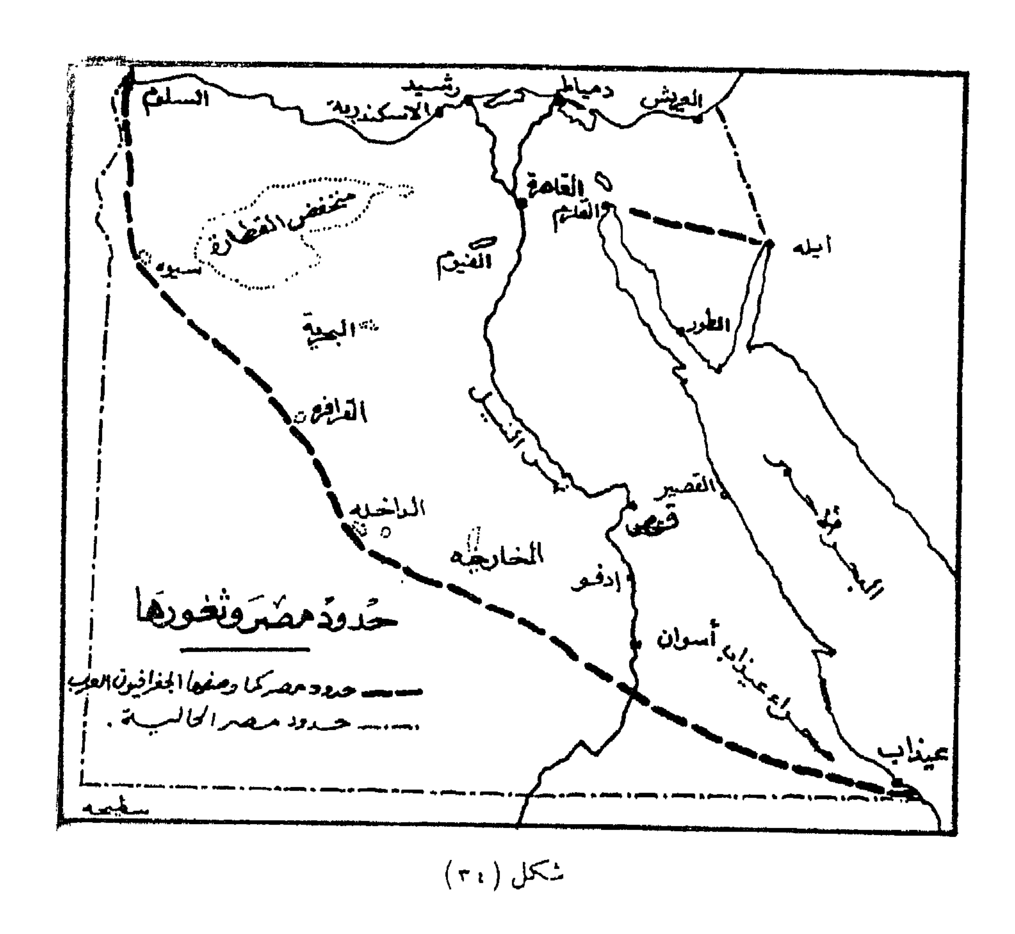
عبائة [١] . هذا الشريط يمتد من أسوان حتى البحر . أما المصريون فهم دون سواهم الذين يعتمدون على ماء النيل في الشرب والري. ولكن يظهر أنه منذ العصر الإغريقي أصبحت مصر تشمل إلى جانب الدلتا والوادي (شمال أسوان) الصحراء الشرقية وشمال سيناء وجزءاً كبيراً من الصحراء الغربية . فقد كان حد مصر الغربي يبدأ من قرب السلوم ويتجه نحو الجنوب والجنوب الشرقي ليشمل واحة سيوة والبحرية والفرافرة والداخلة والخارجة . بل إن مصر خلال الحكم البطلمي كانت تمد حدودها الغربية لتشمل برقة وتوسع حدودها الشمالية لتشمل قبرص [٢] .

وخلال العصر الروماني والعربي انتهت حدودها الغربية عند السلوم والواحات وحدودها الشمالية عند ساحل البحر المتوسط. أما حدودها الجنوبية فكانت تنتقل بين أسوان ووادي حلفا . فبينما يذكر استرابون أن الحد الجنوبي يمتد بالقرب من مدينة أسوان نجد بطليموس الجغرافي (القرن الثاني الميلادي) يضع الحدود الجنوبية لمصر عند وادي حلفا وهو ما يتفق إلى حد كبير مع الحدود الجنوبية الحالية . وإذا انتقلنا جهة الشرق نجد أن الحدود الشرقية اتفقت مع ساحل البحر الأحمر وامتدت شمالاً لتضم جزءاً كبيراً من شبه جزيرة سيناء . والخريطة (شكل ٣٤) تبين حدود مصر في العصر العربي وحدودها الحديثة التي مدت في النصف الأول من القرن العشرين .

---

(١) أنظر « استرابون في مصر » لوهيب كامل
يقول بلني Pliny في هذا الشأن أيضاً أن مصر تقع بجوار أفريقية . وهي تمتد في الداخل نحو الجنوب حتى بلاد الاثيوبيين. ويكون فرعا النيل الحد الشرقي والغربي لمصر السفلى »راجع
Pliny's Natural History Trans. Bostock, J. and Riley H. Vol: I. p. 404.

(٢) Ball, J. (1942) pp. 3 - 6.



شكل (٣٤)

المداخل والثغور :

ورغم إحاطة الصحاري بوادي النيل ووجود عقبات في سبيل الوصول إلى سواحل مصر المطلة على البحر الاحمر والمتوسط واعتراض الجنادل للنيل جنوبي أسوان الامر الذي جعـل سكان وادي النيل « يختلفون عن بقية الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم [1] » كما يقول هيرودت ، بالرغم من كل ذلك

(١) Herodotus, The Histories, London, 1954, p. 115.

فقد اتصلت مصر بالعالم المجاور والبعيد عن طريق ثغور ومداخل انبثت على طول حدودها .

الحدود الشمالية :

وإذا نظرنا إلى حدود مصر الشمالية وثغورها نجد أن الساحل غربي الإسكندرية ساحل مستقيم قليل التعاريج والرؤوس ضحل المياه تهب عليه رياح قوية قليل الماء لا يتأثر بظاهرة المد والجزر قليل المراسي وإن وجدت فهي صغيرة حتى بالنسبة لحجم المراكب الشراعية القديمة (١) . هذه المراسي كانت تحتمي عادة في الرؤوس الصخرية « كسيدي براني الحالية Ennesyphora القديمة) أو تشرف على مستنقع ساحلي تحميه حواجز جيرية ويتصل بالبحر بفتحات ضيقة غير دائمة ، وأحسن مثل على ذلك مرسي مطروح(Paraetonium القديمة)التي فقدت أهميتها بعد العصر الإغريقي الروماني. ورغم وفرة عدد المحلات التي ذكرها بطليموس (القرن الثاني الميلادي) على طول الساحل بين الاسكندرية والسلوم فإنه يعتقد أنها كانت تمثل مراسي صغيرة تخدم المهاجرين الإغريق الذين استوطنوا الساحل كما يرجح أنها لا ترجع كلها إلى فترة معينة وإنما إلى فترات مختلفة أي أن كثيراً منها مجرد أسماء لمحلات اختفت .

وباستثناء الاسكندرية التي تقوم على منطقة تلالية بعيدة عن طمي النيل ورواسبه التي يلقي بها في البحر نجد أن ساحل مصر إلى الشرق منها كان ساحلاً كثير المستنقعات وإن وجدت به موانيء فكانت في الغالب قرب مصبات أفرع النيل السابقة كبلوز في العصر الإغريقي على الفرع البلوزي القديم وكانوب Canopus على الفرع الكانوبي ثم دمياط ورشيد في العصر العربي والتركي .

---

(١) Semple, E. The Mediterranean Region, London, 1933, p, 159.

ولكن هذه الموانىء النهرية لم تلبث أن فقدت أهميتها واضمحلت بسبب الإرساب النهري. هي إذن الإسكندرية مدخل مصر على ساحلها الشمالي ونافذتها على العالم الخارجي ، ظلت عاصمة لمصر وميناءها الأول قرابة ١٠٠٠ عام ثم أخذ شأنها يقل بعد دخول العرب وازداد اضمحلالها في العصر التركي حتى لم تعد أكثر من قرية صغيرة ، ثم عاودها النشاط رويداً رويداً بعد فتح قناة السويس واحتلت مكانها الأول . هذا هو شأن ساحل البحر المتوسط ساحل قليل السكان منخفض رملي في بعض اجزائه تكثر به المستنقعات أشهر ثغوره الإسكندرية .

ساحل البحر الأحمر :

وإذا انتقلنا إلى البحر الأحمر نجد أن مصر تطل عليه بجبهة واسعة تمثل جزءاً كبيراً من حدودها الشرقية ورغم قلة الموانىء الصالحة على طول هذا الساحل وصعوبة الملاحة في مياهه وفقر ظهيره فإن سكان وادي النيل اتصلوا بالهند وجنوب شرقي آسيا عن طريق عدد قليل من الثغور ظهرت في فترات مختلفة من التاريخ ارتبطت بوادي النيل عن طريق وديان الصحراء الشرقية كوادي الحمامات. نذكر من هذه الثغور ليكوس ليمن Leucos Limen قرب القصير الحالية . وهو ثغر قام إلى الجنوب قليلاً من ساو (أو فيلوتيرا) ثغر مصري قديم . وميوس هورمز Myos Hormes (قرب الغردقة) وأرسنوى Arsinoi والقلزم Clysma (قرب السويس) وبرنيس أو برنيك Berenice (قرب الحدود الجنوبية) وكلها ترجع إلى العصر الإغريقي الروماني ثم القلزم والسويس وعيذاب وقد اشتهرت في العصر العربي .

واتصال مصر ببلاد بونت Punt وأمم الشرق الأقصى قديم فقبل ظهور أية آثار مكتوبة عن العلاقات التجارية عبر البحر الأحمر كان قد وصل مصر من بلاد الشرق الأقصى أنواع البخور والمر والأصباغ والبرونز والقصدير وربما حمل هذه التجارة الشرقية القديمة وكذلك منتجات بلاد بونت وسطاء تجاريون من

جنوب الجزيرة العربية نقلوها أول الأمر إلى ميناء قرب سواكن الحالية ثم حملت بعد ذلك بالدواب إلى مدينة مروى Meroé (Premis magna) على النيـل النوبي . ومن ثم وصلت مصر [1] . ويظهر أن المكاسب الضخمة التي كانت تجلبها هذه التجارة أغرت الفراعنة بتحويلها إلى ساحل البحر الأحمر المصري عند مرفأ ساو القديم . ويلاحظ أن منطقة القصير الحالية قريبة من النيـل فالنهر يصنع في هذه العروض ثنية ضخمة هي ثنية قنا تجعل وادي النيل يقع على بعد ١٦٠ كم فقط من البحر الأحمر . وهذه ولا شك من محاسن الصدف .

طرق التجارة الشرقية :

وعلى الثنية ظهرت مدن خلال فترات التاريخ مثل طيبة وقفط وقوص وقنا اكتسبت أهميتها من موقعها قرب البحر الأحمر عند ملتقى الطرق النهرية وطرق القوافل عبر وديان الصحراء الشرقية خصوصاً وادي الحمـامات . وكان عبور وادي الحمامات بالدواب لا يستغرق أكثر من ستة أيام فقد حفرت فيه الآبار على مسافات متقاربـة كما كانت حراسته شديدة في عهد الحكومات القوية . ويمكن القول بصفة عامة أن تجارة بلاد بونت مع مصر كانت نشطة مزدهرة خلال الجزء الأكبر من التاريخ المصري القديم ولكنها كانت أنشط ما يكون في أيام الإمبراطورية خصوصاً أيام الرعامسة وقد اتسعت دائرة نشاط موانئ البحر الأحمر أيام البطالمة والرومان والعرب وامتدت صلاتها التجـارية إلى الهند وجنوب شرقي آسيا . هذه التجارة لم يصاحبها على ما يبدو تغلغل ثقافي إلا أنها جلبت لوادي النيـل ثروة طائلة وضاعفت من نصيب مصر في تجارة البحر المتوسط [2] .

---

(١) Semple (1932) , P. 163

(٢) Ibid, P. 167 .

القناة بين النيل والبحر الأحمر :

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى القناة التي ربطت البحر الأحمر بالنيل عن طريق وادي طميلات وبحيرات التمساح والمرة التي كانت متصلة بخليج السويس خلال فترة طويلة من التاريخ فهذه كانت أيضاً منفذاً من منافذ مصر إلى البحر الأحمر. وقد حفرت هذه القناة عدة مرات ولكنها سرعان ما كانت تترك لتردمها الرمال. فقد حفرها لأول مرة الملك سيزوستريس الثاني Sesostris II (أحد ملوك الدولة الوسطى) سنة ١٩٠٠ ق.م. والرأي الراجح أن هذه القناة الأولى كانت تأخذ من أحد فروع النيل القديمة ثم اتجهت نحو الشرق في وادي طميلات حتى مدينة Pithom أو Heroopolis التي كانت تقع على مسافة ٣٦ كم إلى الغرب من مدينة الاسماعيلية الحالية وعلى بعد ٥٥ كم شمالي خليج السويس . وحفرها في المرة الثانية سيتي الأول في (سنة ١٢٥٠ ق . م) وفي المرة الثالثة نخاو Necho في سنة ٦٠٩ ق.م. وفي المرة الرابعة داريوس الفارسي (٥٢٠ ق.م) الذي أراد أن يصل مصر ببلاد الهند . وفي المرة الخامسة بطليموس الثاني (٢٨٥ ق.م) وفي المرة السادسة حفرها تراجان (سنة ٩٨ م) . وفي المرة السابعة والأخيرة حفرها عمرو بن العاص (سنة ٦٤٠ م) لينقل عليها الغلال إلى مكة ولكنها ردمت بأمر الخليفة العباسي سنة ٧٦٧ م . [١] غير أن منافسة هذه القناة للطرق التي كانت تعبر الصحراء الشرقية إلى ثنية قنا لم تكن إلا لفترة قصيرة من التاريخ وبعدها تترك القناة لتردمها الرمال ويملأها طمى النيل .

ولكن لماذا كانت القناة تهمل وتترك للرمال ..؟ السبب هو صعوبة الملاحة وخطورتها في خليج السويس والجزء الشمالي من البحر الأحمر. فهنا تشتد الرياح الشمالية الغربية التي تمنع من استخدام الشراع وتحتم استخدام المجداف للوصول إلى

---

(١) Ibid .

الشاطىء كما أنها تدفع أمامها تيارات بحرية قوية . ليس هذا فحسب بل إن سواحل خليج السويس تحفها شطوط مرجانية غاطسة لأعماق قليلة وممتدة في الماء لمسافة كبيرة تعرض السفن إلى التحطيم والهلاك إذا ارتطمت بها . كما أن مستوى المياه في الخليج ينخفض بحوالي ثلاثة أقدام وقت هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية على البحر العربي مما يؤثر على مستوى المياه في شمال البحر الأحمر وبالتالي يزيد من شدة التيارات في الخليج . لكل هذه الصعوبات فإن منتجات بلاد بونت والشرق الأقصى كانت خلال العصور المختلفة تنقل في الغالب إلى أحد الموانىء الجنوبية على ساحل البحر مثل Leucos Limen (القصير) أو مويس هورمس أو برنيس Berenice أو عيذاب ومنها تنقل بالدواب إلى إحدى المدن على ثنية قنا قد تكون قفط Coptos أو قنا أو قوص ومن ثم تنقل بالقوارب النهرية إلى الاسكندرية .

المدخل الشمالي الشرقي :

والمدخل الشمالي الشرقي لمصر هو شمالي سيناء . وهو سهل ساحلي تسقط عليه بعض الأمطار في الشتاء وتنتشر به الكثبان الرملية التي تحجز في باطنها بعضاً من مياه المطر لذلك كان من السهل الحصول على المياه بحفر الآبار . ونظراً لغنى هذه المنطقة بمياهها الباطنية وآبارها فقد سلكها التجار والحجاج والمهاجرون والغزاة [١] . فمن طريقها مثلاً خرجت من مصر الغزوات والمؤثرات الحضارية إلى آسيا خرج بنو إسرائيل ودخل الهكسوس والإغريق والعرب والأتراك . كذلك كانت هناك طريق وسط سيناء . وقد ظهرت أهميتها في العصور الوسطى كدرب للحجاج . وكانت أهم المحطات على طولها نخل عاصمة سيناء قبل العريش .

---

(١) انظر « المدخل الشرقي لمصر » للدكتور عباس عمار .

المداخل الغربية :

أما عن مداخل مصر الغربية فكان هناك مدخلان هما : الطريق الساحلية وطريق الواحات. أما الطريق الساحلية فكانت أقل شأناً من طريق شمال سيناء. وذلك بسبب فقر المنطقة التي تقع على حدود مصر الغربية وعدم قيام دولة قوية فيها وبسبب قلة المياه الباطنية . ومع ذلك سلكتها جيوش البطالمة عندما همت بالاستيلاء على برقة وسلكها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي وسلكها رومل في الحرب العالمية الثانية كما سار عليها التجار وحجاج المغرب وجماعات الرعاة الوافدة إلى الدلتا. أما طريق الواحات فكانت تبدأ من ليبيا ويمر بواحة جغبوب وسيوة ثم تتفرع إلى عدة أفرع منها فرع يتجه شمالاً ليتصل بالطريق الساحلية وآخر يتجه شرقاً عبر منخفضي القطارة ووادي النطرون إلى الدلتا والفيوم وثالث تتجه نحو الجنوب الشرقي إلى الواحات البحرية فوادي النيل ومن الواحات البحرية أيضاً تتجه نحو الجنوب إلى الواحات الجنوبية الداخلة والخارجة . هذه الطريق على أية حال كانت قليلة الأهمية مرت عليها هجرات صغيرة وعرفها رجال القوافل والحجاج المغاربة.

المداخل الجنوبية :

وإذا تركنا حدود مصر الغربية وانتقلنا إلى حدودها الجنوبية نجد ثلاث طرق توصل من السودان إلى مصر : الطريق الجنوبية الشرقية وتسلك وديان الصحراء الشرقية مثل وادي العلاقي وينتهي عند بلدة العلاقي ووادي خريط وينتهي عند كوم أمبو. وقد ربطت هذه الطريق بين شمال السودان ووادي النيل وجاءت منها هجرات قديمة. الطريق الوسطى وهي أهمها ويتمثل في نهر النيل . ورغم صعوبة الملاحة في النهر جنوبي أسوان فقد وصلت الحضارة المصرية القديمة إلى السودان ودخلت المسيحية والإسلام فيما بعد . وقد كانت جزيرة فيلة في عهد الأسرات المصرية كما كانت Syene أو أسوان فيما بعد السوق التي يلتقي فيها

تجار الجنوب والشمال أو تجار النوبة وتجار مصر ، وكان عـلى كل منها حاكم يلقب بحامي المدخل الجنوبي مهمته هي حماية الحدود الجنوبية من غارات القبائل المجاورة وتأمين طريق التجارة عبر الحدود . على هذه الطريق وصل مصر من حاصلات السودان ووسط إفريقية الذهب والفضة وريش النعام والعاج والأخشاب الثمينة والبخور والصمغ . أما الشعبة الثالثة أو الطريق الثالثة فهي درب الأربعين ويبدأ من دارفور وكردفان وينتهي في مصر الوسطى مـاراً بالواحة الخارجة . وهذه الطريق قديمة استخدمت في العصر الفرعوني واشتهرت في العصور المتأخرة بتجارة الرق والعاج وريش النعام .

الموقع :

الموقع هو محصلة هذه العلائق المكانية وتاريخ مصر هو انعكاس لقيمة الموقع ووزن الموضع. موقع وسط برزخي تمتد إليه الطرق وموضع واحي غني بفضل النيل ومصون من عبث المغيرين بدروع صحراوية. ولكن لما كان الموقع عنصراً متفاوت القيمة ذو أهمية نسبية فإن موقع مصر مر من حيث العلاقات التجارية بمراحل بدأت بالأهمية في إطار العالم القريب وانتهت بالأهمية العالمية . ويمكن القول أن أهمية الموقع التجارية خلال العصر الفرعوني كانت محدودة ولا تقارن بأهمية الموضع الذي كان منبع القوة . ومنذ بداية عصر البطالمة وموقع مصر يزداد أهمية وذلك بفضل ظهور العالمية واتساع العالم المعروف . ولكن مصر لم تلعب دورها كاملاً كوسيط تجاري بين الشرق والغرب إلا أيام العرب وفي أواخر أيامهم بالذات . فيوم كانت الحروب الصليبية على أشدها كانت تجارة الشرق والغرب تلتقي في مصر بعد أن ورثت مصر موقع العراق . ولكن هذا الدور العظيم انتهى فجأة بضربة قاضية سددها البرتغال . فقد اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح وسلبوا من مصر موقعها التجاري الممتاز ليرثوه هم ومن بعدهم بريطانيا . ولم يطل الانهيار فقد شقت القناة ورجعت التجارة إلى مجاريها القديمة . وبدأ الصراع العالمي الامبريالي من أجل الاستحواذ على مصر والتحكم في موقعها وردت مصر بالثورة حتى أممت القناة عام ١٩٥٦ .

الفصل الثاني عشر

الذبذبات المناخية في العصر التاريخي

ومدى تأثر مصر بها

يختلف الجغرافيون وعلماء الآثار فيما بينهم حول الذبذبات المناخية في العصر التاريخي . فريق يرفض أن يعترف بحدوث الذبذبات المناخية وخصوصاًذبذبات المطر ، والفريق الآخر يؤكد حدوث هذه الذبذبات ويدعم قوله بالأدلة . وسنتعرض هنا لرأي كل فريق ثم نحاول أن نرى مدى تغير المناخ في مصر في العصر التاريخي وأثر ذلك على الحياة الاقتصادية إن كان هناك أثر .

المعارضون :

تعد مس سمبل E. Semple [1] والأستاذ دمارتون De martonne من

---

(١) Semple E. The geography of The Mediterranean Region. London 1932, p. 99

الذين يرفضون فكرة حدوث أي تغير مناخي خلال العصر التاريخي ويرجع من شايعهم اضمحلال الزراعة والمدن على حواف الصحراء وفي حوض البحر المتوسط إلى أسباب لا تمت بصلة إلى المناخ . فهم يرون أن الاضمحلال يرجع إلى زوال التربة نتيجة لقطع الغابات وسوء استخدام المراعي وقد تبع ذلك انخفاض مستوى الماء الباطني وجفاف الآبار والينابيع . ومن العوامل التي أدت إلى الاضمحلال أيضاً هجوم الجماعات المتبربرة وتدميرها لمشاريع الري وانتشار الفوضى والاضطراب السياسي نتيجة لتكرار هذه الهجمات.[1] ويؤكدون أن كثيراً من الأدلة في الماضي والحاضر تشير إلى عدم حدوث أي تغير في المناخ وخاصة في كمية المطر الساقطة .

ففي حوض البحر المتوسط مثلاً لا تختلف المحاصيل التي كانت تزرع في القديم عما يزرع الآن باستثناء بعض المحاصيل التي أدخلها العرب في القرنين السابع والثامن بعد الميلاد ، كما أن طرق الزراعة القديمة لا زالت قائمة ومواعيد الزراعة وجني المحصول والمدة التي يقضيها لينضج لم تتغير . فيذكر Hesoid ذلك الكاتب الاغريقي الذي عاش في القرن الثامن ق.م أن ميعاد بذر القمح في جنوب شرقي اليونان (Boeatia) يقع في ٢٠ أكتوبر . هذا التاريخ لم يتغير إلى الآن . إذن لم يتغير مناخ سهل Boeatia ولم يتغير تبعاً لذلك ميعاد البذر وميعاد الحصاد . وهنا نقف قليلاً عند وثيقة تاريخية هي سجل لأحوال الطقس في الاسكندرية في بعض سني القرن الثاني الميلادي أعده شخص يدعى كولوديوس بطليموس Claudius Ptolemaeus أشار فيه بطريقة وصفية إلى أيام المطر واتجاه الرياح والحرارة . من هذا السجل يتبين أن الأمطار كانت تسقط طول العام في الاسكندرية ولو أن كمية المطر لم تتغير عما هي عليه الآن . وقد تعرض هذا

(١) Fisher, W. The Middle East. London, 1950, p. 59

السجل لنقد شديد من معارضي فكرة تغير المناخ ويرون أنه ليس سجلاً لأحوال الطقس بالاسكندرية بل لمكان مـــا باليونان كما أن السجل وصفي ويصعب تفسيره .

المؤيدون :

ومن المؤيدين لفكرة تغير المناخ خلالالتاريخ جريجوري J.W. Gregory[1] وبروكس C. E. Brooks وهنتجتن[2] E. Huntington وصون ألمان Hans W : Son Ahlmann[3] .

ويشير بروكس إلى أنه حدثت ذبذبات عدة في المناخ منذ سنة ٦٠٠٠ ق.م استمرت فترات متفاوتة في الطول . فهناك تغير حدث حوالي ٤٠٠٠ ق م أدى إلى تحول المناخ من الجفاف وارتفاع الحرارة إلى الرطوبة والاعتـدال وذلك في الأقاليم المعتدلة والباردة (المرحلة المحيطية Atlantic Stage) وقـد سبق أن أشرنا إلى ذلك. ثم حدث في أواخر الألف الثالثة أن زادت الرطوبة في الجو (فترة نمو الغابات Forest Period) وظهرت غابات كثيفة في غرب أوربا وقد انتهت هذه الفترة حوالي ١٨٠٠ ق.م تلتها فترة تحول المناخ فيها إلى الجفاف وتحولت الغابات إلى أحراج وتحول الإستبس إلى شبه صحراء فقـل العشب والماء وأدى ذلك إلى هجوم الجماعات المتبربرة من آسيا على جماعات الزراع الذين يعيشون في وديان الأنهار مثل وديان دجلة والفرات ووادي السند ويانجتسي والنيل. ثم تحسن

---

(١) Gregory J. « Is the Earth drying up· ? Geog. J,, vol. 48, pp. 148-77, 1914.

(٢) اقرأ لهنتجتن Huntington, E. The Pulse of Asia. Principles of Human Geography N. Y. 1951.

(٣) وصون ألمان Hans W: Son Ahlmann. « The Present Climatic Fluctuation. » G. J. vol. CXII, 165 - 195, 1948.

المناخ مرة ثانية وزادت الأمطار نسبياً (Classical Rainfall Maximum) في الفترة بين ٥٠٠ ق.م — ٥٠٠ ميلادية (العصر الكلاسيكي) .

الحضارة والمناخ :

ويرى هنتنجتن E. Huntington أن الحضارة الإغريقية الرومانية ازدهرت في الفترة بين ٥٠٠ ق.م ، ٢٠٠ ميلادية وهي في نظره الفترة التي زادت فيها كمية الأمطار وأصبح الجو متقلباً بشكل واضح . وفي رأيه أن ازدياد الأمطار سمح بحياة زراعية مستقرة وغنية في حوض البحر المتوسط وفي نفس الوقت كثر الماء والمرعى في الجهات الجافة نسبياً فضمن الرعاة بذلك رزقهم في مواطنهم ولم يتجهوا نحو نهب وسلب جيرانهم من الزراع . أي أنه كان عصراً متميزاً بالوفرة والاستقرار والاطمئنان . ولكن لم تلبث هذه الأحوال المناخية المناسبة أن تغيرت فقلت الزوابع والأعاصير وقلت الأمطار . وقد حل هذا التغير مبكراً في اليونان قبل ايطاليا ، وصحب قلة الأمطار في اليونان تدهور الزراعة وانتشار الملاريا في مياه الأنهار الراكدة وقد أدى ذلك كله إلى تدهور الحضارة .

أما في ايطاليا فقد بدأت الأمطار في القلة بعد سنة ٢٠٠ ميلادية . وصحب قلة الأمطار فقدان التربة لخصوبتها فأصبح من الصعب على الزراع زراعة القمح . فاستغنت إيطاليا عن القمح المنتج محلياً اعتماداً على القمح المستورد من الخارج ، وحلت زراعة الكروم والزيتون محل زراعة القمح ، ووجد الفلاح الفقير نفسه غير قادر على استثمار الأرض فهاجر إلى روما وإلى بعض المدن الأخرى التي تعتمد على القمح المستورد . ويلاحظ بروكس أن التغيرات المناخية في العالم القديم تتفق إلى حد كبير مع تلك التي حدثت في العالم الجديد . وقد اعتمد في تأريخ فترات تغير المناخ على نتائج دراسة القطاع العرضي لجذوع الأشجار الضخمة المعمرة Sequoias في كاليفورنيا (يزيد عمرها على ٤٠٠٠ سنة) . فقد وجد أن سمك الحلقات التي تظهر في خشب جذوع هذه الأشجار له صلة مباشرة بكمية الأمطار

الساقطة . فكل حلقة تشير إلى سنة في عمر الشجرة وتشير إلى كمية الأمطار السنوية أهي في زيادة أم في نقصان .

الذبذبات المناخية بعد ٥٠٠ م :

هذا عن الذبذبات المناخية فيما قبل سنة ٥٠٠ م . أما الذبذبات المناخية بعد هذا التاريخ فعليها خلاف شديد وهناك كثير من المنكرين والمؤيدين. وقد ظهرت مؤخراً عدة دراسات حديثة تعتمد في بحثها للذبذبات المناخية على أكثر من دليل (أشجار الـ Sequoia، التحليل النباتي، دراسة حبوب اللقاح، معدلات مناخية، أدلة جيولوجية وبحرية ، دراسة مستويات فيضان النيل) . تشير ليس فقط إلى الذبذبات المناخية في القرون الماضية بل إلى تغيرات طفيفة في كمية الحرارة والضغط والأمطار في العصر الحديث .

يذكر الاستاذ Hans W. Son Ahlmann [١] أنه من دراسة حبوب اللقاح التي وجدت في مستنقعات اللبد النباتي Peat bogs ثبت حدوث تغير في المناخ بين ١٢٠٠ ، ١٣٠٠ م. فقد زادت الأمطار قليلاً وانخفضت درجة الحرارة وخاصة في الجهات الشمالية وتقدمت الثلاجات في أيسلند وجرينلندة واسكتلندة وزادت فرص سكنى المناطق الجافة نسبياً وتوقفت هجمات الرعاة على الزراع . ولكن حدث تحول إلى الجفاف والبرودة في العروض الشمالية في منتصف القرن ١٤م فبدأت على أثره غزوات المغول في أوربا وآسيا . ويبدو أن المناخ لم يتحسن بشكل ملحوظ إلا في الجزء الأول من القرن العشرين .

---

(١) Hans W. Son Ahlmann, op. cit. pp: 165 - 195.

وهذا ينقلنا لدراسة الذبذبات المناخية في العصر الحديث(١٧٦٠ – ١٩٤٠).

قام بهذه الدراسة إلى جانب ألمـــان Ahlmann ، ليسارد L. Lysgaard وبروكس ومانلي Manley [1] وتشير هذه الدراسة – وقد انصبت كلهـا على غربي أوربا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة – إلى اتجاه متوسطات الحرارة نحو الارتفاع وتغير كمية الأمطار إمـــا بالزيادة أو النقصان . ففي الفترة بين ١٧٦٠ – ١٩٤٠ ارتفعت درجة الحرارة في استكهولم مثلاً بمـا يقرب من ٢٫٥ درجة فهرنهيتية وزادت الأمطار في الفترة بين ١٨٦١ – ١٩٣٠– في شمال السويد بما يقرب من ٥٪ وارتفعت في جنوبه بما يقرب من ٢٫٥٪ . وينطبق ذلك بصفة عامة على درجات الحرارة والامطار في الاتحاد السوفيتي . أمـــا في الولايات المتحدة فقد ارتفعت فيها درجات الحرارة وقلت كمية الامطار. وقد قام ليسارد L. Lysgaard بدراسة مقارنة لدرجات الحرارة والتساقط في العـالم في الفترة بين ١٨٨١ – ١٩١٠ والفترة بين ١٩١١ – ١٩٤٠ وقد خـرج من دراسته هذه بالنتائج الآتية : أنه في أجزاء واسعة من العالم وخاصة في الأقـــاليم المعتدله والمتجمدة ارتفعت درجة الحرارة في الصيف والشتاء بشكل محسوس بينما انخفضت درجة الحرارة في أجزاء أخرى من العالم وخاصة في الأقاليم المدارية . كذلك لاحظ ازدياداً في كمية الامطار في الجهات المعتدلة والباردة وفي الاقاليم الموسمية ونقصاناً في كمية الامطار في الاقاليم المدارية الاخرى وشبه المدارية. ويظهر ذلك في افريقية واستراليا والبرازيل والولايات المتحدة الامريكية .

---

(١) راجع Lysgaard, L. Recent Climatic Fluctuations: Nature 1948

Brooks, Climate Through the Ages, London 1940

Manley, Temperature Trends in Lancashire (1753 - 1940)

تفسير الذبذبات المناخية التاريخية :

تفسير تلك الذبذبات المنـاخية لا زال غامضاً . ولكن النظرية التي يحبذها Ahlmann لتفسير هذه الذبذبات تتعلق باختلاف كمية الاشعاع الشمسي الواصلة إلى الارض . فهذا الاختلاف يؤثر على توزيع أقاليم الحرارة ومنـاطق الضغط واتجاه الرياح وحركتها ويؤدي فوق ذلك إلى تغيرات في درجات الحرارة وكمية الامطـار . ونختم هذه الدراسة العامة لذبذبات المناخ في العصر التاريخي بما أكده هذا العالم من أن ذبذبة المناخ في العصر الحـاضر ما هي إلا واحدة في سلسلة الذبذبات والتغيرات التي أصابت وستصيب مناخ العـالم . والامل كبير في الوصول إلى معرفة ماهية هذه التغيرات بما لا يدع مجالاً للشك .

تغير مناخ مصر في العصر التاريخي :

والآن ماذا عن مشكلة تغير المناخ في مصر في العصر التاريخي ؟ هنـاك من يعترض على حدوث أي تغير في المناخ ويرجع اضمحلال الشريط الساحلي في غربي الاسكندرية مثلاً إلى العوامل البشرية البحتة وأهمها تعرض هـذا الإقليم لهجوم الرعاة من الشرق والغرب والجنوب وقضائهم على آثار المدنية وأهمـالهم للآبار والخزانات . ويؤكد أن المنطقة يمكن أن ترجع إلى سابق ازدهارها إذا اهتمت الحكومة بتوفير الماء عن طريق حفر الآبار وتطهير الخزانات وتشجيع الرعاة على الاستقرار والزراعة وخاصة زراعة المحاصيل الشجرية [١] .

---

(١) Weedon A. « Report on Mariout » Cairo. Sc, J. vol' Vl, 1912, pp. 209 - 2121

والرأي المعارض يذكر أن كمية الامطار قلت منذ سنة ٥٠٠م[١] وكان لذلك أثر واضح في اضمحلال هذه المنطقة. ومن الصعوبات التي تعترض دراسة هذا الموضوع أن أي نقص أو زيادة في الامطار سيكون من الضآلة بحيث لن يترك وراءه دليلاً واضحاً نعتمد عليه. ولكن يغلب على الظن أن اضمحلال إقليم مريوط كان نتيجة لعاملين: العامل البشري الذي سبق الإشارة إليه والعامل الطبيعي الذي لا يتمثل في تغير متوسط كمية الامطار بل في نظام سقوطها وكثرة السنين التي تمتنع فيها الامطار عن السقوط، واستمرار الارتفاع في درجة الحرارة مما يقلل من القيمة الفعلية للأمطار، فمن المعروف أنه في كل خمس سنوات ينجح محصول الشعير (الذي يعتمد على المطر) مرة واحدة. أما محاصيل السنين الباقية فغالباً ما تكون أقل من المعتاد أو فاشلة. ومن المرجح أن تكرار هذه السنين العجاف كفيل بالقضاء على المحاصيل الشجرية كالكروم والزيتون التي كانت تشتهر بها هذه المنطقة في تاريخها القديم. ومن دراسة المعدلات الحرارية لمصر منذ أوائل القرن العشرين نجد أن درجة الحرارة في ارتفاع مستمر، ففي أوائل هذا القرن كان متوسط درجة حرارة الاسكندرية والقاهرة في الصيف على الترتيب ٢٣,٢°م، ٢٤,٤°م. ولكن بعد الحرب الاولى ارتفعت إلى ٢٤م° في الاسكندرية، ٢٥°م في القاهرة وينطبق ذلك أيضاً على بقية أجزاء القطر. وهذا يؤيد ما ذكرناه من أن ازدياد ارتفاع الحرارة ربما يكون عاملاً في ازدياد جفاف السواحل الشمالية لمصر.

---

(١) راجع Huzayyin, S. « Changes in Climate, Vegetation, and Human Ajustment in The Saharo - Arabian belt, WithSpecial Reference to Africa · » in Man's Role in Chagning The Earth· Ed. Thomas, W & Others Chicago, 1955. part I.

رأي مري :

يؤكد مري G. Murray [1] (١٩٥١) أنهبرغم وجود دلائل تشير إلى جفاف المناخ منذ ابتداء الاسرات المصريةفإنه وجد في بلاد النوبة بعض المقابر ترجع إلى عصر ما قبل الاسرات تحوي اجساداً لا زالت محفوظة في حالة جيدة مما يشير إلى شدة الجفاف فإن هناك آثاراً تدل على استمرار سكنى الصحراء النوبية حتى الدولة الوسطى أي حتى ٢٠٠٠ ق.م.وهو يرى أيضاً أن الجهات المرتفعة التي تعلو خط كنتور ٦٠٠ متر حول هضبة الجلف الكبير ظلت تتمتع ببعض الامطار وكان يسكنها بعض الجماعات الرعوية هجرتها بعضهذاالتاريخ وكذلك كانت الحال في شرقي النهر . ويستمين في تبرير وجهة نظره بأدلة أثرية منها وجود مقبرة للمواشيفي جهةلا يمكن أن تعيش فيها المواشيالآن.بدأ الجفاف يحل كما ذكرنا في أواخر الالف الثالثة وأوائل الثانية ق.م ولعلشكوى ايبور Ipuwer من الاسرة التاسعة (٢١٠٠ ق.م)من أن مصر العليا صارتصحراء لدليل على هذا التغير المناخي . ولم تتحسن الاحوال إلا في العصر الكلاسيكي (٥٠٠ ق.م ــ ٥٠٠ م) حين اتسع نطاق المطر في شمالي مصر ليشمل مساحة اوسع ومن الادلة على ذلك . آثار معبد يقع علىبعد٣٥كيلومتراً جهة الجنوب وآثار « ڤيلا » تقع على بعد ٦٧ كيلو متراً جنوبي الساحلوبينآثار هذه الفيلا يوجد جذعان صغيران لشجرتي بلوط وأرز وكلتيهمالا تنموان في مصر الآن .

ولا يعترض مري Murray على ما في يوميات كلوديوس بطليموس المشار إليها من أن المطر على الاسكندرية كان موزعاً على شهور السنة وأن الامطار كانت بصفة عامة أكثر انتظاماً منها الآن . غير أنه يرى أن انخفاض منسوب مياه الآبار في الشريط الساحلي في شمال شرق

(١) يتفق بوتسر Butzer مع مري Murray في هذه الآراء ـ انظر Butzer, K. « Environment and Human Ecology in Egypt. » Bull Soc. geog. d' Égypte T. XXXII, 1959, pp 63 - 74.

وشمال غرب الدلتا لا يرجع إلى نقص في كمية الامطار بعد ٥٠٠م وإنما إلى انقطاع تسرب مياه النيل إليها بعد انخفاض ساحل الدلتا واندثار الفرع الكانوبي والبلوزي. وقد أدى ذلك إلى ازدياد اضمحلال نطاق الساحل الشمالي . ولكننا نفضل القول أن تطوراً مناخياً حدث في أعقاب العصر الكلاسيكي أدى إلى زيادة حدة الجفاف ونشاط حركة الرمال السافية . ولعل طغيان الرمال على جسم أبي الهول إبان العصر الاسلامي لدليل على ذلك .

ويقتصر أثر تذبذب المناخ في مصر على الصحراء . ففي وادي النيل تعتمد الزراعة على الري ويعتمد الناس في شربهم على ماء النيل . ويمكن القول بأن الاجزاء الساحلية في الصحراء الغربية هي التي تأثرت في حياتها الاقتصادية والاجتماعية . وسواء كانت الحياة في هذه المناطق قد تأثرت نتيجة لعدم انتظام الامطار وارتفاع درجة الحرارة أو بسبب تغير نظام الحياة والحرفة بعد دخول البدو الرحل فإن هذا النطاق كان حتى القرن ١٥م غنياً بزرعه ومائه وأكثر سكانا منه الآن . يشهد بذلك الكتاب العرب فيما بين القرنين التاسع والخامس عشر م من أمثال اليعقوبي والمسعودي والإدريسي والقلقشندي والمقريزي . ومما ذكره المقريزي (القرن ١٥م) في هذا الصدد « إن مريوط كورة من كور الاسكندرية كانت في نهاية العمارة بها الجنان المتصلة وهي اليوم من قرى الإسكندرية يزرع بها الفواكه وغيرها »[1] .

---

(١) انظر في هذا الموضوع :
المقريزي ـ الخطط ـ الجزء الأول ، القـاهرة ١٩٠٥ ص ١١٠ القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ الجزء الثالث ـ القاهرة ، ١٩٣٨ ص ٣٨٦ واليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ ليدن ١٩٠٥ ص١٩٧

الفصل الثالث عشر

نهر النيل

المنبع في رأي القدماء :

ظلت منابع النيــل سراً غامضاً طوال التاريخ لم ينكشف إلامنذمنتصف القرن الماضي حين قام سبيك Speke وبيرتون Burton وسير صامويل بيكر Sir S. Baker برحلاتهم الكشفية الشهيرة . وقد تعارضت آراء الأقدمين حول المنبع . فاعتقد قدماء المصريين أنه ينبع من نهر سماوي تنزل مياهه إلى الأرض في شكل شلال عظيم . ومن عند هذا الشلال يبدأ النيل . ولذا فإن الجنوب كان عند المصريين أهم جهة أصلية حددوا على أساسها بقية الجهات . ورأى بطليموس الجغرافي (القرن الثاني م) أنه ينبع من جبال « القمر » وراء خط الاستواء . وقد ردد مثل هذا الرأي بعده الكتاب والجغرافيون العرب . فقدامة بن جعفر (٩٠٦ ــ ٩٥٨ م) يقول إن انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء

---

(١) Maspero, G. « Histoire des peuples des de l'Orient Classique » Vol. I. Les Oringines : Egypte et Chaldeé, Paris, 1891, 16 - 19

من عين تجري منها عشرة أنهـــار كل خمسة تنصب إلى بطيحة ثم يخرج من كل بطيحة نهران وتجري الانهار الاربعة (او الثمانية) الى بطيحة كبيرة مدورة عند خط الاستواء تعرف ببحيرة كورى فيفترق النيل منها إلى ثلاث فرق . وهنا يختلف الوصف عما جاء في خارطة بطليموس فيقول : —

١ ـ فرقة تأخذ شرقاً وتذهب إلى مقدشو من بلاد الحبشة المسلمين على ساحل البحر الهندي مقابل بلاد اليمن .

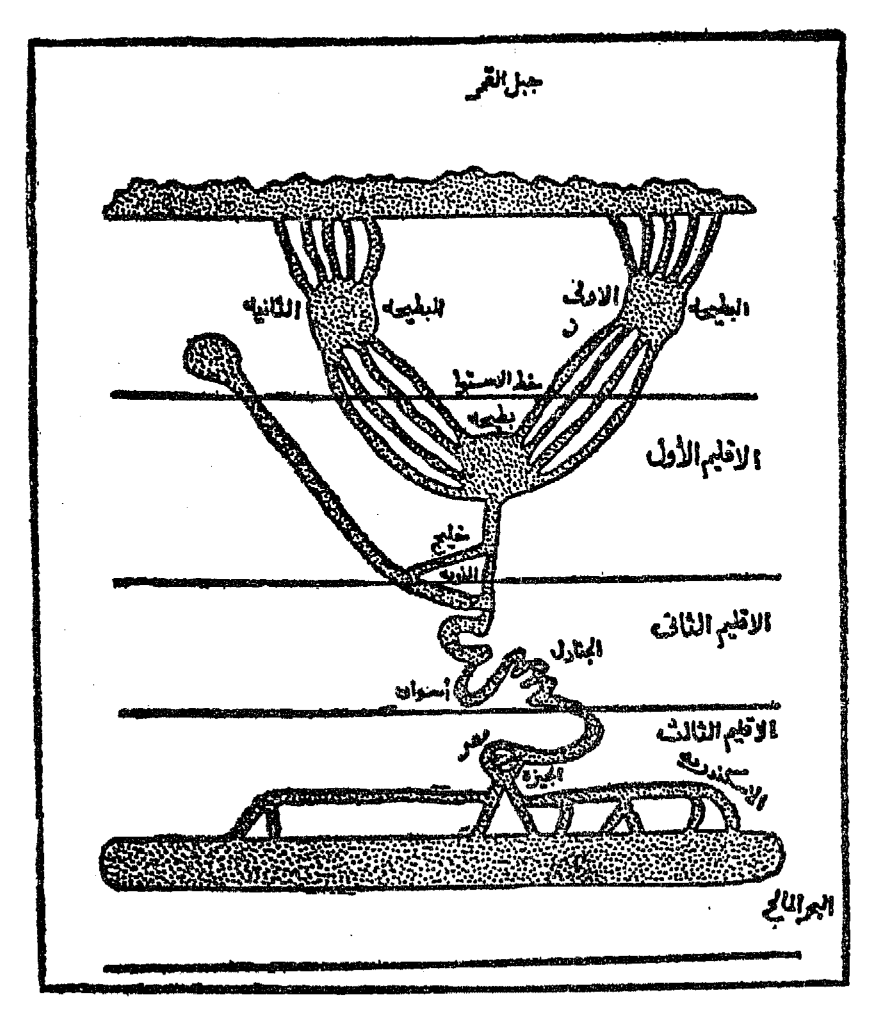
٢ ـ فرقة تأخذ غرباً وتذهب إلى بلاد غانه وتمر حتى تصب في المحيط الغربي .

٣ ـ فرقة تأخذ شمالاً وهي نيل مصر [١] .

ويتبين من هذا الوصف أن الكاتب ربط بين النيل والنيجر والأنهـــار الصغيرة في شرقي أفريقية وهذا يخالف ما جاء في خريطة بطليموس وخريطة الخوارزمي المتوفي في عام ٨٤٤ م. ويردد قول قدامة بعـــد ذلك أبو عبدالله البكري (القرن الحادي عشر م) ويذهب الجاحظ (القرن ٩ م) وابن الفقيه (القرن العاشر م) إلى القول بأن النيل والسند يكونان نهراً واحداً يخرج على مقربة من المحيط الاطلسي فيتفقان في ذلك مع هيردوت في المنبع . وهناك من الكتاب والمؤرخين العرب من ردد رأي قدمـــاء المصريين حول المنبع فابن عبد الحكم (القرن التاسع م) يذكر أن النيـــل يخرج من الجنة ويؤكد ذلك بأحاديث منسوبة للنبي [٢] . ومهما تكن اختلافات الرأي فـــإن ما ذكره بطليموس ومارسمه ظل يتردد في كتابات العرب وظلت الصورة التي رسمهـــا للنيل تتكرر من حين لآخر. والصورة المرفقـة (شكل ٣٥) للنيل رسمت في القرن الرابع عشر ولا تختلف كثيراً عن صورة بطليموس . ويلاحظ انه يخرج من كل بطيحة اربعة انهر وليس اثنان كما جاء في وصف قدامة .

(١) راجع قدامة بن جعفر ـ كتاب الخراج ـ تحقيق غوبيه ليدن ١٨٩١ .

(٢) ابن عبدالحكم ـ فتوح البلدان حققه توري C. Torry ـ نيوهافن ١٩٢٢ .



شكل (٣٥) النيل كما عرفه العرب (القرن الرابع عشر م)

رأي القدماء في الفيضان :

وكما تضاربت الآراء حول المنبع تعددت حول تفسير الفيضــان السنوي .

ففيضان النيل هو في رأي المصريين القدماء من فيض النهر السماوي [١] . وفي القرن الخامس ق.م يذكر هيرودوت أن الفيضان يحدث من دفع الرياح الشمالية لمياه النهر [٢] . ولكن الرأي الذي ساد في العهد الإغريقي الروماني وردده كل من ديودور الصقلي واسترابون (القرن الأول ق.م) هو أنه يحدث نتيجة سقوط أمطار غزيرة على جبال الحبشة . وفي العصر العربي ترددت مقولة هيرودوت وآراء أخرى فمن قائل أن زيادته من عيون في شاطئه رآهـا من سافر ولحق بأعاليه أو أن زيادته من ثلوج يذيبها الصيف [٣] (وهو رأي پومپونيوس ميلا P. Mela القرن الأول م) .ولكن بعد الاستكشافات الجغرافية في حوض النيل في القرن التاسع عشر استطعنا تفسير ظاهرة الفيضان ومعرفة منابع النيل بكثير من الدقة .

مقاييس النيل :

وكان قياس ارتفاع مياه الفيضان أمراً هاماً منذ أيام قدماء المصريين فنحن نسمع عما قام به بعض الفراعنة من انشاء وإصلاح لبعض المقاييس . وفي العصر الاغريقي الروماني كان هناك مقياس قرب منف أشار إليه ديودور الصقلي الذي زار مصر في القرن الأول ق.م وظل هذا المقياس حتى دخل العرب مصر . وفي العهد العربي أنشئت بضعة مقاييس منها مقياس في أسوان بناه عمرو بن العاص ومقياس في حلوان بناه عبد العزيز بن مروان[٤]. ولكن أشهرها جميعاً مقياس الروضة الذي بني في القرن التاسع الميلادي أيام المأمون . وطوال العهد العربي

---

(١) Maspero, G. op., cit., p. 17.

(٢) Herodotus (1954) pp. 109 - 211.

(٣) القلقشندي - صبح الأعشى الجزء الثالث القاهرة ١٩١٤ ص ٢٩٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٩٤ .

حتى القرن التاسع عشر كان صاحب المقياس يقيس زيادة النيل في كل يوم ثم يعلن ذلك من الغد دون أن يشير إلى ارتفاع الماء بالأذرع وفق ما يسجله المقياس حتى إذا وصل ارتفاع الماء إلى الحد الذي يسمح بري الأرض نودي في الناس بارتفاع النيل بالأذرع والأصابع .

وقد تغير منسوب مياه النهر إبان الفيضان من عصر لآخر . فخلال حكم الدولة القديمة تكشف الوثائق التاريخية عن توالي انخفاض مستوى مياه النيل وقت الفيضان مما أدى إلى فشل في ري كل الأرض وحدوث مجاعات متوالية في الفترة بين ٢١٠٠ ـ ١٩٠٠ ق.م[١] وانقلب الوضع في الدولة الحديثة وأواخر الأسرات المصرية فقد كثرت الفيضانات العالية الخطرة . واستمرت الحال كذلك وإن كان بشكل غير عنيف حتى أيام الرومان . فقد أخبرنا الكتاب الرومان أن الفيضانات العاليـة ارتفعت إلى مستوى زاد على ٩٫٥٠ متر بالنسبة لمستواها وقت التحاريق . أي أعلى في المتوسط من مستوى الفيضانات العالية في العصر الاسلامي بما يتراوح بين ٥٠ ـ ١٠٠ سم . هذه التحولات والتغيرات في كمية المياة التي حملها النهر وقت الفيضان تتفق إلى حـد كبير مع التغيرات في قدرة النهر على النقل والارساب خلال الزمن . فقد ضعف الارساب بشكل ظاهر في الفترة بين ١٩٦٠ ـ ٩٠٠ ق.م وبدأ يكثر منذ ٢٠٠ م.

وفي أوائل العهد العربي كان النيل يبلغ نهاية ما تدعو الحاجة إليه إذا سجل قرب رأس الدلتا ١٦ ذراعاً وتستبحر الأرض إذا زاد عن ذلك وفي نهاية العهد بلغت النهاية الضرورية أكثر من ١٨ ذراعـاً . ويفسر ذلك باستمرار ارتفاع مستوى الأرض القريبة من النهر وضعف جسور الحيـاض وارتفاع قاع النهر بدرجة أقل من ارتفاع الأرض القريبة . وقد درس ويلكوكس Willcocks ظاهرة الاستمرار في ارتفاع مستوى مياه الفيضان وخرج بأنه منذ أن أنشىء

---

(١) Butzer, K. (1959) pp. 61 - 69

مقياس الروضة ٨٦١ م حتى أوائل القرن العشرين زاد الفرق بين متوسط منسوب مياه النهر في وقت الفيضان عند الروضة فارتفع من ١٧٫٥ ذراع في القرن السابع إلى ٢٠٫٥ ذراع في القرن العشرين [١] .

مستوى مياه الفيضان في العصر العربي :

وقبل إنشاء مشاريع الري الحديثة من خزانات وقناطر كانت حياة مصر معلقة بمستوى الفيضان فتبور الأرض وتنتشر المجاعة والأوبئة إذا انخفض منسوب مياه الفيضان عن الحد الذي يسمح بملء الحياض ويعم الرخاء إذا ارتفع النيل فامتلأت جميع الحياض . ويحدثنا القلقشندي (ق ١٤م) في ذلك نقلاً عن المسعودي (القرن العاشر م) « فإذا أتم خمس عشرة ذراعاً ودخل ست عشرة كان فيه صلاح لبعض الناس وكان فيه نقص لخراج السلطان . وإذا انتهت الزيادة إلى ١٦ ذراعاً ففيه تمام خراج السلطان وأخصب الناس وفيه ظمأ ربع البلد وهو ضار للبهائم لعدم المرعى . وأتم الزيادات العامة النافعة للبلد ١٧ ذراعاً فتروي جميع أرض مصر . وإذا زاد عن ١٧ ذراعاً وبلغ ١٨ ذراعاً استبحر من مصر الربع وفي ذلك ضرر لبعض الضياع (الزراعات الصيفية) قال وذلك أكثر الزيادات ، ثم يعقب القلقشندي بعد ذلك بقوله « هذا ما كان عليه الحال في زمان المسعودي وما قبله أما في زماننا فقد علت الأرض مما يرسب عليها من الطين المحمول مع الماء في كل سنة وضعفت الجسور وصار فيضان النيل إلى ثلاثة أقسام متقاصرة وهي ١٦ ذراعاً فما حولها ومتوسطة وهي ١٧ ذراعاً إلى ١٨ ذراعاً فما حولها وعاليه وهي ما فوق ١٨ وربما زادت على ٢٠ ذراعاً» [٢] . وهذا يؤكد ما ذكرناه من كثرة الإرساب بعد ٢٠٠م.

---

(١) Willcocks -Egyptian Irrigation, 1913, vol. II, p. 294.

(٢) القلقشندي « صبح الأعشى » الجزء الثالث ص ٢٩٩.

المجاعات :

يتبين من ذلك أنه على قدر منسوب الميـــاه تكون درجة الغنى والوفرة ومستوى أسعار المواد الغذائية. وتاريخ مصر منذ أيام المصريين القدماء حتى بناء سد أسوان مليء بأخبار المجاعات والأوبئة التي اجتاحت مصر في عصورها المختلفة وأشارت إليها الكتب السماوية والنصوص الأثرية وكتب الرحـالة والمؤرخين .

فقد وصف الملك زوسر Zoser مؤسس الأسرة الثالثة (الدولة القديمة) الحال عندما انخفض النيل في عهده مدة طويلة عن الحد الضروري بقوله « إنني شديد الحزن لأن النيل في عهدي لم يفض لمدة سبع سنوات . القمح عزيز المنـال والحقول جافة وما يصلح كغذاء قد أصابه العدم... »[1] وقصة يوسف والسبع سنوات العجاف هي قصة النيل وانخفاض منسوب فيضانه عن الحد الضروري سبع سنوات متوالية . والشدة الكبرى أيام المستنصر بالله الفاطمي في القرن الحادي عشر الميلادي كانت نتيجة لتقاصر النيـــل بضع سنوات .. وقد كتب المقريزي عن سني المجاعة التي أصابت مصر منذ أقدم العصور حتى القرن الخامس عشر في كتاب سماه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وفيه ذكر السنين التي تقاصر فيها النيل ووصف حال مصر وقت المجاعة كما حـاول ذكر الأسباب التي كانت تزيد من شدة المجاعة وأشار إلى الأساليب الممكنة لعلاجها .

وصف شاهد عيان :

ومن الرحالة العرب الذين وصفوا الحالة وقت المجاعة عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر في أواخر القرن الثـاني عشر (٥٩٥ هـ – ٥٩٨ هـ) وقد ورد

---

(١) Moret, A. The Nile and Egyptian civilization, London, 1927, p 32

وصفه الحي في كتاب « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر »[1] . ومنـه يتبين مدى الخسارة في الأرواح والاضطراب الذي كان يلحق بالحالة الاقتصادية والاجتماعية . ولنترك البغدادي يحدثنا عمـا شاهده وقت الشدة التي أصـابت مصر في الفترة بين ٥٩٥ هـ — ٥٩٨ هـ (١١٩٨ — ١٢٠١ م) .

« ودخلت سنة ٥٩٧ بعد الهجرة (١٢٠٠ م) مفترسـة أسباب الحياة وقد يأس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار وأقحلت البلاد وأنضوى أهـل السواد والريف إلى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد أيادي سبأ. ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتـات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم. فكثيراً ما يعثر عليهم معهم صغار مشويون أو مطبوخون. ومما شاع أيضاً نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحومهم وهذه البلية وجدت في جميع بلاد مصر.وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين فهو مريع فان القرى التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نفس تمر عليها فتراها خاوية ».ثم يتابع البغدادى وصفه للحال فيقول « أنه في السنة التالية تناقص موت الفقراء لقلتهم وانحطت أسعار القمح لقلة الآكلين ثم انتشرت الأوبئة بعد ذلك فقضت على عدد كبيرمن الناس بحيث أصبحت كثير من القرى خالية من فلاح أو حرّاث . وكثير ممـا روى من الأرض يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه ». وقد أصيبت المدن أيضاً في نشاطها الاقتصادي فيخبرنا البغدادي أنه كان بمصر (الفسطاط) ٩٠٠ منسج للحصر فلم يبق إلا ١٥ منسجاً . وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين واساكفة وخياطين .

---

(١) عبد اللطيف البغدادي ـ الافادة والاعتبار ... باريس ١٨١٠ ص ١١٩ - ١٥٧

هكذا كانت الحال في مصر بالغة السوء في سني القحط والمجاعة ثم لا تلبث أن تتحسن ولكن تحسنها كان يتوقف على درجة ارتفاع الفيضان. وهنا يجب أن نشير إلى أن الزيادة المفرطة في ارتفاع الفيضان كانت خطراً على جسور النيل والزراعات الصيفية والمدن والقرى الواقعة على النهر. وتحت أيدينا وثيقة ترجع إلى الأسرة الثالثة والعشرين تصف الحالة عندما جاء فيضان النهر خطراً «أصبح كل الوادي كبحر. لقد تدافعت أمواج الماء في المعابد وأصبح الناس كطير الماء أو كسباحين في سيل جارف »[1] . ويقول المقريزي « أنه في سنة ٧١٠ هـ (١٣١٦ م) ارتفعت مياه النيل ارتفاعاً كبيراً فغرقت الأقصاب التي في الصعيد فإن الماء أقام عليها ٥٦ يوماً فعصرت كلها عسلاً فقط . وخربت الجسور وعلاها الماء وتأخر هبوطه عن الوقت المعتاد فسقطت عدة دور بالقاهرة »[2] ولكن في الماضي وقبل انتشار الري الدائم كانت الخسارة الناجمة عن الفيضانات العالية أقل بكثير من الخسارة في سني انخفاض النيل بل وكان يعوضها وفرة في المحاصيل الشتوية وفي الثروة الحيوانية . فيقول المقريزي مشيراً لنتائج فيضان سنة ٧١٠ هـ « وقد حسن الزرع في هذه السنة وأفلح فلاحاً عجيباً وانحط السعر لكثرة ما زرع من الأراضي »[3] .

أفرع النيل :

ننتقل الآن إلى التغيرات التي أصابت أفرع النيل ومجراه الرئيسي . كانت أفرع النيل في تغير مستمر منذ ظهرت الدلتا وكان عددها في أواخر عهد الاسرات المصرية أكثر من سبعة اختفى معظمها ولم يبق إلا اثنـــان . ويختلف الكتاب

---

(١) Daressy, G. In Bull. de l'inst, Egypte . Dec., 1895.

(٢) المقريزي — « الخطط » الجزء الثالث ص ٢٧٠ .

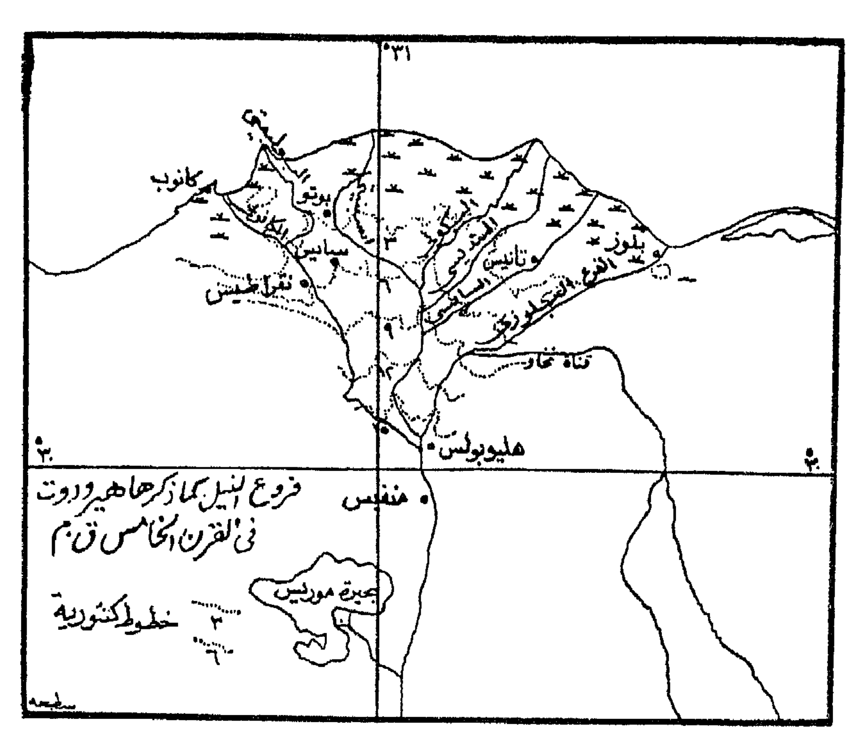
(٣) نفس الصفحة من المرجع السابق .

القدماء فيما بينهم على مواقعها وأسمائها وأهميتها وسنتعرض فيما يلي لأراء بعض هؤلاء الكتاب بحسب ترتيبهم الزمني .

أقدم معلومات عن أفرع النيل ذكرها هيرودوت في كتابه المسمى « تاريخ هيرودوت» وقد زار هيرودوت مصر حوالي سنة ٤٥٠ ق.م . وكتب عن مصر والنيل [١] . ومما قاله عن أفرع النيل أن النهر يبدأ في التفرع قرب بلدة الوراق الحالية شمال غرب القاهرة حيث يتفرع إلى ثلاثة أفرع رئيسية . الفرع الشرقي ويسمى الفرع البلوزي Pelusaic ويصب قرب الفرما، والفرع الغربي ويسمي الفرع الكانوبي Canopic ويصب في خليج أبي قير . وفي وسط الدلتا يجري الفرع الرئيسي الثالث المسمى بالسبنيتي Sebennytic ويصب قرب بلدة البرج في منطقة البرلس. ويتفرع من الفرع السبنيتي (في المسافة بين سمنود وميت غمر) ثلاثة أفرع تتجه نحو الشمال الشرقي هي الفرع السايسي Saitic ويصب قرب فتحة الجميل غربي بورسعيد . والفرع المنديسي Mendesian ويصب عند حلق الوحل (إلى الجنوب الشرقي من رأس البر بما يقرب من ١٣كم)ثم الفرع الباكولي Bucolic ولم يكن فرعاً طبيعياً وإنما كان محفوراً كما زعم هيرودوت ويتفق مع الجزء الشمالي من فرع دمياط . ومن الفرع الكانوبي كان يتفرع جهة الشرق فرع غير طبيعي آخر من عمل الإنسان سماه هيرودوت الفرع البولبيتي Bolbitine يبدأ إلى الجنوب قليلاً من دمنهور ثم يتجه نحو الشرق ثم إلى الشمال متخذاً نفس المجرى الذي يجري فيه الآن فرع رشيد . وقد حقق ج . بول J . Ball في كتابه (Egypt in the Classical Geographers,1947.) ما ذكره هيرودوت ورسم خريطة للأفرع القديمة (شكل٣٦) مستعيناً بمواقع المدن القديمة أيام هيردوت وبدراسة سطح الدلتا وبما كتبه الكتاب المتأخرون عن أفرع النيل. ولكن إذا قارنا الافرع التي ذكرها هيرودوت بأفرع النيل الحالية نجد أن أول ما يلفت

---

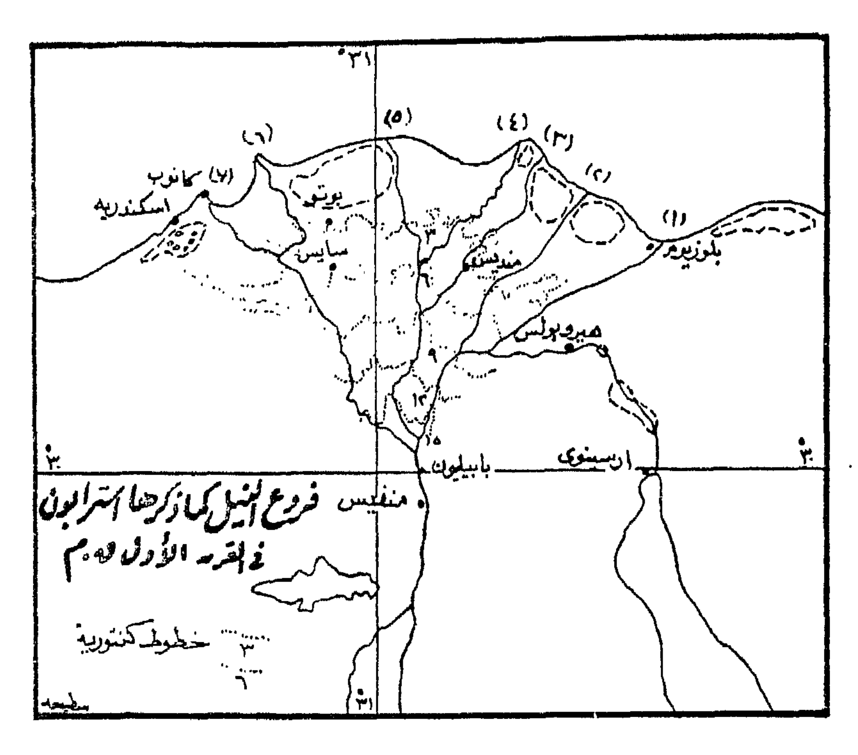
(١) راجع Herodotus ' Tke Histories. London 1954 , pp' 208 - 232



(شكل ٣٦)

النظر اختفاء معظم الافرع القديمة وأن الاجزاء الشمالية من فرعي دمياط ورشيد كانت غير طبيعية كما زعم هيرودوت، كذلك نجد أن نقطة التفرع القديمة انتقلت شمالاً إلى القناطر الخيرية (مسافة ١٥ كلم) . وإذا دققنا النظر في فرعي دمياط ورشيد نجد أنهما يتفقان في بعض أجزائهما مع الأفرع القديمة . ففرع رشيد يتفق مع الفرع الكانوبي في المسافة بين بلدة الوراق وقرية زاوية البحر التي تقع إلى الجنوب من كفر الزيات بحوالي ٢٠ كلم . ويتفق مع الفرع البولبيتي Bolbitine في المسافة بين بلدة الرحمانية والبحر . أما فرع دمياط فيتفق مع الفرع السبنيتي في المسافة بين كفر عليم وشبرا اليمن . ويتفق مع الفرع الباكولي Bucolic من شبرا اليمن إلى البحر .

وفي مخطوطة قديمة ترجع إلى القرن الرابع ق.م ليس لهـــا مؤلف معروف ولكن تعرف باسم Periplus of Scylax إشارة إلى مصبات أفرع النيل السبعة وهي من الشرق إلى الغرب : البلوزي ، التانيسي (نسبة إلى تانيس) المنديسي ، الفاتنيتي ، السبنيتي ، البولبيتي والكانوبي. وتتفق أسماء هذه المصبات مع مصبات الأفرع التي ذكرهـــا هيرودوت ما عدا مصب الفرع التانيسي (السايسي عند هيرودوت) والفاتنيتي (الباكولي عند هيرودوت) وتتفق الأسماء التي ذكرتها هذه المخطوطة مع الأسماء التي ذكرها ديودور الصقلي (القرن الأول ق . م) واسترابون (في القرن الأول ق.م) وبليني Pliny (القرن الاول الميـلادي) ولكن عند ذكر العلاقة بين فروع النيل نجد أن هناك اختلافاً بين هذه المخطوطة وبين ماذكره هيرودوت واسترابون (شكل ٣٧) فهي تشير إلى أن الفرع المنديسي يتفرع من السبنيتي والفـاتنيتي يتفرع من المنديسي والفرع التانيسي يتفرع من البلوزى . هذا في شرق الدلتا . أما في غربها فتذكر المخطوطـة أن هناك فرعاً يمتد من الكانوبي ويتجـه نحو الشرق وينتهي في بحيرة سبنيت (بحيرة البرلس) كما أن الفرع البولبيتي يمر في البحيرة ليصـل إلى البحر . ولكن يبدو أن هذه الفروع غيرت من اتجاهاتها في أيام استرابون. فمثلاً نجد أن الجزء الأعلى من الفرع السبنيتي والفرع الباكولي اللذين ذكرهما هيرودوت أصبحا يكونان الفرع الفاتنيتي phatnitic أيام استرابون. كما أن هذا الفرع أصبح يتفرع من الفرع البلوزي عند نقطة تبعد إلى الشمال قليلاً من رأس الدلتا الحالية عند قرية كوم أشفين بعد أن كان يتفرع قرب بلدة الوراق الحالية. كذلـك نلحظ أن الجزء الادنى من الفرع السبنيتي أيام هيرودوت غير اتجاهـه وأصبح يسير في اتجاه بحر شبين وبحر تيرة الحاليين ولكنه ينتهي عند مصبه القديم (عند بلدة البرج) إلى الشرق من بلطيم. كما أن الفرع السايسي الذي ذكره هيرودوت والذي سماه استرابون التانيسي ربما غير مكان تفرعه فأصبح يأخذ من الفرع البلوزي بعد أن كان يأخذ من الفرع السبنيتي وأصبحت نقطـة الابتداء عند تل بسطة أي قرب مدينة الزقازيق الحاليـة .



(شكل ٣٧)

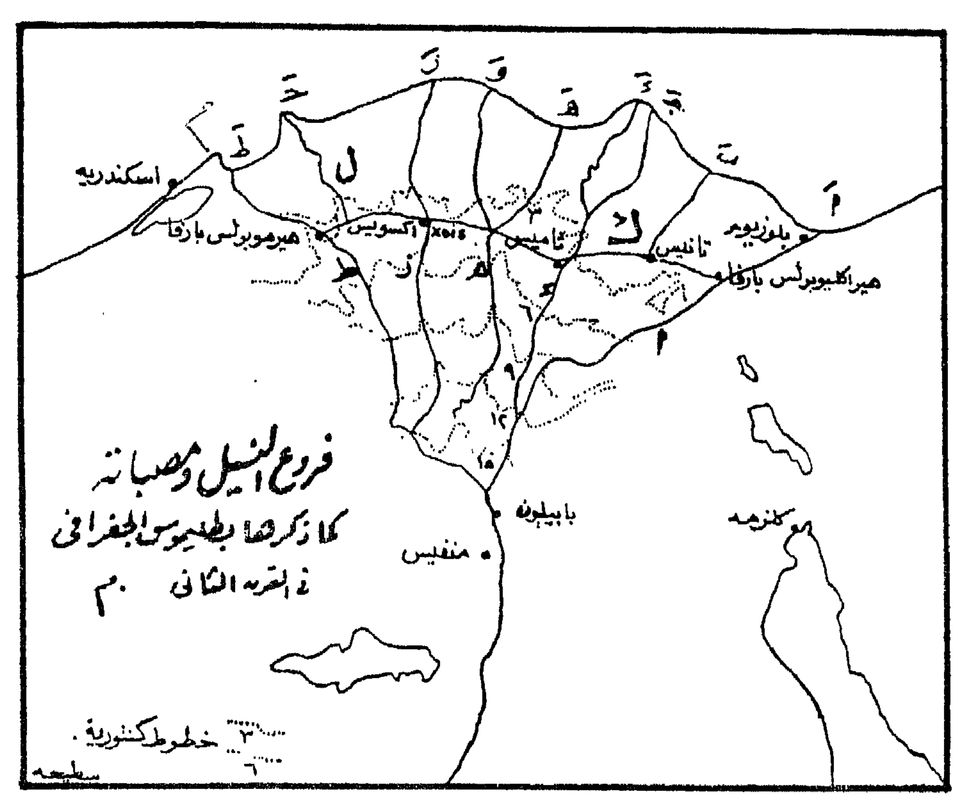
١ ـ الفرع البلوزي . ٢ ـ الفرع التانيسي . ٣ ـ الفرع المنديسي .
٤ ـ الفرع الفاتنيتي . ٥ ـ الفرع السبنيتي . ٦ الفرع البولبيتي .
٧ ـ الفرع الكانوبي .

وفي القرن الثاني الميلادي أشار بطليموس الجغرافي في كتابه المسمى «الجغرافية» إلى أفرع النيل ولكنه سماها بأسماء جديدة غير التي ذكرها استرابون وبليني كما أن مصباتها لها أسماء مختلفة عن أسماء الفروع أو « الانهار » [١] . (شكل ٣٨) ويلاحظ أن ثلاثة من الافرع التي ذكرها بطليموس تتفق في

---

(١) Daressy, G' Les Grandes villes d' Egypte, Revue Archeologique vol. VI , 1844 .

اتجاهاتها مع ثلاثة من الافرع التي ذكرها هيردوت فأجاثوداعون Agathodaemon هو الكانوبي والبوباسطي هو البلوزى وتالي هو البولبيتي . (راجع شكلي ٣٦ و ٣٧) أما الستة « أنهار » الاخرى التي ذكرها بطليموس فتختلف في اتجاهاتها



(شكل ٣٨)

المصبات : اَ ــ المصب البلوزي بَ ــ المصب التانيسي حَ ــ المصب المنديسي
دَ ــ المصب الفاتنيتي هَ ــ المصب الديلقي (غير طبيعي)
وَ المصب البينتيمي pinetimi (غير طبيعي)
زَ ــ المصب السبنيتي حَ ــ المصب البولبيتي طَ ــ المصب الهيرقلى

الافرع : ا ــ البوباستي د ــ البوصيري هـ ــ الاتريبي ز ــ السبنيتي ك ــ البوتي
ل ــ تالي ط ــ الهيرقلي م ــ أجاثوديمون .

عما ذكره من سبقه من الكتاب فاصبح هناك فرعان يتجهان من الشمال إلى الجنوب ويتفقان في بعض أجزائها مع بحر شبين وترعة الجعفرية وترعة القاصد. واضمحل الفرع التانيسي والمنديسي فأصبحا قصيرين ويأخذان من الفرع البوتي الذي كان يخترق الدلتا من الشرق إلى الغرب ويربط الكانوبي بالبلوزي . وينفرد بطليموس بذكر الفرع البوتي وكان يبدأ من دمنهور الحالية Hermopolis Parva ويتجه نحو الشرق ماراً بسخا الحاليـة xois وتمى الأمديد Thmuis (في شمال السمبلاوين) وصان الحجر الحالية في محافظة الشرقية وينتهي في الشرق حيث يتصل بالفرع البلوزي أو الفرع البوباسطي كما سماه بطليموس عند قرية كوم دفنـة . ويرجح أن هذا الفرع غير طبيعي وشق لتحسين ري أراضي الحياض في الجنوب

وقبل دخول العرب مصر بحوالي ٣٥ سنـة كتب جورج القبرصي George of Cyprus كتابا وصف فيه العالم الروماني وأشار إلى أفرع النيـل ومصباتها ولكن أسماء المصبات مختلفة عما ذكره بطليموس واسترابون وإن كانت مواقع ستة منها تتفق مع تلك التي ذكرها استرابون وبطليموس. والمصب الجديد الذي ذكره هو مصب الإسكندرية وهو نهاية فرع الإسكندرية الذي كان يأخذ من الفرع الكانوبي ويتفق في بعض أجزائه مع ترعة المحمودية الحالية .ومما هو جدير بالملاحظة أن جورج لم يشر إلى أي فرع يقع شرق الفرع التانيسي، ومعنى ذلك أن الفرع البلوزي كان قد اختفى قبل بداية القرن السابع الميلادي .

أفرع النيل أيام العرب :

وقد ترك لنا الكتاب العرب معلومات كثيرةعن أفرع النيل ولكنها للأسف متضاربة وتحتاج إلى دراسة دقيقةقبل رسم صورة صحيحة لتطور أفرع النيل في العصور الوسطى،ومن الكتاب الذين كتبوا عن أفرع النيل ابن عبد الحكم وابن

خرداذبة وابن سرابيون (القرن التاسع م) ، واليعقوبي والمسعودي وابن حوقل (القرن العاشر م) والإدريسي (القرن الثامن عشر م) وأبو الفدا والقلقشندي (القرن الرابع عشر م) والمقريزي والزاهري (القرن الخامس عشر م) .

ومن دراسة ما كتب في هذا الموضوع منذ دخول العرب مصر حتى الآن وما كتبه الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر بعد ذلك يتبين لنا أن فرعي رشيد ودمياط ظهرا بشكلهما الحالي حوالي القرن العاشر الميلادي، ظهرا كفرعين رئيسيين بينما أخذت بقية الفروع في الاضمحلال . هذه الأفرع التي أخذت في الاضمحلال هي الفرع المنديسي القديم وقد أصبح يسمى بالبحر الصغير وينتهي في بحيرة المنزلة والفرع التانيسي الذي أصبح يسمى فرع تانيس ويتفق الآن في بعض أجزائه مع بحر حادوس . أما الفرع البلوزي فقد اختفى كما ذكرنا قبل القرن السابع الميلادي وفي وسط الدلتا نجد أن الفروع القديمة التي كانت تتفرع من رأس الدلتا وتجري نحو الساحل لتصب في البحر أو بحيرة البرلس (نستروه) غيرت مجاريها وابتعدت مخارجها عن رأس الدلتا ولم تنته عند الساحل الشمالي بل عند نقط على فرع رشيد ودمياط (شكل ٣٩) . من هذه الأفرع فرع مليج الذي يتفق مع بحر شبين الحالي في جزء منه وفرع سخا الذي يتفق في بعض أجزائه مع ترعة القاصد والجعفرية الحاليتين وفرع إبيار ويتفق في بعض أجزائه من ترعة الباجورية الحالية .

وفي غرب الدلتا كان يوجد فرع الاسكندرية (وهو يتفق في بعض أجزائه مع الفرع الكانوبي) وفرع الاسكندرية القديم اللذين ذكرهما جورج القبرصي. وربما اتفق في بعض مجراه مع اجزاء من مجرى ترعتي المحمودية ودياب الحاليتين . ويمكن القول أنه لم يزد عدد مصبات النيل في البحر في أية فترة خلال العهد العربي على ثلاثة بعد أن كان تسعة أيام بطليموس الجغرافي (القرن الثاني الميلادي) . ولا ننسى أن نشير إلى أن بحر يوسف الحالي فرع من فروع النيل القديمة ينتهي

مصر السفلى

فروع الدلتا قبل القرنين ١٠، ١٢م

حدود الارض الزراعية قبل القرنين ١٠، ١٢م

٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ كم

(شكل ٣٩)

الآن في بركة قارون . وقد تقهقر مجراه نحو الشرق خلال نحو ١٥٠٠ سنة وهي الفترة التي وقعت بين ١٨٥٠ ق.م ودخول الاسكندر مصر . ولكن البطالمة استطاعوا زحزحته غرباً [١] ثم غيرت العرب مكان تفرعه من النيل أكثر من مرة كما أخبرنا النابلسي [٢] .

تغير موقع رأس الدلتا :

ولم يكن رأس الدلتا ثابتاً خلال آلاف السنين التي انقضت منذ أن بدأ التاريخ المصري . كان خلال جزء كبير من العهد الفرعوني يمتد قرب منف [٣] . ثم أخذ على مدى القرون يتراجع ببطء شديد نحو الشمال حتى بلغ موضع بلدة الوراق الحالية في القرن الخامس قبل الميلاد [٤] . وقد استمر تراجعه بعد ذلك في نفس الاتجاه حتى توقف تقريباً في القرن السابع الميلادي . ولكن لم يلبث أن أخذ يتقدم نحو الجنوب عدة قرون ثم بدأ يتراجع نحو الشمال مرة ثانية في القرن الثالث عشر . ولم يأت القرن الخامس عشر حتى كان مكان تفرع النيل عند بلدة شطانوف الحالية ثم بدأت مرحلة في تطور رأس الدلتا منذ هذا التاريخ. فقد أخذ يتقدم نحو الجنوب حتى قام الانسان في السنين الأخيرة ببناء جدار من الحجر

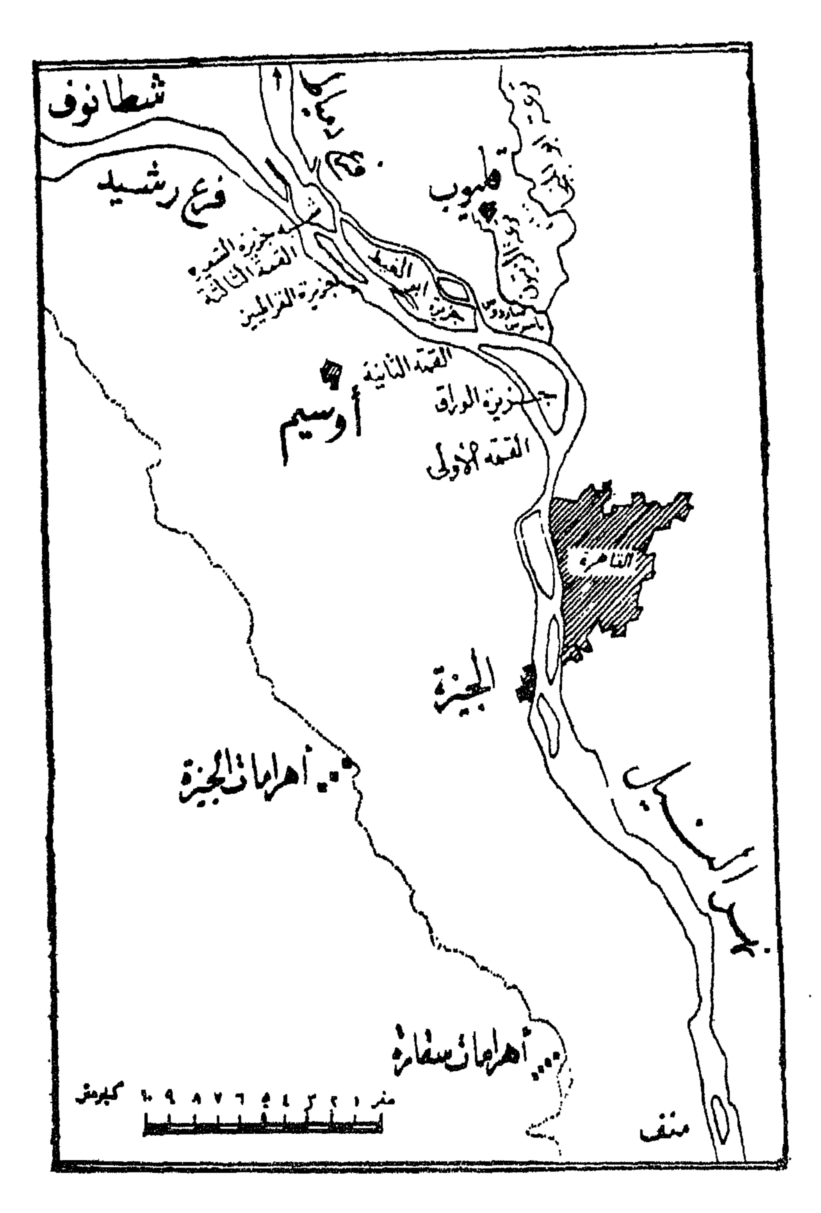
---

(١) Butzer, K. Remarks on the Geography of Settlement in the Nile Valley Dusing Hellenistic Times. Bull. Soc. Goeg. d'Egypte T. 33, 1960, p. 14 - 16

(٢) النابلسي - أبو عثمان - تاريخ الفيوم - القاهرة ص ١٤ - ١٧ .

(٣) Clerget, M. Le Caire. Le Caire 1934, t. I. p. 14.

(٤) Ibid. p. 12.



(شكل ٤٠) مواضع رؤوس الدلتا الثلاثة في العصر التاريخي

يحيط بـــه ويثبته في مكانه . ويمثل رأس الدلتا الآن الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الشعير ويوضح شكل (٤٠) مواضع رؤوس الدلتا خلال العصر التاريخي.

التغيرات في المجرى :

هذا فيما يختص بتطور أفرع النيل ورأس الدلتا . أما التغيرات التي حدثت في المجرى الرئيسي خلال العصور التاريخية فتتلخص في تآكل شاطىء بفعـــل التعرية النهرية ونمو شاطىء آخر بفعل الإرساب النهري وفي ظهور جزر نيليـــة واختفاء أخرى . ونعتمد في هذه الدراسة على الأبحاث الأثرية وعلى ما ذكره الكتاب والرحالة بشأن مواقع مدن الوجه القبلي وقراه بالنسبة لشاطىء النهر . فقد تبين أن النيل غير مجـــراه في مصر الوسطى تدريجيـــاً خلال الألف الأخيرة ق.م فتحرك شرقاً حتى صار في العصر الروماني بعيداً عن شاطئه الغربي الأصلي بنحو ٣,٦كم عند منف وبني سويف وبنحو ٢,٥كم عند المنيا وبنحو ٦كم في منتصف المسافة بين المينا وأسيوط [١] .

التغيرات في المجرى عند القاهرة :

سنكتفي في هذا البحث بدراسة التغيرات التي أصابت المجرى الرئيسي عند القاهرة منذ دخول العرب مصر . في هذا الجزء من النيل أدى الإرساب النهري (وقد زاد كما ألمحنا في العصر الاسلامي) إلى ظهور أرض جديدة على الضفة الشرقية تمتد إلى الشمال من مصر القديمة وتنتهي عند اتصال ترعة الاسماعيلية الحـــالية بالنيل . ويبلغ متوسط عرض هـــذه الأرض حوالي كيلومتر. وعلى الضفة الغربية في مقابلة جزيرتي الروضة والجزيرة ظهرت أيضاً أراض جديدة ولكنها

---

(١) Butzer (1960) p. 27.

أضيق من تلك التي ظهرت في الشرق . في أول الأمر كانت تظهر الجزر في النهر ثم يبدأ المجرى الضيق الذي يفصل الجزيرة عن الشاطىء في الامتلاء بالرواسب وبعد مدة نجده يردم بالرمال والطين من الجانبين ويكون بركة لا يصلها ماء النهر إلا في الفيضان ثم بالتدريج تجف هذه البركة بسبب البخر وارتفاع مستواها بسبب الارساب النهري . وهكذا تتصل الأراضي الجديدة بالقديمة .

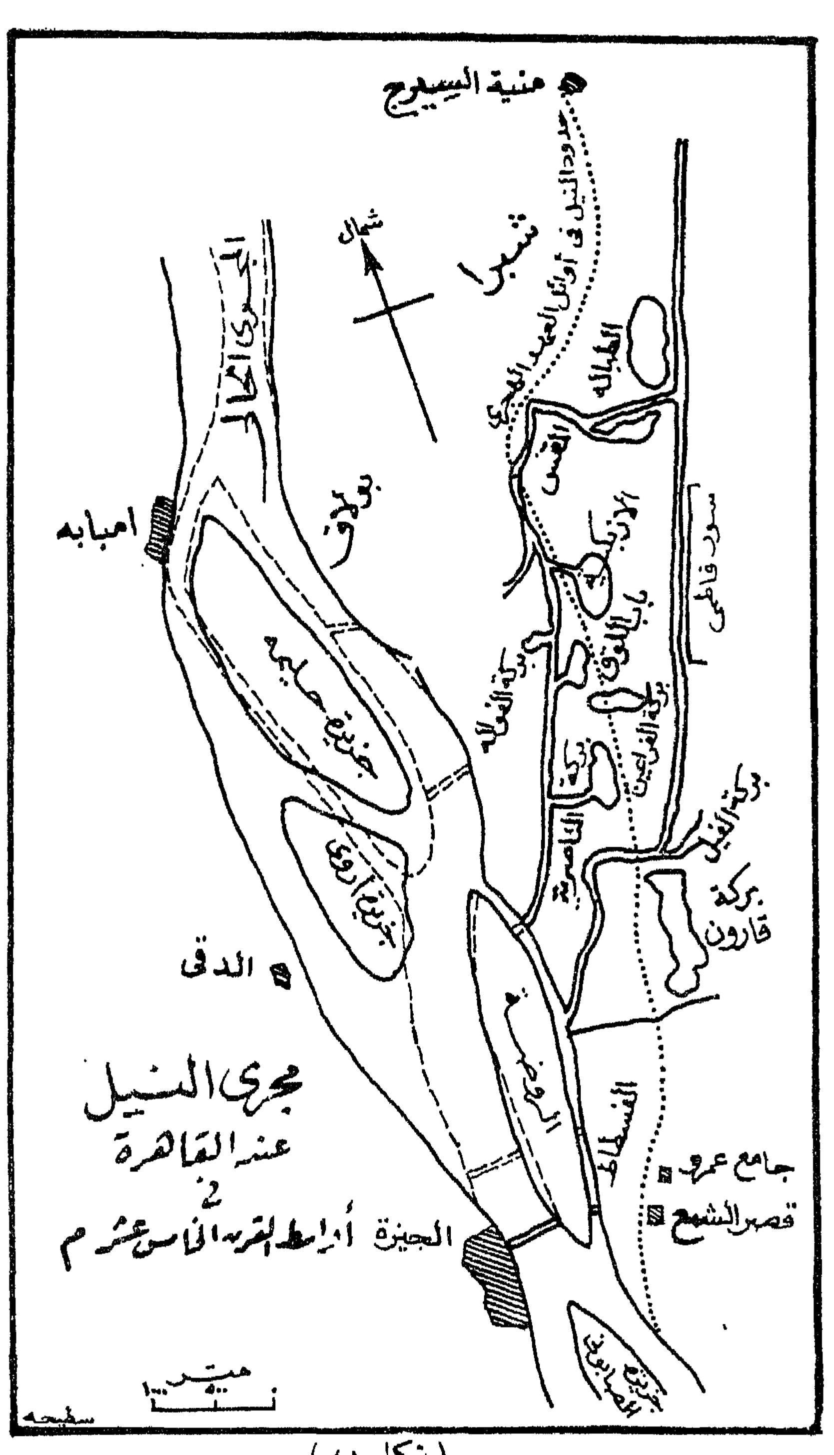
الجزر عند القاهرة :

ومن أشهر الجزر التي ظهرت وصارت فيما بعد جزءاً من بر القاهرة جزيرتا « بولاق » و« الفيل » أما جزيرة بولاق فقد ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر م وانشئت بها البساتين في العهد الأيوبي من أشهرها بستان عرف ببستان الفاضل « كان يمير القاهرة من ثماره وأعنابه »[1] . وظهرت جزيرة الفيل (يقوم على أرضها حي شبرا الآن) إلى الجنوب قليلاً من منية السيرج في أوائل حكم الأيوبيين ثم أخذت تكبر وتمتد شمالاً وجنوباً حتى اتصلت بجزيرة بولاق في الجنوب وامتدت شمالاً إلى موضع اتصال ترعة الاسماعيلية الحالية بالنيل . وما لبث أن أقيمت على أرضها القصور وأنشئت البساتين . وقد تحدث المقريزي عن نشأة هذه الجزيرة وتطورها بشيء من الاسهاب وفيما يلي بعض ما قاله :

« جزيرة الفيل هي الآن (منتصف القرن الخامس عشر م) بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة وتتصل بمنية السيرج من بحريها ويمر النيل من غربيها وبها جامع وسوق كبير وعدة بساتين جليلة . وموضعها كله مما كان غامراً بالماء في الدولة الفاطمية . فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف « بالفيل » وترك في مكانه فربا عليه الرمال وانطرد عنه الماء فصارت جزيرة فيما بين المنية

---

(١) المقريزي ـ الخطط ـ الجزء الثاني ص ١٥٤



مجرى النيل
عند القاهرة
في
أواسط القرن الخامس عشر م
منية السيرج
شبرا
شمال
حدود النيل في أوائل العهد العربي
المجرى الحالي
امبابه
بولاق
الدقى
الجيزة
الطبالة
المقس
الأزبكية
باب اللوق
سور فاطمى
بركة الفيل
بركة قارون
الروضة
الفسطاط
جامع عمرو
قصر الشمع
متر
١٠٠٠

(شكل ٤١)

وأرض الطبالة سماها النـاس الفيل ... وما برحت هذه الجزيرة تتسع إلى أن زرعت في أيام صلاح الدين ... وكثرت أطيانهـا بانحسار النيل عنها في كل سنة وغرس الناس بها الغروس ... وسكن الناس من المزارعين هناك» ويستطرد المقريزي فيقول «فلما كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ... وانحسر النيل عن جانب المقس الغربي وصار ما هنالك رمالاً متصلة من بحريها بجزيرة الفيل المذكورة ومن قبليها بأرض اللوق، افتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر فعمروا تلك الرمـال في المواضع التي تعرف اليوم ببولاق خارج المقس وأنشأوا بجزيرة الفيل البساتين والقصور . ولم يبق مكان بغير عمارة وصار فيها ما ينيف على ١٥٠ بستاناً»[١].

وقد حدثنا المقريزي عن جهود السلاطين لوقف هذا التغير في مجرى النهر بعمل الجسور ولكن دون جدوى فقد ظل الشاطىء الشرقي من النهر يتقـدم ويتسع وكان على القاهرة أن تتقـدم بمبانيها وبساتينها نحو النهر ويمثل شكل (٤١) خريطة للنيل عند القاهرة موضحا عليها المجرى القديم عند دخول العرب مصر في سنة ٦٤١ م والجزر التي كانت بالنهر في القرن الخامس عشر وأيضـاً حدود المجرى الحالي . ويظهر من الخريطة أن الشاطىء الغربي طرأ عليه بعض التغيرات البسيطة بينما تقدم الشاطىء الشرقي بمصر القديمة والقاهرة نحو الغرب لمسافة كبيرة . وإذا تتبعنا الشاطىء الشرقي القديم عند دخول العرب مصر نجد أنه كان يمر بناحية أثر النبي جنوبي مصر القديمة ثم يسير إلى الشمال بجوار شارع أثر النبي إلى أن يتلاقى بسكة حديد حلوان عند محطة المدابغ فيسير النيل بجوار هـذه السكة إلى أن يتقابل بشارع ماري جرجس فيسير ماراً بقصر الشمع «الكنيسة المعلقة بمصر القديمة» فجامع عمرو ثم يسير محاذياً شارع سيدي حسن الأنور

---

(١) المقريزي ـ الخطط : الجزء الثالث ص ٣٠٢

إلى نهايته ثم يتجـــه شمالاً ماراً بعدة شوارع حتى يصل إلى شارع محمد فريد ويستمر إلى نهايته ثم ينعطف النهر مائلاً إلى الشرق ويسير بجوار شارع الجيش حتى يصل إلى ميدان رمسيس (باب الحديد) فشارع غمرة ثم يسير بعد ذلك شمالاً محاذياً لخط السكة الحديدية بـين مصر والاسكندرية ثم ينحني قليلاً نحو الغرب حتى يتقابل مع مجراه الحالي عند مخرج ترعة الاسماعيلية .

ومن الخارطة يتبين أن جزيرة الروضة كانت موجودة قبل فتح العرب لمصر وكانت هي وحصن بابليون يكونان جزءاً من النظام الدفاعي عن المنطقة ولم تتغير حدودها كثيراً منذ القرن السابع الميلادي ، أما جزيرة حليمة فهي النواة التي نمت حولها « الجزيرة » وقد ظهرت كما أخبرنا المقريزي في النصف الأول من القرن الرابع عشر (سنة ١٣٣٢ م) [١] . وارتفع ثمن الأراضي بها كثيراً . يقول هـــذا الكاتب « هذه الجزيرة خرجت في سنة ٧٤٧ هـ » ما بين بولاق والجزيرة الوسطى « جزيرة أروى » سمتها العامة بحليمة ونصبوا فيها عـــدة أخصاص وكان فيها من هذه الأخصاص عدة وافرة وزرع حول كل خص من المقاتي وغيرها ــ وتردد إلى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة ألا يثبت بها أحد . وبلغ أجرة كل قصبة في هذه الجزيرة مبلغ ٢٠ درهماً فوقف الفدان بمبلغ ٨٠٠٠ درهم ، وكان الانتفاع بها ستة أشهر فقط ، فعلى ذلك يكون الفدان بمبلغ ١٦٠٠٠ درهم [٢] . وظهر إلى الجنوب في جزيرة حليمـة جزيرة تعرف بجزيرة أروى أو الجزيرة الوسطى ويظهر من الخريطة أنها اتصلت فيما بعـــد بالشاطىء الغربي وأصبحت جزءاً منه .

---

(١) المقريزي ـ « الخطط » الجزء الثالث ص ٣٠٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ـ نفس الصفحة .

يقول المقريزي « هذه الجزيرة تعرف بالجزيرة الوسطى لأنها فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الجيزة لم ينحسر عنها الماء إلا بعد سنة ٧٠٠ هـ (حوالي ١٣٠٠ م) . وبنى فيها الناس الدور والأسواق والجامع والطاحون والفرن وغرسوا فيهـــا البساتين وحفروا الآبار وصارت من أحسن متنزهات مصر يحف بها الماء. ولكن يبدو أن اتصالها بالبر الغربي جاء بعد القرن الخامس عشر الميلادي . فليس في كلام المقريزي ما يدل على أنها اتصلت بالبر الغربي على أيامه .

الفصل الرابع عشر

أرض مصر

مصر هبة النيل بقدر ما هي هبة الانسان . فقد خلق النيل مصر ولكن الإنسان هو الذي عدلها وهذبها وحضرها حتى صارت على ما هي عليه . وبدأ عمله هذا قبل أن يبدأ التاريخ فطهر الوادي من الآجام وجفف المستنقعات وحفر الترع وأقام الجسور وأنشأ المحلات على طول عمود النهر وفروعه وقنواته . ومنذ هذا التاريخ لم تنضب خصوبة الأرض فقد تكفل النهر بتجديدها عاماً بعد عام. وظلت كما عرفها الأجداد الأرض الطيبة .

وكانت مساحة الأرض المزروعة في الدلتا والوادي تحت نظام ري الحياض تتغير من سنة إلى أخرى ومن عصر إلى عصر . فمساحة الزراعات الشتوية كانت تتوقف أولاً وقبل كل شيء على ارتفاع منسوب الفيضان ثم على مقدار العناية بتطهير الترع والمحافظة على الجسور . ففي سنة من السنين قد تروى كل الأرض القابلة للزراعة وفي سنة أخرى قد لا يروى إلا ربع الأرض . ويتسبب عن ذلك المجاعات وهلاك الناس والحيوان . ويمكن القول أنه في اغلب السنين كان من الصعب غمر الأراضي البعيدة عن النهر القريبة من حافة الصحراء بمياه الفيضان فتترك كمراع ، وكذلك الأراضي العالية المكونة لجسور النهر، وإن كان يستفاد بأجزاء منها في زراعة المحاصيل الصيفية كقصب السكر والذرة الرفيعة .

تغير المساحة من عصر لعصر :

أما تغير المساحة من عصر إلى عصر فكان مرتبطاً بمدى اهتمام الحكومة

بأمور الري واستصلاح الأرض وعدالة نظامها الضرائبي ومعتمداً على قدرتها على حفظ الأمن ومنع الفوضى والاضطراب . ثم أخيراً على عدد السكان القائمين بالزراعة . إلى جانب هذه العوامل البشرية كانت هناك حركات التوازن الساحلية وما أدت إليه في رأي بعض العلماء من ارتفاع مستوى الماء الباطني وصعوبة تصريف الماء السطحي مما ساعد على بوار الأرض الزراعية في النهاية . وسنرجع إلى هذا الموضوع بعد قليل . وتجدر الإشارة إلى أن مساحة الأرض التي يمكن استصلاحها إما بغسلها من الأملاح أو توصيل ماء الري لها أو إزاحة الرمال عنها وتلك التى كانت تزرع فعلاً لم تتغير كثيراً في مجموعها خلال التاريخ . الذي كان يتغير بشكل واضح هو مساحة الأرض المزروعة . ومن الصعب وضع تقديرات لمساحة الأرض الزراعية خلال العصور المختلفة . ولكن يمكن القول أنه قبل القرن العاشر الميلادي وقبل اضمحلال شمال الدلتا كانت مساحة الأرض في فترات الازدهار والقوة في العهدين الفرعوني والإغريقي الروماني تبلغ نحو ٦ مليون فدان . وإذا أخذنا في اعتبارنا أن انخفاض مستوى سطح البحر المتوسط بلغ أقصاه في نحو ٥٠٠ ق.م فإنه يمكن تفسير استغلال شمال الدلتا في أواخر عهد الأسرات المصرية وفي العهد الاغريقي الروماني . فقد كان صرف الماء الزائد يتم بصورة طبيعة وكذلك يمكن تفسير اتساع الرقعة الزراعية بعد أن اتسع اليابس على حساب البحر .

ولكن منذ القرن الثاني للميلاد بدأ مستوى سطح البحر في الارتفاع وبدأت المستنقعات الشمالية في الاتساع وأخذت أرض شمال الدلتا تفقد خصوبتها حتى بارت في القرن العاشر الميلادي كما سنشير فيما بعد . وعليه فيمكن القول أن أرض مصر الزراعيـة انكمشت في العصر العربي وخاصة بعد هذا التاريخ بنحو مليون فدان وربما اشتد في عهود الفوضى والاضطراب . وبالرغم من إحاطة الصحارى بوادي النيل ، فلم تطغ الرمال السافية إلا على مساحات محدودة من الأرض الزراعية القريبة من الصحراء .

فبعد أن اشتد الجفاف في أواخر الألف الثالثة ق.م غزت الكثبان الرملية مصر الوسطى من جهة الصحراء الغربية وغطت رمالها بعمق كبير قسماً من الأرض الزراعية يبلغ طوله ١٧٥ كم ويتراوح عرضه بين ½ - ٣½ كم وربما سهل هذا الغزو ضعف الإرساب النهري وتقهقر بحر يوسف جهة الشرق(١) وقد قام البطالمة بإزاحة هذه الرمال غرباً وزحزحة بعض مجرى بحر يوسف في نفس الاتجاه ثم زرعوا الأرض الجديدة(٢) .

التربة المصرية :

وقد ساعد تغير أفرع النيـــل على تنوع التربة في الدلتا وظهور اختلافات كنتورية في سطحها . وساعد نظام ري الحياض على ازدياد سمك التربة عاماً بعد عام بفضل ما يرسب عليهـــا من غرين وقت الفيضان . وقد قدر كل من بول J. Ball (١٩٥٢) وبوتسر Butzer (١٩٥٩) أن معدل الزيادة السنوي في سمك التربة بنحو مليمتر واحد في السنة وذلك قبل انتشار مشاريع الري الحديثة . وإذا علمنا أن التاريخ المصرى بدأ في ٣٤٠٠ ق.م أو نحو ذلك فإن سمك أرض مصر الزراعية يكون قد زاد بنحو خمسة أمتار في المتوسط حتى نهاية القرن الثامن عشر . لكن الطمي لم يكن يرسب بدرجة واحدة في كل مكان وإن كان في الدلتا أسرع منه في الصعيد كما أنه ترسب أصلاً على أرض لم تكن مستوية . لذلك فإن سمك الأرض السوداء في مصر يختلف من مكان إلى آخر فهو ١١,٢ متر في شمال الدلتا ، ٨½ متر في جنوبها ، ٩,٧ متر في المسافة بـين القاهرة والمنيا ، ٨½ متر في المسافة بين المنيا وقنا ونحو ٦,٧ متر فيما بين قنا وأسوان . والتربة

---

(١) Butzer (1959) p. 61

(٢) — (1960) p. 16

مع ذلك فقيرة في النيتروجين والبوتاس لذلك كان الفلاح يقوم بتسميدها إذا ما قام بزراعتها بمحصول من المحاصيل الصيفية . ففي جنوب الوادي كان السماد نوعاً من الطفل يحوي نسبة صغيرة من النترات ويحصل عليه قريباً من حافتي الهضبة الشرقية والغربية أما في الدلتا فكان السماد يستمد إما من خرائب المدن والقرى (السماد الكفري) أو من حظائر الماشية وأبراج الحمام[1].

ملكية الأرض :

لم تكن أرض مصر ملكاً للذين يزرعونها إلا لفترات قصيرة من التاريخ . كانت ملكاً للحاكم والأمراء ورجال الدين والجيش والمقربين . أما الفلاحون فكانوا رقيق الأرض يزرعونها لسادتهم ويؤدون ما عليهم من ضرائب .قدتكون عينية أو نقوداً نظير انتفاعهم بها . ففرعون كان مالك كل شيء الأرض وما تنتجه بل ومن يفلحونها من شعبه،كان هو مصر .وكان على كل من الفلاح والصانع أن يعمل ويشقى من أجل فرعون ابن الإله على الأرض ويرضى بما يتركه لهجباة الضرائب . وتكرر ما يشبه ذلك أيام البطالة فقد كان الملك هو نظرياً صاحب الارض كلها وكان الفلاحون مستأجرين عنده بإيجارات غير ملزمة من جانبه، وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا عبيداً بالمعنى الحقيقي إلا أنه لم يكن في مقدورهم هجر الارض وقت الزراعة .بل إنهم كانوا معرضين في بعض الاحيان إلى التهجير الاجباري لاستصلاح الارض على أطراف الدلتا والوادي .

إلى جانب الاراضي الملكية أيام البطالة كانت هناك أرض المعابد تديرها الحكومة لصالح رجال الدين والارض المهداة إلى العسكريين Kleroi أو إلى

---

(١) Hardy, E. The Large Estate of Byzantine Egypt. N. Y. 1931, Chap. I.

كبار الموظفين Doréai وكان يسمح للعسكريين بأن يورثوا أرضهم . وأخيراً ملكيات خاصة صغيرة تصلح فقط لزراعة الخضر والفواكه وتؤجر لمنتفعين يورثون هذا الحق لابنائهم من بعدهم . واحتفظت ملكية الارض بطابعها القديم أيام الرومان مع بعض تعديلات . فالارض الجيدة ظلت ملكية وضم جزء من أملاك المعابد إلى الدولة . أما المزارع التي نمت من الهبات التي قدمها البطالمة للمقربين فقد دخلت هي الاخرى ضمن أملاك الدولة الخاصة يديرها موظف حكومي. ولكن أرض رجال الجيش صارت ملكاً خاصاً لهم وقد تميز العصر الروماني على أية حال باتساع الملكية الخاصة بسبب بيع الدولة لبعض أملاكها . وقد زادت رغبة الدولة في تمليك بعض الأرض للشعب في أيام البيزنطيين .

ولم يغير العرب النظام الذي وجدوه قائماً أيام البيزنطيين وظل الخراج يجبى من الفلاحين حتى أيام الدولة الفاطمية ومنه تصرف أعطية الجند ومخصصات الخلفاء ورواتب الولاة وموظفي الدولة . فما زاد عن ذلك من مـــال الخراج أودع بيت المال. ومنذ عهد الدولة الأيوبية حل نظام الاقطاع في مصر محـــل نظام الأعطية . فكان الخليفة أو السلطان يقطع من يريد اقطاعاً من الارض ويقرر على من أقطعت له شيئاً يؤديه لبيت المال في كل سنة . وتحت هذا النظام كان الخراج يقسم ٢٤ قيراطاً للسلطان منها ٤ ولرجال الجيش ١٠ وللمقربين ١٠[١] . وعلى أيام العثمانية طبق نظام الالتزام وفيه يقوم الملتزم بتأدية مبلغ متفق عليه للدولة ويقوم هو بجباية الضرائب من الفلاحين كما يشاء . ثم جـاء محمد علي فألغى نظام الالتزام وصار صاحب كل أرض مصر . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بدأت الملكية الخاصة تعود كنظام وإن كانت غالبية الفلاحين لم تحظ إلا بجزء يسير من الارض وقد قضي على الاقطاع واعيد توزيع الارض بعد قيام ثورة ١٩٥٢ .

---

(١) المقريزي كتاب السلوك ـ القاهرة ١٩٤٠ جزء أول ص ١٤٦ وما بعدها .

وكانت ضريبة الارض تتفاوت من عصر لآخر ومن إقليم لآخر وكثيراً ما كانت فداحة الضرائب سبباً في هجر الأرض. فتحدثنا أوراق البردى التي تعود إلى العهد البيزنطي أن الفلاحين كانوا يهربون من الريف الى المدن بسبب فداحة الضرائب [١] . ويذكر المقريزي أنه في العهد المملوكي هجر كثير من الفلاحين الأرض هرباً من دفع الضرائب ومنهم من نزح إلى المدن ومنهم من ترك مصر كلية إلى بلاد الشام [٢]. وقد تكررت نفس هذه الظاهرة أيام محمد علي [٣] .

وكانت العادة في كل سنة أن يخرج موظفو الحكومة إلى الحقول بعد انحسار مياه النيل لتقدير مساحة الأرض التي غمرتها مياه الفيضان والتي لم تغمرها وعلى هذا الأساس كانت تفرض الضرائب ويقدر خراج الأرض. وكانت ضريبة الأرض هي المصدر الأساسي لدخل مصر . وقد عرف المصريون منذ فجر التاريخ كيف يقيسون الأرض ويحسبون مساحتها وكانت لهم مقاييس اختلفت من عصر إلى آخر [٤] . وقد دعت الحاجة في أول الأمر إلى هذه المعرفة فزيادة مساحة الأرض بسبب الارساب النهري ونقص مساحتها بفعل نحت المياه في العصور المختلفه والرغبة في معرفة مساحة الأرض التي يشملها الفيضان دفعت إلى الاهتمام بعلم المساحة والهندسة . واهتمت الحكومات المتعاقبة بمعرفة مساحة أراضي مصر الزراعية لتقدير خراج الأرض وتعديله إذا لزم الأمر ، فكانت أرض كل إقليم تمسح وتقدر مساحة البائر منها والعامر وتعرف غلاتها وتقدر محصولاتها وما

---

(١) Hardy, E. op. cit., Chap.

(٢) المقريزي ـ الخطط جزء أول ص ١٢٣ وما بعدها

(٣) الحتة ـ أحمد ـ تاريخ مصر الاقتصادي في القرن ١٩ القاهرة ١٩٥٨ ص ٧٧ .

(٤) راجع Ball, J. Egypt in the Classical Geographers. Cairo 1942, p. 6.

عليها من حيوانات وتسجل البلاد والقرى وما بها من أملاك ثابتة [1] . وعلى هذا الأساس تقدر ضريبة الأرض ويعدل توزيعها على الطبقة الحاكمة . وسنكتفي هنا بالإشارة إلى هذه العملية خلال العهد العربي .

اراكة الأرض :

كانت هذه العملية تعرف باراكة الأرض« والروك » كلمة محرفة عن الأصل الديموطيقي « روخ » ومعناها تقسيم الأرض . وهذه الكلمة أيضاً أصل الكلمة القبطية « روش » ومعناها قياس الأرض بالحبل . والمعروف أنه خلال العهد العربي قام الولاة والسلاطين بإراكة الأرض سبع مرات [2] . المرة الأولى والثانية في زمن الدولة الأموية في سنتي ٧١٥ ، ٧٤٣ م على الترتيب وتم الروك الثالث في زمن الخلافة العباسية سنة ٨٦٧ م . أما الرابع فيعرف بالروك الأفضلي نسبة إلى الأفضل بن أمير الجيوش وتم في عهد الآمر الفاطمي سنة ١١٠٦م تقريباً. ويعرف الروك الخامس بالروك الصلاحي نسبة إلى السلطان صلاح الدين وقد تم سنة ١١٧٦ م . والروك السادس هو الروك الحسامي نسبة الى السلطان حسام الدين لاجين وقد تم سنة ١٢٩٠م وأخيراً الروك الناصري وقام به السلطان الناصر محمد ابن قلاون وقد تم حوالي ١٣٠٧ م .

وأهم روك في هذه السبعة الروك الأخير أو الروك الناصري . وقد كتب ابن الجيعان مؤلفه المعروف باسم « التحفة السنية » عن هذا الروك وهو يحدثنا عن سبب القيام به وكيف تم فيقول : « في سنة خمس عشرة وسبعمائة اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يروك الديار المصرية.وكان سبب ذلك انه اعتبر كثيراً من أخباز وأرزاق المماليك والحاشية الذين كانوا للملك المظفر

(١) انظر De Sacy. S. Droit de propriété territorial en Egypte.

(٢) المقريزي ـ كتاب السلوك ـ الجزء الثاني ص ١٤٩ .

ركن الدين بيبرس وسائر المماليك البرجية فإذا هي ما بين ألف دينار إلى ثمانمائة دينار. وخشي من قطع أخباز المذكورين فولّد له الرأي مع القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أن يروك ديار مصر ويقرر إقطاعات مما يختار. فتقدم الفخر ناظر الجيش فعمل أوراقاً بما عليه عبر النواحي ومساحتها وعين السلطان لكل إقليم من أقاليم مصر أناساً وندب معهم كتاباً وقياسين فصاروا إلى حيث ذكر فكان كل منهم إذا نزل بأول عمله طلب مشاريخ كل بلد وقضاتها وسجلاتها التي بأيدي مقطعيها وفحص عن متحصلها من عين وغلة وأصناف ومقدار ما تحتوي عليه من الفدن ومزروعها وبورها وما عليها لمقطعيها من غلة ودجاج وخراف وبرسيم وكشك وكعك وغير ذلك من الضيافة. فإذا حرر ذلك كله ابتدأ بقياس تلك الناحية وضبط ما يظهر بالقياس الصحيح. ثم حضروا بعد ٧٥ يوماً وقد تحرر في الأوراق المحضرة حال جميع ضياع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة». وقد عرضت نتائج الروك بعد ذلك على السلطان وعلى أساسها حدد الأراضي التي تخصه والإقطاعات التي تمنح للأمراء ورجال الجيش ...

الأراضي البائرة ومشاريع الاستصلاح :

والآن نقف قليلاً عند مشكلة الأراضي البائرة في شمال الدلتا. تختلف الآراء في تفسير سبب اضمحلال هذه الأراضي وبوارها بعد أن كانت خصبة حتى أوائل العهد العربي تنتشر فيها القرى والزراعات. فيرى ولكوكس Willcocks أنه بعد دخول العرب مصر دمرت جسور الحيضان في هذه المنطقة فساء ريها وصرف مياهها فزادت نسبة الأملاح في الأرض وفقدت خصوبتها بالتدريج ثم بارت في النهاية [١]. ولا شك أن في هذا الرأي تحاملاً على العرب فليس هناك من

---

(١) Willcocks, W. Egyptian Irrigation. London 1913. vol. II, p. 83.

الأدلة ما يؤيده. وهناك رأي مس سمبل Semple التي تعتقد أن شمال الدلتا كان دائماً قليل الخصوبة خصوصاً الأجزاء القريبة من البحر وسبب ذلك قرب مستوى الماء الباطني الذي ترتفع فيه نسبة الأملاح . فالأرض هنا قليلة الارتفـاع بالنسبة لمستوى سطح البحر مما يؤدي إلى صعود الماء الكثير الأملاح إلى السطح بواسطة الخاصة الشعرية ثم يتبخر الماء ويبقى الملح . وقد زاد من هذه الحـالة وأدى إلى اتساع نطاق الأراضي البور بالتدريج صعوبة صرف ماء الفيضان بسبب انخفاض الارض وانسداد فوهات الترع التي تصب في البحر بواسطة الرمال وقد ظهر ذلك واضحاً في العهود التي عمت فيها الفوضى وقل الاهتمام بشؤون الري [1]

ويرى آخرون أن اضمحلال شمال الدلتا يرجع إلى هبوط هذا الجزء باستمرار منذ القرن الثاني بعد الميلاد [2]. وقد أدى ذلك إلى سوء الصرف واقتراب مستوى الماء الباطني من السطح وظهور الاملاح على التربة واتساع رقعة البحيرات والمستنقعات الساحلية ويؤيد هذا الرأي أدلة مادية وتاريخية. يذكر أوديبو Audebeau من الادلة المادية هبوط المقابر الرومانية في كوم الشقافة بالاسكندرية إلى مستوى الماء الباطني. وانغمار مقابر البطالمة تحت الماء في جهة الشاطىء ووجود أرصفة لميناء الإسكندرية القديم مغمورة بماء البحر إلى عمق يبلغ عدة أمتـار وغرق جزيرة انتيرودس Antirodes التي كانت تقع في الميناء الشرقي وهبوط مصب الفرع الكانوبي تحت مياه خليج أبي قير ووجود آثار قرى قديمة في بحيرتي المنزلة والبرلس انغمرت أرضها الزراعية تحت الماء واتساع مساحة سبخة البردويل . ومن الادلة

---

(١) Semple, E, The Geography of the Mediterranean Region. London 1932. p. 160.

(٢) راجع M. Audebeau, M. Essay sur l'affaissement du nord du delta Egyptien depuis l'empire Romain. Bull. Inst d'Egypte (1918 - 1919, pp. 711 . 134

وكذلك Butzer (1959) Op. cit. pp, 45 , 50

التاريخية ما ذكره المقريزي من أن مياه بحيرة المنزلة أخذت تنتشر على مساحة أوسع قبل دخول العرب مصر .

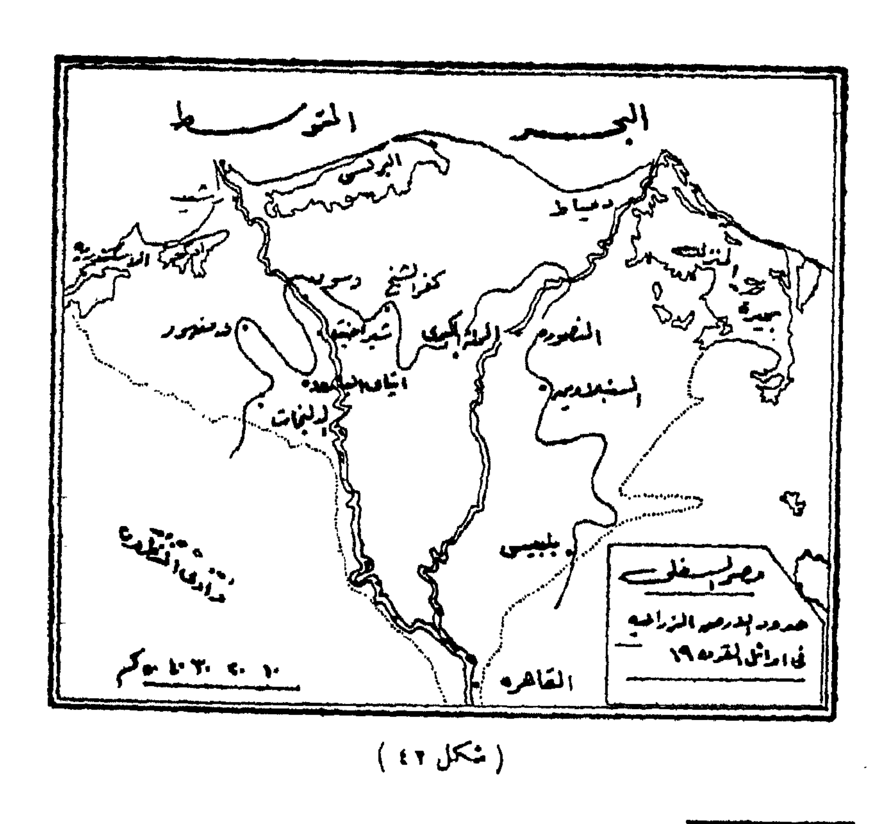
وكان هبوط الساحل تدريجياً إذ يقدر بحوالي ١٤ سم في كل قرن ويرجح أنه كان نتيجة للضغط الذي يحدثه توالي الإرساب النهري وقد سبب هذا الهبوط تغيرات كبيرة في الأجزاء الدنيا من فروع النيل وأدى الى اتساع مساحة البحيرات الشمالية . ويرجح أن هبوط الساحل كان بدرجة أكبر في غربي الدلتا منه في شرقيها . وربما فسر ذلك ارتفاع مستوى مياه الفيضان في المجرى الأوسط لفرع دمياط عن مستوى الأرض الزراعية بنحو ثلاثة أمتار بينما لا يزيد الفرق بين مستوى الأرض الزراعية ومستوى مياه الفيضان في منتصف فرع رشيد على ١,٥ متر فقط . ويفسر ايضاً سبب اضمحلال الأفرع القديمة التي كانت تأخذ من فرع دمياط وتتجه نحو الشمال الشرقي والشمال الغربي وضعف التعرية النهرية فيه ونشاطها في فرع رشيد [١] . وقد ظل الرأي القائل بهبوط ساحل الدلتا سائداً حتى ١٩٥٩ حين أثبت بوتسر أن مستوى البحر هو الذي كان يرتفع منذ القرن الميلادي الثاني وأن هذه الظاهرة هي المسؤولة عن بوار أرض الدلتا الشمالية . وقد أشرنا إلى ذلك في أكثر من مكان . أما ضعف التعرية النهرية في فرع دمياط ونشاطها في فرع رشيد فربما بسبب حركة رفع بسيطة حدثت في شرقي الدلتا .

هذا ولم يظهر أثر ارتفاع مستوى سطح البحر بشكل واضح إلا في القرن العاشر الميلادي . فيقول المخزومي الذي عاش في القرن الثاني عشر إن المساحة المحصورة بين فاقوس جهة الشرق ونهاية فرع الاسكندرية جهة الغرب كانت عامرة كلها إلى حوالي سنة ٣٥٠ من سني الهجرة ـ ٩٦١ م) وبعد هذا التاريخ حل الخراب والبوار بالجزء

---

(١) Butzer (1959) p. 58

الأكبر منها [١] . وقد أخذت حدود الأرض الزراعية تتقهقر نحو الجنوب حتى أصبحت في القرن الثامن عشر تتفق مع خط يبدأ من الغرب عند الدلنجات ثم يتجه شمالاً عند دمنهور ثم شرقاً إلى شبراخيت فدسوق فسنهور المدينة (جنوب شرقي دسوق) ثم قلين وبعد ذلـــك يتجه بشكل متعرج إلى المنصورة ومن المنصورة يتجه جنوباً إلى السنبلاوين ثم شرقاً إلى فاقوس وينتهي أخيراً بلبيس (شكل ٤٢) [٢] .



(شكل ٤٢)

(١) انظر Kamal, Y. Monumenta Cartographica, Afri. et Aegy. Epoq. Arab. part 4. p. 892.

(٢) راجع Willcocks, W. op. cit. vol. I. p. 358

إلى الشمال من هذا الخط كانت المياه الزائدة عن حاجة الجنوب تنصرف في برار ومستنقعات موحشة . وقد حاول كثير من السلاطين استصلاح مساحات منها ولكن كانت قلة الماء الصالح للشرب وسوء الصرف وندرة السكان عقبة كبيرة في سبيل استصلاح هذه المساحات [1] . ولم يبدأ استصلاح هذه الأرض بشكل جدي منظم إلا منذ أوائل القرن التاسع عشر أي بعد أن أدخل نظام الري الدائم وتوفرت المياه لغسل التربة من الأملاح وكذلك بعد أن تحسنت المواصلات . وهنا يجب أن نشير إلى أن شمال الدلتا لم يخل في يوم من الأيام من مستنقعات وأراض بائرة فهيرودوت يشير إلى ما سماه بإقليم البرازي والمستنقعات قرب الساحل . ومخطوطة سيلاكس Scylax التي سبق الإشارة اليها تشير إلى أن شمال الدلتا به كثير من البحيرات والمستنقعات . وفي القرن السادس أشار هيروكليس Hierocles إلى مديرية المستنقعات في شمال الدلتا سماها إلارشيا Elearchia . وتتشابه الدلتا في ظاهرة وجود المستنقعات في أدانيها مع كل دالات الأنهار .

وكما ذكرنا لم تقف الحكومات المتعاقبة موقفاً سلبياً أمام تدهور الزراعة في شمال الدلتا بل عمل بعض الحكام على استصلاح أراض بائرة . فنحن نقرأ عن محاولات السلاطين لإنقاذ الأرض من البوار وكانت وسيلتهم دائماً هي شق القنوات وتوصيل مياه النيل إلى هذه الجهات . ولكن لا يلبث أن يقف الماء عن الجريان في هذه القنوات لحاجتها الملحة إلى التطهير والتعميق فترجع الأمور إلى ما كانت عليه من سوء . ويحدثنا المقريزي عن المحاولات العديدة لإعادة شق ترعة الاسكندرية كلما توقفت عن الجريان بسبب كثرة الإرساب فيها ويشير إلى المنافع والمكاسب التي تصيب الزراعة والتجارة وسكان الإسكندرية كلما أعيد حفرها . ومما قاله المقريزي في هذا الشأن :

« ... وقع العمل في رجب سنة ٧١٠ هـ ، فكان فيه ٤٠ ألف رجل . فلما

---

(١) Audebeau , M . Terres du Bas Delta. Bull . Inst.Egy. Sess . 1925 - 26

فرغ بكتوت الخازندري (وهو المكلف من قبل السلطان بحفر خليج الإسكندرية) من العمل ، أنشأ الناس عليه أراضي وسواقي ... فبلغ ما أنشيء عليه زيادة على ١٠٠ ألف فدان ونحو ٦٠٠ ساقية ، ٤٠ قرية .. وسارت فيه المراكب الكبار واستغنى أهل الثغر عن خزن الماء في الصهاريج [١] .

وإذا تركنا الدلتا وانتقلنا إلى منخفض الفيوم نجد أن هذا الاقليم أصابه كثير من الإصلاح على أيدي البطالمة . ففي عهد بطليموس الأول والثاني (٣٢٣ - ٢٤٧ ق.م) جففت مساحات واسعة من بحيرة موريس القديمة بلغت ١٢٠٠ كم٢ ، وقد تطلب ذلك إقامة سد له عيون عند مدخل بحر يوسف إلى المنخفض وذلك للاسراع بعملية التجفيف [٢] وتحولت هذه الأرض إلى أراض زراعية خصبة شقت فيها القنوات ومدت فيها الجسور وقامت عليها القرى والمدن وصلنا من أسمائها ١١٤ إسماً [٣] . وقد ازدهر إقليم الفيوم أيما ازدهار في القرنين الثالث والثاني ق.م [٤] ، ثم أخذ ينكمش ويضمحل حتى بلغ أقصى درجات الاضمحلال في القرن الرابع الميلادي بسبب إهمال مشاريع الري وردم الرمال السافية لعدد من القنوات فهجر كثير من القرى والمدن . لكن يبدو أن الاقليم استعاد بعض ما فقده في العهد البيزنطي والعربي .

ومن المراجع العربية في هذا الموضوع كتاب « تاريخ الفيوم » لأبي عثمان النابلسي الذي كان حاكماً للإقليم إبان حكم الأيوبيين . يحدثنا أبو عثمان هذا عن غنى الإقليم وعن سكانه وترعه وعن اهتمام السلاطين باستغلال أرضه في زراعة

---

(١) Audebeau , Terres 1925 — 26

(١) المقريزي - كتاب السلوك الجزء الثاني ص ١١١

(٢) راجع « استرابون في مصر » لوهيب كامل

(٣) Rostovtzeff, M. The Social and Economic History of the Hellenistic World . Oxford 1941 , vol. I, PP . 8 - 19.

(٤) راجع تاريخ الفيوم للنابلسي طبعة القاهرة سنة ١٨٩٩ ص ٦ وما بعدها .

المحاصيل الصيفية كقصب السكر والأرز . ويؤكد أن الأقليم يمكن أن يكون أغنى من ذلك لو وجه الحكام اهتماماً أكبر إلى تطهير الترع وشق ترع جديدة في الجهات المهجورة قرب حافة الصحراء وشاطىء بحيرة قارون (٥) . وقد نجح البطالمة في استصلاح الأرض الهامشية التي غطتها الرمال على الضفة الغربية في مصر الوسطى لمدى ١٥٠٠ عام وقاموا بزراعتها على أيامهم وأيام الرومان. ولكن الكثبان تقدمت من جديد في العصور الوسطى وخسرت مصر مساحة تبلغ أكثر من ٣٠٠ كم٢

(٥) Butzer , K. (1960) P. 16

الفصل الخامس عشر

الري والزراعة

الري والوحدة السياسية :

النيل هو منبع الحياة في مصر وهو الذي علم المصريين الزراعة . في سهله الفيضي ودلتاه تركز السكان وعلى مائه اعتمد الانسان والحيوان والنبات . جلب النيل الماء اللازم لري النباتات. وحمل الماء الغرين الذي يجدد خصوبة الأرض كل عام. وقد أسهم النهر في قيام الحضارة الزراعية في واديه ودلتاه ولكن دور الإنسان كما أشرنا لم يكن أقل شأناً من دور النهر والمناخ والعوامل الطبيعية الأخرى. فقد حاول منذ أن نزل الوادي أن ينتفع بفيضان النهر على جوانبه في الزراعة . وبمرور الزمن اهتدى إلى عمل الجسور لحجز ماء الفيضان مدة كافية على الأرض وشق الترع لتوصيل هذا الماء إلى الأرض . وكان هذا العمل يتطلب جهوداً جبارة من جانب الجماعة ويتطلب إشرافاً دقيقاً من هيئة عليا حاكمة فقامت حكومات محلية يرأسها أمراء ثم اتحدت هذه الإمارات فيما قبل التاريخ مكونة مملكتي مصر العليا ومصر السفلى. وانتهى الأمر بالمملكتين إلى اتحاد

أول ثم اتحاد ثان على يد مينا مؤسس الأسرة الأولى المصرية [1] .

ابتدأ التاريخ المصري إذن وقد اكتمل نظام ري الحياض ووضعت أسس الزراعة . وكان نظام الحياض ملائما لظروف البيئة أحسن ملاءمة ، لذلك ظل يخدم الغرض منه أحسن خدمة طوال التاريخ بل وفيما قبل التاريخ. ولكن في القرن التاسع عشر حل محله نظام الري الدائم في الدلتا وجزء كبير من الوادي وقد استتبع ذلك تغيير شامل في مشاريع الري وفي المحاصيل وفي الدورة الزراعية وفي الإنتاج فأزيلت الجسور وانشئت القناطر والخزانات وشقت الترع والمصارف وأصبحت المحاصيل الصيفية أهم من الشتوية وتضاعف الإنتاج وزاد عدد السكان. ولم تكن نتائج نظام الري الدائم كلها في صالح مصر. فقد أضر هذا النظام بالتربة ايما ضرر فزاد اعتماد الفلاح على السماد وارتفع مستوى المياه الجوفيـــة فأوجب ذلك شق المصارف وإنشاء محطات الصرف . وتسبب هذا النظام أيضاً في نشر البلهارسيا والأنكلستوما اللذين يقضيان على حيوية أهل الريف وخاصة في الدلتـــا .

وقبل القرن التاسع عشر كانت مصر كلها حكومة وشعباً تترقب كل عـام وبقلق بالغ فيضان النهر . فعلى أساس مستوى الفيضان كانت تتوقف مساحة الأرض التي ستغمرها المياه وبالتالي يتوقف الإنتاج ودخل الحكومة بل وكل النشاط الاقتصادي في الدولة . لذلك كان المصريون ولا زالوا يحتفلون بوفـــاء النيل ويدعون الله ألا يمسك عنهم خيره ورحمته إذا توقف عن الزيادة . وقد رأينـا

---

(١) Moret,A,The Nile and Egyptian Civilization.London 1927 P . 33 and 34

أنظر كذلك Rolfe,D.«Environmental Infleunces in the Agriculture of Ancient Egypt ». Am. J. Sem . Lang & Lit., vol . XXXIII. 7191 P. 153.

كيف كانت الحال تسوء وتشتد المجاعة إذا انخفض مستوى الفيضان عن الحد الضروري ، وكيف تخصب الأرض وتزيد غلتها وتروج التجارة إذا ارتفع إلى حد الكفاية .

نظام الري الحوضي :

ومستلزمات نظام الحياض تتلخص في الجسور والترع . أما الجسور فتبنى من الطين بحيث ترتفع إلى علو يبلغ ٥ر٣ أمتار ويصل عرضها إلى نحو ستة أمتار ولتقويتها توضع بعض الأحجار عند قواعدها . وكان هذا يسمح باتخاذها طرقا وقت ملء الحيضان . وهي تنقسم إلى نوعين رئيسيين : الجسور الطولية وهذه تمتد بموازاة النهر وفروعه والترع الرئيسية أيضاوتحمي الأرض من طغيان ماء الفيضان والجسور العرضية وهذه امتدت بين الصحراء والنهر في مصر العليا ومن الشرق إلى الغرب في الدلتا . وكان الغرض منها حجز ماء الفيضان على الأرض كما أنها تفصل كل حوض عن الحوض الذي يليه من جهة الشمال والجنوب [١] . وكان من الحياض الصغير (٢٠٠٠ فدان) والكبير (٥٠٠٠ر٥٠) . وأحيانا كانت الحيضان الرئيسية تقسم إلى أحواض أصغر خصص بعضها لأنواع من الزراعات الصيفية التي تروي بالشادوف أو الساقية ويضرها أن تنغمر بماء الفيضان . أما الترع وهي العنصر الثاني في نظام ري الحياض فتحمل الماء من النهر وتوصله إلى الحياض وتتفرع الرئيسية منها إلى ترع فرعية وثانوية تنتشر في الأرض حاملة لها الخصب والنماء . وكان ما يزيد عن حاجة الأرض من الماء يرجع إلى النهر ثانية من خلال مصارف صغيرة في نهاية الأحواض . وقامت على الترع الرئيسية سدود عند فوهاتها وعدد من المنظمات عند التقائها بالجسور العرضية وأمكن بواسطة هذه المنظمات التحكم في

---

(١) Moret , A . (1927) p ,33

ري الحياض [1] .

وطوال التاريخ كانت الدلتا ولا زالت كثيرة الترع لاتساع رقعتها بينما كان الوادي لضيقه قليل القنوات [2] . ولن ندخل هنا في دراسة تفصيلية لتطور ترع الدلتا والوادي ولا صفاتهـــا . ويكفي هنا أن نقول إن الترع في مصر ظاهرة كثيرة التغير وذلك بسبب مرورها وسط أرض طينية ولكثرة ما يحمله الماء من غرين يرسب على القاع خاصة في الأجزاء الدنيا منهـــا . كانت ضفاف الترع كثيرة التغير كما كان قاعها يحتاج إلى تطهير كل عام . وكان أي إهمال في هـذه الناحية يؤدي بالترعـة وخاصة في الدلتا إلى الاضمحلال والاختفـاء في النهاية [3] وإلى نقص في مساحة الأرض المزروعة .فلا غرابة أن كانت وظيفة المشرف على حفر الترع وتطهيرهـا تقلد لكبار رجال الدولة من حكام الأقاليم وأمراء الجند . فمنذ أقدم العصور كان «عزمر» أي المشرف على حفر الترع حاكم المدينة (في الدلتا) والمتصرف في شؤون الري . وفي العهود اللاحقة وخاصة في العهد البطلمي كان حكام المقاطعات العسكريين لهم الإشراف على أمور الري .وتوجد معلومات كثيرة عن ترع مصر « وخلجانها » في العهد العربي [4] . ومن دراستها يتبين أنها كانت كثيرة التغير غير أنها كانت دائماً تتخذ نفس الاتجاهات العامـة أي تتمشى مع الانحدار العام للسطح . وكان مستوى قاع هذه القنوات ينخفض إلى مستوى ماء النهر وقت التحاريق لذلك كانت تجف بعد انتهاء الفيضان .

---

(١) أنظر Barois J. Irrigation in Egypt Trans A:Miller washing on 2890' p. 22

(٢) ابن مماتي ـ قوانين الدواوين ـ للقاهرة ١٩٤٣ ص ٢٠٦

(٣) راجع Rolfe , D.op · cit : p . 164

(٤) أنظر مثلا « كتاب قوانين الدواوين » طبعة القاهرة ١٩٤٣ ، وكتاب « تاريخ الفيوم » للنابلسي .

وكان منها الترع الرئيسية التي تمتد عشرات الكيلو مترات والترع الصغيرة التي تغذي جهات الحوض .

اما عملية ملء الحياض فكانت تبدأ بقطع سدود الطين التي تقام عند اتصال الترع الرئيسية بالنهر وذلك في الأسبوع الثاني من أغسطس في أعلى الصعيد ويتأخر هذا التاريخ كلما اتجهنا شمالاً (ذلك في سني الفيضانات العادية) ولا يحل الأسبوع الثالث من أكتوبر حتى تكون جميع حياض الدلتا قد ملئت . وكانت العادة منذ أقدم العصور أن تقام سدود من الطين على المجاري الدنيا من فروع النيل وقت الفيضان للانتفاع بمياه النهر « الحمراء » في غمر أكبر مساحة ممكنة من أرض الدلتا [1] . ويندفع ماء الفيضان في الترع متجهاً إلى الشمال بصفة عامة متتبعاً انحدار الأرض العام . ونظراً لأن انحدار هذه الترع أبطأ من انحدار الأرض الزراعية فإن الماء يفيض على ضفافها لتمتلىء الحيضان وتتحكم المنظمات المقامة فوق الترع في تنظيم الري .

وهكذا يتحول الوادي والدلتا إلى بحيرة هائلة مستطيلة تظهر فيها القرى والمدن على قمم أكوام مرتفعة تتصل فيما بينها بالقوارب واحياناً بالطرق التي تمتد الماء فوق الجسور [2] . وبعد أن يمكث على الأرض مدة كافية (تختلف من ٥٠ — ٢٠ يوماً) يكون مستوى ماء النهر في نفس الوقت قد انخفض فيبدأ صرف الماء إلى النيل في مصر العليا وإلى البحيرات وفروع النيل في الدلتا وإلى بحيرة قارون في منخفض الفيوم . ثم تسد فتحات أو فوهات الترع الرئيسية بالسدود الطينية من جديد وبمجرد انصراف الماء من الحياض يخرج الزراع إلى

---

(١) راجع في هذا الموضوع Semple, E. op. cit. p. 443.
Wilkinson, J. Manners and Customs of the Ancient Egyptians, London 1391 p.8 Moret,A. op. cit., p. 33

(٢) ابن مماتي « قوانين الدواوين » طبعة القاهرة . الباب الخامس

الأرض التي ارتوت وتجددت خصوبتها يحرثون باطنها ويبذرون بذور المحاصيل الشتوية وأهمها القمح والشعير والبرسيم والبقول .

هذا عن الحياض التي تروى عادة بمياه الفيضان أما الأراضي العالية على جانبي النيل فلم يكن في الإمكان ريها بنظام الحياض إلا في القرن التاسع عشر حين شقت قنوات تأخذ من النهر من جهات بعيدة في جنوب الأحواض حتى يكون مستوى الماء أعلى ما يكون عند بدايتها . ولكن من الثابت أن مساحة من هذه الأراضي العالية كانت تزرع قبل القرن التاسع عشر بالمحاصيل الصيفية كقصب السكر والذرة العويجة وأنواع الخضر وتروى بالشادوف والساقية والطنبور وغيرها من وسائل الري التي لا زالت تستعمل حتى الآن .

وعملية ري الحياض هذه لم تكن سهلة كما لم يكن في مقدور فرد أن يقوم بها وحده ، لذلك تطلبت تضافر الجهود والتعاون والاشراف الدقيق من جانب الحكومة على الجسور والترع وتحديد مواعيد ملء الأحواض وتفريغها (١) . كانت الترع كما قلنا تحتاج دائماً إلى تطهير وكانت الجسور والمنظمات تحتاج إلى ترميم . لذلك كانت الحكومة رغبة منها في الخير المشترك ودرءاً للخطر المشترك تفرض على أهل الأقاليم المختلفة بعد انتهاء موسم الفيضان تطهير الترع وحفرها وترميم وتقوية الجسور تحت إشرافها. وعلى قدر اهتمام الحكومة بشؤون الري وعلى الأخص حفر الترع وتطهيرها كان يتوقف مدى الاستفادة بمياه النيل في ري الجهات المختلفة وفي مقدار الإنتاج الزراعي وهو أهم إنتاج في مصر حتى الآن . وفي هذا يقول استرابون « إنهم (أي المصريون) يقهرون الطبيعة بالجد ، ذلك أن الأرض عندهم تنتج بالطبيعة محصولاً أكبر مما تنتج سائر الأراضي، وهي تنتج أكثر من ذلك إذا ما رويت ، والفيضان العالي للنهر يروي من الأرض مساحة أكبر» .

(١) Rolfe , D . op, cit·,p, 163

«ولكن الجد كثيراً ما ينجح حيث تخفق الطبيعة ، حتى أنه ليروى من الارض في الفيضان المنخفض مثل ما يروى منها في الفيضان المرتفع بواسطة الترع والجسور »[1]. ويحدثنا المقريزي عن الخير الوفير الذي حل بإقليم البحيرة وبميناء الإسكندرية بعد إعادة حفر ترعة الاسكندرية في القرن الرابع عشر. يقول هذا الكاتب « إنه عندما أعيد حفر قناة الإسكندرية استطاع الأهـالي زراعة ما يقرب من ١٠٠ ألف فدان ونشأت ٤٠ قرية جديدة وحملت المراكب الشراعية السلع والمنتجات إلى الإسكندرية واستطاع سكان المدينة الاعتماد في شربهم على ماء النيل بعد أن كان اعتمادهم على مياه المطر والصهاريج »[2] . إذن كان اهتمام الحكومة بشؤون الري عاملاً أساسياً في تقدم الزراعة واستمرارها في مصر غير أن الحكومة كانت في نفس الوقت تقف عاجزة أمام أي فيضان للنيل يكون منخفضاً عن الحد الضروري .

الأدوات الزراعية :

وقد استخدم الفلاح المصري وسائل وآلات متنوعة يمكن وصفها بأنهـا أدوات بدائية إذا قورنت بالوسائل والآلات الزراعية الحديثة[3] . ولكنها من غير شك كانت أنسب الادوات للزراعة المصرية ولظروف المجتمع والبيئة . أما الآن وبعد أن تغيرت أساليب الزراعة فمن الواجب تطوير هـذه الادوات واستخدام الآلات الحديثة . وقد استخدم الفلاح المصري الشادوف والساقية والطنبور لرفع الماء من النهر واستخدم لفلح الارض وإعداده المحراث والفأس .

---

(١) وهيب كامل ـ استرابون في مصر ـ القاهرة ١٩٥٣ ص ٤٦

(٢) المقريزي ـ الخطط ـ الجزء الأول ص ٢٧٧ .

(٣) راجع Audebeau. C. et Mosséri, V. Le Labourage en Égypt, Bull, de l'inst. d'Egypt, 1916 - pp. 83 — 127

واستخدم المنجل في الحصاد والنورج والمذراة في فصل الحبوب عن القش . والشادوف من وسائل رفع الماء القديمة عرفته مصر قبل أن تعرف الساقية والطنبور في العهد البطلمي [١] وكان واسع الانتشار على ضفاف النيل لري مساحات صغيرة من الزراعات الصيفية وزراعات الخضر والبساتين .

واستخدمت الساقية وهي إحدى الوسائل التي أدخلها البطالمة في مصر لرفع الماء من النهر والآبار لري مساحات أوسع من الارض . وقد انتشرت بسرعة في وادي النيل وأسهمت في توسيع الرقعة التي يمكن زراعتها صيفاً . ويحدثنا الرواة والكتاب أن جهات الفيوم امتازت بسواقيها الضخمة وبطواحينها التي تدور بقوة الماء . ولم ينتشر الطنبور كما انتشرت الساقية وذلك بسبب ما يستلزمه من جهد ومشقة في إدارته وما يحتاج إليه صنعه من مهارة لم تتوفر في كثير من الاحيان [٢] .

وكانت الفأس كما هي الآن من أهم الادوات التي استخدمت في إعداد الأرض وهي آلة قديمة قدم الزراعة المصرية . ظهرت في أول الامر على شكل شعبة يحصل عليها بقطع فرعين متقابلين من فروع الاشجار [٣]. ثم تطورت فأصبحت مكونة من جزأين من الخشب . السلاح واليد . وآخر تحسين أدخل عليها كان في العصر البطلمي حين أصبح السلاح من الحديد . وقد ظلت الفأس ولا زالت تخدم عدة أغراض فهي تستعمل في تقليب التربة وحفر الترع وإقامة الجسور .

---

(١) Rostovtzeff, M. The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford 1941, vol. I : p. 362

(٢) Ibid. p. 353

(٣) Petrie, F. Wisdom of the Egyptians, London 1940, vol. LXIII, p. 135

ويرى بعض المهتمين بدراسة أصول الأشياء أن الفأس هي الأصل الذي تطور عنه المحراث المصري. وقد أدخل على هذه الوسيلة بعض التغييرات والتحسينات في بعض فترات التاريخ المصري. ولكن أهم تحسين أدخل عليه كان في القرن الرابع قبل الميلاد أي في عهد البطالمة إذ أصبح سلاحه من الحديد بعد أن كان من الخشب [١]. وقد أعطى الحديد للمحراث قوة على تقليب التربة وإعدادها أحسن إعداد.

ولم تكن أرض الصعيد التي تزرع بالمحاصيل الشتوية تحتاج في كثير من الأحيان إلى حرث. كانت البذور تبذر على الأرض الرطبة ثم تخفى في التربة بكتلة من الخشب تجر على الأرض. هذا بخلاف الحال في الدلتا والفيوم فكان على الفلاح أن يحرث الأرض ويرويها خلال فصل الانبات إذا لزم الأمر. وإذا كان إعداد الأرض للمحاصيل الشتوية في الوجه القبلي لم يستدع استخدام المحراث فإن حرث الارض عدة مرات كان ضرورة لازمة للمحاصيل الصيفية وخاصة قصب السكر سواء كان ذلك في أرض الدلتا أم الصعيد. ويأتي بعد حرث الارض عملية التسوية (التزحيف) وكان الغرض منها تغطية البذور وتسوية الارض لسهولة ريها إذا دعت الحاجة. وكانت المحاصيل الشتوية كالقمح والشعير والفول والبرسيم والكتان تقطع من جذورها باليد أو المنجل عند الحصاد. وإن كانت الصور على المعابد والمقابر تشير إلى أن الفلاح المصري القديم كان يكتفي بقطع الاطراف العليا من عيدان القمح والشعير. وقد أدخل تحسين على المنجل في العهد البطلمي الذي انتشر فيه استعمال الحديد فبعد أن كان عبارة عن قطعة من الخشب لها أسنان من قطع الصوان المدببة أصبح من الحديد له حد مسنن. وخلال فترة طويلة من التاريخ المصري كانت العادة في كثير من جهات القطر أن تستخدم الحيوانات كالبقر والحمير في دراس المحصول بجعلها تدور في

(١) Rostovtzeff, M. op. cit., vol. I. p. 352.

دائرة وعيدان القمح أو الشعير أو الفول تحت حوافرها. وهناك صور كثيرة على المعابد المصرية تصور هذه العملية [1] وقد عرف المصريون القدماء أيضاً النورج ولكن قواطعه كانت من الصوان تم استبدلت بالحديد بعد أن شاع استعمال الحديد في العهد البطلمي [2] . وبعد أن تفصل الحبوب من سنابلها كانت تذرى في الهواء بالمذراة فتنفصل الحبوب عن التبن .

وينقلنا الحديث عن وسائل الري والادوات الزراعية إلى الزراعة . وكما قلنا فيما سبق كانت مساحة الارض التي تحتلها المحاصيل الشتوية تختلف من سنة إلى أخرى تبعاً لمستوى مياه النهر وقت الفيضان . ولكن من ناحية أخرى أصاب أرض الفيوم في العصر الروماني اضمحلال وانكماش بعد ازدهار واتساع في العهد البطلمي . كما أصاب أرض شمال الدلتا البوار في العصور الوسطى . ويقدر متوسط مساحة الارض المزروعة في العهد الفرعوني والبطلمي بنحو ستة ملايين مليون فدان وبحوالي خمسة ملايين فدان في بعض الفترات خلال العهد العربي وبأقل من ذلك في العهد العثماني . ومن المؤسف أنه ليس في استطاعتنا معرفة المساحة المنزرعة من كل غلة ولا تحديد توزيعها بدقة لذلك سيكون حديثنا من هذه الناحية حديثاً عاماً .

المحاصيل الحقلية :

زرع الفلاح المصري المحاصيل الشتوية كما عرف المحاصيل الصيفية. ولكن أهم محاصيل كانت حتى القرن التاسع عشر هي المحاصيل الشتوية. وتتمثل في القمح والشعير والفول والعدس والبرسيم والكتان . كانت المحاصيل تزرع بعد تفريغ

---

(١) Wilkinson (1891) op. cit.,p. 88

(٢) Smith, F. « The Egyptian « Norag » and its origin » Bull, de la Soc. Sul. de geog. T. X 1921. pp. 251 - 259

المياه من الحياض وتحصد في أوائل الصيف في الدلتا وفي أواخر الربيع في الصعيد. ولعل أروع وصف لمصر وهي مغمورة تحت ماء الفيضان ثم وهي مكسوة ببساط مشرق من الزرع الشتوي ما جاء في رسالة عمرو بن العاص المشهورة الى عمر بن الخطاب « فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة قشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء [1] » .

وتختلف زراعة هذه المحاصيل عن زراعة المحاصيل الصيفية في سهولتها وقلة تكاليفها فزراعة القمح في أراضي الصعيد مثلا لم تكن تستدعي من الفلاح غير بذر البذور على الأرض الرطبة ودفنها في التربة بواسطة كتلة من الخشب تجرها الحيوانات على الأرض ثم ينتظر بضعة أشهر ليجني المحصول . والعامل الرئيسي الذي كان يحدد مساحة المحاصيل الشتوية هو مستوى الفيضان . ومهما كان الأمر فإنه يعتقد أن القمح والشعير خلال العصور التاريخية كانا يشغلان ثلثي مساحة الأرض وتشغل بقية المحاصيل الشتوية والبساتين الجزء الباقي. أما المحاصيل الصيفية فكان أهمها الذرة العويجة والقطن والسمسم والنيلة وذلك طوال العهد الفرعوني والبطلمي والروماني . أما في العهد العربي فقد زرعت مصر إلى جانب أنواع الذرة الرفيعة والنيلة قصب السكر على ضفاف النيل في الصعيد وعلى ضفاف القنوات في الفيوم والأرز في شمال الدلتا والفيوم أيضاً [2] .

وقد اشتهر إقليم الفيوم طوال التاريخ بوفرة انتاجه وذلك لتوفر الماء في الصيف والشتاء . فبحر يوسف الذي يتفرع إلى قنوات في الإقليم كان دائم

(١) راجع أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ القاهرة ١٩٢٩ جزء ٣ ص ٣٢ - ٣٣

(٢) هناك من المؤرخين من يرى أن قصب السكر والأرز والقطن محاصيل صيفية دخلت مصر في أيام الدولة البيزنطية . منهم (J.Milne A. History of Egypt, p. 353)

الجريان ، كان يحمل ماء الفيضان في الصيف ويحمل ماء الرشح من جوانبه ومن النيل في الشتاءثم تحجز هذه المياه أمامسد للانتفاع بها في ري المحاصيل الصيفية. ونظراً لانتشار الزراعات الصيفية في الفيوم فـانه يعتبر الاقليم الوحيد في مصر الذي عرف دورة زراعية ثنائية وأحياناً ثلاثية .

هذه المحاصيل الصيفية تختلف عن الشتويةفي أنها كانت أقل انتشاراً وتتطلب تكاليف باهظة بسبب حاجتها إلى الري المتكرر والتسميد والإعداد الجيد لذلك كانت وقفاً على الموسرين يزرعونها كمحاصيل نقدية . ولا يمكننـا تقدير المساحة التي كانت تزرع بالمحاصيل بشيء من الدقة في فترات التاريخ المختلفة. ولكن تحت أيدينا إحصائيةترجع إلى القرن الثامن عشر ذلك القرن الذي انكمشت فيه الرقعة الزراعية كثيراً. تشير الإحصائية إلىأننسبة مساحة الأرض التيتشغلهاالمحاصيل الصيفية كانت تبلغ ١٢٪ في الوجه القبلي ، ٢٥٪ في الوجه البحري . وإذا علمنا أن هذا القرن كان عهد فوضى واضطراب وإهمال لشؤون الري فان المساحةالتي كانت تشغلها هذه المحاصيل في فترات الازدهار قبل ذلك كانت أوسع من ذلك بكثير .

المحاصيل الشتوية

وطوال العهد الفرعوني حتى سنة ٥٠٠ ق.م تقريباً كانت مصر تزرع نوعاًمن القمح من مجموعة Emmer ويمتاز بالتصاق القشرة على الحبـة وصعوبة فصلها . وقد عمل البطالمة والرومان على إحلال أنواع القمح الحالية محل النوع القديمالذي اختفى تماماً في بدء التاريخ الميلادي [١] . وإذا كان القمح قـد تغير نوعه خلال التاريخ فإن مركزه بالنسبة للحبوب وخاصة الشعير قد تغير كذلك. فقبل سنة

---

(١) Jasny N.,The Wheat of Classical Antiquity, Baltimore 1944, p. 131.

٥٠٠ ق.م كان للشعير المكان الأول في الانتــاج والاستهلاك ثم تحول الاهتمام إلى القمح بعد هذا التاريخ واحتل المكان الأول بالتدريج [١] . ومن دراسة الوثائق التاريخية يتبين أن اهتمام البطالة بزراعة القمح وزيادة انتاجه كان عظيما . فأحدى برديات « زينون » Zenon التي ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد تكشف عن الأمر الذي أعلنه بطليموس فيلادلفوس بزراعة الأرض بمحصولين من القمــح في السنة . تقول البردية: «تحية إلى زينون.. لقد أمرنا الملك أن نبذر الأرض مرتين. فعندما تحصد المحصول الأول ، أسرع بري الأرض ... بآلات الرفع ولكن لا تترك الماء على الأرض أكثر من خمسة أيام. وعندما تجف الأرض ابذر القمح الذي يمكث فيها ثلاثة أشهر » [٢] .

وفي العهد العربي كان خبز القمح هو الغذاء الرئيسي للسكان فيما عدا الاقاليم الجنوبية الفقيرة في الصعيد فهذه كانت تعتمد في غذائهــا على الدخن والذرة العويجة . وباستثناء الأراضي الملحية في شمال الدلتا والأراضي الفقيرة في مصر العليا كانت زراعة القمح واسعة الانتشار في وادي النيل والدلتا . وقد اشتهرت مصر الوسطى بقمحها الممتاز الخالي من كثير من الشوائب . لذلك كانت أراض واسعة منها وعلى الأخص باقليم أسيوط ضمن أملاك السلطان الخاصة . هذا بخلاف الحال في الدلتا فقمحها كان كثير الشوائب بسبب ما ينمو في الحقول من نباتات طفيلية كثيرة كما كان إنتاج الفدان أقل (خصوصاً في الشمال) من انتاج الفدان فى مصر الوسطى . أما مواعيد الزراعة وطرقها وطريقة الحصاد فلم تكن تختلف عما هي عليه فيما بقي من حياض الوجه القبلي .

وقد احتل الشعير المكان الثاني بعد القمح منذ العهد البطلمي. وكان يستعمل

---

(١) Ibid.

(٢) Johannesen, R. Ptolemy Philadelphus and Scientific Agriculture. Class. Phil. vol. XVIII. 1923 p. 156.

غذاء للإنسان والحيوان وفي صناعة الجعة . ونظراً لقدرة هذا النبات على النمو في التربة الضعيفة واحتماله قلة الماء ، فإنه كان أوسع انتشاراً من القمح . كان ينتشر في مصر من أقصى الشمال (بما في ذلك الشريط الساحلي المطل على ساحل البحر المتوسط في شمال سيناء والصحراء الغربية) إلى أقصى جنوب الوادي . ولكن غلة الفدان كانت تتوقف على نوع التربة وكمية الماء التي تصيب الأرض . وكانت أعلى غلة لفدان الشعير في مصر العليا في المنطقة بين إدفو والقاهرة حيث كان المحصول يكتفي بمياه الفيضان . أما في الدلتا فكان المحصول يروى أحياناً وكانت غلة الفدان أقل خصوصاً في شمالها . وكان هناك في مصر ولا يزال شعير يزرع على ماء المطر في منطقة بلطيم وعلى طول ساحل البحر المتوسط ولكن غلة الفدان كانت تتوقف على كمية المطر .

ومن المحاصيل الشتوية التي كانت تزرع البرسيم والفول والكتان . وقد دخل الفول مصر من قديم وربما كان ذلك في عهد الأسرة الثانية عشرة (بين ٢٠٠٠ – ١٧٨٨ ق.م) واحتل مكانة ممتازة عند المصريين القدماء باعتراف بتري Petrie الأثري المشهور [١] . وفي العهد العربي كان أيضاً يحتل مكانه بين النباتات التي تجدد التربة وتعيد خصوبتها بعد زراعتها بالقمح أو الشعير أو الكتان . وقد اشتهرت مديريات سوهاج وأسيوط والمنيا بانتاج أحسن أنواع الفول . فهنا تساعد ظروف التربة والمناخ ووفرة الماء على انتاج أنواع ممتازة . ويحدثنا المقريزي أن المخازن السلطانية في القاهرة كانت تستمد معظم مخزونها من الفول من منطقة منفلوط (محافظة أسيوط) ويظهر أن الإنتاج كان وفيراً في هذه المنطقة ففي سنة ١٤٣٧م مثلاً بلغ ما أهلكه الفيران من الفول ٦٠ ألف أردب.

---

(١) يختلف ذلك مع قول هيرودوت أن المصريين كانوا يأنفون من أكل الفول ويقدمونه للحيوانات .

ولم تشتهر الدلتا بفولها لاختلاف المناخ والتربة ولا زال الامر كذلك حتى اليوم. فهناك الفول الصعيدي الممتاز والفول البحيرى الاقـل جودة ويخصص الاخير عادة لاستهلاك الحيوان . وقد احتل البرسيم مكانة خاصـة بين نباتات العلف وذلك في أواخر العهد الروماني وظل كذلك حتى الآن . وفيما عدا الاراضي الملحة كان البرسيم يزرع على نطاق واسع في الدلتا حيث كان يروى بالآلات ريا سهلا وميسورا.وإذا تركنا الدلتا إلى مصر الوسطى نجد أن زراعته تبدأ في القلة وتختفي تماماً قرب بلدة فرشوط (محافظة قنا) ويحل محله نباتات أخرى مثـل الحلبة والفول . وإلى جانب فائدة البرسيم كعلف أخضر للحيوان فان الفلاح المصري عرف فائدته في تجديد خصب التربة . لذلك كان يزرع بعد المحاصيـل المجهدة للتربة كالحبوب والكتان .

وقد اشتهرت مصر طوال التاريخ بكتانها وبمنسوجاتها الكتانيـة ولم تفقد هذه المكانة إلا بعد أن انتشرت زراعة القطن . وكانت اشهر مناطق زراعته في مصر في محافظات الجيزة وبني سويف والفيوم والمنيا واسيوط. وفي العهد العربي كانت الجهات المحيطة ببلدة دالاص (محافظة بني سويف)والبهنسا(محافظة المنيا) وأسيوط من مراكز الانتاج الهامة في مصر . كانت ترسله إلى مدن مصر كما كان يصدر إلى شمالي إفريقية . أما مراكز إنتاجه في الدلتا فكانت الأراضي المحيطة بالمحلة الكبرى وابيار وسنباط (محافظة الغربية) ومن ثم يرسـل الكتان بعد تعطينه وإعداده الى المدن الساحلية مثل تنيس والاسكندرية ودميـاط لغزله ونسجه . وجرت العادة أن يسمد الكتان اما بالطفـل أو بالسماد البلدي كما كان يحتاج الى ري في الدلتا.

المحاصيل الحقلية الصيفية :

أما المحاصيل الصيفية فكانت أقل انتشاراً ويقوم بزراعتها خاصـة الناس لكثرة نفقتها وعدم قدرة الفلاح العادي على القيام بها . كانت في ريها تعتمد على

الماء المرفوع من النهر وفروعه ومن القنوات أحيانا. وأيضاً على الماء الباطني من الآبار . وكان تنوع التربه وكمية المياه وعناصر المناخ خصوصاً الحرارة تحدد مناطق توزيع هذه الغلات. فكانت زراعة قصب السكر تتركز في مصر الوسطى في جهات البلينا وأخميم وأسيوط والفيوم . وكان الأرز يزرع في الأراضي المالحة في شمالي الدلتا والفيوم حيث تتوفر الماء . وكانت النيلة تزرع في أراضي محافظتي الجيزة وبني سويف بينما كانت زراعة القطن تقتصر على الجزء الأعلى من وادي النيل وجهات متفرقة في الدلتا والفيوم .

وقد أدخل العرب زراعة قصب السكر في مصر كما أدخلوا زراعة الأرز أيضاً . وقد قامت على زراعة القصب صناعة هامة هي صناعة السكر . وكانت تنتج للاستهلاك المحلي وأحيانا توفر فائضاً للتصدير خصوصاً في عهد الأيوبيين - (١١٧١ - ١٢٥٠ م) الذين اهتموا بزراعته في الفيوم. وكما اشتهر إقليم الفيوم بزراعة القصب في عهد الأيوبيين فإن أرضه المالحة قرب بحيرة قارون كانت صالحة لإنتاج وافر من الأرز . ولكن زراعته في هذا الإقليم قلت بعض الشيء نتيجة لاهتمام الأيوبيين بنشر زراعة القصب على حساب المحاصيل الصيفية الأخرى. وهناك إلى جانب الفيوم كانت أراضي شمال الدلتا مناطق هامة لإنتاج الأرز خصوصاً حول دمياط ورشيد [١]. ومن هذين الميناءين النهريين كانت السفن في أواخر العهد العربي وفي العهد العثماني تبحر محملة بالأرز إلى موانيء سوريا وآسيا الصغرى . وقد ترك لنا علماء الحملة الفرنسية معلومات قيمة عن أحوال الزراعة في ظل الحكم العثماني. ومن دراستها يتبين أن أنواع المحاصيل الحقلية وطرق الزراعة ووسائلها لم تتغير في تفاصيلها عما كانت عليه الحال في العهود السابقة وإن كانت مساحة الرقعة الزراعية انكمشت كثيراً كما سبق أن أشرنا .

---

(١) يرجح أن كلمة Rosetta وهي اسم رشيد بالانجليزية مأخوذة من كلمة Rice أي الأرز.

المحاصيل الشجرية والخضر :

تلك كانت أهم محاصيل مصر الحقلية طوال فترات التاريخ . أما المحاصيل الشجرية ونباتات الزينة والخضراوات فكانت تزرع في البساتين وخارج البساتين. وقد كان المتنزه والبستان منذ أقدم عصور التاريخ المصري بهجة السادة والحكام. كما كان حب الورد والزهر والنباتات المخضرة المورقة في قلوب عامة الشعب . وتفصح عن هذا الحب تلك الآثار التي تركها قدماء المصرين فكلها مزدانة بزخارف تمثل الزهور والأوراق وفي نقوشهم ومصوراتهم ترى باقات الزهر تقدم إلى الآلهة وتكلل التوابيت وترى النباتات الغريبة تقدم هدية إلى فرعون من بعوث البلاد الأجنبية [1] . أما الخضر فكانت ولا زالت تستهلك بكميات كبيرة . فقد سجل هيرودوت أن العمال الذين استخدمهم خوفو في بناء هرمه الأكبر استهلكوا إلى جانب الخبز كميات هائلة من الفجل والبصل والكرات [2].

ويبدو أن البساتين التي أحاطت بقصور النبلاء ومنازلهم الصيفية كانت عظيمة الاتساع تسقى إما من الآبار أو من صهاريج تخزن الماء أو من ترعة تحمل ماء النيل . وقام على خدمتها والعناية بها وتهذيب أشجارها نفر كبير من الرقيق وتظهر صور البساتين في كثير من مقابر طيبة وبني حسن وعلى آثار أخرى منتشرة في جهات وادي النيل. وإن دل ذلك على شيء فعلى مبلغ اهتمام المصريين بالأشجار والزهور وعلى سعة انتشارها في أنحاء البلاد. وتكشف الصور عن بعض التفاصيل فيما يتصل بتنظيم الحديقة وأنواع الأشجار بها وطريقة ريها. فنرى على أحدى مقابر الأسرة الثامنة عشرة قصر النبيل يختفي تماماً وراء بستان عظيم يحيط به سور عال . والبستان مقسم إلى اقسام قسم للكروم بعناقيدها الكبيرة المتدلية وقسم

---

(١) راجع Delile , A « Histoire de plantes cultivées en Égypte » in La Description De l'Egypte Hist ., National.T.II, 1813 , chap.,I.

(٢) Herodotus . op . cit . p 252

لنزهة صاحب البستان يضم بركة كبيرة مستطيلة تحف بها أشجار النخيل وأشجار أخرى قصيرة وقسم تنمو فيه الأشجار النادرة ورابع خاص بالنخيل[1].
وفي صورة أخرى ترجع إلى نفس الفترة كتب صاحب البستان يفاخر بسعة وجمال بستانه وكثرة أشجاره ، متمنياً أن يسمى بعد موته في حديقته « ليستروح النسيم تحت أشجار الجميز ولينعم بالنظر إلى أشجارها الجميلة العظيمة » .

وتحكي بردية ترجع إلى أيام رمسيس الثالث ان هذا الفرعون زرع في طيبة اشجاراً كثيرة وانشأ احواضاً للزهور وخطط في منشآته الجديدة في الدلتا « حدائق عظيمة وأماكن للنزهة بها جميع أنواع أشجار الفاكهة الحلوة المثقلة بثمارها وطريقاً مقدساً كان يتألق بالأزاهير من جميع الأقطار ... » . وقبل ذلك بثلاثة قرون استحضرت حتشبسوت من بلاد بونت « إحدى وثلاثين شجرة بخور مخضرة ثم لم يمض وقت طويل حتى جلب تحتمس الثالث بعد انتصاراته في آسيا عدداً وافراً من النباتات الأجنبية خلدت صورها على جدران معبد الاحتفالات بالكرنك. وكانت البساتين الكبيرة كما هو واضح من صورها على جدران المقابر والمعابد تحوطها الاسوار ومقسمة إلى أقسام وأحواض للزهور . ولعل أهم تلك الاقسام هي التي كانت مخصصة لاشجار النخيل والجميز والكروم. وأمام المدخل الرئيسي الذي كان يحمل اسم صاحب القصر كانت تجري قناة تأخذ من النهر يفصلها عن السور خط من الاشجار .

وقد وجه المصري القديم اهتماماً خاصاً إلى زراعة الكروم التي انتشرت على ما يبدو في التربات الخفيفة القريبة من الصحراء . وكان من أشجار الكروم ما ترتفع فروعه على عرش من الغاب أو فروع الشجر وأخرى تترك لتمتد فروعها

---

(١) إرمان ورانكة ـ مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ـ ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص ١٩٠

على الأرض . وصنع من الكروم بعد عصرها أنواعاً مختلفة من النبيذ كان يشربها خاصة الناس بينما شرب العامة الجعة المصنوعة من الشعير . وكانت أشجار النخيل واسعة الانتشار كما هي الحال الآن في جنوب الصعيد . وقد انتفع المصريون القدماء بثمارها في غذائهم واستخدموا جذوعها وأوراقها وأليافها في أغراض شتى [1] . كذلك انتشرت في جنوب الصعيد أشجار الدوم وانتفع بثمارها وأجزائها في كثير من الأغراض ، ومن الأشجار الأخرى التي عرفتها مصر القديمة وانتفع أهلها بثمارها وأخشابها : أشجار التين ، والرمان والزيتون واللوز والجميز والبندق والسدر والسنط واللبخ والأثل ، وأشجار بادت لا توجد الآن إلا في الصحراء أو في جنوب الحبشة [2]. إلى جانب المحاصيل الشجرية هذه كانت تقوم زراعة الخضراوات من فجل وكرات وجزر وبصل في مساحات صغيرة من الحقول وفي الحدائق المنزلية .

وقد شجع البطالمة زراعة الكروم والزيتون وخاصة في الفيوم وفي إقليمي طيبة والإسكندرية . وقام على زراعتها بصفة عامة المستوطنون الإغريق [3] . وأدخل الحكام الأوائل من البطالمة أنواعاً أجنبية من الكروم والتين والرمان والمشمش وشجعوا الفلاحين على زراعة الأشجار الخشبية ، وخاصة على الجسور لتثبيتها وللاستفادة منها في صناعة القوارب والأدوات الزراعية [4] . ويحدثنا

---

(١) Hartmann, F. L'Agriculture dans l'ancienne Égypte, Paris 1923 , pp. 23 - 35.

(٢) Carruthers, W. « Plants of Ancient Egypt » Nature, sep.1886, pp. 445 - 51

راجع كذلك De Candolle, Alph. L'Origine des plantes cultiveés. Paris 1883 pp 245 - 270

(٣) Rostovtzeff' M.A Large Estate in Egypt in the 3rd century B. C. Madison 1922 p. 93.

(٤) ابراهيم نصحي - تاريخ مصر في عهد البطالمة جزء ٢ ص ٥٢٤ - ٥٣٣

المؤرخون أن الأهتمام كان موجهاً في العصر الروماني لزراعة القمح لتموين روما وبيزنطة بما يلزمها من هذه الغلة. وقد قام أهل البلاد بزراعة المحاصيل الحقلية ، بينما اتجه المستوطنون كما حدث في العهد البطلمي إلى زراعة المحاصيـــل الشجرية وخاصة الكروم والزيتون ولكن على مجال أضيق مما كان عليه الحال قبل حـكم الرومان [١]. وقد اشتهر إقليم مريوط بكرومه ونبيذه (امتدحه استرابون) [٢]، واشتهر إقليما الفيوم والإسكندرية بزراعـــة أشجار الزيتون . وفي هذا يقول استرابون « إنه الإقليم (يعني الفيوم) الذي ينبت الزيتون في أشجار ضخمـة نامية ذات ثمار بديعة ، ولو جمعت ثماره على وجه حسن لأخرج زيتاً طيباً ومع أنهم قليلو العناية بهذا الأمر فإنهم يخرجون زيتاً كثيراً ، ولكنه كريه الرائحة . أما سائر مصر فخال من شجر الزيتون فيما عدا الحدائق حول الإسكندرية فهي صالحة لإنبات الزيتون ولكنها لا تخرج الزيت [٣]».

ولم يكن العرب أقل اهتماماً من البطالمة من حيث انشاء البساتين وغرس الغروس ولو أن زراعة الكروم اضمحلت بعد دخولهم مصر بسبب تحريم الدين الاسلامي شرب الخمور . وتحوي مؤلفات الكتاب العرب في العصور الوسطى معلومات كثيرة مبعثرة عن فواكه مصر وأشجارها وبساتينها ، ومنهـا يتبين أن أوسع الأشجار انتشاراً كانت أشجار النخيل والجميز ، ثم أشجار الدوم في جنوب الوادي . وفي البساتين التي انتشرت حول المدن ، وخاصة القـاهرة والإسكندرية ، وفي اقليم الفيوم (بستان مصر) غرست طائفة كبيرة من أشجار الفاكهة والاشجار

---

(١) Milne, J., History of Egypt - Under Roman Rule , London 1924 ' p. 255 .

(٢) رهيب كامل – استرابون في مصر ـ ص ٧٤

(٣) نفس المرجع السابق – من ص ٩٧ ـ ٩٨

الخشبية ، فضلاً عن نباتات الزينـة والنباتات العطرية والطبيـة [١] .

وقد اهتم الفاطميون أعظم اهتمام بانشاء البساتين وتنسيقهـا وغرسها بكل نادر من النباتات والاشجار المثمرة وغير المثمرة . وكان أكبر بساتينهم هو بستان الجيوشي الذي امتد من باب الفتوح حتى المطرية، وعمل فيه من المشرفين ما يزيد على الالف ، وقامت عدة مئـات من الثيران والجمـال بإدارة السواقي لريه [٢] . وفضل العرب على زراعة أشجار الفاكهة والاشجار الخشبية في مصر كبير . فقد أدخلوا أنواعاً جديدة من الفواكه لم تعرف من قبل ، أهمها البرقوق والموز ومختلف الموالح [٣] .

وبذل الأيوبيون جهوداً صادقة في « تحريج » مساحات شاسعة بلغت نحو ٣٠ ألف فدان بمختلف الأشجار الخشبية ، وخاصة السنط والإثل للانتفاع بأخشابها في بناء أسطول يحمي البلاد من هجمات الصليبيين . وكانت أهم مناطق « الحراج » قرب سفط رشين ومتبال وأسطال والأشمونين وأخميم وقوص، وفي شمال القاهرة في نواحي طنان وناي [٤]. ولكن ما لبثت هذه الأحراج أن أهملت وآلت الى الزوال في أواخر حكم المماليك . كذلك فقدت ضواحي المدن المصرية وخاصة القاهرة والأسكندرية ودمياط كثيراً من بهجتها في العهد التركي بسبب ما أصاب بساتينها وغروسها من اضمحلال واندثار وعندما غزا نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر كانت ندرة الأشجار من أهم ما استرعى علماء حملته .

---

(١) من النباتات الطبية التي كانت تزرعها مصر البلسم ، وكان دهنه يهدى للملوك (عن المقريزي - جزء أول - ص ٣٦٨)

(٢) المقريزي - الخطط - جزء أول - ص ٣٠٥

(٣) Schweinfurth, M: « Sur la flore des anciens jardins Arabs'» Bull. Inst' Egy. 2 ieme Serie ' Cairo 1881 , pp 305 - 310

(٤) ابن مماتي - قوانين الدواوين - ص ٣٤٤

الصناعات الزراعية والثروة الحيوانية :

وطوال التاريخ عرفت مصر صناعات زراعية تقليدية ظلت تمارس في العاصمة وبعض المدن بل وفي بعض القرى . نذكر منها نسج الكتان وعصر الزيوت من السمسم وغيره من الحبوب الزيتية واستخراج الصبغات النباتية وصناعة الخمور والسكر من القصب وهذه الاخيرة عرفت ابتداءمن العصور الوسطى وتركزت معاملها في العاصمة . ولم تعرف مصر التاريخية منتجات رعوية تذكر . فمصر التاريخية كانت فقيرة في المراعي الطبيعية ولكنهاربت الماشية وحيوانات الحمل والماعز والأغنام والطيور والنحل كجزء مكمل للثروة الزراعية . ومهما قيل عن غنى مصر في الحيوانات في بعض عصور التاريخ فإن المصريين كانوا زراعاً في الأساس الاول واستعملوا بالحيوانات في العمل الحقلي والحصول على بعض الغذاء .

الفصل السادس عشر

التجارة

التجارة في شكل مبادلات بسيطة قديمة قدم الإنسان ولكنها في نفس الوقت تمثل البداية الأولى للتجارة كما نعرفها اليوم . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن معرفة المعدن وتطور صناعته كانت من أهم الأسباب التي دفعت المجتمعات البشرية القديمة إلى استبدال ما عندها بأشياء لا تصنعها أو غير موجودة في مواطنها . ولم يكن هذا التبادل عبر المسافات الطويلة ليتم بالجهد الفردي بل عن طريق الدولة وتحت اشرافها ومسئوليتها .

التاجر والتجارة الداخلية :

ولم تتحدث النصوص المصرية القديمة عن التاجر حتى نهاية الألف الثانية ق.م كما لم تقع أيدينا على أية قوانين مصرية قديمة تنظم التجارة . وإن دل ذلك على شيء فعلى أن التاجر كفرد لم يكن له في مصر مكانة اجتماعية مرموقة كما يمكن القول أنه لم يلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية لوطنه . ذلك لأن كل صنوف التجارة كانت في يد فرعون ابن الاله على الأرض . كان فرعون هو الزارع الأول والتاجر الأول يملك أرض مصر وما تنتجه كما ذكرنا ولا يأخذ الفلاح إلا ما تبقى من محصوله بعد دفع حق الدولة . لذلك لا عجب ان ضعفت

التجارة الداخلية لقلة ما في يد الشعب . وإذا عرفنا أن فرعون وكل من تلاه من الحكام كان محتكراً لكل المحاجر ومناجم الذهب والنحاس في الصحراء الشرقية وسيناء ولكل عمليات البناء الكبرى لأدركنا سبب هـذا الركود والضعف . كانت التجارة الداخلية تلك تمارس كما هي الحـال الآن في أسواق القرية الأسبوعية أو أسواق المدينة حيث يتبادل الناس المنتجات الغذائية والحيوانات الحية وبعض المصنوعات البسيطة [1] . ولكن رواجها او كسادها كان مرتبطاً في المقام الاول بمستوى مياه الفيضان .

احتكار التجارة الخارجية :

وإذا كانت التجارة الداخلية هي إلى حد كبير احتكاراً ملكياً فكذلك كانت التجارة الخارجية ولكن بدرجة أكبر . وكان لهذا الاحتكار أضراره وأخطاره إذ كان نشاط التجارة الخارجية وضعفها مرتبطين بقوة مصر الحربية والسياسية . كـما كانت تضعف وتنكمش بل وتنهار مع انهيار سلطان مصر أو الأسرة الحاكمة . ومهما يكن من شيء فقد كانت تجارة في الكماليات من فضة وبخور ومروزيت وأخشاب لبناء المعابد والقصور والسفن وعـاج وطيب إلى غير ذلك مما كان يطلبه رجال الدين وأهل الترف . وبمرور الزمن دخل تغيير على نوعية سلع التجارة وكمياتها كما سنرى .

وسائل النقل :

وكان النقل براً يتم على ظهور الحمير على الرغم من اقتناء الحصان منذ الألف الثانية ق . م ذلك لأن الحصان حتى نهاية العصور الفرعونية كان يستخدم في جر العربات الحربية . أما الجمل فلم يستخدم إلا في عصر متأخر ربما أيام البطالمة وإن كان المصريون قد عرفوه عند البدو في الصحارى القريبة . كان النقل

---

(١) ارمان ورانكة ـ ص ٥٧١

البري صعباً ومكلفاً ولكن النقل المائي كان بالقطع أقـــل كلفة لذا كانت البضائع تنقل على ظهر الماء حيثما أمكن . وكان النيل العظيم أفضل في هذه الناحية من دجلة والفرات وذلك لسهولة الملاحة فيه نزولاً وصعوداً . فهبوطاً يدفع التيار القوارب وصعوداً تقوم الريح الشمالية التي تهب بانتظام أغلب أيام السنة بدفعها نحو الجنوب . وربما لم يجد أي قارب صعوبة في الملاحة إلا في منطقة كورسكو حيث ينثني المجرى ويتعارض اتجاه التيار مع اتجاه الرياح . كما تصعب الملاحة الصاعدة عندمـــا تنحرف الرياح الشمالية لتصبح جنوبية قرب ساحل البحر المتوسط في بعض أيام الشتاء وعند هبوب رياح الخماسين الجنوبيـــة في فصل الربيع . اما الملاحة في منطقة الجنادل فكانت تؤجـــل حتى موسم الفيضان .

وقد صنعت أول القوارب المصرية من سوق البردى تربط حزما ويصنع منها أطواف لا تقوى على حمل أحمـــال ثقيلة . ثم تطورت إلى مراكب من خشب السنط والجميز صنعت بطريقة خاصة تقاوم الماء رغم رداءة الخشب . وقامت هذه القوارب بحمل السلع والناس بكفاءة على مـــاء النهر والبحيرات ولكنها لم تكن تصلح للملاحة في البحر فادخلت عليهـــا تعديلات تمكنهـــا من شق عباب البحر وحمل منتجات مصر إلى بلاد بونت Punt . ولكن السفر في هذه السفن كان مع ذلك محفوفاً بالخطر مما دفع إلى استيراد خشب الأرز من لبنـــان لصناعة سفن أفضل تصلح للسفرات الطويلة .

التجارة ونقل الحضارة :

ومنذ أن بزغ التاريخ وانتاج مصر يفيض عن حاجـة سكانها في أغلب السنين وينسج صناعها الكتان ويصنعون الحلي والأسلحة والجلود والأواني الجميلة ويعمل سادتها وكهنتها على استكمال أسباب الترف وإقامة الشعائر .فاستوردت المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والبخور وأنواع الطيب وسائر مطالب الدنيا

والدين . ومع التجارة والاتصال بأصحاب الحضارات في الشرق الادنى دخلت المؤثرات الحضارية الاجنبية إلى وادي النيل . وفي نفس الوقت خرجت من مصر اشعاعات الحضارة المصرية الاصيلة وخاصة إلى بلاد النوبة والشام وجزر البحر المتوسط .

التجارة الخارجية في العصر الفرعوني مع بلاد بونت :

كانت بلاد النوبة — رغم وجود الجنادل في النهر — أسهل البلاد التي يمكن الوصول إليها من مصر . قامت على الحدود بينها وبين مصر مدينة آبو التي سبق الإشارة اليها ، ثم سين (أسوان) في عصر متأخر كسوق يتبادل فيه تجار مصر والنوبة السلع والمنافع تحمل على ظهور قوافل الحمير وعلى متن القوارب النهرية . ومن بين ما كان يعرض الذهب والأحجار الكريمة والعاج وريش النعام وبيضه والطيب وجلد الفهود والقردة والماشية [١] . وقد خضعت بلاد النوبة من الشلال الأول حتى الرابع لمصر فترات طويلة من التاريخ (إبان عهد الدولة الحديثة مثلاً) وحكمها ولاة من قبل الفراعنة كان الواحد منهم يلقب « بالإبن الملكي لبلاد النوبة والقيم على البلاد الجنوبية » وقلد النوبيون أهل مصر في ملابسهم وفنهم وكتابتهم ، وفي عبادتهم أيضاً . وعلى الرغم من كل ذلك فلم تعتبر بلاد النوبة جزءاً أساسياً من المملكة المصرية . ومن ناحية أخرى يمكن القول أن شعب النوبة القديم هو الشعب الوحيد المتخلف الذي تحضر على أيدي المصريين ، إذ لم يتفق ذلك لبدو الصحراء الذين احتك بهم المصريون ولا لأهل « بونت » .

---

(١) بعض هذه السلع مثل المر والطيب وخشب الأبنوس كان يجلبه وسطاء من السودان وبلاد بونت (عن Breasted ص ١٣٧)

وكانت بلاد بونت [١] أو « الأرض المقدسة » من البلاد التي أنشأت مصر الفرعونية معها علاقات تجارية قويت أحياناً وضعفت أحياناً أخرى . وقدسبق أن أشرنا إلى طرق التجارة بين مصر وبلاد بونت ونضيف هنا أنه عندما كانت العاصمة هي منف (في عهد الدولة القديمة) كان الطريق إلى البحر الأحمر يبدأ من العاصمة مباشرة متجهاً نحو منطقة السويس الحالية ، حيث كانت تبنى السفن التي تقطع البحر الأحمر كله إلى الجنوب وتعود من نفس الطريق في وجه الريح وهو عمل لم يكن بالهين في ذلك العصر . ولكن منذ قيام الأسرة الحادية عشرة التي اختارت طيبة مقراً لملكها اتخذت البعثات التجارية طريق وادي الحمامات إلى تلك الأرض المقدسة . وقد ورد ذكر لرحلات تجارية إلى بلاد بونت في نصوص الدولة القديمة وخاصة منذ عهد ساحورع (حوالي ٢٤٧٠ ق.م).

غير أن التقارير المفصلة عن هذه الرحلات بدأت تترى منذ قيـــام الأسرة الحادية عشرة (حوالي ٢١٦٠ ق م) . « فحنو » رئيس بيت مـال ، « سعنخ كارع » يحدثنا عن رحلته إلى بلاد بونت ، فيقول : « بعثني جلالته لأجهز سفن ببلوس [٢] إلى بنت لجلب بخور جديد ... وقد خرجت من قفط ... ووصلت البحر (الأحمر) وصنعت هذه السفينة وجهزتها بكل شيء وزودتها بعدد وافر من الماشية والثيران والغزلان . وعندما رجعت من البحر قمت بما أمرني به الملك وجلبت له كل المنتجات التي وجدتها في نواحي الأرض المقدسة » . وقصة « الملاح الغريق » التي حفظت لنا على إحدى برديات الدولة الوسطى تصور ما تخيله الشعب المصري عن بلاد البخور . وما كان يسمى الملوك للحصول عليه منهـــا ، فهي

---

(١) ربما كانت بلاد بونت هي بلاد الصومال الحالية أو بلاد العرب السعيدة (عن Peake and Fleure p. 129

(٢) ربما يعني السفن التي كانت تستخدم في السفر الى ببلوس في لبنان أو السفن المصنوعة من خشب ببلوس

تتحدث بطريقة خرافية عن ملاح نجا وحده من سفينة مصرية طولها ٤٠ ذراعاً وتحمل ١٢٠ ملاحاً حطمتها موجة هائلة ، ثم ألقت بالملاح على جزيرة في عرض البحر تبعد عن طيبة سفر شهرين. وكانت تسكن الجزيرة حية عظيمة تمتلك كل ما هناك من توابل وحيوانات وأخشاب . وبعد أن كاد الملاح يفقد الأمل في العودة إلى مصر أنبأته الحية بأنه سيرجع إلى وطنه وسيرى أولاده وزودته قبل أن يرجع بملء سفينة ، من المر وزيت حكن ... ومن خشب تشبس وشماس ومن أصباغ الوجه وكرات كبيرة من البخور ومن أنياب الفيلة وكلاب الصيد وقردة ذات ذيول طويلة ... وسائر الأشياء الثمينة »[١] .

هذه الصورة الخيالية عن بلاد البخور تبددت في الدولة الحديثة. فقد أمرت الملكة حتشبسوت بعد رجوع حملة أرسلتها إلى بلاد پونت في عام ١٤٩٥ ق.م. أن يصور سكانها وقراها ونباتاتها وحيواناتها إلى جانب السفن التي أرسلت على جدران معبدها المعروف بالدير البحري حتى يتعرف الشعب على الحياة في تلك الأرض المقدسة . كل شيء في هذه الصور والنقوش يبدو غريباً بالنسبة لساكن وادي النيل ، النباتات والحيوانات وملابس الناس وأشكالهم . أما السفن التي أرسلت فخمس كبيره يحرك الواحدة منها ٣٠ مجدافـــاً وشراع ضخم شحنت بمختلف أشياء مصر الطيبة من نبيذ وجعة ولحم وفاكهة وخبز وبكثير من السلع التي يقبل عليها أهل پونت من خناجر وفؤوس للقتال وقلائد مختلفة الالوان. وتمت المقايضة ورجعت السفن إلى طيبة محملة إلى ارتفاع كبير بأشجار المـــر الخضراء وأكوام من صموغه وخشب الابنوس والعاج والذهب والاخشاب ذات الرائحـــة الزكية وأنواع البخور وأصباغ للعيون والقردة وكلاب الصيد وجلود الفهود والرقيق . وبعد ذلـك بثلاثة قرون أرسل رمسيس الثالث (١١٩٨ —

---

(١) إرمان ورانكه ص ٨٥٤

١١٦٧ ق.م) أسطولاً كبيراً الى البحر العظيم ليجلب بعضاً من ثروات بونت وكان من أهم ما حملته السفن في عودتها أشجار البخور الخضراء .

مع بلاد الشام :

وعلى الرغم من وجود آثار تدل على قيام التجارة بين مصر وبلاد الشام منذ أيام الدولة القديمة فلم تنشط وتعظم أهمية إلا في عهد الدولة الحديثة وخاصة بعد الحملات الحربية التي قام بها ملوك الاسرة الثامنة عشرة، فقد أصبح لمدخل مصر الشمالي الشرقي أهمية تجارية وعسكرية خاصة ، وانتشر على طوله العمران بل لقد أصبح شرق الدلتا إقليما حيوياً نمت فيه المدن وانتقلت إليـــه العاصمة في بعض الأوقات [١] . ونقلت المتاجر براً على ظهور الدواب وبحراً بالسفن تمخر عبـاب البحر المتوسط بين ثغور الشام وموانى مصر الشمالية كالفرماوتانيس . هل حمـل السوريون على سفنهم بعض التجارة المصرية عبر البحر؟ يبدو أن السوريين وأهل كريت اشتركوا في نقل تجارة البحر المتوسط .

ويتبين من دراسة الآثار الأدبية التي خلفتهـــا الاسرة التاسعة عشرة والاسرة العشرون أن مصر كانت تستورد من الشام الاخشاب والرقيق ومختلف الاسلحة والسفن والمركبات وأجزاءهـــا والعصي والآلات الموسيقية والاواني والجرار المختلفة وأنواع من الخبز والسمك والبخور والخيل والمـــاشية إلى غير ذلك من منتجات سورية والبلاد المتاخمة لها. وكانت مصر ترسل في مقابل ذلك المنسوجات الكتانية والاواني والحلي والتماثيل إلى جانب منتجات السودان. ومن الثابت أن هذه التجارة جلبت إلى اللغة المصرية ثروة من الالفاظ السامية وأدت إلى دخول بعض الآلهة السورية مصر. وعلى الرغم من ذلك فلم يعترف المصري القديم بتفوق

---

(١) Breasted, J. op. cit., p. 44

جاره الاسيوي عليه في مجالات الحضارة المختلفة وربما لإحساسه أنه أكثر منه تقدماً في نواحي الحياة المادية والمعنوية ولاعتقاده أنه أعرق منه حضارة .

وهناك من الأدلة الاثرية ما يثبت قيام علاقات تجارية بين مصر وجزر البحر المتوسط وخاصة جزيرتي قبرص وكريت منذ عهد الدولة القديمة. وقد لعب تجار كريت دوراً حضارياً لا يقل عن دور الفينيقيين وكانت لهم قوارب أفضل كما كانوا لا يرهبون السفر في عرض البحر . وقد وجدت في مقابر ومعابد الدولة الوسطى والحديثة أوان مستوردة من « البلاد الشمالية » وفي نفس الوقت كشفت عن كثير من آثار الحضارة المصرية في مدن كريت وقبرص ورودس وصقلية وفي جهات كثيرة من سواحل البحر المتوسط [١] . وكان أهم ما يرد من جزر البحر المتوسط الاواني المختلفة الانواع والاشكال والمصنوعات المعدنية من الفضة والذهب والنحاس . ويبدو أن أغلب ما كانت مصر تصدره إلى هذه الجزر كان أشياء مصنوعة كالاقمشة والمراكب المذهبة والتحف وغير ذلك مما اشتهرت به مصر .

تجارة مصر الخارجية أيام البطالمة:

وتشير كل الوثائق والنصوص التاريخية إلى أن تجارة مصر الخارجية في عهد البطالمة ازدهرت كما لم تزدهر من قبل. فقد استغل البطالمة موقع مصر وإمكاناتها الاقتصادية في إقامة علاقات تجارية على مجال عالمي امتدت بين الصين في الشرق واسبانيا في الغرب وبين الجزر البريطانية في الشمال ووسط إفريقية في الجنوب [٢] . ولكن من الحق القول أن الشعب لم يستفد من أرباح هذه التجارة

---

(١) Ibid. p. 335

(٢) Rostovtzeff, m. The Camb Anc. His., 1928, vol. 7. p. 134

كما استفاد الحكام فقد كان الملك هو التاجر الاول وكانت تجارته تحمل بين مصر وممتلكاتها كما كان يفرض على الواردات من البلاد الاجنبية مكوساً باهظة. وقد استمد البطالمة من ممتلكاتهم ما كان ينقص مصر من معادن وخامات طبيعية أخرى فضلاً عن بعض المنتجات الزراعية والصناعية والحيوانات الحية. فجلبوا النحاس والفضة من قبرص والاخشاب والنبيذ وزيت الزيتون من سوريا وفلسطين والاقاليم الجنوبية لآسيا الصغرى (قيليقية) والخيول من برقة والذهب وريش النعام والعاج وجلود التماسيح والعبيد من بلاد النوبة عن طريق النهر وبالبر. وفوق ذلك فقد كانت مصر تلجأ إلى هذه الممتلكات وقت المجاعات للحصول على الحبوب وخاصة من سوريا وقبرص.

ولكن من الثابت أن تجارة مصر مع البلاد الاجنبية وخاصة الشرقية كان لها المقام الاول فقد اهتم بها البطالمة أشد اهتمام فأنشأوا الموانيء على البحر الاحمر وأعادوا حفر القناة التي كانت تربطه بالنيل وشددوا الحراسة على الطرق التي تعبر الصحراء الشرقية لتربط البحر بالنهر واهتموا ببناء السفن البحرية والنهرية واعتنوا بزراعة القمح الذي أصبح من أهم صادرات مصر إلى العالم الخارجي. هذا وقد لعبت الإسكندرية دوراً حيوياً في ربط مصر بالعالم الخارجي. فقد خرجت منها معظم الصادرات وانتهت إليها معظم الواردات[١]. وعاونتها في استقبال بقية التجارة الخارجية بلوزيوم ومويس هورمسز وليكوس ليمن وبرنيك وسيأتي ذكرها كلها فيما بعد. على أية حال فقد ساعد على رواج التجارة البحرية في العصر البطلمي بصفة عامة انتشار المنارات على طول السواحل وازدياد المعرفة بالموانيء المختلفة وكبر حجم السفن (وصلت حمولة بعضها إلى ٥٠٠٠ طن) وقدرتها على الملاحة في عرض البحر ليلاً ونهاراً.

---

(١) Rostovtzeff, m. A. History of Ancient World. Oxford 1936, p. 357.

في هذا العصر أنشأت مصر علاقات تجارية قوية مع بلاد بحر إيجه والبحر الأسود وبلاد الحوض الغربي من البحر المتوسط كذلك مدت صلاتها التجارية نحو الشرق إلى جنوب الجزيرة العربية والهند ونحو الجنوب إلى السودان ووسط إفريقية . كانت الحبوب والأواني والمنسوجات والورق هي أهم صادرات مصر إلى بلاد الإغريق وآسياالصغرى وإيطاليا وصقلية هذا إلى جانب بعض منتجات النوبة والسودان وجنوب بلاد العرب والهند . ولكن واردات مصر من هذه الأقاليم كانت أقل في قيمتها من صادراتها . كانت قائمة الواردات تشمل على أية حال بعض أنواع النبيذ وزيت الزيتون والصوف وكميات قليلة من العسل والسمك المجفف والجبن والمرمر والحديد والفسفور (من صقلية) والخيول من قرطاجة وصقلية.ويرجح أن مصر كانت تحصل من قرطاجة كذلك على القصدير البريطاني .

وقد عمل البطالمة بمختلف الوسائل على التحكم في تجارة السودان وبلادبونت وبلدان جنوبي آسيا لما كانت تجلبه من المكاسب الضخمة. وكان أهم ما يميز هذه التجارة الجنوبية والشرقية أنهـا تجارة كماليات من تلك التي كانت تقبل عليها الطبقة المترفة في مصروبلادحوض البحر المتوسط[1]. نذكر على سبيل المثال العطور والبخور والمر والقرفة والعاج من جنوب الجزيرة العربية وبلاد بونت والأرز والأصداف واللآلىء والأصباغ والنباتات الطبية والقطن والحرير والاخشاب النادرة والعاج والبهار من الهند والاقاليم المجاورة . كذلك تتحدث النصوص التاريخية عن الفيلة الحية التي كانت تأتي بها السفن من بـلاد من الحبشة لاستخدامها في جيوش البطالمة[2] . ولم تكن تجارة السودان تأتي عن طريق

---

(١) راجع Bevan,E. A. History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, London 1914.

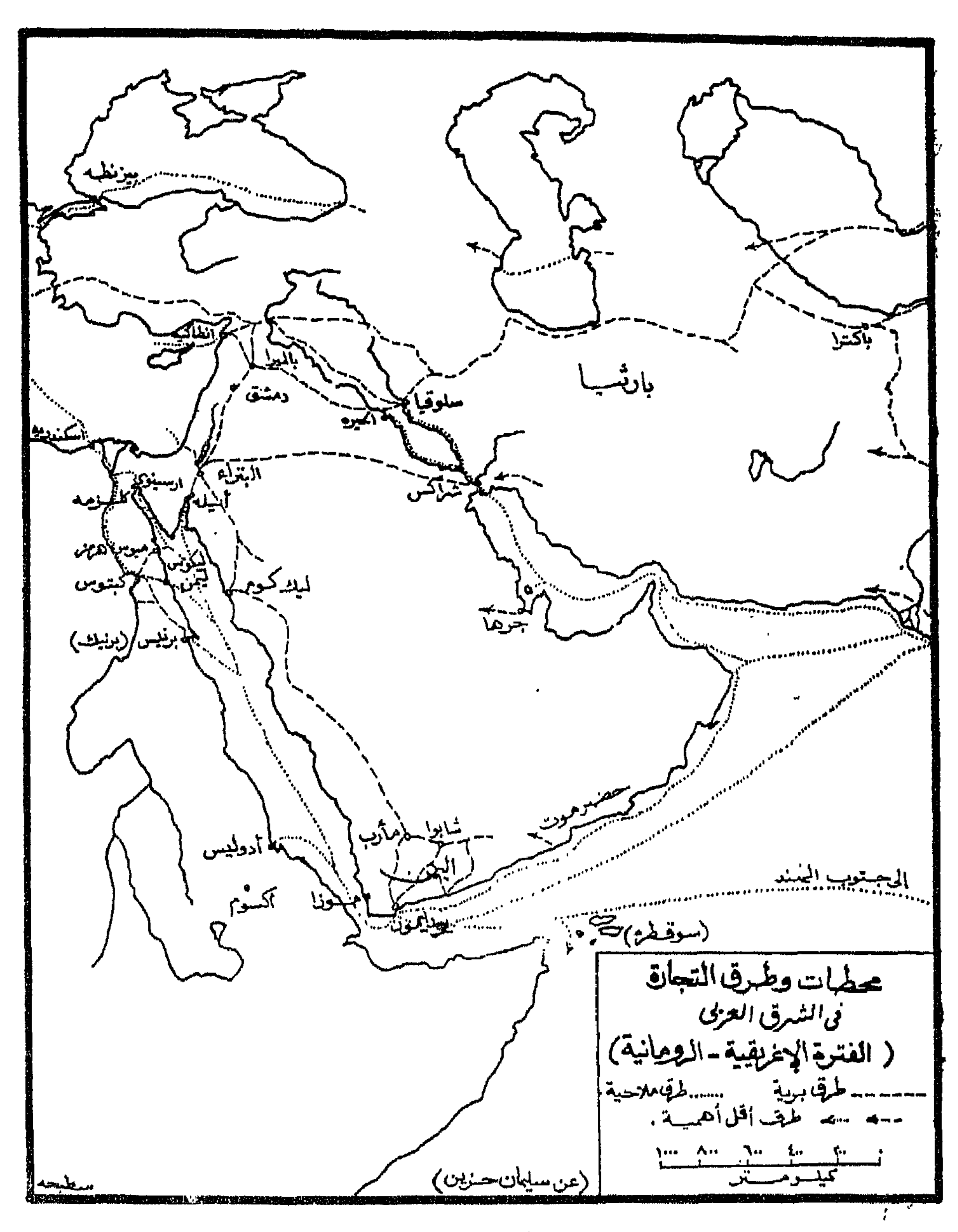
(٢) Mahaffy,J. A. History of Egypt. London, 1890, p. 87.

النهر فقط بل اشترك في حملها قوافل سارت بها في طريق عرف فيما بعد بدرب الاربعين .

اما تجارة الشرق فكانت تسلك أثناء العصر البطلمي وبعده ثلاثة طرق رئيسية (شكل ٤٣) وجهتها البحر المتوسط : الطريق الشمالي وكان يتجه من أواسط آسيا نحو بحر قزوين فالبحر الاسود فبحر مرمره ؛ الطريق الاوسط وكان أهمها خلال القرن الثالث قبـــل الميلاد يبدأ من الهند ثم يتجه بحراً أو براً إلى أرض العراق ومن ثم يتجه نحو الغرب إلى دمشق وصور أو إلى انطاكية ومنها إلى إفسوس Ephesus (على الساحل الغربي لآسيا الصغرى).وقد ظل هـــذا الطريق محتفظاً بأهميته حتى استولى البارثيون Parthians (الفرس) على بابل في منتصف القرن الثالث ق.م فقل شأنه ؛ الطريق الجنوبي وهو طريق بحري في معظمه ازدادت أهميته بعد سقوط بابل في أيدي الفرس. كان يبدأ من الهند ثم يتجه إلى موانى جنوب الجزيرة العربية وخاصة يودايمون (عدن) أو إلى الجزر القريبة كجزيرة سوقطره.وهناك تفرغ المراكب الهندية حمولتها ليتسلمها الأعراب ويقوم هؤلاء بنقلها إما بالقوافل من سبأ إلى أيلة فالبتراء من بلاد النبط ومن ثم إلى دمشق وانطاكية وغزة أو بالسفن التي تبحر شمالاً في البحر الأحمر حتى نهايته أو التي تنتهي رحلتها عند أحد الموانى الصغيرة التي نشأت على جانبي البحر مثل ليوكي – كومي على الساحل الشرقي وبرنيك وليكوس ليمن عـلى الساحل الغربي ثم تقوم وسائل أخرى بنقل منتجات الشرق إلى ساحل البحر المتوسط . غير أن نقل التجارة على مياه البحر الاحمر لم يكن يستهوي التجار أول الامر فقد فضلوا طريق البخور البري عبر بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها على الرغم من فداحة تكاليفه [١] .

---

(١) راجع في هذا الموضوع Huzayyin, S. Arabia and the Far East. Cairo 1942.


محطات وطرق التجارة
فى الشرق العربى
(الفترة الإغريقية - الرومانية)
طرق برية
طرق ملاحية
طرق أقل أهمية .
٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠
كيلومتر
(عن سليمان حزين)
بيزنطه
انطاكية
باليرا
دمشق
سلوقيا
الحيره
بارثيا
باكترا
البتراء
شراكس
أيلة
ارسينوى
لوكى كومى
ليوكى كوم
جرها
كبتوس
برنيس
(برنيك)
حضرموت
مأرب
شابوا
أدوليس
أكسوم
موزا
إلى جنوب الهند
(سوقطرة)

شكل (٤٣)

وقد وجد البطالمة أن سيطرتهم على تجارة الشرق وانتزاعها من أيدي النبطيين لا يمكن أن يتأتى إلا باستيلائهم على منافـــذ الطرق التجارية في آسيا الصغرى وسوريا وسواحل البحر الأحمر وقـــد تم لهم ما أرادوا في أول عهدهم ولكن لمـــدة قصيرة فقد زالت سيطرتهم على الطريقين الشمالي والاوسط في عـــام ١٩٨ – ١٩٧ ق . م [١] وإزاء ذلك حول البطالمـــة كل عنايتهم واهتمامهم إلى الطريق الجنوبي . والحق أن هذه الطريق كانت تلقى منذ بدء العصر البطلمي اهتماماً أكثر من غيرها من الطرق ربما لسهولة السيطرة عليها . ومن مظاهر هذا الاهتمام إرسال البعثات الكشفية إلى البحر الاحمر ثم المحيط الهندي لمعرفـــة سواحلها وشعوبها وموارد ثروة البلاد المطلة عليها . وإقامة الموانيء على طول سواحل البحر الاحمر نذكر منها أرسنوى التي قامت عند نهاية القناة التي ربطت النيل بالبحر الاحمر وميوس هورمـز وليكوس ليمن وبرنيك (برنيس) وغيرها على سـواحـل البحر الجنوبية [٢] وإصلاح الطرق التي كانت تربط هـذه الموانى بقفط وكاينو بوليس (قنا) Caenopolis مخترقة بعض وديان الصحراء الشرقية وتأمينها وتوفير الماء بها . وقد أدى ذلك كله إلى إزدياد نصيب هذه الطريق من تجارة الشرق .

كانت هذه التجارة الشرقية على أية حال تنقل إلى الإسكندرية بعد وصولها إلى موانيء البحر الأحمر بطريقين : الطريق الأول وهـــو الأهم طريق البحر والنهر معاً ويبدأ من أي من موانيء سواحل البحر الأحمر السابقة مخترقاً وديان الصحراء الشرقية إلى ثنية قنا ومن ثم يتبع النهر وفروعـه إلى الإسكندرية . الطريق الثاني هو الطريق النهري المباشر ويبدأ من هيرو بوليس Heroopolis (أحد الموانى التي أنشأها البطالمة) إلى الشمال من البحيرات المرة (شكل ٣٧)

---

(١) ابراهيم نصحي جزء ٢ ص ٣٩٧

(٢) راجع Kammêrer . A . La Mer Rouge. Tome . I . pp . 65 - 80

ومنها تبحر السفن النهرية في القناة التي ربطت النيل بالبحر الأحمر حتى نهايتها ومن ثم إلى فروع النيل الغربية حتى الاسكندرية . وقد توقف هذا الطريق الأخير في أواخر حكم البطالمة بسبب انسداد تلك القناة وعدم صلاحيتها للملاحة. وفي الاسكندرية كان جزء من منتجات الشرق يجهز ويصنع قبل استهلاكه محلياً أو تصديره إلى عالم البحر المتوسط .

ولم تقتصر صادرات مصر إلى عالم البحر المتوسط على منتجات الشرق المجهزة وغير المجهزة بل صدرت مصر أيضاً سلعا مصرية كانت أهمها الحبوب والورق والمنسوجات الكتانية . ومن المؤسف أن معلوماتنا عن هذه الصادرات قليلة متناثرة . وكل الذي نستطيع ذكره هو أن تجارة الحبوب لقيت اهتماماً خاصاً من جانب البطالمة لارتفاع أسعارها في بلاد الإغريق أكبر عملاء مصر . ويقدر أن ما كانت تصدره مصر سنوياً من حبوب بلغ ٢ مليون أردب في المتوسط[١] . وقد أشرنا في مكان آخر إلى اهتمام البطالمة بزراعة الحبوب وخاصة القمح ومحاولتهم زيادة الرقعة الزراعية وزيادة الانتاج بمختلف الطرق لضمان المكاسب الضخمة التي كانت تتدفق من تجارة الحبوب فتزيد من ثرائهم وقوتهم . غير أن هذه التجارة كان يحد من نشاطها أحياناً المنافسة التي كانت تلقاها من البلاد المنتجة للقمح كصقلية وجنوب ايطاليا وجنوب روسيا مما حدا بالبطالمة إلى الإلتجاء إلى الدبلوماسية لكسب العملاء . وأغلب الظن أن هذه المنافسة الأجنبية قويت في أواخر هذا العهد نتيجة لضعف مصر ولتدهور انتاج الحبوب على إثر الإضطرابات التي تعرضت لها الدولة. وقد صدرت مصر إلى البلاد الجنوبية (الحبشة والسودان والصومال) والشرقية كذلك كثيراً من منتجاتها الصناعية كالمنسوجات التي تناسب كل ذوق والآنية الزجاجية من صنع الاسكندرية والزيوت والأسلحة وكذلك أنواع الأنبذة المستوردة من بلاد البحر المتوسط .

---

(١) ابراهيم نصحي – تاريخ مصر في عهد البطالمة ج ٢ ص ٦٠٧

التجارة في العصر الروماني والبيزنطي :

ولم يتغير كثير من معالم تجارة مصر الخارجية في الجزء الأكبر من العهدين الروماني والبيزنطي فقد ظلت الإسكندرية سوقاً ومخزناً للبضائع الشرقية والغربية وميناء مصر الأول بل أكبر مواني البحر المتوسط بعد روما وبيزنطه. كانت دائبة الحركة والنشاط . وقد تمثل هذا النشاط في مرفأيها البحري والبحيري (على بحيرة مريوط) [1] وظلت التجارة الشرقية التي صارت تشمل الكماليات والمواد الخام معاً تمر بوادي النيل عن طريق مواني البحر الاحمر [2] . ثم يقوم وسطاء من الإسكندرية بنقلها إلى أجزاء الامبراطورية الرومانية وينبغي أن نشير إلى أن جزءاً من التجارة الشرقية كان يصل إلى الإسكندرية عن طريق قناة النيل ـ البحر الاحمر القديمة التي أعاد تراجان (القرن الثاني م) حفرها وتعميقها كذلك أنشأت مصر علاقات تجارية مع مملكة مروي Meroe في شمال السودان ومملكة أكسوم (الحبشة) ؛ عن طريق هاتين المملكتين حصلت مصر على منتجات وسط القارة الإفريقية .

أما تجارة مصر مع جيرانها في الشرق والغرب فقد ظلت نشطة وخاصة مع سوريا [3] . فكانت صادرات مصر إلى سوريا كثيرة من أهمها القمح والمنسوجات والورق والاواني الزجاجية ومنتجات الشرق والجنوب المصنعة من عطور وتحف فنية ومجوهرات . كيفما كان الامر فإن مصر في هذين العهدين لم تكن دولة مستقلة ذات سيادة كما كانت في الجزء الاكبر من العصور السابقة وإنما كانت ضيعة لروما ثم لم تلبث أن صارت ضيعة لبيزنطة . وقد ترتب على ذلك أن

---

(١) وهيب كامل - استرابون في مصر ص ٥٨

(٢) ظهرت القلزم Clysma على رأس خليج السويس في العهد الروماني

(٣) Rostovtzeff ·M.The Social and Economic History oftheRoman Empire . Oxford , 1926 , p .147.

صارت كميات الحبوب الهائلة التي كانت تصدرها مصر إلى عالم البحر المتوسط في العصر البطلمي من قبيل الجزية إبان حكم روما وبيزنطة . بل إن اقتصاديات مصر كلها سخرت لصالح الإمبراطورية (الشرقية والغربية) مما أدى إلى اضطراب الأحوال في أواخر حكم الدول البيزنطية .

وفي النصف الاول من القرن السابع الميلادي كانت أمور مصر قد ساءت وضعفت فيها سلطة الدولة الرومانية الشرقية ضعفاً شديداً . لذلك لم يكن من الصعب على جيش عمرو بن العاص القليل العدد والعدة أن يحتل مصر ويضمها إلى حوزة الإسلام . وبدخول الاسلام مصر فترت التجارة الخارجية المباشرة بينها وبين العالم المسيحي في أوربا وآسيا بسبب التعصب الديني [1] بينما نشطت تجارتها مع بقية العالم الإسلامي وبلاد الشرق الاقصى ووسط أفريقية . في هذه القرون الاولى للإسلام في مصر قام وسطاء تجاريون من الجاليات الاجنبية في الاسكندرية ومن اليهود الراذانية بنقل التجارة بين الشرق والغرب .

وقد حدثنا ابن خرداذبة عن هؤلاء اليهود ، وذكر أنهم يتكلمون العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والاندلسيه والصقلية « وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار (كانت ميناء المدينة) وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها

---

(١) Heyd, W. Histoire du Commerce du Levant au Moyen âges. Leipzig 1885, vol. p. 51

للروم ، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجية فيبيعونها هناك [١] .

غير أن حركة التجـــارة في الإسكندرية فـــترت قليــلا عن ذي قـبل فقد نقل منها مقر الحكم إلى حيث تلتقي مصر السفلى بمصر العليا، وتغير توجيه مصر الجغرافي من الشمال إلى الشرق والجنوب على الاقل في القرون الاولى من حكم العرب لمصر . ولكن بالقياس إلى بقية المدن المصرية في العصور الوسطى ظلت الاسكندرية على الرغم من انكماش رقعتها ومنافسة دمياط لهــا أيام الايوبيين ، من أكثر مدن مصر تجارة ، بل ربما كانت أكثرها تجارة قبل قيام القاهرة المعزية في القرن العاشر الميلادي .

غير أنه يلاحظ أن الإسكندرية تميزت خلال جزء كبير من العصور الوسطى بالسلبية التجارية فكانت تعمل في نقل تجارة الاجانب أكثر من اشتغالها بتبادل التجارة لحسابها الخاص مع العالم الخارجي [٢].

وليس أدل على ذلك من تحول المدينة إلى مخزن كبير لمتاجر حوض البحر المتوسط والشرق الاقصى وازدحامها بكثير من تجار البندقية والقسطنطينية والمغرب ، ويؤيد ذلك أيضاً وصف بنيامين التطيلي للمدينة في القرن الثاني عشر . فقد وصفها بأنها السوق التجاري لكل الامم يأتي اليها التجار من أغلب ممالك ومدن أوربا (أحصى ٢٩ مدينة ومملكة أوربية) ومن بلاد المسلمين وبـــلاد الحبشة والهند والصين واليابان وان لكل طائفة منهم فندقاً خاصاً [٣] .

التجارة في العصر العربي :

وكان من الطبيعي أن تنشط صلات مصر بالعالم الإسلامي منذ بدء العهد

---

(١) ابن خرداذبة كتاب المسالك والممالك ـ ليدن ١٨٨٣ من ص ١٥٣ - ١٥٤

(٢) أرشيبالد لويس ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ـ ترجمة أحمد محمد عيسى ـ القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٥٨ .

(٣) Adler, M. The Itinerary of Benjamin of Tudela. Iondon 1907. p. 75

العربي وقد شجع على ذلك حرية انتقال التجار المسلمين في ربوع الدولة الاسلامية والتي امتدت من السند شرقاً إلى المحيط الاطلسي غرباً ، ومن جبال طوروس في الشمال إلى أسوان في الجنوب والحج إلى مكة وقدرة عرب الصحراء على الحركة السريعة ، هذا فضلاً عن موقع مصر المتوسط في العالم الإسلامي لذلك نجد مصر وقد دعمت علاقاتها التجارية مع سوريا والحجاز وشمال إفريقية والاندلس في فجر الإسلام. وقد اتصلت سوريا بمصر بالطريقين القديمين : طريق البر وطريق البحر ، وكانت طريق البر تبدأ من العاصمة (الفسطاط ثم القاهرة) ثم تسير جهة الشمال الشرقي متتبعة أطراف الدلتا الشرقية ، ثم تعبر برزخ السويس إلى شمال سيناء ، حيث تمر بالعريش ورفح ومن ثم إلى الرملة . وهنا تتفرع إلى فرعين فرع يتجه جنوبا إلى مدن الحجاز وفرع يتجه شمالاً إلى دمشق [1] . أما طريق البحر فكانت تبدأ من تنيس Tennis أو الفرما أو دمياط ويتجه نحو عكا أو بيروت أو طرابلس ومن ثم ينقل جزء من البضاعة بالبر إلى دمشق ومنها عبر الصحراء السورية إلى العراق . ويحدثنا المقريزي أن العراق كان يحصل من أقمشة مصر في عهد الدولة الفاطمية ما كانت تزيد قيمته على ٣٠ ألف دينار [2]

وقد اضطربت التجارة على هاتين الطريقين إبان غزوات الصليبين واحتلالهم لسواحل الشام ولكنها رجعت الى طرقها الأولى بعد طرد الصليبين من الشرق العربي . كانت صادرات مصر الى بلاد الشام على أية حال متنوعة فقد حملت السفن والقوافل كميات كبيرة من القمح [3] (في سني الجفاف والأرز والعدس والفول والنيلة والسكر والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية والمصنوعات الجلدية والأسماك المملحة [4] .

---

(١) ابن خرداذبة ـ ص ٧٩

(٢) المقريزي ـ الخطط ـ جزء أول ص ٦٧٧

(٣) بلغت ١٢٠ ألف أردب في بعض السنين (عن المقريزي ـ جزء أول ص ٤٦٥) .

(٤) المقدسي ـ كتاب أحسن التقاسيم ـ ليدن ١٩٠٦ ـ ص ٢٠٥

ويمكن أن نستخلص من الأرقام التي ذكرها جيرار والتي تكشف عن كمية صادرات مصر السنوية الى سوريا في أواخر القرن الثامن عشر (وهي فترة تدهور فيها اقتصادمصر إلى أبعد مدى) مركز وحجم التجارة المصرية السورية في العصور الوسطى . يذكر جيرار أن مصر كانت تصدر سنوياً إلى سوريا ٣٠ ألف أردب من الأرز و١٠٠٠ أردب من الفول وحوالي ٣ آلاف أردب من العدس، ١٠٠ قنطار من السكر وحوالي ١٠٠٠ "بالة" من الملابس الجاهزة (١) . وفي مقابل ما كانت مصر تصدره الى سوريا استوردت منها الفواكه المختلفة ، وزيت الزيتون والحبوب (في سني القحط) والجبن والزبد والشمع والقطن خاماً ومنسوجاً والأقمشة الحريرية والكتانية فضلاً عن بعض منتجات الهند القادمة عن طريق العراق .

وأدت مصر في أول عهدها بالإسلام جزية الى الخليفة في مكة كانت حبوباً وطعاماً نقلتها السفن من العاصمة إلى القلزم في القناة التي حفرها عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وسماها « خليج أمير المؤمنين » . وربما مر في القناة أيضاً بعض من التجارة الشرقية العابرة وبعض من تجارة مصر الى جنوب شرقي آسيا . ولكن جريان السفن في الخليج لم يدم طويلاً فقد أمر الخليفة المنصور (القرن الثامن م) كما سبق أن أشرنا بطمه حتى لا تحمل فيه الميرة إلى ثوار المدينة فانتهى أمره، وحلت محله طريق القوافل امتدت احياناً الى ايلة على رأس خليج العقبة ومنها الى الحجاز . وقد استتبع تغير الأحوال السياسية فيما بعد قيام التجارة بــدل الجزية . فصدرت مصر الى جدة (وصنعاء والشحر) أنواعاً من المواد الغذائية والحبوب والمصنوعات الجلدية والمنسوجات واستوردت من نفس هذه الثغور منتجات الهند وفارس والعراق القادمة اليها بالبر والبحر .

---

(١) Girard, P. S. Memoire Sur L'agriculture l'industrie et Le commerce de l,Egypt. Desc. de l'Egy. Etat. Mod. Tom. Sec. p. 647.

وارتبطت مصر بشمالي افريقية بطرق برية وبحرية.فمن الاسكندرية حملت السفن القمح (في سني الجفاف)والنيلة والسكر والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية الى موانيء طرابلس والمهدية وتونس وطنجة وغيرها من موانيء شمالي إفريقية وعادت تحمل الزبد والعسل والشمع وزيت الزيتون وبعض الملابس الصوفية[1] . وكان أهم الطرق البحرية الطريق الذي ساحل البحر المتوسط ثم مر محاذياً لأطراف الدلتا الغربية لينتهي عند الجيزة ونقلت عليه واردات مصر من الحيوانات الحية وسارت عليه القوافل حاملة بعض المنتجات المصرية إلى المغرب العربي (ابن خرداذبة ص ٨٥) .

إلى جانب هذا الطريق الساحلي كانت هناك طرق داخلية . تمر بواحات الصحراء الغربية ومن ثم إلى وادي النيل.وقد قام كثير من سكان هذه الواحات بالوساطة التجارية بين الشمال والجنوب والشرق والغرب.وينبغي أن نشير هنا الى أن بلاد المغرب كانت حلقة اتصال بين مصر وبلاد غانة والسنغال وحوض النيجر فقد كانت القوافل تخرج من سجلماسة لتخترق الصحراء الكبرى الى غرب افريقية ثم تعود بالتبر وغيره من منتجات تلك المناطق ثم يحمل بعضها الى مصر [2]

وتبادل الأندلس ومصر المنافع فقد صدرت مصر إلى الأندلس نفس منتجاتها التي كانت ترسلها إلى شمال إفريقية واستوردت الدقيق والملابس وزيت الزيتون

---

(١) كان من أثر غزوة قبائل بني هلال لشمالي افريقية في القرن ١١ م أن كسدت التجارة لفترة قصيرة بين أقاليمه وبين مصر بسبب التخريب والتدمير والاضطراب الذي حل بوسائل الري وبالمدن والصناعة .

Bovill. E. Caravans of the Old Sahara. London 1933, p. 43.(٢)

والفواكه المجففة [١] . ويمكن أن نستدل على رواج التجارة بين البلدين مما كتبه أحد وزراء عبد الرحمن الثالث (في القرن العاشر الميلادي) «وإننا نشهد طوائف من التجار قادمة من أقطار أجنبية مختلفة وعلى الأخص من مصر . كذلك يأتي التجار من الجزر ومن أقطـار سحيقة يجلبون العطور والأحجار الكريمة ، وكل الأشياء الثمينة التي يقتنيها الأمراء والنبلاء ، ويحضرون كذلك معظم المنتجات المصرية التي يحتاج إليها الفرد [٢] » .

واستمرت تجارة مصر مع بـــلاد النوبة وأواسط إفريقية وظلت أسوان هي السوق التجارية التي تعرض فيها منتجات مصر والنوبة وأواسط أفريقية بـل والهند. غير أن التجارة مع بلاد النوبة والسودان لم تنشط إلا بعد القرن العاشر الميلادي حينما كثرت هناك وفود التجار العرب وحينما أقاموا لهـم فندقاً خاصاً بهم . فيحدثنا المقريزي أن التجار العرب أصبح لهم في القرن الحادي عشر فندقاً في مدينة علوة (قرب موضع الخرطوم) عاصمة مملكة علوة . لكن يلاحظ أن أسوان قل شأنها بسبب ما أصابها من تدمير أثر الفتن التي حدثت فيها، فتحولت عنها طرق التجارة ابتداء من القرن الحادي عشر إلى قوص [٣] . وعلى أية حال فقد جلب التجار إلى مصر من سلع النوبة عن طريق النهر الرقيق والماشية والعاج والذهب وحملوا إلى النوبة وأواسط إفريقية منتجات مصر من الحبوب ومختلف

---

(١) ابن حوقل ـ كتاب المسالك والممالك ـ ليدن ١٨٧٢ ص ٢٥ .
انظر كذلك Heyd. W. op. cit., vol. II, pp. 30 - 32

(٢) Ibid, vol. I, p. 48.

(٣) كف الحجاج أيضاً عن الذهاب الى أسوان ومنها إلى جدة عن طريق عيذاب وفضلوا طريق قوص ـ القصير أو قوص ـ عيذاب وخاصة وقت الحملات الصليبية .

(راجع هذه النقطة في « سفرنامه » لناصر خسرو ص ١٧٧ ، تقويم البلدان لأبي الفدا ص ٨٥) .

المصنوعات وخاصة الملابس. إلى جانب النهر كانت هناك طرق برية أشرنا اليها فيما سبق وبينا أن أهم طريق هو الذي كان يسمى « بدرب الأربعين » يبدأ من قلب كردوفان ثم يتجه في البرية إلى أسيوط ماراً بالواحة الخارجة ومن أسيوط تتابع بعض القوافل سيرها إلى العاصمة . ولم تتوقف التجارة على هـذا الطريق الا بعد إلغاء تجارة الرقيق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وقد ترك لنا جيرار (القرن الثامن عشر) وصفاً للرحلة على هذا الطريق وما كانت تحمله القوافل. يقول إن القافلة القادمه من كردوفان كانت تتكون من ٤٠٠٠ جمل يحمل ٥٠٠ منها فقط المتاجر (ريش النعام والصمغ العربي والعاج والمرضى من الرقيق) والباقي يحمل الماء والعلف والمسافرين والتجار . ويمكث التجار في مصر عادة ثمانية أشهر يبيعون خلالها بضاعتهم ويشترون بثمنها بعض منتجات مصر من المنسوجات والحبوب والسكر وبعض الواردات الأوربية ثم تعبأ لتحملها الإبل عند عودتها الى السودان [1].

التجارة العابرة ونهايتها :

ولم تدم القطيعة بين مصر والعالم المسيحي طويلاً فقد بدأت العلاقات التجارية تعود الى حالتها الطبيعية في أوائل حكم الدولة الفاطمية وقويت أواصرهـا بعد الحروب الصليبية . وكان أهم ما استوردته مصر من ممالك ومدن أوربا ومن الدولة البيزنطية الأخشاب والحديد والقار وهي مواد تفتقر إليها مصر وتحتاج اليها في بناء الأسطول. ورغم معارضة البابا لقيام مثل هذه التجارة وتحذيره المدن الإيطالية والاسبانية من مد مصر بهذه المواد الحربية فقد عقدت الاتفاقات التجارية مع هذه المدن واستمر ورود الحديد والخشب والقار والنحاس والرصاص لدور صناعة السفن في القاهرة والاسكندرية ودمياط .

---

(١) Girard, p. S. Op. cit., p. 630.

وكان التجار الأوربيون يأتون الى موانى مصر وعاصمتها للحصول على متاجر الشرق وبعض المنتجات المحلية (الشبة ، النطرون ، الزمرد ، النيلة ، الأفيون ، السكر ، الأرز ، العدس) وفي نفس الوقت يصدون ببضاعتهم (منسوجات صوفية وحريرية ، صابون ، آنية زجاجية أسلحة ، فواكه مجففة ، مصنوعات خشبية ، فواكه وفراء إلخ) إلى وسطاء ينقلونها عبر أرض مصر إلى بلادالشرق الأقصى وأواسط إفريقية . وقد نشطت حركة التجارة العابرة نشاطاً عظيما بعد انتهاء الحروب الصليبية[1] . ولعبت البندقية دورها في نقل وتسويق هذه المتاجر الشرقية بين دول أوربا وبقية العالم المسيحي في آسيا الصغرى وقد نافستها في ذلك أمالفي وجنوة وبيزة ومرسيليا .

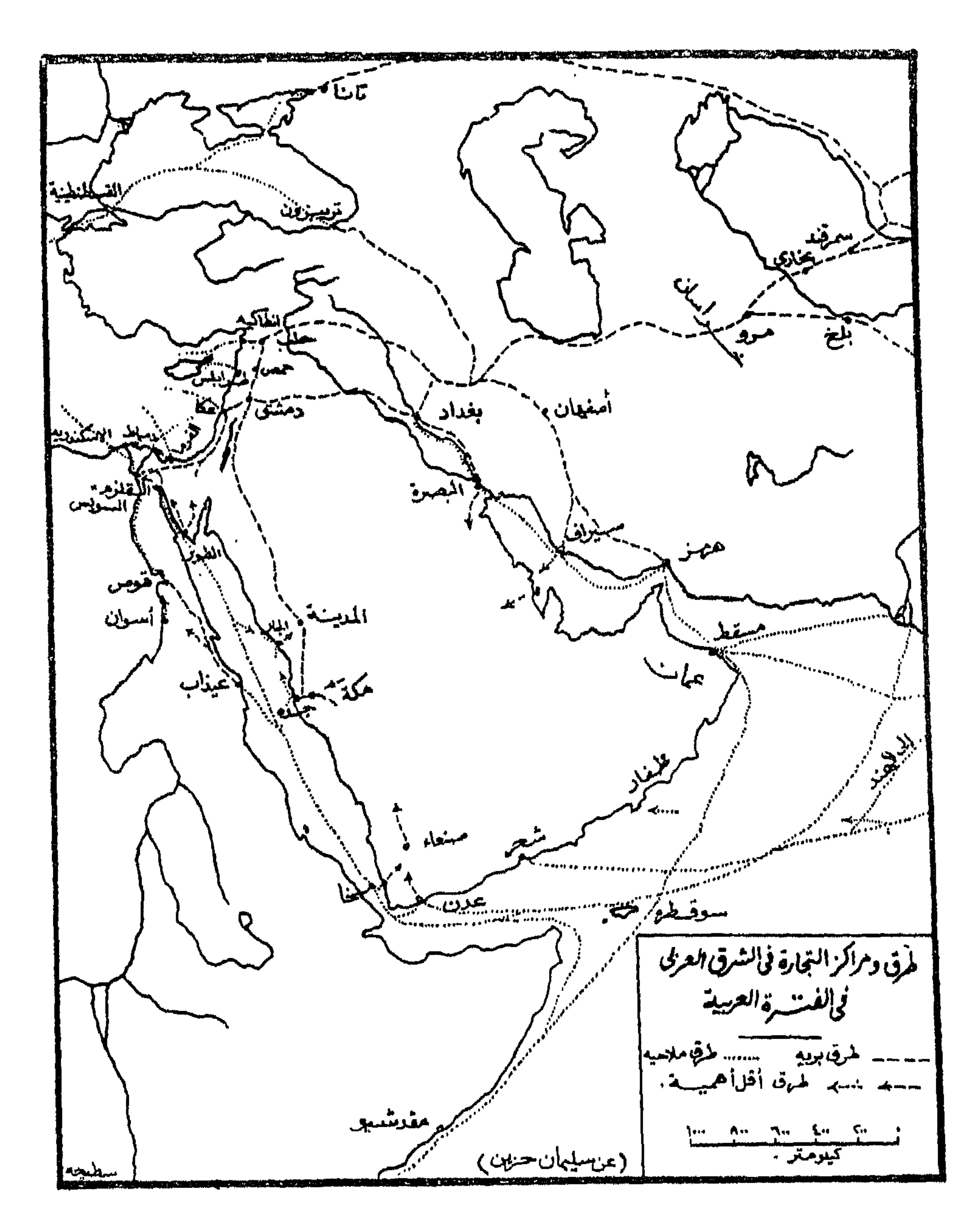
وكانت تجارة الشرق تحملها السفن الهندية إلى عدن (شكل ٤٤) ثم يقوم وسطاء من مسلمي جنوب الجزيرة العربية (عرفوا بالكرامية في أواخر العصر الفاطمي) بنقل هذه المتاجر في سفنهم الصغيرة إلى القلزم ثم تحول الطريق تدريجياً في القرن الثامن إلى القصير ثم تحول عنها ابتداء من القرن الحادي عشر إلى عيذاب[2] . وفي أواخر العصور الوسطى تحول الطريق مرة ثانية إلى الشمال إلى السويس والطور[3] . وقد اشتهرت عيذاب دون بقية موانى البحر الأحمر خلال العصور الوسطى . ويرجح أنها كانت تستخدم قبل القرن العاشر كفرضة يسافر منها بعض الحجاج إلى مكة ثم أخذت في القرن الحادي عشر تجذب الحجاج والمتاجر بكثرة حتى ازدهرت وزاد نشاطها وخاصة بعد استيلاء الصليبيين على ايلة سنة ١١١٦ م . فقد تحول إليها ما بقي من تجارة مصر مع بلاد العرب عن طريق

---

(١) Heyd, W. Op. cit., p. 378.

(٢) Hannotaux, G. Histoire de la Nation Egyptienne, Paris 1931, Tome I, p. 337.

(٣) Ibid, p. 347.


طرق ومراكز التجارة في الشرق العربي
في الفترة العربية
طرق بريه
طرق ملاحيه
طرق أقل أهمية
كيلومتر
(عن سليمان حزين)
بغداد
البصرة
دمشق
المدينة
مكة
جدة
صنعاء
عدن
مسقط
عمان
هرمز
سيراف
أصفهان
مرو
بلخ
سمرقند
بخارى
حلب
أنطاكية
القسطنطينية
طرابزون
تانا
الإسكندرية
القلزم
السويس
قوص
أسوان
عيذاب
ظفار
الشحر
سوقطرة
مقدشيو
الهند

(شكل ٤٤)

إيلة . وقد رأى ابن جبير عيذاب عندما كانت في أوج عظمتهـــا عام ١١٨٣ م فكتب يقول «عيذاب من احفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهنـــد واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة وكان لأهلها جعل (أجر) معلوم على كل حمل طعام يحمله الحاج . ولكن هذه الضريبة كانت خفيفة المؤونة » (١) . وقد اقترن نشاط التجارة الشرقية بازدهار موانيء نهرية على الحدود المصرية الجنوبية وعلى ثنية قنا. وقد رأينا ما كان من أمر أسوان وكيف أن قوص احتلت مكانتها . ولكن قبل ازدهار قوص كانت الأقصر وقفط قد قامتا بدور الوساطة التجارية ولكن على مجال ضيق (٢) .

وقد عظم قدر قوص في القرن الثاني عشر فكانت « حفيلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ... ومحط الرحال وملتقى الحجـــاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب وإليهـــا انقلابهم (٣). ويقول كاترمير عن قوص أنها كانت مدينة كبيرة بها عدد عظيم من الفنادق والمنازل (٤) . ومهما يكن من شيء فإن التجارة العـــابرة كانت تنقل من

---

(١) ابن جبير ـ رحلة ابن جبير ـ ليدن ١٨٥٢ ص ٦٩ .

(٢) المقريزي ـ الخطط ـ جـ ١ ص ٢٣٢ .

(٣) ابن جبير ص ٦٥ .

(٤) Quatremére, E. Mémoires Geographiques, et Historiques. Paris 1811. T. I. p. 194.

عيذاب والقصير إلى أسوان أو قوص على الظهر عن طريق وديان الصحراء الشرقية (وخاصة وادي العلاقي والحمامات) ومن الموانيء النهرية كانت المراكب النيلية تشق طريقها إلى العاصمة وهناك يقوم وسطاء بنقلها إلى الاسكندرية أو دمياط حيث تشحن في سفن (صار أغلبها إيطالية بعد الحروب الصليبية) إلى الموانئ الأوربية وخاصة البندقية وجنوة وبيزا ومرسيليا. وعندما تحولت طرق التجارة عن عيذاب إلى الطور والسويس في أواخر القرن الرابع عشر كانت متاجر الشرق تنقل براً إلى العاصمة عبر شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية ومن ثم تنقل بالنهر وقنواته أو بالدواب الى الاسكندرية . وقد جنت مصر ارباحاً طائلة من المكوس التي كانت تفرضها على التجارة العابرة . كانت مكوساً ثقيلة بلغت في أواخر عهد المماليك عُشر ثمن البضاعة مما أثار معارضة البرتغاليين ودفعهم إلى البحث عن طريق آخر إلى الهند يتفادى المرور عبر مصر ومناطق نفوذها في الشرق الأوسط .

وقد نجح فاسكودجاما Vasco da Gama في اكتشاف هذا الطريق بالدوران حول إفريقية سنة ١٤٩٧ . وفي سنة ١٥٠٠ ثبت البرتغاليون أقدامهم في كاليكوت Calicut ومنعوا السفن من المرور في البحر الأحمر [١] . وقد أحس السلطان الغوري بخطر هذا الكشف على التجارة الهندية المارة بمصر فخرج أسطوله لحرب البرتغاليين في مياه المحيط الهندي، ولكن لم يكتب له النصر في النهاية إذ لحقت به الهزيمة في موقعة ديو Diu البحرية فكانت ضربه عنيفة سددت إلى قلب مصر. ومنذ تلك الموقعة فقد موقع مصر الجغرافي قيمته إلى حين فقد تحولت عنه طرق

---

(١) Lane - Poole, S, A History of Egypt - The Middle Ages. London 1901, p. 350.

(٢) Ibid., p. 352.

التجارة إلى المحيط وبدأ الكساد والخراب يزحفان على العاصمة والموانيء المصرية. ثم لم تلبث أن سقطت مصر نفسها في أيدي العثمانيين في سنة ١٥١٧ وتحولت الى ولاية عثمانية تدفع ولا تأخذ وتعيش بعيدة عن مجرى الأحداث العالميه. ومرت قرون مظلمة سادت فيها أحوال مصر كثيراً ثم بدأ موقعها الجغرافي يستعيد بعض أهميته السابقة في أواخر القرن الثامن عشر، ثم صار بالغ الأهمية بعد فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ . غير أن مصر لم تستفد من هذا الموقع إلا منذ أن أممت القناة في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ .

الفصل السابع عشر

السكان وتطور التقسيم الاداري

إذا كان تاريخ مصر يتميز بالقدم والاستمرار فإن شعبهـــا أقدم من التاريخ تمتد أصوله السلالية إلى العصر الحجري الحديث في استمرارية فريدة رغـــم ما يقال خلاف ذلك . لا ننكر أنه جاءت موجات جنسية وافرة في عصر ما قبل الأسرات ولكنها لم تغير من دماء المصرين وصفاتهم العامة. فيؤكد ويرسنسكي Wiercinski أن العناصر الشائعة في مصر القديمة كانت الحـامي والبحرسطي الشرقي والأرمني وكلها عناصر ذات أصل قاعدي هو الجنس البحرسطي . أما أن يكون بناة الأهرام من عنصر عريض الرأس جاء من جهة الشمال الشرقي في هجرة وافدة مفرقة فلا تؤيده الأبحاث الانثروبولوجية . فقد تبين أن مثل هذه الرؤوس كانت لعناصر (ربما أرمينية) سكنت مصر في عصر ما قبل الأسرات[١].

---

(١) Wiercinski, A. (1958) p. 83
Myers, C. Contribution to Egyptian Anthropology, J. R. Anthrop Inst. 1905, p. 91,. 1908 , p. 130
Batrawy, A. The Racial History of Egypt and Nubia, J. Roy . Anthrop . Inst .. pp 131 - 156 .

التركيب الجنسي :

فمنذ ٦٠٠٠ آلاف سنة أو يزيد لم يكن هناك إذن تغير ملحوظ في مظهر جمهرة المصريين حتى يصعب على الرائي أن يفرق بين تقاطيع وجوه تماثيل مصر القديمة وتقاطيع وجوه كثير من الفلاحين الذين يعيشون اليوم في قرى الصعيد . وقصة تمثال شيخ البلد معروفة للمؤرخين ورجال الآثار[1]. لكن هذه الاستمرارية السلالية ربما تثير التساؤل وخاصة أن مصر كانت ولا زالت بيئة جذب بشري وأنها في طريق الهجرات من كل صوب. وتفسير ذلك أن الصحروات حمت مصر من شر الهجرات الكاسحة التي عرفتها أرض ما بين النهرين وأن ما دخل مصر من دماء غريبة كان قليلا لم يستطع أن يغير من تركيب السكان الأصليين . دخل مع الغزوات الحربية وليس مع الهجرات باستثناء تلك التي حملت الهكسوس والاسرائيليين والعرب وكلها رعوية . وربما كانت سرعة الحركة هي التي جعلت من الرعاة في القديم خطراً حقيقياً على الزراع المستقرين في مواطن الحضارات القديمة . وقد تمكن المصريون من طرد الهكسوس واليهود أما العرب فقد جاءوا برسالة بحددت حضارة مصر وأعادت مقدرتها على العطاء. وصارت مصر العربية هي مصر المستقلة القوية شأنها في ذلك شأن مصر الفرعونية .

ولكن إذا كانت العرب قد عربت مصر لغويا ودينيا فقد مصرتهم مصر حضاريا وبيولوجيا . فقد ذابوا كأفراد في بحر السكان المصري الذي لم يكن له شبيه في العالم المجاور واحترفوا الزراعة بعد حين . كان بحراً واسعاً عميقاً يبتلع ما يصب فيه . وربما ساعد على ذلك أن الغزوات والهجرات لم تحمل في أغلبها إلا أعداداً محدودة وأنها جاءت في أوقات متباعدة من أقاليم تنتمي جنسياً إلى الأصل القاعدي الذي ينتمي إليه المصريون . ولم يكن انصهار الغزاة والمهاجرين بغير فائدة فقد تجددت دماء المصريين وتنوعت ملكاتهم .

---

(١) تمثال أطلق عليه عمال التنقيبات الأثرية هذا الأسم للشبه الكبير بينه وبين شيخ بلدتهم

الهجرات العربية :

وربما كانت الهجرات العربية هي أخطر الهجرات وأكبرها في تاريخ مصر فبعد بضعة قرون من دخولها الإسلام تغير لون مصر وتغير توجيهها. فقد صارت عربية اللسان والقلب وتحول توجيهها من البحر إلى البر . كان انتشار العرب في مصر أول الأمر محدوداً ذكريا في الغالب ينزلون على مقربة من الأرض الزراعية وفي أكناف المدن ويختلطون بالمصريين عند الارتباع وفي الرباط وعند الضيافة. ويحدثنا المؤرخون أن عرب الجنوب من القحطانيين كانوا الأكثر عدداً من بين العرب الوافدة . وكانت قريش أوسع القبائل تمثيلا بين عرب الشمال(المدنانيين) ولم يكن انتشار العرب في مصر بالفتح فقط فقد جاءوا مهاجرين ومعهم أهلهم وخيامهم وأنعامهم التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من دولتهم الجديدة .

على أن الغالب في نزوح العرب عن احيائهم وانتجاعهم المدن أو أكنافها أن يكون بإيعاز بعض الخلفاء أو الأمراء لاستنصارهم عند الحاجة يطلقون لهم المرعى ويفرضون لهم العطاء (١) . هذا ما فعله الوليد بن رفاعة والي مصر في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي . فقد استقدم بطونا من قيس لأنهم نصروا الخليفة وأيدوه ثم ما لبث أن تقاطرت بقية أهلهم وتكاثروا في الأرض واحترف أحفادهم الزراعة آخر الأمر . وقد يكون الباعث على استقدامهم التخلص من شرهم كما فعل العزيز بالله الفاطمي حين نقل أحياء بني هلال وسليم إلى صعيد مصر. فلما ولي المستنصر بالله تخلص من شرهم بأن أرسلهم إلى المغرب الذي شق عصا الطاعة على الخليفة ففتحوه . وكان دخول العرب الهلالية من الحوادث الفاصلة في تاريخ المغرب الاسلامي .

---

(١) Lane - Poole, S. A History of Egypt in the Middle Ages, London. 1901, pp. 28 - 37 .

عناصر أخرى :

واستقبلت مصر بعد العرب أعداداً محدودة من الأتراك والشراكسة والأكراد جاءوا كجند ومماليك قاموا بخدمة أسيادهم في المدن. كما ينبغي ألا تفوتنا الاشارة إلى تلك الأعداد من الرقيق الافريقيين وغيرهم والحجاج المغاربة التي كانت تفد سنوياً ليستقر أغلبها في مصر في آخر المطاف . وقد أضافت كل هذه الطوائف إلى مصر دماء جديدة وأدخلت في تركيبها الجنسي ملامح جديدة ولكن دون أن تغير من الصورة الجنسية العامة التي عرفها التاريخ .

تطور حجم السكان :

وتاريخ نمو السكان في مصر طويل وغامض . فكل ما تحت أيدينا ليس أكثر من تقديرات ظنية للمبالغة فيها قسط كبير . نذكر من المبالغات الخرافية قول بعض كتاب القرن الثامن عشر أن سكان مصر القديمة بلغوا أكثر من ٤٠ مليون نسمة أو أنه كان بها على أيام فرعون ألف ألف حراث كما يزعم المقريزي (١٣٦٤ – ١٤٤٣م).إلى جانب المبالغة في التضخيم هناك المبالغة في التصغير كقول بعض الكتاب الاغريق أن عدد سكان مصر على أيام قمبيز (القرن السادس ق.م) لم يزد على ثلاثة ملايين [١] . ونحن نميل إلى الأخذ بتقدير وسط يتناسب مع مساحة الرقعة الزراعية وممكنات الزراعة الحوضية والصيفية التي عرفتها مصر خلال تاريخها الطويل . وعليه فإذا اعتبرنا أن أقصى ما تحتمله الزراعة الحوضية هو كما كشفت عنه التعدادات في قلب (الصعيد ٣٥٠ نسمة في الكم^{٢}) وان رقعة مصر الزراعية كانت في العصور القديمة ٣٠ ألف كم^{٢} يكون عدد السكان

---

(١) Reinhard, M & Armengaud. A. Histoire Genérale de la Population Mondiale. Paris, 1961, p. 23.

الأقصى والمحتمل هو نحو $\frac{1}{2}$ ١٠ مليون نسمة فإذا أضفنــا نحو مليون نسمة هم سكان المدائن يكون عدد سكان مصر في فترات الازدهار إبان حكم الفراعنـــة نحواً من ١١ أو ١٢ مليوناً . وربما لم يبلغوا هذا المستوى ثانية إلا في أوائل القرن العشرين بعد أن وصل إلى الحضيض (٢ مليون) في أواخر القرن الثامن عشر.

عوامل متغيرة تتحكم في الحجم.

ولكن شتان بين المتوقع والواقع ذلك أن العوامل المتغيرة والتي تتمثل في ارتفاع مستوى الفيضان ونوع الحكومة والوباء والمجاعـة والحرب كانت أقوى من العوامل الثابتة نسبياً نقصد مساحة الرقعة الزراعية ونمط الزراعة . ففي ضوء هـــذه العوامل المتغيرة يمكن القول أن تاريخ السكان في مصر كان على دورات متفاوتة في حدودها العليا والدنيا غير منتظمة وتتفق إلى حد واسع مع العصور التاريخية . فالحـــد الأقصى لسكان مصر الفرعونية كان على الأرجح مختلفاً عما عرفه العصر البطلمي أو العربي وينطبق ذلك على الحـــد الأدنى . ويؤيد ذلك أن دور الحكومة في مصر كان حيوياً . فقد يأتي الفيضان دون المستوى المطلوب لغمر كل الأرض ولكن الانسان قـــد يقهر الطبيعة بالجد كما يقول استرابون. لنقل ما أكثر ما كان يأتي الرخاء في ركاب الحكومات القوية وما أكثر الأزمات مع الضعف وسوء الادارة .

وربما كانت المجاعات التي نكبت بها مصر وكثر حدوثها في أواخر الدولة القديمـــة وأواخر العصور الاسلامية مسئولة عن كل نقص فجائي وخطير في السكان [1] . وليرجع القارىء إلى ما اقتبسناه من وصف عبد اللطيف البغدادي لحالة مصر والمصريين وقت المجاعة التي لمس آثارهـا ونتائجها المحزنة . ويزيد

---

(١) Ibid, p. 23 - 24.

من انهيار حجم السكان إلى الحضيض فواجع الحرب وانتشار الوباء وجشع تجار الحبوب . وكثيراً ما كان الوباء يعقب المجاعة فيتساقط الناس موتى ولا يجدون من يدفنهم . وربمـــا أدت فواجع الحرب فضلاً عن التخريب وفناء كثير من الرجال إلى عقم النساء لفترة من الزمن . ومع المجاعة ترتفع أثمـــان الحبوب الغذائية حتى لا يقوى على شرائهـا إلا الاغنياء. لذلك لا عجب ان كان أغلب الهالكين وأولهم من فقراء المدن والريف . ولكن ما يلبث النمو الطبيعي وربما الهجرة أن تعوض بعض الخسارة في الأرواح ويعود التوازن الدقيق بين انتـاج الارض وحجم السكان .

أثر انكماش الرقعة الزراعية :

وكان لانكماش الرقعـة المزروعة خلال بعض فترات التاريخ أثر في حجم السكان.ولكن جـــاء وئيداً بل ربما كاد يختفي وراء ما جره تكرار حدوث المجاعات وانتشار الفوضى وشدة الوباء. هل كان لاقتطاع الرمال السافية جزءاً من أرض مصر الوسطى في أواخر العصور الفرعونية أثر في حجم السكان ؟نحن لا نستطيع تقدير مدى الاثر ولكن يمكننا القول أن ذلك أدى إلى اختفاء كثير من المحلات وإلى نقص الامكانات المتاحة فاختل التوازن بين السكان وانتـاج الارض وانعكس ذلك على حجم السكان . وينطبق هذا القول على ما حدث في أعقاب بوار أراضي شمال الدلتا (القرن العاشر م) وظهور براريها الموحشة . ومع ذلك ورغم كلما قاساه السكان كانت مصر الفرعونية والاغريقية الرومانية أكبر وأثقل مركز سكاني منفرد في العالم القديم .

رد المصريين على الموانع الايجابية :

ولقد كان رد المصريين على قسوة الطبيعة وظلم الانسان بأساليب وطرق مختلفة . تمثلت في الايمان بقضاء الخالق والامل في انفراج الاحوال . وتمثلت في

كثرة الولادة . وفي هذا يقول المقريزي « رجالهم كثيرو النسل ونساؤهم سريعة الحمل » . وفي غياب العلم استخدم السحر والتماويذ للمحافظة على حياة الاطفال [1] . كما هرب المصريون بأعداد كبيرة نوعاً إلى البلاد المجاورة خوفاً من الموت جوعاً وخوفاً من جور الحكام وربما عادوا عندما تحسنت الاحوال . أما في الأوقات العادية فقل أن خرج المصري مهاجراً أو تاجراً . ولا يمكن أن نقارن المصري في ذلك بالإغريقي أو الفينيقي الذي جذبه البحر وأنشأ مستعمرات في الارض البعيدة . وربما كان مرجع ذلك في المقام الأول إلى أن مصر كانت غنية ومستغنية يضاف إلى ذلك أن صعوبة اختراق الصحراوات والبحار المحيطة بكل ما فيها من أخطار تجعل من ينشد السلامة يفضل البقاء على النزوح . كانت مصر إذن مهجراً لكل الناس من دخلها أو عاش فيها لا يهجرها الا لسبب قاهر خارج عن إرادته .

السكن :

ولما كان النهر هو واهب الحياة لمصر والمصريين فقد تركز السكان خلال العصور وحتى الآن على عموده وفروعه وما تفرع منها من قنوات . وبعيداً عنه يقل الناس وتنخفض الكثافة وتتباعد المحلات وقد يكون القرب من ماء النهر سبباً وجيهاً للتركز والاحتشاد في بيئة جافة . ولكن النيل لا يجلب الماء فقط بل يجلب الخصب أيضاً ويتحكم في توزيعه فيعطي للأرض القريبة أغلبه والباقي للبعيدة والهامشية . ثم هو فوق كل ذلك طريق بل شارع مصر الرئيسي . على جنبات هذا الشارع والشوارع الاخرى المتفرعة عنه أقام المصريون أغلب قراهم ومدنهم ولكن فوق مستوى مياه الفيضان ، ترى خرائبها اليوم في شكل أكوام كثيرة تغير من رتابة السطح وتقف شاهداً على قدم العمران واستمراره [2] .

والقرية المصرية هي وليدة البيئة الفيضية وتعبير عن النظام الاجتماعي

---

(١) Reinhard & Armengaud, p. 24,

(٢) Nolz, R. « Man - Made Landforms in the Nile Delta » Geog. Rev. April, 1969, p. 253

والاقتصادي الذي عاش في ظله الفلاح. كانت صغيرة تقف على كومة تفادياً لمياه الفيضان في موقع حددته مطالب الري والزرع والفلاحة، بيوتها الطينية متواضعة مكدسة لا تترك فيما بينها إلا أزقة ضيقة تكفي لمرور الدواب والناس . وفيها عاش الانسان مع حيواناته رأس ماله وعونه في العمل الحقلي . ولم يكن يربطها وقت الفيضان بغيرها من القرى غير خفاف القوارب والجسور . وما أن ينحسر الماء حتى ينزل أهلها ومعهم حيواناتهم لأعداد الارض وبذر الحب وهكذا كل عام. والقرية فوق ذلك هي جذور الفلاح في الارض لا يقلعها إلا الاحداث الجسام التي تؤدي إلى فساد الاحوال . وما أن يختفي بانيها حتى تختفي هي وتبور الارض .

ولقد انكمش المعمور في مصر تبعاً لانكماش الغطاء البشري ففي عصور الازدهار وقبل اضمحلال شمال الدلتا بلغ المعمور هوامش الوادي والدلتا وكثرت القرى والمدن . وقد رأينا في فصل سابق كيف انتشر العمران في الفيوم وكيف انكمش حين ساءت الاحوال . ورأينا كيف جار النهر على شاطئه الشرقي في مصر الوسطى وكيف كاد يختفي العمران بعد أن ضاقت الرقعة المزروعة . وهنا يجب أن نشير إلى أن أنماط العمران الريفي والمدني كانت باستثناء ما ظهر في الهوامش متجانسة تماماً كما هي الحال الآن وأن اضمحلال الارض في نطاق من النطاقات لم يكن يقضي بالفناء على كل محلة. ففي شمال الدلتا بقيت عامرة مناطق رشيد وبلطيم ودمياط بفضل ظروف السطح ووفرة الماء سواء من الامطار أو الآبار أو النهر مما ساعد على استمرار زراعة النخيل وبعض المحاصيل الحقلية كالارز [1]، حقيقة أخرى تستحق الاشارة هي أن السكن في الفيوم لم يهبط إلى مستوى دون سطح البحر رغم

---

(١) Audebeau, M. Essay sur l'affaissement du nord du Delta, Bull. Inst. d'Egypte (1918 - 1919) pp. 117 - 134.

انخفاض منسوب البحيرة إلى أكثر من عشرة أمتار تحت هذا المستوى في أواخر القرن السادس ق.م قرن ازدهار العمران في هذا الاقليم . ويمكن تفسير ذلك بأن مياه الفيضان كانت أحياناً ترفع من مستوى البحيرة مما كان يهدد القرى لو بنيت على مقربة منها فرأى البطالمة بناءها على منسوب ١٥ متراً فوق سطح البحيرة. أو ربما كان السبب أن ماء الري لم يكن يكفي كل تلك الأراضي البعيدة عن بحر يوسف (الذى ينتهي في الاقليم) فاقتربت القرى من مصدر الماء [١] .

تطور التقسيم الاداري والمدن

وتسهيلاً لأمور الحكم والادارة قسمت مصر في عصورها التاريخية إلى أقسام كبرى تشتمل على وحدات أصغر أطلق المصريون القدمـــاء على الواحدة منها سبت Sepet أو سبات Sepat [٢] . وعرفت أيام الاغريق باسم Nome وسماها العرب الكورة أو العمل . وقـد تغيرت مساحاتها تبعاً لتغير عددها على مر القرون . ففي بعض فترات التاريخ بلغ عددها أكثر من ٥٠ قسماً وفي فترات أخرى انخفض العدد إلى أقل من ٣٠ قسماً . هذه الوحدات على أية حال قسمت بدورها إلى وحدات أصغر فقسمت الكور مثـلاً إلى مراكز وقرى ونواح كل ذلك تسهيلاً لجباية الضرائب وحكم البلاد . وكان تغير العـدد والحدود مرتبطاً بأسباب عدة لعل أهمها هو مدى غنى مصر وعدد السكان فيها والتغير المستمر في أفرع النيل . ففي العهود التي قلت فيها العناية بسائل الري تنكمش الرقعة الزراعية وتضمحل الزراعة فيقـــل عدد السكان ويترتب على ذلك أن تندمج بعض الوحدات الادارية في أخرى فيقـل عددها ولكن تكبر مساحتها . ومن ناحية أخرى نجد أنه في فترات الازدهار وارتفاع عدد السكان يزداد عـدد الوحدات الادارية وتصغر مساحتها . كما أن فروع النيل كثيراً ما كانت تمثـل حدوداً للأقاليم والمقاطعات وكان تغيرها يعني تغيراً في حدود هذه المقاطعات

(١) Butzer, K. (1960) p. 14.

(٢) Moret, A. The Nile & Egyptian Civilization. London, 1927, p. 41,

وقد تغير التقسيم الإداري وعدد الوحدات الإدارية بشكل واضح منذ العهد الروماني وليس معنى ذلك أن نظـام الإدارة في مصر تغير . الواقع أن النظام الذي وضعه المصريون القدماء لم يتغير في جوهره خـلال فترات طويلة من تاريخ مصر فقد كان نظاماً رئاسياً مركزياً ، يبدأ بالحاكم أو الوزير وينتهي بالعمدة أو شيخ القرية .

١ـ في مصر الفرعونية

ومن الصعب رسم صورة واضحة عن التقسيم الإداري لمصر الفرعونية وذلك لقلة ما لدينا من معلومات عن هذا الموضوع . والذي نستطيع ذكره هنا هو أن مصر الفرعونية كانت تنقسم إلى إقليمين إداريين رئيسيين هما: إقليم مصر السفلى وإقليم مصر العليا. ثم تغير هذا التقسيم في فترة متأخرة فأصبح هناك ثلاثة أقسام إدارية رئيسية بدلاً من قسمين هي : مصر السفلى وعاصمتها هليوبوليس وتبدأ من البحر حتى رأس الدلتا ، ومصر الوسطى وعاصمتها منف وتبدأ من رأس الدلتا حتى قرب أبي تيج، ومصر العليا وكانت تشمل بقية الوادي حتى أسوان وعاصمتها طيبة. وقد انقسمت هذه الوحدات الكبيرة إلى مقاطعات أو أقاليم Sepat بلغت كما يرجح إرمان Erman إثنين وأربعين منها اثنان وعشرون في الوجه القبلي والباقي في الوجه البحري [١] . ويري A. Moret أن هذه الأقاليم ظهرت قبل بدء التاريخ . ظهرت منذ أن استغل المصريون مياه الفيضـان في الزراعة . فقد قسموا الأرض إلى أحواض أحاطوها بالجسور وشقوا فيها القنوات. هذه الأحواض هي في واقع الأمر الأقاليم التي نشأت فيها الإمارات المصرية قبل التوحيد. وهي أيضاً الاطارات التي احتوت المقاطعات بعد التوحيد. كانت هذه المقاطعات على أية حال صغيرة المساحة بلغ متوسط طولها ٣٢ كم أما عرضهـا فكان يتوقف

---

(١) أدولف إرمان وهرمان رانكة. مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص ١٠ .

على الموقع بالنسبة للوادي . فحيث يتسع الوادي تقع المقاطعة على جانب واحد وحيث يضيق تمتد على كلا الجانبين . وشملت كل مقاطعة إلى جانب العاصمة عدداً من القرى وما يحوطها من أرض زراعية ومناقع ومراع . وأطلق عليها في الغالب اسم حاضرتها . وعبد أهلها آلهة محلية كان بعضها يكتسب قداسة واسعة إذا ما ارتفع شأن المقاطعة [١] . وكيفما كان الأمر فقد كان لكل إقليم جوه الديني ومشكلاته الزراعية وبيئته الجغرافية التي تختلف في تفصيلاتها عن بقية البيئات .

وقد اعتبر المصريون القدماء مقاطعة أسوان هي أولى المقاطعات المصرية وذلك لانهم كانوا يولون وجوههم شطر الجنوب عند التعرف على الجهات الاصلية فيكون الغرب عن يمينهم والشرق عن يسارهم.وربما كان سبب ذلك هو أن النيل منبع الحياة يأتي من الجنوب . وكانت مقاطعة أسوان تبتدىء كما يرى إرمان Erman قرب حوض كوم امبو في الشمال وتنتهي عند الشلال الأول جنوبا . ونظرا لقيمة الجنادل في النهر كعامل دفاع عن البلاد فقد حصن المصريون القدماء مدينة آبو Abu [٢] التي كانت تقف على جزيرة أسوان (Elphantine [٣]). ولم تكن آبو تحمي الطريق الجنوبي فحسب بل حمت أيضاً محاجر الجرانيت التي تقع على الشاطىء الشرقي للنيل. وقامت كسوق تجارية يفد إليه من أهل النوبة وأهل مصر تجار يتبادلون المنافع والسلع كالعاج وريش النعام والذهب والغلات الزراعية والمصنوعات المصرية . وقد ظلت مدينة آبو هذه حاضرة المقاطعة لمدة طويلة حتى اضطرت أن تنزل عن مكانتها لمدينة أسوان (السوق)

---

(١) Moret. A. The Nile & Egyptian Civilization, pp. 38 - 53 .

(٢) كلمة آبو كلمة مصرية قديمة معناها عاج أو فيل وذلك نسبة إلى تجارة العاج في هذه المدينة .

(٣) تقع جزيرة أخرى إلى الجنوب من أسوان تعرف بجزيرة فيلة .

مكان التجارة) في العصر الصاوي الأثيوبي [1] . ومنذ أقـدم العصور كان إقليم أسوان على الرغم من صعوبة الحياة على جوانبه ووجود الجنـادل في النهر حلقة الصلة بين مصر والسودان.فعن طريقــه وصلت الحضارة المصرية (والمسيحية والإسلام فيما بعد) إلى شمالى السودان .

وإلى الشمال من مقاطعة أسوان كانت المقاطعة الثانية مقاطعة كوم أمبو وإدفو وقد اكتسبت هذه المقاطعة أهمية خاصة بسبب احتوائها على محاجر عظيمة للحجر الرملي وبسبب قداسة مدينتي كوم امبو Ambos وإدفو. فقرب مدينة Chenu وهي بلدة السلسلة الحالية كانت توجد محاجر الحجر الرملي الصلب التي يمكــن الوصول إليها بسهولة سواء من منف أو طيبة . وفي كوم امبو عُبد الإله سوبك ذو المكانة العالية وفي إدفو عبد الإله حوريس وبني له أهم معبد في مصر لا تزال آثاره باقية حتى اليوم. وإذا ما غادرنا المقاطعة الثانية واتجهنا شمالاً ندخل مقاطعة إسنا وهي الثالثة في ترتيب الأقاليم المصرية القديمة. هنا يتسع الوادي بعض الشيء وهنا استقرت جماعات بشرية منذ أقدم العصور . وتشير كل الدلائل إلى أن هذا الإقليم كان له شأن عظيم في مصر ما قبل الأسرات. فقد كان الوطن الأصلي لأمراء طينة الذين نزحوا شمالاً ثم أصبحوا فيما بعد ملوك مصر الموحدة . وكان يقوم في تلك المقاطعة ثلاث مدن تستحق الذكر أولها العاصمة الدينية سني التي عرفت أيام الاغريق باسم لاتوبوليس Latopolis (إسنا الحالية) ثم المدينة المزدوجة « نخب ونخن » التي يبدو أنها كانت في بدء التاريخ المصري عاصمة للوجه القبلي كله . أما خليفة نخب فهي قرية الكاب الحالية والتي عرفت في العهد الاغريقي باسم Eileithyiaspolis . وكانت نخن تقع تجاه الكاب على الضفة الغربية للنيل (عرفت في العصر البطلمي باسم هيراكون بوليس Hierakonpolis) واشتهرت بأهميتها

---

(1) Hanotaux, G. Histoire de la Nation Egyptienne, Paris, T. I. p. 164.

الدينية . والمدينة الثالثة كانت تقف مكان أرمنت الحالية (عرفت في العهد الاغريقي باسم Heermontis) واشتهرت بعبادة إله الحرب مونت . ولكنها فقدت أهميتها بعد ازدهار طيبة في الألف الثانية قبل الميلاد ثم عاد إليها بعض مجدها بعد سقوط طيبة في الألف الأولى قبل الميلاد .

والمقاطعة الرابعة هي مقاطعة « واست » أو «ويسة»(طيبة عند الاغريق) وقد كانت طيبة مدينة صغيرة مغمورة أول الأمر ثم أصبحت عاصمة لمصر وظلت كذلك فترات طويلة من التاريخ ولكنها لم تزدهر إلا منذ سنة ١٥٠٠ ق.م. وأطلق المصريون عليها أسماء تدل على مكانتها القوية وعظمتها فسميت « المدينة ذات المائة باب » و « مدينة المدن » و « مدينة الأبدية »و« المدينة القوية[١]الخ» غير أنها فقدت كثيراً من مجدها وهيبتها في أواخر حكم الأسرات المصرية.وتقف مكانها اليوم بلدتا الأقصر والكرنك على الضفة الشرقية للنهر . وعبد في هذه المدينة أيام مجدها عدة آلهة منها الإله «مونت» والإله « آمون » والإله « موت» التي كانت تتخذ أشكالاً متعددة كاللبوءة والقطة . وسنعود إلى طيبة في مكان آخر .

وتقع مقاطعة قفط إلى الشمال من المقاطعة السابقة وترجع أهميتها إلى موقعها. فهنا يصنع النيل ثنية ضخمة تقربه من البحر الأحمر كما تشق الصحراء الشرقية ودياناً تربط وادي النيل بموانيء هذا البحر. وقد ظلت هذه الصلة مستمرة طوال العصور التاريخية ولو أن مواضع المراسي النهرية والمرافيء البحرية كانت تتغير من عصر لآخر . ففي العصور القديمة كانت كوبتوس (قفط الحالية) هي نقطة البداية أو النهاية في طريق الرحلة الى البحر الأحمر ثم خلفتها قوص (كسا القديمة) في العصور الوسطى وفي العصر الحديث قامت قنا بهذا الدور. أما الميناء

---

(١) سليم حسن – أقسام مصر الجغرافية ص ٤١ .

البحري فقد كان كارأينا إما برنيك أو القصير أو عيذاب. وكان لوادي الحمامات الذي ينتهي في هذا الإقليم أهمية خاصة في الزمن القديم فعلى جوانبه كانت توجد المحاجر التي أمدت المثالين المصريين بأنواع من الأحجار الصلبة الداكنة اللون . أضف إلى ذلك أنه توجد بالمقاطعة تربة صلصالية تصلح بصفة خاصة لصناعة الفخار وقد قامت هذه الصناعة من قديم ولا زالت حتى الآن [١] .

ويمكن أن نغفل ذكر المقاطعتين السادسة والسابعة لقلة أهميتهما وننتقل إلى المقاطعة الثامنة وهي مقاطعة أبدو (أبيدوس بالاغريقية). كانت أبدو أشهر مدينة مقدسة في مصر القديمة تقع على بعد ٨٠ كيلومتراً من كوبتوس. حج إليها المصري القديم وتمني أن يدفن فيها . وبمرور الزمن تحولت المدينة إلى مقبرة هائلة تشبه مدينة الأموات في البر الغربي[٢] . غير أنه لم تكن لأبدو هذه المكانة السياسية التي كانت للمدينة المجاورة تن (طينة) فقد كانت الأخيرة الموطن الأصلي لملوك الأسرتين الأولى والثانية [٣]

إلى الشمال من المقاطعة الثامنة كانت توجد ١٤ مقاطعة تمثل بقية مقاطعات الوجه القبلي وفق ما جاء في قائمة سنوسرت الأول (ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة) . وهنا نلاحظ ان إقليم منف لا يدخل ضمن مقاطعات الوجه القبلي وإنما اعتبر أول مقاطعة من مقاطعات الوجه البحري . وذلك لامتداد رأس الدلتا قرب منف. ولكن في أواخر حكم الأسرات المصرية وبعد أن تقهقر رأس الدلتا جهة

---

(١) سليمان حزين — البيئة والموقع الجغرافي وأثرهما في تاريخ مصر العام — مجلة الجمعية الجغرافية ١٩٤٢ .

(٢) ارمان ورانكه « مصر والحياة في العصور القديمة » ص ١٥

(٣) Breasted, J. A History of Egypt, London, 1935, p. 44.

الشمال دخل إقليم منف ضمن أقاليم مصر العليا الشمالية [١] . وعلى أية حـــال فمعلوماتنا عن مقـــاطعات مصر العليا الشمالية قليلة . لذلك سنجمل الحديث عنها . في هذا القسم من مصر العليا يتسع الوادي وتمتد الأراضي الزراعية جهة الغرب كما يظهر للوادي امتداد في منخفض الفيوم . هنا قامت أكثر من عاصمة نذكر منها اخيتاتون(تل العمارنة) وهي العاصمة التي انشأها اخناتون حوالي عام ١٣٥٠ ق.م على الضفة الشرقيه .

ولكنها كانت قصيرة الأجل فلم تمض سنوات على وفاة اخناتون حتى هجرت ولا زالت آثارها باقية . ومنف (الجدار الأبيض)التي أنشأها مينا بعد توحيد مملكتي الشمال والجنوب . قامت على حدود مصر العليا والسفلى إلى الجنوب من القاهرة ولكن على الضفة اليسرى للنيل . وقد ظلت مدة طويلة مدينة حصينة آهلة بالسكان ولكن يبدو أنه أصاب بعضها الاضمحلال في نهاية العصر الفرعوني. فعندما زار استرابون مصر في أواخر القرن الأول قبل الميلاد لاحظ أنه على الرغم من كثرة سكانها فقد حل ببعض أجزائها الخراب . وفي هذا يقول « والمدينة كبيرة ومكتظة بالسكان وهي ثانية المدن بعد الاسكندرية وأهلهـا مختلطو الأجناس كالذين استوطنوا الإسـكندرية ، وتوجـد بحيرات أمام المدينة ، والقصور وهذه متهدمة الآن ومهجورة قائمة على مرتفـع وتمتد حتى مستوى المدينة في أسفل ، ويتصل بالمدينة حرش وبحيرة » [٢] . هذا ولم يبق من آثار هذه المدينة العظيمة غير بقايا المنازل المبنية من اللبن وبقايا تماثيلها الجرانيتية منتشرة قرب قرية ميت رهينة الحالية .

ومن عواصم المقاطعات التي عرفت في هذا القسم من مصر: « آبو»(ربما كانت

---

(١) على هذا الأساس يكون عدد مقاطعات الوجه القبلي ثلاثاً وعشرين .

(٢) Hanotaux, G. Op. cit. p. 178.

تقوم في موضع كفر آبو الحـالي - محافظة جرجا) وكانت العاصمة السياسية للمقاطعة التاسعة . أما العاصمة الدينية فكانت « خنت خم » (إخميم) . وثبو (أبو تيج) وكانت العاصمة السياسية للمقاطعة العاشرة التي عرفت عند الاغريق باسم Aphrodetopolite ، وساوت » (أسيوط) عاصمة المقاطعة الثالثة عشرة التي عرفها الإغريق باسم Lycopolis ويرجح أن كلمة أسيوط معناها الحارس لأنها كانت تقع عند نهاية الصعيد « الجواني » كما كانت مشرفة على مفترق عدة طرق إلى الواحات وإلى الجنوب والشمال . « وخمنو » الأشمونين – محافظـة أسيوط) عاصمـة المقاطعة الخامسة عشرة (Hermopolis أيام الإغريق) «ورتاس» (البهنسا – محافظة المنيا) عاصمة المقاطعة التاسعة عشر . وحنن سو (اهناسية – محافظة بني سويف) عاصمة المقاطعة العشرين Herakleopolis .

أما إقليم الفيوم[1] فكان يكون المقاطعة الحادية والعشرين وعاصمتها «شدت» (بلدة الفيوم الحالية) . وقد ساهم هذا الاقليم في تطور الحضارة المصرية في العصر الحجري الحديث فظهرت فيه حضارة الفيوم ا ، ب على الشواطىء القديمة للبحيرة التي كانت تشغل جزءاً كبيراً من قاع المنخفض . وحظى في الدولة الوسطى باهتمام بعض الفراعنة فقد اتخذوا عاصمته مقراً لملكهم ونظموا دخول ماء بحر يوسف بسدود لها فتحات وجففوا أجزاء من البحيرة لتوسيع الرقعة الزراعية .

وتختلف مقاطعات الوجه البحري عن مقاطعات الصعيد في أن حدودها كانت أكثر تغيراً بسبب اتساع أرض الدلتا وتغير أفرع النيل ، كما كانت أكثر اتصالاً ببعضها ، وبالعالم الخارجي . وقد أدت سهولة الاتصال هذه إلى نشاط تجاري مبكر وغنى تراث أهل الدلتا المادي والثقافي . ومن المؤسف أن معلوماتنا عن مقاطعات الدلتا ومدنها قليلة متفرقة بسبب تحلل الآثار وانطمارها

---

(١) كلمة « فيوم » أصلها باللغة القبطية « بيوم » أي البحيرة.

تحت طمي النيل [١] .

جاء في قائمة سنوسرت الأول أن مقاطعات الوجه البحري (وعددها ٢٠ مقاطعة بما في ذلك مقاطعة منف) كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين : قسم شرقي وآخر غربي . ولكن يلاحظ أنه بينما كان الترتيب العددي لمقاطعات القسم الغربي من الجنوب إلى الشمال منظماً نجد أنه لم يكن كذلك بالنسبة لمقاطعات القسم الشرقي . كما لم يقتصر وجود مدن الدلتا الهامة على أجزائها الجنوبية وإنما قامت مدن في أجزائها الشمالية مثل « خبيت » «وبعح»«وثنى»[٢] مما يدل على أنها كانت مزدهرة آهلة بالسكان . وفوق ذلك فقد ظهرت في الدلتا عدة عواصم ومدن ذاعت شهرتها في فترة من فترات التاريخ.ففي القسم الغربي من الدلتا ظهرت عاصمتان هما بوتو وسايس أما بوتو (مكان ابطو الحالية مركز دسوق) فمدينة قديمة جداً ظهرت في عصر ما قبل التاريخ وقامت كمقر لملوك الشمال . ولعبت سايس (صان - الحجر الحالية - جنوب بسيون) دوراً هاماً في التاريخ منذ القرن الثامن قبل الميلاد حينما انتزع الأمراء الليبيون الحكم . وفي وسط الدلتا تقريبا كانت بوسيرس (أبو صير - جنوب سمنود) مقراً لعبادة أزوريس بينما قامت في الأطراف الشرقيـة منديس (إلى الشمال من السنبلاوين) وتانيس (صان الحجر) وهذه الأخيرة أتخذت مقراً لملوك الأسرة الحادية والعشرين .

---

(١) Breasted, J. op. cit, p, 32

راجع أيضاً Rouge (J. de) Geographie ancienne de la Basse Égypte. Paris 1891

(٢) يرجح أن تكون « بخيت » قامت في موضع كوم الخبيزة التي تقع إلى الجنوب قليلاً من بحيرة البرلس . أما « بعح » فربما كانت مكان تل البهو الحالي مركز أجا . واحتلت « ثنى » جزيرة تنيس في بحيرة المنزلة .

وعلى بعد خمسة وعشرين كيلومتراً إلى الشمال في منف عاصمة الدولة القديمة ظهرت مدينة « أون » On المقدسة التي أطلق عليها الإغريق فيما بعد هليوبوليس . وكانت « أون » مقراً لعبادة الشمس وعاصمة ثقافية اشتهر كهنتها بنظرياتهم الدينية [1] . ولم يبق من آثار المدينة العظيمة إلا مسلة عين شمس . وغير بعيد جهة الشمال الشرقي ظهرت في وادي طميلات مدينتا رمسيس وبيثوم بناها أسلاف اليهود الذين كانوا يرعون ماشيتهم فيما عرف بأرض « جوشن » وتشمل وادي طميلات والأراضي المحيطة . وفي أقصى الشمال الشرقي للدلتا قامت مدينة « بارار من » (الفرما). وكانت إحدى مدن الحدود الحصينة منها بدأت الرحلات والحملات إلى بلاد الشام كما كان يتصل بها سلسلة من المحطات المنتظمة تقوم على حراسة معظم الحدود الشرقية المعرضة للخطر .

وعندما زار هيرودوت مصر في القرن الخامس قبل الميلاد لم يشر إلى كل المقاطعات Nomes . فقد اكتفى بالإشارة إلى الوحدات التي يستمد الملك منها جنوده وعددها ١٨ من بينها سبع لم يرد ذكرها فيما ذكره الكتاب اللاحقون . ومن المدن والقرى لم يذكر هيرودوت غير أسماء ٤٢ فقط معظمها يقع في الدلتا وإن كان يدعي في نفس الوقت أنه كان بمصر أيام الملك أمازيس Amasis (٥٦٩ — ٥٢٦ ق.م) ما يقرب من ٢٠ ألف مدينة [2] . هذا دون شك مبالغة كبيرة من جانب هيرودوت .

٢ — في مصر البلطمية

وقد احتفظ البطالمة بالتقسيم الاداري الفرعوني غير أنهم غيروا أسماء المقاطعات

---

(١) Hanotaux, G. op. cit., p. 87

(٢) Herodotus. op. cit. p. 170

المصرية وأعطوا لها أسماء إغريقية جديدة أو ترجمات إغريقية للأسماء الفرعونية القديمة [1]. لكنهم ساروا على قاعدة أخذ اسم المقاطعة من اسم العاصمة كما حدث في العصر الصاوي (٦٦٣ — ٥٢٥ ق.م) . ونستقي معظم معلوماتنا عن أقسام مصر البطلمية مما كتبه ديودور الصقلي الذي زار مصر في سنة ٥٩ ق.م واسترابون الذي قام بجولة في ربوع مصر في سنة ٢٤ ق.م.

ومن بين ما ذكره ديودور أن مصر كانت مقسمة إلى ٣٦ مقاطعة أو مديرية ولكنه لم يذكر إلا اسم مديرية واحدة هي Lycopolite (أسيوط) . وتكلم هذا الكاتب أيضا عن ملكية أرض مصر وعواصمها القديمة طيبة ومنف والاسكندرية دون غيرها من المدن . وقد وصف استرابون البلاد أحسن وصف وأشار إلى أنها كانت مقسمة إلى ٣٦ مديرية ١٠ منها في الدلتا و ١٦ في مصر الوسطى و ١٠ في مصر العليا (إقليم طيبة) ولكنه خلال وصفه هذا لم يذكر إلا أسماء ٢٣ مديرية معظمها من مديريات الوجه البحري .

وقد أبدى استرابون اهتماماً خاصاً بمديرية الفيوم (التي عرفت عاصمتها باسم كروكوديلوبوليس Crocodilopolis) نظراً لغناها واختلاف مظاهر السطح فيها عن بقية مديريات مصر . فكانت تنتج الزيتون بوفرة وبها المدرجات تنتهي في الشمال الغربي ببحيرة موريس . وقد وقع في الخطأ الذي وقع فيه هيرودوت فادعى أن بحيرة موريس كان يستفاد بها كخزان لمياه الفيضان وأن هذه المياه كانت ترجع إلى النيل وقت التحاريق عن طريق قناة فيرتفع مستوى الماء في أدنى النهر . أما الاسكندرية فكانت قد بلغت قمة مجدها وعظمتها لذلك أطنب في وصفها وفي وصف مرفئها وضواحيها . وقد سجل هذا الوصف القيم في الجزء السابع عشر من كتابه المعروف « بجغرافية

---

(١) Brugsch Ch. La Geographle de nomes, ou division administrative de la Haute et de la Basse Ègypte. Leipzig 1878

استرابون »[1] وكذلك أشار الكاتب إلى منف التي بدأت تضمحل وطيبة التي هجرها أغلب أهلها .

٣- في مصر الرومانية :

وفي القرن الأول الميلادي ألف بلني Pliny الروماني موسوعته المسماة « التاريخ الطبيعي » ضمنها علوم عصره وذكر فيها مصر وتحدث عن نيلها وأقسامها الإدارية. فذكر أن مصر تنقسم إلى ٤٧ مديرية Nomes or Perfectures منها إحدى عشرة مديرية في الصعيد الاعلى جنوبي أسيوط والباقي موزع بين مصر الوسطى والدلتا وعلى ساحل البحر المتوسط وفي منخفض الواحات . وردد بلني ما أدعاه Artemidorus من أن بالدلتا وحدها ٣٥٠ مدينة . ولكنه لم يذكر منها غير ٦١ مدينة كانت – كما أدعى – أكثر مدن مصر حجما وشهرة منها الإسكندرية عاصمة مصر ومدينتها الاولى . ثم جاء بطليموس الجغرافي (القرن الثاني م) ورسم خريطة لمصر الرومانية وبين عليها مواضع كثير من المدن وحدد وظائفها فميز العواصم الإقليمية وأشار إلى المدن الاخرى الاقل أهمية . ومما ذكره يتبين أن مصر كانت تنقسم إلى ٤٧ مديرية (نفس العدد الذي ذكره بلني) وأن أسماء كثير من المديريات مشتقة من أسماء عواصمها .

ولعل أبرز حقيقة يمكن أن نسجلها بعد هذا الحديث أن التقسيم الإداري لمصر ظل طوال العصور الفرعونية وجزء كبير من الفترة الهيلينية ذا نمط خاص لم يتغير في معظم تفصيلاته . فالمقاطعة أو المديرية ما فتئت تكون وحدة إدارية واقتصادية لها حياتها الخاصة وطابعها المميز تقوم عاصمتها كمركز إداري يحكم ويشرف على الاراضي الملكية وكسوق تجارية تستغل موضعها على النيل أو أحد فروعه أحسن استغلال . حتى جبانة المقاطعة ظلت في مكانها خلال تلك الفترة

---

(١) يعد ما كتبه استرابون عن الاسكندرية أهم وثيقة تاريخية عن الاسكندرية القديمة .

الطويلة [١]. كانت عاصمة المقاطعة في واقع الامر هي نافذتها على العالم الخارجي وقلبها النابض بالنشاط والحركة ومقر أصحاب الارض من الطبقة المترفة. وربما يكون ذلك الاستمرار والثبات نتيجة لتشابه في كثير من ظروف الحيـــاة الاقتصادية والاجتماعية واتجاهات السياسة الداخلية في مصر

وقد تغيرت هذه الاوضاع بعد صدور مرسوم دقلد يانوس (في صدر القرن الرابع الميلادي) الخاص بتغيير الإدارة وأقسام مصر الإدارية التيعرفتها بصورة تكاد تكون ثابتة قرابة ٤٠ قرناً. ولعل أهم أسباب هذا التغيير ما يتصل بنقص السكان وانخفاض انتاج الارض نتيجة للصراع الدموي بين المذاهب الدينيـــة وهجر كثير من الفلاحين للأرض هرباً من ظـــلم جباة الضرائب والتنكيل بأصحاب الارض وإقبال كثير من القبط على حياة الرهبنة والعزلة إتقاء لشر الحاكم.

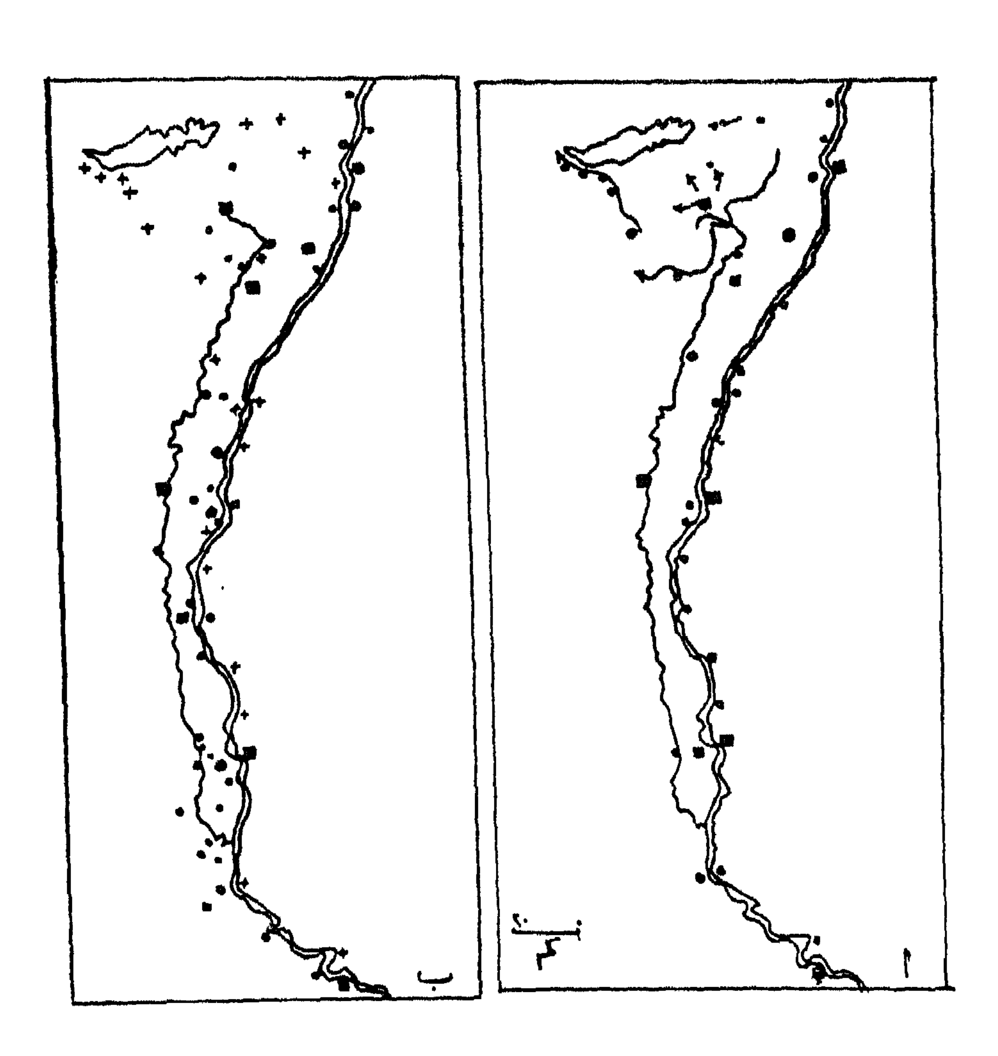
قسمت مصر على أثر صدور هذا المرسوم إلى عدد أكبر من الاقسام الصغيرة Pagi لكل قسم منها عاصمته وأرضه الزراعية ويتمتع بسلطة كبيرة في إدارة أموره [٢]. وهكذا قضي على أهمية العواصم الإقليمية وسيادتها واندثرت مدن وتحولت قرى ومدن كانت مغمورة إلىحواضر للأقسامالجديدة ومراكز للسلطة الدينية. ويوضح (شكل ٤٥ ا، ب)أن المدن والقرى في مصر الوسطى في العصر الاغريقي الرومانيوما آلت إليه الحال فيالعصر البيزنطي وأوائل العربيفقد اختفت ٢٤ مدينة من مجموع ٦٠ كانت موجودة على أيام البطالمة.

ويبدو أن هذه الاقسام الصغيرة انتظمت فيما بعد داخل اطار « أبروشيات »

---

(١) Butzer ' K' « Remarks on the Geography of Settlement in the Nile Valley during Hellenistic Times, » Bull. de la Soc. de Geog d'Egypte' vol. XXXIII 1960 p. 12

(٢) هذه الأقسام هي « الكور » التي عرفتها مصر في صدر الاسلام.



(شكل ٥ ٤ أ) المدن والقرى في مصر الوسطى في العصر الأغريقي الروماني (القرن ٣ق.م- ٣ م) عواصم الأقاليم يرمز لها بالمربعات

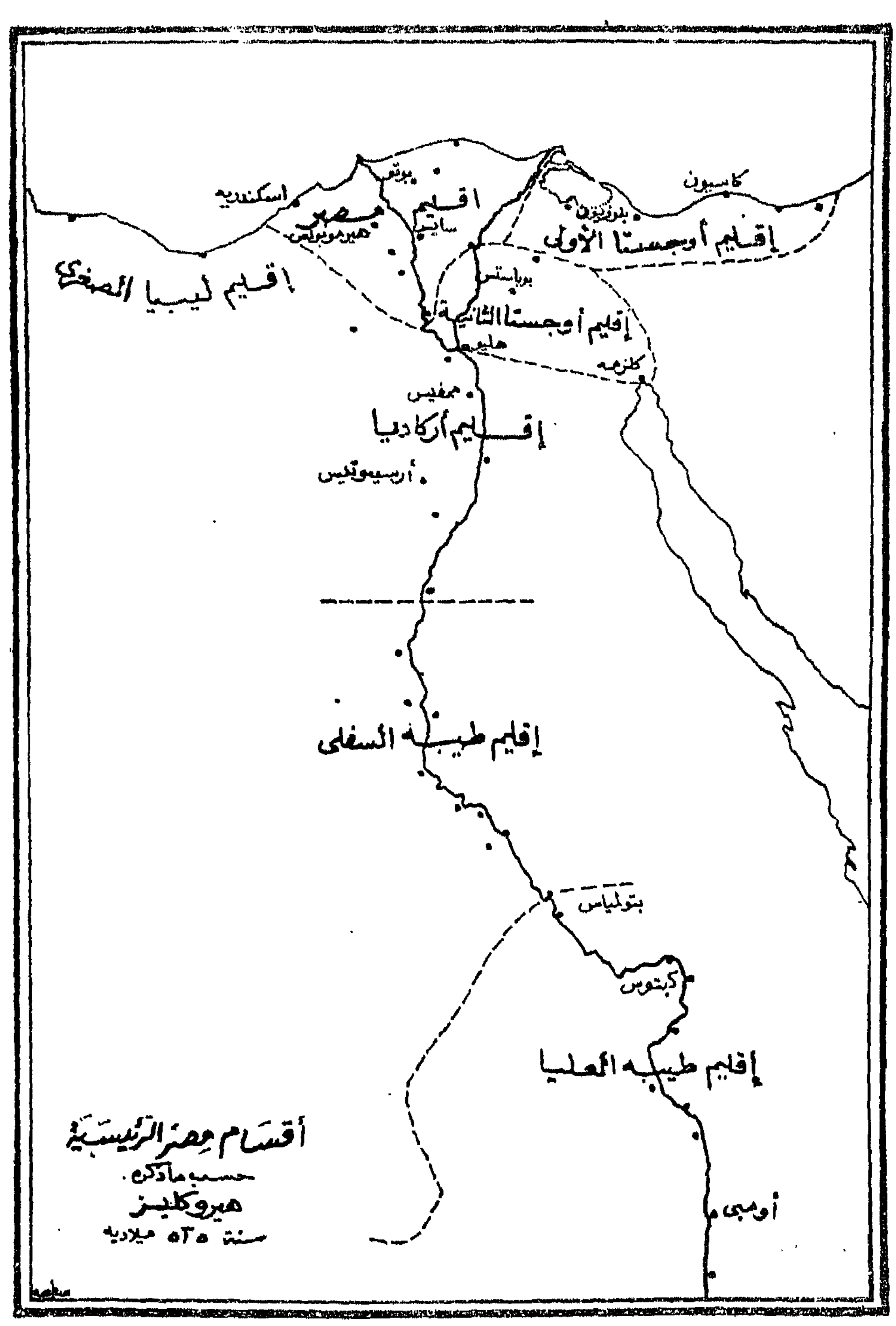
(شكل ٥ ٤ ب)المدن والقرى في مصر الوسطى في الفترة بين القرنين السادس والثامن الميلاديين.
- يرمز لمواصم الأقاليم بالمربعات وللمدن المندثرة بـ +

أشار إليها هيروكليز Hierocles في النصف الاول من القرن السادس الميلادي في كتابه المعروف « برفيق السفر » Synecdemus . ويتضح من الخريطة (شكل ٤٦) أن مصر قسمت إلى سبع أبروشيات Fparchies كان أهمها جميعاً وأكثرها مدناً (٢٣ مدينة) هي الابروشية المصرية Aegyptiaca وتشمل الجزء الاكبر من غرب ووسط الدلتا . جاء بعدها من حيث الاهمية أبروشية أوجستا الاولى التي كانت تشمل الجزء الشمالي الشرقي من الدلتا وشمال سيناء حتى العريش Rhinocolura وقام بها ١٣ مدينة هامة . أما بقية الابروشيات فهي :

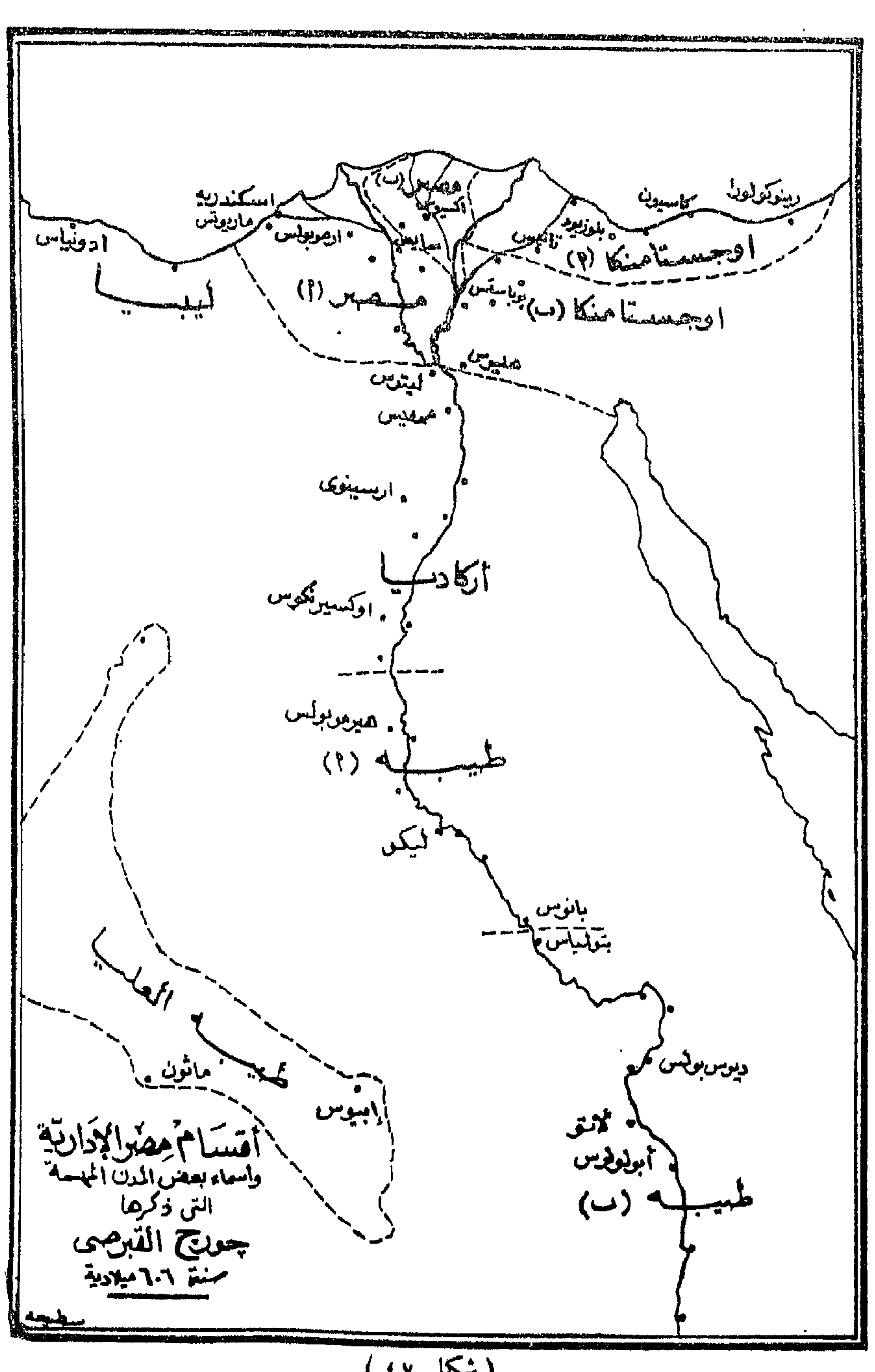
١ - أبروشية أوجستا الثانية وتقع إلى الجنوب من أوجستا الاولى وتمتد شرقاً إلى كليزما وبها سبع مدن هامة ـ٢ - أبروشية أركاديا Arcadia وتمتد من رأس الدلتا حتى موضع مدينة المنيا الحالية (يدخل ضمنها منخفض الفيوم) وقامت بها ٩ مدن هامة ـ٣ـ أبروشية طيبة السفلى وتقع إلى الجنوب من أركاديا وينتهي حدها الجنوبي قرب بلدة أخميم ودخلت ضمنها الواحات الخارجة وكان بها ١٠ مدن كبيرة ـ٤ - أبروشية طيبة العليا وكانت تمتد من جنوب إخميم حتى جزيرة فيلة وظهر بها ١١ مدينة هامة ـ ٥ - أبروشية ليبيا الصغرى وهذه شملت النطاق الساحلي إلى الغرب من الاسكندرية وتبعها أيضاً واحة سيوة ولكن لم تزد مدنها الهامة على خمس .

٤- في مصر العربية :

وقبل دخول العرب مصر بنحو ٣٥ عاماً (٦٠٦ م) وصف جورج القبرصي العالم الروماني.ولكنه حين أشار إلى مصر اكتفى بسرد قوائم أسماء المدن الهامة التي أصبحت مراكز للأسقوفيات القبطية والتلميح إلى الاقسام الإدارية الرئيسية التي كانت تنقسم إليها مصر (شكل ٤٧) . وإذا ما قارنا التقسيم الاداري الذي أخبرنا به هيروكليس (شكل ٤٦) بالتقسيم الاداري الذي ألمح إليه جورج القبرصي نجد أن الاختلاف طفيف فالابروشية المصرية التي أشار إليها هيروكليز


اسكندريه
بوتو
اقليم مصر
هيرموبوليس
سايس
كاسيون
بلوزيوم
إقليم أوجستا الأولى
إقليم ليبيا الصغرى
برباستس
إقليم أوجستا الثانية
هليوبوليس
كلزمه
ممفيس
إقليم أركاديا
أرسينوتيس
إقليم طيبة السفلى
بتوليماس
كبتوس
إقليم طيبه العليا
أومبى
أقسام مصر الرئيسية
حسب ما ذكره
هيروكليز
سنة ٥٣٥ ميلاديه

(شكل ٤٦)



اسكندريه
ماريوتس
ادونياس
ليبيا
ارموبولس
مصر (ب)
اكسيوس
سايس
مصر (أ)
رينوكولورا
كاسيون
بلوزيوم
تانيس
اوجستامنكا (أ)
بوباستيس
اوجستامنكا (ب)
هليوبوليس
ليتوس
ممفيس
ارسينوى
اركاديا
اوكسيرنكوس
هيرموبولس
طيبه (أ)
ليكو
بانوس
بتولمياس
ديوس بولس
لاتو
ابولونوس
طيبه (ب)
العليا
ماثون
ابيوس
أقسام مصر الإدارية
وأسماء بعض المدن المهمة
التي ذكرها
جورج القبرصي
سنة ٦٠٦ ميلادية

(شكل ٤٧)

انقسمت إلى أسقوفيتين ، شمالية وجنوبية كذلـك لم تختلف حدود ابروشيتي أوجستا الاولى والثانية عن حدود أسقوفيتي أوجستامنكا الاولى والثانية. هذا ولم يحدث في الوجه القبلي تغيير في التقسيم الذي حدثنا عنـــه القبرصي فيما عدا اعتبار واحات البحرية والفرافرة والداخلة والخارجة أسقوفيه منفصـلة أطلق عليها طيبة العليا .

وقد أبقى العرب في أول عهدهم بمصر عـلى التقسيم الاداري البيزنطي الذي وجدوه [١] وإن كانوا أطلقوا اسم « أسفل الارض » على الوجه البحري« وأعلى الارض » على الوجه القبلي. وأطلقوا اسم« الحوف » على أسقوفيتي أوجستامنكا الاولى والثانية كذلك عرفوا الاسقوفية المصرية الاولى والثانية باسم« الريف ». وهنا نلاحظ أن أسقوفية « ليبيا » الرومانية سميت « إقليم الاسكندرية». وقد امتد هذا الاقليم شرقاً ليشمل منطقة رشيد[٢]. أما في أعلى الارض فغير العرب اسم « أركاديا » فأصبح « مقدونية » أو «إقليم العاصمة». وأطلقوا على أسقوفية طيبة الصعيد وجعلوا أسوان عاصمـــة لها . كذلك اعتبرت الواحات كما كانت الحال في العصر البيزنطي وحدة ادارية منفصـلة . هذه الاقاليم الرئيسية كانت مقسمة في فجر الاسلام الى نحو ٨٥ كورة كما تخبرنا الوثائق العربية [٣] . ولكن هذا العدد أخذ يتناقص على مر الزمن حتى استبدلت الكورة كأساس للتنظيم الادارى بوحدة أكبر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كما سنشير فيما بعد [٣] .

---

(١) Bell. H. The Administration of Egypt under the umayyad khalifs . — Congress of Orientalists ' . Oxford 1928 .

(٢) راجع الخرائط الملحقة بكتاب Toussoun, O. La Géographie de L'Égypte a ' L'epoque Arabe. I. VIII' Le . Caire 1928'

(٣) ا ـ المقريزي ـ الخطط ـ جزء أول ـ ص ١١٦ وما بعدها

ب ـ كلمة « كورة » كلمة اغريقية ومعناها دائرة ـ (عن Hanotaux, P. 233)

حـ ـ راجع كذلك كتاب الانتصار لابن دقماق الجزء الرابع ص ١٣٣ وما بعدها .

ثم أدخل تعديل على أقسام مصر الكبرى في القرن التاسع الميلادي .ولكن كل معلوماتنا عن هذا التعديل تقتصر على أسفل الأرض . ففي أوائله صارت أراضي الدلتا ثلاثة أقسام : ١ ـ الحوف الشرقي ٢ ـ الحوف الغربي ٣ ـ بطن الريف . وكان الحوف الشرقي هو الحوف القديم ما عدا الأراضي الواقعة شمالي بحر أبي صير . وشمل الحوف الغربي الأراضي الواقعة إلى الغرب من فرع رشيد وكذلك بعض الجهات التي تقع شرقي هذا الفرع إلى الشمال من صان الحجر . أما بقية الأراضي الواقعة بين الفرعين والأراضي شمالي بحر ابي صير فسميت « بطن الريف » .

ثم حدث في أواخر هذا القرن أن قسم « بطن الريف » إلى قسمين : القسم الشرقي ويضم تسع كور واحتفظ باسم « بطن الريف » والقسم الغربي ويضم إحدى عشرة كورة وعرف باسم « الجزيرة ».ومما ينبغي تسجيله هنا أنه منذ دخول العرب مصر حتى أواخر القرن الحادي عشر اقتصر التغيير على الاقسام الكبيرة . أما الكور فظلت في مجموعها كما هي في أنحاء مصر طوال تلك الفترة. ولكن ما أن قارب القرن الحادي عشر على الإنتهاء حتى كان التقسيم الإداري لمصر قد أصابه تغيير أساسي . فقد ألغي نظام « الكور » أو الاقسام الصغيرة التي عرفتها مصر مدة طويلة وكذلك ألغيت الاقاليم الاربعة الكبيرة التي عرفت منذ أيام الدولة البيزنطية وحل محلها نظام « الاعمال » وهي أقسام ضم الواحد منها أكثر من كورة .

ولم يبلغنا من أمر هذا التقسيم الجديد شيء يذكر وكل ما نعرفه هو أن كور الدلتا التي بلغ عددها حينذاك ٤٦ كورة صارت اثنين وعشرين عملا لكل منها عاصمة . وقد ظلت الحال كذلك قرابة قرن من الزمان حتى قام السلطان حسام الدين لاجين بإراكة أرض مصر سنة ١٢٩٠ م فأدخل تعديلا طفيفاً على التقسيم السابق .ثم حدث في أوائل القرن الرابع عشر أن أمر السلطان الناصر

محمد بن قلاوون بإراكة أرض مصر من جديد ، وعلى أساس نتائج هذا الروك أعيد تقسيم مصر إدارياً وأعيد توزيع الارض على رجال الجيش والامراء كما أخبرنا ابن الجيعان في كتاب « التحفة السنية » .

وقد جاء في أخبار الروك أن أسفل الارض قسم إلى ١٢ عملاً أو مديرية (شكل ٤٨) بلغ عدد قراها ١٦٧٣ قرية . وكان عمل الغربية هو أكثر الاعمال قرى (٤٧٧ قرية) وكذلك أوسعها أرضاً زراعية (نحو ٧٦٠ ألف فدان) . أما أقل الاعمال قرى ومساحة زراعية فكان عمل النستراوية . فسجل به حينذاك ٦ قرى و١٠ آلاف فدان فقط [١] . وقسم أعلى الأرض إلى تسعة أعمال بلغ عدد قراها ٦٧٩ قرية . هذه الاعمال من الشمال الى الجنوب هي : الجيزية، الأطفيحية، الفيومية، البهنساوية الأشمونين، المنفلوطية الاسيوطية، الأخميمية والقوصية .كان أوسعها وأكثرها قرى هو عمل البهنساوية (نصف مليون فدان) وأصغرها هو المنفلوطية (نحو ٣٠ ألف فدان) . إلى جانب هذه الاعمال التي انقسمت إليها الدلتا والصعيد كان هناك « كور » الواحات في الصحراء الغربية والطور والقلزم وأيله والفرما والعريش ومريوط ولوبية ومراقية وكلها كما هو واضح أقسام حدية تستقبل بعض الصادر والوارد وتسهم في جمع المكوس المفروضة على التجارة لذلك وجد من الافضل تركها قائمة دون إدماج .

وإن دل هذا الغيير الجديد على شيء فعلى نقص عدد السكان بالقياس إلى ما كانوا عليه قبل القرن الرابع عشر.فقد سجل الروك الناصري مثلاً ١٠٠ قرية ومدينة في إقليم الفيوم بينما بلغ ما كان به في العهد الروماني ١٤١ قرية ومدينة [٢] وكذلك يشير إلى انكماش الرقعة الزراعية . فقد انتشرت الأرض البائرة في شمال الدلتا والفيوم وقلت العناية بمشاريع الري وطالت أوقات

---

(١) عمر طوسون ـ كتاب مالية مصر ــ القاهرة ١٩٣١ ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٢) Ibid',p.8

خريطة الوجه البحري

سنة ٧٧٧ هجرية (١٣٧٥ م)

(أسماء الأقاليم وعواصمها)

الإسكندرية
نستراوة
فوه
دمياط
النستراوية
الغربية
المحلة الكبرى
دمنهور
البحيرة
أشموم الرمان
الدقهلية والمرتاحية
أبيار
جزيرة أبيار أو بني نصر
الشرقية
بلبيس
منوف
المنوفية
القليوبية
قليوب
القاهرة
ضواحي القاهرة

(شكل ٤٨)

الشدة . وقــد ازداد تدهور الزراعة واستمرنقص السكان بعد القرن الرابع عشر نتيجة لتوالي المجاعات والاوبئة ولعدم استتباب الامن وانتشار الفوضى والفتن وازدياد نفوذ رؤساء القبائل الوافــدة على وادي النيل وتحديهم سلطة الحكومــة وتحكمهم في الفلاحين . ثم كان أن فقدت مصر المال الكثير الذي كانت تحصل عليه من تجارة المرور بعــد اكتشاف طريق رأس الرجاء إلى البحار الشرقية فتدهورت أحوالهـا الاقتصادية وأصبحت فريسة لجيش سليم الاول الزاحف من الشام .

٥- في ايام العثمانية :

ولم يغير الاتراك العثمانيون من التقسيم الإداري الذي أمر به قــلاوون شيئاً وظل معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر حين دخلت الحمــلة الفرنسية مصر . في ذلك الوقت كانت الاراضي الزراعية قد انكمشت وتقهقر حدهــا الشمالي نحو الجنوب كما رأينا . أما السكان فلم يزد عددهم على مليونين ونصف مليون نسمة . لذلك عمدت سلطات الاحتلال الفرنسية إلى إلغاء إقليم النستراوية في شمال الدلتا وضم جزئه الغربي إلى إقليم رشيد الذي حل محل إقليم فوه وضم جزئه الشرقي إلى إقليم الغربية . وأدمج الجزء الشمالي الشرقي من إقليم الغربية والشمالي الغربي من إقليم الدقهلية والمرتاحية إلى إقليم دمياط وضم ثغر الإسكندرية إلى إقليم البحيرة ودخلت ضواحي القاهرة ضمن إقليم القليوبية [١]

---

(١) قسم الوجه البحري في سني الحملة الفرنسية إلى ثمانية أقاليم إدارية هي :
اقليم القليوبية وعاصمته قليوب والشرقية وعــاصمته بلبيس والمنصورة وعاصمته المنصورة ودمياط وعاصمته دمياط والغربية وعاصمته المحــلة الكبرى والمنوفية وعاصمته منوف ورشيد وعاصمته رشيد والبحيرة وعاصمته دمنهور . أما التقسيم الاداري للصعيد أيام الحملة فلا يختلف كثيرا عما هو عليه الآن .

الفصل الثامن عشر

عواصم مصر

الثورة المدنية الأولى :

حدثت الثورة المدنية الأولى في مصر وسومر وربما في السند في وقت واحد ونتيجة لأسباب متشابهة[1] . حدثت في أوائل الألف الرابعة قبل الميلاد بعدأن زادت معرفة الانسان وكثرت تجاربه وتوفرله كثير من أسباب الحضارة المادية . فقد اخترعت الكتابة وسجلت بعض المعارف واستخدم المعدن على نطاق أوسع واستعمل « الدولاب » في صنع الأواني الفخارية والعجلة في النقل واستحدث المحراث واستعين بالحيوانات في حمل الأثقال[2] . وقد ساعدت هذه المخترعات والمستحدثات من غير شك على زيادة إنتاج الطعام وفي نفس الوقت يسرت نقله من مكان إلى آخر فتهيأت الظروف التي تسمح بتوفير الغذاء لأفراد من المجتمع انقطعوا لأعمال أخرى غير إنتاج الغذاء . بدأت قصة المدينة حينما كف بعض

---

(١) Childe, G. Man Makes Himself. London, 1951, p. 168.

(٢) Ibid., pp. 105 - 137

أهل القرية عن السعي لتوفير المطالب الضرورية بعد أن ضمنوا الحصول عليها أو ربما بدأت عندما تجمع نفر من الناس في مكان معين يسهل وصول الغذاء إليه بكميات كافية ويسمح بمباشرة أمور الإدارة والحكم وإقامة الشعائر الدينية بطريقة مرضية . ومنذ أن ظهرت المدينة وهي دائماً منار للعلم وقوة للدين ومهد للفنون والصناعات وحلقة الصلة بين الثقافات المختلفة .

المدن الأولى :

وينبغي أن نشير إلى أن هذه المدن الأولى ظهرت فى أقطار خصبة تقوم فيها الزراعه (زراعة الحبوب) على مياه الأنهار ومايتطلبه ذلك من مشاريع وتنظيم وتضافر الجهود . وكان لذلك أثره على إنتاج الأرض . فقد فاض عن حاجة السكان لأول مرة في تاريخ البشرية بدرجة تضمن لمن لا يقوم بالحرف الأولية أن يجد ما يسد حاجته [1] . بل لقد قامت التجارة وتبادل الناس المنافع وتحول الاقتصاد بعض الشيء من الاكتفاء الذاتي إلى الاعتماد على بعض منتجات العالم الخارجي . وقد استلزم ذلك وجود سلطة على رأسها أمير أو ملك لتدير وتنظم استقرت في محلات متواضعة مثلت طلائع المدن . وعاشت جنباً إلى جنب مع رجال الحكومة طوائف من رجال الدين والصناع والتجار ونفر من الزراع والرعاة والصيادين أيضاً .

مدن مصر القديمة :

وقد سمحت ظروف وادي النيل ومجتمعه بقيام مدنية قبل أن يلوح فجر التاريخ . ففي عصر ما قبل الأسرات استطاع المصريون بالعمل المشترك والنظام

---

(١) Smailes, A The Geography of Towns. London 1953, chap I.

استخدام مياه الفيضان في الزراعة فأنتجت الأرض من كل الثمرات ما فاض عن الحاجة . فقامت تجارة داخلية اتخذت من نهر النيل وفروعه سبلاً سهلة رخيصة. وابتدعت مصر كذلك نظماً للادارة والحكم وتقدمت فيهـا الفنون التشكيلية وتمكن الدين من قلوب الشعب ولون حياتهم بلون خاص . هذه هي المقومـات الأولى للحياة المدنية في مصر. وقد اكتملت هذه الحياة في رأي شيلد G. Childe يوم أن ظهرت مصر التـاريخية الموحدة [١] ، ويوم أن تحول الاقتصاد المصري تحولاً واضحاً من اكتفاء ذاتي ضيق إلى اعتماد على بعض منتجات البلدان المجاورة كالأخشاب والبخور والأحجار الكريمة الخ [٢] . فقد قامت تجارة خارجية أشرنا إليها فيما تقدم .

ظهرت المدن المصرية الأولى كعواصم للمقاطعـات التي انقسمت إليها مصر الفرعونية . فتحت أيدينا نص من بني حسن يرجـع إلى الأسرة الثانية عشرة يذكر « أنه عندما يريد الملك أن ينشىء مدينة يقوم بفصلها عن المدينة القريبة بحدود تقف عليها علامات خاصة من الحجارة تبين نهـــاية ما يخصها من أرض زراعية وأشجار ورمال وماء » . وتكون المدينة وما يحيط بها من أرض ومـا يظهر بها من قرى المقاطعة الجديدة [٣] . وقد سبق أن أشرنا إلى بعض العواصم المحلية الفرعونية إشارات كثيرة ولحنا إلى مصايرها التي انتهت إليها في العصر الروماني ورأينا كيف تغير النمط التوزيعي للعواصم المحلية القديمة وكيف تحول

---

(١) Childe, G. (1951) p. 195.

(٢) Ibid.

(٣) ا - Hanotaux, G. Op. cit., pp. 155 - 56.

ب - يبدو أن هذا الحديث ينطبق على المقاطعات التي نشأت في ضوء التاريخ ولم تكن لها أصول سابقة كمقاطعتي منف والفيوم .

إلى نمط آخر لعل أهم ما يميزه عدم ثباته لفترات طويلة بسبب ظهور المدن بغير قيود – قيود التقسيم الإداري القديم – وظهور سمات تنبيء بانكماش الحيـــاة المدنية[١] . وهذا في واقع الأمر حدث في العصر البيزنطي وما تلاه من عصور. فقد ظهرت المدن بغير ضابط على أثر تغير التقسيم الاداري كما أسلفنا . وصاحب ذلك أيضاً اضمحلال تدريجي في حياة أغلب العواصم المحلية القديمة .

حياة سكان الحواضر القديمة :

ولم تكن حياة سكان الحواضر الفرعونية وغيرها من المـدن تختلف كثيراً عن حياة أهل الريف المجاور . كانت الحاضرة مجرد مـكان حصين يحوطه سور او خندق دائري تلجأ إليه كل مساء طوائـف الزراع والرعاة والصيادين حيث تقضي الليل مع طوائف أخرى مستقرة من أصحاب الحرف اليدوية والتجـار وموظفي الحكومة . أما موضعها فهو عند ملتقى الطرق التي يصنعها النيــل وفروعه وقنواته ليسهل اتصالها بالعالم الخارجي . وكانت مبانيها بسيطة متواضعة في معظمها، تبنى من الطين والقش والأغصان والغاب . وتقف متراحمة على طول أزقة ملتوية وطرقات متربة حول السوق وبقرب معبد الإله وقصر فرعون « ممثله على الأرض »[٢] . وكان هناك غير المساكن مخازن الغلال ومستودعات البضائع وحظائر الماشية ومعامل أصحاب الحرف اليدوية وحوانيت التجار فضلا عن دور المصالح الحكومية المختلفة بأعمدتها المميزة. هذا ولا يمكن لأي زائر أن يخطيء المعبد وقصر الحاكم فهما يقفان في جلال ورهبة تتضاءل بالقياس لهما بقية الأبنية والمنشآت .

---

(١) Butzer (1960) Op. cit., pp. 8ȿ - 33

(٢) Moret, A. Op. cit, p. 41

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن إله الحاضرة كان له السيادة الدينية على المقاطعة ويؤكد ذلك إطلاق اسمه على الحاضرة والمقاطعة معاً. فكانت عاصمة المقاطعة مثلاً تسمى بيت (Per) أو قصر (Het) أو مدينة (Nut) كذا من الآلهة [1] . وقد يقوى عباد أحد الآلهة فينتشر نفوذهم ونفوذ كهنته في البلاد وربما يظهر منهم الملوك وتتحول مدينتهم أو مدينة أخرى (يختارونها أو ينشئونها) إلى عاصمة للبلاد . وقد حدث مثل ذلك قبل أن يبدأ التاريخ فقد تمكنت المدينة المزدوجة « نخب ونخن » من أن يكون لها السيادة وتصبح المدينة الأولى في مملكة الجنوب وفي نفس الوقت استطاعت بوتو Buto أن تحتل مركز الصدارة وتصبح عاصمة مملكة الشمال [2] .

عواصم مصر الفرعونية

الحائط الأبيض :

وعندما وحد مينا الوجهين ولبس تاجاً يرمز إلى الشمال والجنوب لم يشأ أن يجعل العاصمة طينة Thinis مسقط رأسه لتطرف موقعها نسبياً . فأنشأ الحائط الأبيض (منف فيما بعد) في مكان متوسط بين أرض الشمال والجنوب لتكون عاصمة مصر الموحدة « ولتحفظ التوازن بين الوجهين » وقد كان موفقاً في ذلك

---

(١) أ- Ibid ., p. 49,

ت - استمر هذا التقليد في العصر الاغريقي كما سبق أن أشرنا .

(٢) أ- Breasted , A. (1935) Op. cit. PP. 33 - 44

ب انقسمت كل من هاتين العاصمتين إلى حيين ، حي مقدس يقوم فيه المعبد وحي ملكي يقوم فيه قصر فرعون .

أعظم التوفيق [1] . وتذكر الوثائق التاريخية أن مينا بنى « الحائط الأبيض » أو « المكان الجميل » بعد أن شيد جسرا ضاربا في النهر إلى الجنوب منها.وقد أدى ذلك إلى تحول مجرى النيل قليلا نحو الشرق فظهرت أرض جديدة على الضفة الغربية هي التي بنى عليها مينا عاصمته تلك . ولكن C.H aswell يرى أن الجسر لم يبن لهذا الغرض وإنما لوقف نحت النهر للثنية التي كانت تقوم عليها « الحائط الأبيض » [2] .

بيد أنه لم يكتب «للمكان الجميل» أن تظل عاصمة لمصر طوال حكم الأسرتين الأولى والثانية (نحو ٤٠٠ عام)-فقد ارتدت عاصمة البلاد إلى الداخل – إلى طينة وغيرها من المدن الملكية التي ظهرت في مصر الوسطى . وهكذا ذهب من « الحائط الأبيض» سلطانها الذى كان لها أيام مينا وإن بقي لها من مظاهر الملك تتويج فرعون والاحتفال بأعياد ميلاده [3] .

ولا ندري سبب ارتداد العاصمة الى الداخل على وجه اليقين . ولكن يغلب على الظن أنه يرجع الى ظهور العصبية الإقليمية الكريهة من جديد وتجدد الشقاق بين الشمال والجنوب طوال حكم الأسرتين الأولى والثانية.وقد خرج برستد A . Breasted من دراساته بأن مواقع المدن الملكية التي ظهرت في الأسرة الثانية كانت تقترب تدريجيا من « المكان الجميل » حتى اختيرت « المكان الجميل » نفسها عاصمة للبلاد من جديد في عهد الأسرة الثالثة (٢٩٨٠ – ٢٥٠٠

---

(١) ا - Breasted p. 37

ب - ممفيس (منف) هو الاسم الذي أطلقه الاغريق على «الحائط الأبيض» ويقال أنه تحريف « لمن - نوفر Men - nofer الاسم الذي أطلق على هرم بيبي الأول . - عن Breasted, P, 133

(٢) Haswell, C. Cairo - Origin and Development. Bull. de la Soc. Sult. de Gèog. vol. xL. 1922. PP. 171 - 72.

(٣) كرس البطالمة هذا التقليد فكان الملك منهم يتوج ويتقلد مهام منصبه في ممفيس .

ق.م) وظلت كذلك حتى نهاية الاسرة الثامنة أي قرابة ٥٠٠ عام [١]. ويبدو أن انتشار نفوذ الإله رع معبود مدينة أون On (Heliopolis) هو الذي جذب مركز الملك نحو الشمال حتى تكون العاصمة الملكية قريبة من العاصمة الدينية وحتى يكون فرعون قريباً من حاميه وناصره رع. وهكذا استبدل ملوك منف راعيهم وحاميهم « حورس » اله طينة برع اله هليوبوليس. وقد ازدهرت منف في عهد الدولة القديمة أيما ازدهار وامتدت شمالاً حتى قاربت أن تتصل بمشارف هليوبوليس .

وعلى الرغم من زوال الملك عنها بزوال الدولة القديمة فقد ظلت مدينة عامرة حصينة قروناً كثيرة [٢] حتى بدأ نجمها في الافول بعد تعرضها لغزوات الاثيوبيين والاشوريين والفرس [٣] . وقد قدمنا أنه عندما زار استرابون مصر لاحظ ما حل ببعض أجزائها من خراب ومع ذلك « كانت لا تزال كثيرة السكان تأتي بعد الاسكندرية في الاهمية [٤] . ولا شك أيضاً في أن قيام الاسكندرية لتكون عاصمة كان عاملاً حاسماً في انحدار منف وهبوطها الى المركز الثاني بين مدائن مصر [٥] .

---

(١) Breasted, A.(1935) PP 597 - 98.

(٢) أ - Diodorus of Sicily. The Library of History. Trans, by . c. Oldfather, Vol. I, London 1933 P 50.

ب - تبين من وصف ديودور الصقلي لمنف (القرن الأول ق.م) أن طول محيطها بلغ نحو ٢٨ كم وحماها من جهة الجنوب جسر ضخم من اللبن وأحاط بها من الجهات الأخرى خندق به ماء .

(٣) أ - Poole, R, S. The cities of Fgypt. London 1882, P. 19
Herodotus. Op. cit., p 178.

(٤) استرابون في مصر ص ١٤ .

(٥) Poole, R. S. Op. cit, P. 178 & 187.

وقد اختفى سور المدينة واختفى معه معظم مبانيهـا في العصور الوسطى ويرجع ذلك كما أخبرنا عبد اللطيف البغدادي (القرن ١٢ م) الى ان السلاطين وسكان القاهرة كانوا يأخذون أحجار مبانيهم وأعمدتها من أطلال منف .وقد أنكر البغدادي هذا العمل ونادى بضرورة المحافظة على الآثار والهياكل القديمة لانها على حد قوله «سجلات للتاريخ وشواهد تؤكد ما جاء في القرآن وعبر للأحياء وصور تعرض أسلوب الاقدمين في الحياة ودلائـــل على غزارة علمهم ودقـــة تفكيرهم »[1]. واذا كانت مدينة الاحياء هذه لم يبق منها غير حطام تماثيل وبقايا مبان تنتشر بين النخيل قرب قرية ميت رهينة فإن جبانة منف أو « مدينـــة أمواتها » لا زالت باقية على حافة الصحراء الغربية تؤكد قدم تاريخ مصر واستمراره وتشهد بعمق ايمان المصريين بالحياة الثانية . وتمتد الجبانة من الشمال الى الجنوب أكثر من ٣٢ كم تضم ٦٠ هرماً بعضها متهدم وبعضها الآخر لا زال باقياً. هذا الى جانب كثير من الهياكل والمعابد وكذلك المقابر المنقورة في الصخر . ولعـــل أروع آثار مدينة الاموات بل أروع آثار مصر هي أهرامات الجيزة عنوان المجد القديم .

طيبة :

أما طيبة (واست) عاصمة الإقليم الرابع وعاصمة مصر بـل والعالم القديم لعدة قرون فكانت في أول أمرها مدينـــة صغيرة تكون مع اقليمها وحدة اقتصادية واجتماعية لها الاهها المحلي ولها أطماعها وقت ضعف الحكومة المركزية. وقد بدأ نجم المدينة في الصعود في أوائل عهد الاسرة الحادية عشرة(٢١٠٠ق.م) التي أسـسها حكام طيبة بعد أن انتصروا في حرب التوحيد على ملوك أهناسيا أصحاب الامر في الدلتا ومصر الوسطى . ولما كان اله طيبـــة المحلي (مونت)

---

(١) راجع كتاب الإفادة والاعتبار طبعة باريس ١٨١٠ .

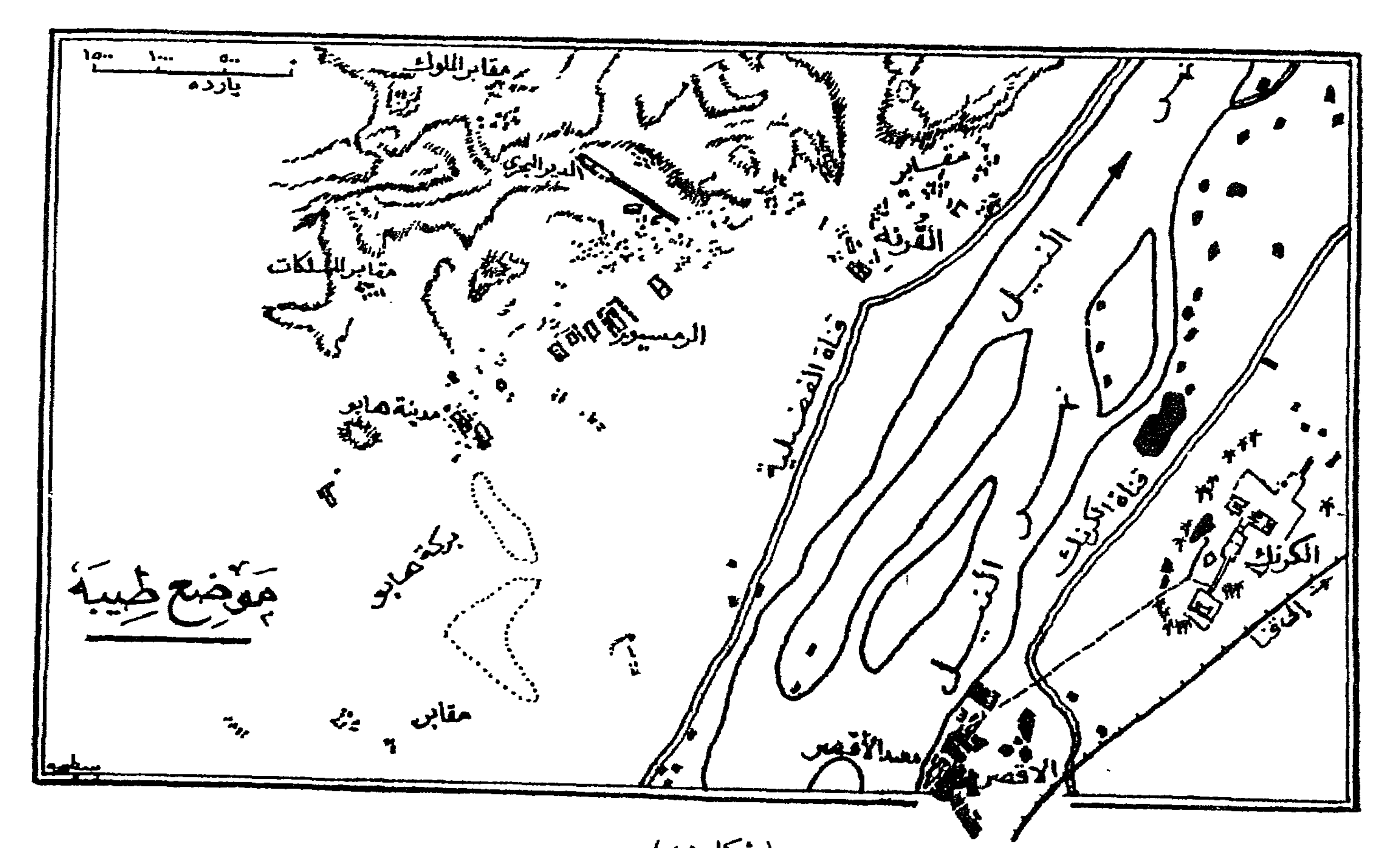
إلاهاً صغيراً مغموراً لا يصلح أن يكون إلاهاً للدولة فقد استعار ملوكها الإله آمون (أحد آلهة مدينة الأشمونين) ليكون إله دولتهم الجديدة. وهكذا قدر لطيبة أن يكون لها السيادة الدينية والدنيوية معاً . واستمر حكمها أكثر من ثمانية قرون ظهرت خلالها أسر ملكية تنتمي إلى الدولة الوسطى والحديثة .

ولكن هذه المدة لم تكن متصلة فقد تخللتها فترات قصيرة انتقلت فيها العاصمة إلى الشمال . فيحدثنا التاريخ أنها انتقلت إلى « شدت » [1] (مدينة الفيوم) في عهد بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة وخاصة أمنمحعت الثالث بسبب زيادة الاهتمام بتعمير منخفض الفيوم وإقامة بعض مشاريع الري الكبرى به . ثم انتقلت بعض الوقت إلى «أخيتاتون [2] » (تل العمارنة) بعد أن تحدى أخناتون كهنة آمون في طيبة وأعلن دين التوحيد الجديد . ثم انتقلت مرة ثالثة

---

(١) « شدت » اسم فرعوني قديم معناه « المنقذة » أو « المنتزعة » نسبة إلى أن موضعها انتزع من البحيرة التي كانت تشغل مساحة واسعة من المنخفض ـ عن W·Petrie A History of Egypt , Vol , I , 1894 p · 192

(٢) احتلت « أخيتاتون » رقعة واسعة على الضفة الشرقية للنيل بلغ طولها من الشمال إلى الجنوب أحد عشر كيلومتراً ونحو كيلو ونصف من الشرق إلى الغرب.وقد أقام اخناتون عدداً من اللوحات الحجرية حدد بها حدود المدينة والأراضي التابعة لها على جانبي النيل لايزال بعضها قائماً حتى الآن (Petrie , p , 210 .) ومما يسترعي الانتباه أن هذه المدينة الكبيرة لم تكن مسورة ربما لاتساع رقعتها. ولكنها امتازت بكثرة الحدائق وكثرة الاشجار على جانبي الطرق وكان يتوسط هذه العاصمة الجديدة معبد أتون الذي اتصل بالقصر الملكي . وهنالك إلى الشمال والجنوب من القصر الكبير انتشرت قصور الأشراف ومنازل الأتباع بغير نظام . غير أنه لم يخصص أهل أخيتاتون جبانة لهم على الشاطىء الغربي كما هي العادة عند المصريين القدماء الذين اعتبروا الغرب المكان المخصص للموتى ، بل إن كلمة الغرب في اللغة المصرية استعملت للتدليل على الجبانة . كانت مقابر أخيتاتون منقورة في التلال الصخرية التي تحد المدينة من ناحية الشرق ، ولا بد أن هذه الظاهرة ترجع كما يقول الدكتور عبد المنعم أبو بكر إلى أن ديانة « أتون » جعلت للشرق أهمية تفوق الغرب إذ هو المكان المقدس الذي يشرق منه الإله . وقد انتهت اخيتاتون كعاصمة بانتهاء حكم أخناتون .



موضع طيبة
مقابر الملوك
الدير البحري
مقابر الملكات
الرمسيوم
مدينة هابو
بركة هابو
مقابر
القرنة
قناة الفضلية
النيل
النيل
قناة الكرنك
الكرنك
معبد الأقصر
الأقصر
١٥٠٠ ١٠٠٠ ٥٠٠
ياردة

(شكل ٤٩)

إلى تانيس [1] في شمال شرقي الدلتا عندما زاد اهتمام الدولة بالأحوال السياسية في جنوب غربي آسيا وبعد أن توثقت العلاقات التجارية مع شعوبه .

وعلى الرغم من تطرف موقع طيبة وبعدها عن الوسط فقد اختيرت عاصمة للبلاد ربما لرغبة حكام طيبة في أن يضمنوا ولاء أهل جنوب الوادي الذين آزروهم في حرب التوحيد وأعانوهم على طرد الهكسوس من البلاد . وربما أيضاً لرد بعض جميل أهل طيبة عليهم . ومهما يكن من شيء فلا يخلو موقع طيبة من قيمة وجمال . فقد قامت المدينة الحقيقية (مدينة الأحياء) في سهل زراعي فسيح يبلغ عرضه نحو ١٣ كلم يشتهر بتربة عظيمة الخصوبة وانتاج متنوع وفير . والحق أن ظروف الطبيعة تعاونت لإكساب الموقع أهمية خاصة . فالمدينة إلى جانب انتفاعها بالنيل كطريق للاتصال بين الشمال والجنوب تقع على ثنية من ثنياته الكبيرة تقربها من البحر الأحمر . ومن ناحية أخرى تقوم الوديان العرضية التي تخترق الصحراء الشرقية كدروب سهلة الاختراق تربط بينها وبين ساحل البحر . ويتسع النيل أمام طيبة لوجود بعض الجزر (شكل ٤٩) وإذا ما عبرناه تطالعنا حافة الهضبة الغربية شامخة (تصل في بعض الأماكن إلى ٢٠٠ متر فوق سطح البحر) تقف غير بعيد من النهر مما يزيد « مدينة الأموات » في بطون الوديان جلالا ورهبة . في هذه البقعة من جنوب الوادي نشأت طيبة ونمت لتصبح « مدينة الأبدية » و « مدينة المدن » كما أحب أهلها أن يسموها .

---

(١) كانت تانيس مدينة متواضعة أيام الأسرة السادسة ولكنها ازدهرت في عصر الأسرة الثانية عشرة التي حكمت من طيبة . وقد امتاز موقعها بقيمته الدفاعية والتجارية معـاً . فقد كانت تقع على الحدود الشمالية الشرقية حيث تلتقى الطرق البرية والنهرية وكانت في نفس الوقت تستقبل السفن القادمة من بلدان شرقي البحر المتوسط . وقد أصابها بعض الاضمحلال في عهد الفوضى والاضطراب الذي بـدأ بحكم الهكسوس . لكنها بقيت على الرغم من ذلك نافذة مصر على العالم الخارجي . ثم مهدت الظروف لاختيارها عاصمة لمصر في بعض أيام الأسرة التاسعة عشرة ثم خلال حكم الأسرة الحادية والعشرين - عن R.S.Poole , Op . cit . pp , 70 - 75

بيد أن طيبة لم تزدهر وتصبح « مدينة المدن » إلا بعد قيام الأسرة الثانية عشرة (١٥٠٠ ق.م).فقد تحولت من عاصمة وطنية إلى عاصمة امبراطورية يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ،تفيض خزانتها بالذهب وأسباب الترف الأخرى وتنتهي إليها المغانم والتجارات براً وبحراً وتخرج منها الحملات وتغص بالرقيق ويساق إليها الأسرى تتبعهم حيواناتهم من ماشية وماعز وأغنام . منذ أكثر من ٣٣٠٠ سنة إذن كانت طيبة قد بدأت عصرها الذهبي – عصر الامبراطورية . المال في الخزائن وفير وغنى الفراعنة عريض والأيدي العاملة من الرقيق والأسرى والمصريين كثيرة رهن الاشارة وحب آمون متغلغل في القلوب .

لذلك لم يكن غريباً أن تتسع رقعة المدينة وتزدحم بسكانها ويتبارى الملوك في تمجيد آمون وتعظيمه باقامه المعابد والمسلات والأقواس والاحتفالات الدينية . وعلى قدر ما انشغل الملك وكبار القوم بالحياة الدنيا فقد اهتموا بالحياة الأخرى . فأقاموا المعابد الجنائزية وأعدوا المقـــابر المنحوتة في الصخر وزينوها بالنقوش والصور وزودوها بكل ما ينفع الميت في حياته الثانية . وهكذا ظلت طيبة خلال عصر الامبراطورية (نحو ٢٥٠ سنة) زاهرة قوية وعاش ملوكها وسادتها حياة الأبهة والرفاهية لا تفنى أجسادهم بانتهائها وإنما تبقى على الزمن محنطة في مقابرها العميقة بالبر الغربي انتظاراً للحياة الثانية .

ومن الواضح أن طيبة انقسمت إلى قسمين : قسم للأحياء في الشرق وقسم للأموات في الغرب فيما وراء النهر. وكان القسم الشرقي يكون في مجموعه مدينة ضخمة لا يبلغ البصر مداها تمتد بين مجموعتي المعابد الضخمة التي أقيمت لعبادة الإله آمون في الأطراف الشماليه والجنوبية . فيها قام قصر فرعون تحيط من حوله دواوين الحكومة وقصور الأمراء والنبلاء ورجال الحاشية ومعسكرات الجند ومساكن الكهنة والموظفين من كل فئـــة . وتزاحمت بالقرب من تلك القصور والمساكن الحوانيت الصغيرة ومعامل أصحاب الحرف اليدوية . وعلى مشارف

المدينة قامت أكواخ يسكنها بعض الفلاحين والرعاة [١] . كان مجتمعها خليطاً عجيباً من الأحرار والأرقاء من الزنوج وغير الزنوج من الافريقيين والأسيويين من السادة المترفين والعمال الكادحين . ولم تكن الحرف أقل تنوعاً. فإلى جانب رجال الحاشية وموظفي الحكومة كان رجال الدين والعمال على اختلاف مهاراتهم وصنائعهم والتجار ورجال الجيش والشرطة والفلاحون . وإذا أخذنا في اعتبارنا مبلغ غنى المدينة واتساع رقعتها فيمكن القول أن سكانها بلغوا مئات الألوف [٢] .

ولم تكن « مدينة الأموات » كلها للأموات ، فقرب النهر وعلى الأرض السوداء أنشئت كثير من القصور الملكية وما يتبعها من حدائق وحظائر ومخازن وكذلك بنيت كثير من الدور لموظفي الملك وخدمه ومهندسي المقابر وعمالها وصناع التوابيت والمشتغلين بتحنيط الجثث . وإلى الغرب من هذه الضاحية كانت مقابر الملوك والملكات تختفي في جوف الارض في بعض وديان الصحراء الغربية . والمقابر الملكية دهاليز وأبهاء عظيمة يصل عمق بعضها إلى أكثر من ١٠٠ متر تحت سطح الارض وتغطي جدرانها وسقوفها روائع الصور والاشكال وكثير من النصوص الجنائزية . وقام إلى جانب هذه المقابر صف طويل من المعابد الجنائزية امتد بصفة عامة من الشمال إلى الجنوب . أما مقابر النبلاء ورجال الحاشية وكبار موظفي الدولة فتوجد بالآلاف منقورة في أعلى حافة الهضبة الليبية حيث يشتد الانحدار . وإذا تركنا أنفسنا للخيال برهة فإن « مدينة الاموات » هذه كانت في أغلب الاحيان مليئة بالنشاط والحركة تختلط فيها الاصوات التي تصدر عن معاول الحفر وآلات النقب بأدعية كهنة الموتى وصلواتهم وعويل المشيعين وصراخهم .

---

(١) Moret, A. op, cit., p, 293

(٢) Ibid

ولكن ما أن انهارت الامبراطورية (في عصر الاسرة العشرين) حتى بدأت حياة طيبة تنكمش وتفقد بعض مظاهر مجدها وعظمتها ثم أخذ شأنها يقل بعد انتقال العاصمة إلى الدلتا – إلى تانيس وسايس . وبالرغم من ذلك فكان ذكرها لا يزال على الألسنة . فهوميروس (القرن التاسع ق.م) يصفها في الالياذة بأنها « المدينة ذات المائة باب ، التي ينطلق من كل باب منها مائتا محارب بخيلهم ومركباتهم [1] » .

ولكن لم تلبث قليلاً حتى أصابتها ضربات قاتلة على أيدي آشور بانيبال وقمبيز . فقد عاثت جيوشها في مصر فساداً وانتقمت لنفسها من طيبة أشد انتقام وتركتها وقد تغير وجهها وضاع مجدها . ولم تفلح محاولات بعض من جاء بعد ذلك من الفراعنة في إعادة تعمير ما تهدم من مبانيها، واستقبلت طيبة العصر الإغريقي وقد فقدت كثيراً من عظمتها السابقة ثم قضي على ما تبقى منها بعد إخماد الثورتين اللتين نشبتا فيها ضد الحكم البطلمي . هذا ما صارت عليه طيبة بعد قيام دولة البطالمة – بلدة قليلة الشأن تفوقها أهمية في جنوب مصر مدينة حديثة هي بطوليمايوس Ptolemaios (مكان المنشية الحالية – محافظة سوهاج)بناها البطالمة لتنافسها ولتحتل مركزها الهام القديم في الاقليم وربما أيضاً لتكون دار إقامة لكثير من الطيبيين ممن دمرت مساكنهم . ولم ينته العصر البطلمي حتى كانت « مدينة المدن » قد انهد قلبها وتحول إلى أرض زراعية . وتجمع ما بقي من سكانها حول المعابد والاطلال التي امتدت على طول مسافة بلغت ١٥ كيلو متراً . وفي هذا كتب استرابون عقب زوال حكم البطالمة يقول: «والمدينة الآن مجموعة من القرى جزء منها في صحراء العرب حيث كانت المدينة فيما مضى ، والجزء الآخر على الضفة المقابلة من النهر [2] » .

---

(١) استرابون في مصر ص ١١٣ .

(٢) نفس المرجع ص ١١٣.

واليوم تقوم بلدتا الكرنك والاقصر في موضع المدينـة الحقيقية يربطهما بالماضي أطلال معبديهما العظيمين . وفي البر الغربي يخيم صمت رهيب على مـا بقي من مدينة الاموات وهو شيء كثير (شكل ٤٩) . فالمقابر لا زالت في أغلبها على حالتهـا الاولى إذا أغفلنا ما نهب منها . وكثير من المعابد لا زال يحتفظ بمعظم أجزائه كمعبد سيتي الاول بالقرنة ومعبد حتشبسوت بالدير البحري ومعبد رمسيس الثاني (الرمسيوم) ومعبد رمسيس الثالث بمدينـة هابو[١] وبعد فهذه هي نهاية طيبة ، العاصمة القاهرة المجيدة وهذه آثارها على ضفتي النهر تحكي بعضا من قصة المصري والدين وتشهد بعظمة مصر وشعبهـــا .

عواصم الدلتا :

قبل أن ينتهي عصر الامبراطورية كانت الدلتا قد أخذت تجذب فرعون وحاشيته للإقامة على حدودها الشمالية الشرقية بعض الوقت ثم لم يمض وقت طويل حتى استقر الملك في عاصمته الجديدة بي رامسيس Pe - Ramses (تانيس) أيام الاسرة الواحدة والعشرين (١١٠٠ - ٩٤٥ ق.م) . ولا شك أن ظهور عاصمة وطنية في الدلتا لاول مرة منذ بدء التاريخ المصري كان دليلا على نجاح أهل الدلتا في انتزاع السيادة من أهل الصعيد[٢]. وقد لعبت الظروف السياسية والدوافع الاسرية فيما بعد دورها على الابقاء على عاصمة البلاد في الدلتا فظهرت بوباسطة (في عصر الاسرة الثالثة والعشرين) في شرقها وقامت سايس (في عصر الاسرة السادسة والعشرين) في غربها . ويبدو أن منف صارت مركزاً للحكم الفارسي في أواخر عهد الاسرات المصرية إلى أن دخل الاسكندر غازياً وأمر ببناء الاسكندرية (سنة ٣٣١ ق.م) لتكون عاصمة مصر الهلينية .

---

(١) Moret, A. op. cit., p. 296
(٢) Ibid, 345

عاصمة مصر الاغريقية الرومانية

الاسكندرية :

لم تكن الاسكندرية أول مدينة إغريقية أنشئت في مصر فقد ظهرت قبلها بعدة قرون مدينة نقراطيس على الفرع الكانوبي بعيداً عن البحر . وكانت لها تجارة واسعة وعاشت حياتها المستقلة في قلب مصر [١] . وقد فقدت نقراطيس أهميتها التجارية بعد بناء الاسكندرية التي فاقتها في أهمية موقعها الجغرافي . ولكن يبدو أن بلوزيوم (التي قامت قرب مصب الفرع البلوزي) لم تتأثر كثيراً بقيام الاسكندرية فقد ظل هذا الميناء القديم منفذ مصر من جهة الشرق حتى القرن الثالث الميلادي على الرغم من وقوعه على بعد أربعة كيلومترات من البحر كما يقول استرابون [٢] . أراد الاسكندر أن تكون منشأته الجديدة ميناء تجارياً يخلف صور في عالم التجارة وأن تكون مركزاً من مراكز الثقافة الاغريقية وأن تصبح المدينة الأولى في مصر . وقد كان له ما أراد فلم تنقض ١٥٠ سنة على قيام الاسكندرية حتى صارت أكبر مدينة في مصر بل أكبر مدينة اغريقية في العالم تلتقي عندها تجارة الشرق والغرب وتنبعث من جامعتها إشعاعات الثقافة الاغريقية . ليس هذا فحسب بل صارت مركزاً صناعياً هاماً .

ويعتقد بعض المؤرخين أن الاسكندر اختار موضع الاسكندرية دون سابق تدبير والدليل على ذلك ما ترويه الوثائق التاريخيه من عدم توافر كمية من الجير تكفي لتحديد مواقع أسوار المدينة واستخدام الدقيق المخصص للجند لاتمام

---

(١) نصحي - تاريخ مصر في عصر البطالمة جزء ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٧

(٢) استرابون في مصر ص ٨٢

التخطيط [١] . وهناك من يعترض على هـذا القول ويرى أن الاسكندر كان قد قرأ عن هذا الموضع في الأوديسة قبل مجيئه إلى مصر [٢] . فقد جاء فيها أن المرفأ الوحيد المحمي على ساحل مصر الشمالي يقع خلف جزيرة فارس ولايبعدعن مصب أقرب فرع من فروع النيل (الفرع الكانوبي) بأكثر من سفر يوم واحدفي البحر [٣] . ولا شك أن الملاحين الاغريق والتجار كانوا على علم بهـــذا الموضع وكانوا يحتمون بالمرفأ وقت العواصف ويصعدون في النهر متى هـدأت الريح إلى نقراطيس – سوق مصر التجارية قبل الاسكندرية . وكيفما كان الأمر فيتبين مما يرويه استرابون أنه كانت تقوم في المكان الذي انشئت عليه الاسكندرية قريـة راقودة Rhakotis وأنها كانت معسكر الحامية التي تحرس البـــلاد من هجوم الأجانب (وخاصة الاغريق) من قبل البحرولا تهتم باستيراد شيء من الخارج.

ويبدو أن كاليستينيس Callisthenes (القرن الرابع ق.م) كان أدق من استرابون في ذلك ، فقد ذكر في « قصة الاسكندر » أن البقعة التي قامت عليها الاسكندرية كانت تضم ست عشرة قرية مصرية أكبرها راقودة . أما جزيرة فاروس Pharos التي وصلت بالساحل في أوائل العصر البطلمي فلم تكن على الأرجح أكثر من ملجأ لبعض صيادي السمك وقـت غزوة الاسكندر . وقد كشفت أبحاث جوندية G. Jondet التي أجراهـا تحت المياه القريبة من حي الأنفوشي ورأس التين أن الجزيرة كان لها شأن كبير قبل العصر الاغريقي . فقد عثر على بقايا أرصفة ومنشآت بحرية ضخمة يرجح أن تكون أطلال ميناء بناه رمسيس الثاني ليقي مصر من « سكان البحار [٤] » وفي رأي آخر قد تكون

---

(١) نصحي ص ٢٧٨

(٢) Poole, R. S. op. cit, p., 178·

(٣) Ibid. p. 179

(٤) Jondet, G Les Ports submerges de L'ancienne ile de Pharos. Mem. Inst. Eg. Vol. IX. Le Caire 1916

بقايا ميناء أقامه أهل كريت في الألف الثانية قبل الميلاد عندما امتد سلطانهم إلى هذه القطعة من أرض مصر .

وتدين الاسكندرية بشيء كثير من أهميتها إلى موضعها وموقعها معاً . فهي تقع على شريط ضيق مموج السطح يمكن الدفاع عنه [١] . يحده البحر المتوسط في الشمال وبحيرة مريوط في الجنوب وقد سمح ذلك بظهور مرفأين للمدينة : مرفأ بحري وآخر بحيري . وقد انقسم المرفأ البحري إلى قسمين قسم شرقي وآخر غربي (بعد ربط جزيرة فاروس بالساحل). ومهما يكن من أمر فقد كان المرفأ البحري ولا زال في مأمن من رواسب النيل التي يجرفها التيار البحري بعيداً جهة الشرق. وفي نفس الوقت تقوم السلسلة الغارقة على طول المشارف الشمالية (امتداد للسلسلة الساحلية في إقليم مريوط) بحجز ما يكون قد ارتد من هذه الرواسب جهة الغرب [٢] . وفي الجنوب كان المرفأ البحيري ترسو فيه السفن النيلية القادمة من داخل البلاد وتربطه بالبحر قناة ملاحية صغيرة [٣] . وكانت الاسكندرية إلى جانب صلتها السهلة ببقية الدولة عن طريق النهر وقنواته في موقع متوسط بالنسبة لبلاد اليونان وآسيا الصغرى وسوريا أي في مركز متوسط بالنسبة للعالم الإغريقي .

ولعل أشهر من كتب عن الاسكندرية القديمة وأشار إلى صفات موضعها وأشاد بطيب هوائها هو استرابون . يقول « وفاروس جزيرة قريبة جداً من الساحل وتكون باتصالها به مرفأ ذا مدخلين، ذلك أن بالشاطىء خليجاً يتدمنه في البحر رأسان تقع بينهما الجزيرة التي تسد الخليج لأنها تمتد مستعرضة بحذاء

---

(١) Ball, J. Egypt in the Classical Geog. Cairo 1952 p. 50

(٢) محمد صبحي عبد الحكيم ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ص ١٩

(٣) استرابون في مصر ص ٦٣

الشاطيء ... والمكان محفوف بمياه بحرين إذ من الشمال تحف به مياه البحر الذي يسمى البحر المصري ومن الجنوب بحيرة مارية (مريوط) ... وطيب هوائها جدير بالملاحظة وهذا أيضاً ناتج عن اكتناف الماء لها وملاءمة موسم فيضان النيل .. » [1]

ويتبين من وصف استرابون أيضاً أن رقعة المدينة الاغريقية كانت على شكل مستطيل أو على هيئة عباءة الحرب المقدونية[2]. بلغ طولها نحو ٥,٥ كلم وعرضها ١,٥ كلم وأحاطت بها أسوار منيعة ذات أبواب لم يفقها في مناعتها إلا أسوار سيراقوزة وأثينا. ونظراً لضيق رقعة المدينة فقد ربطت جزيرة فاروس بالساحل بواسطة جسر عرف باسم الهيبتاستاديوم [3] Heptastadium وكان لا يزيد عرضه عند إنشائه على ٣٠ متراً بينما بلغ طوله نحو ١٣٠٠ متر. وقد اتسع عرض الجسر بعد تهدمه وتراكم الرواسب البحرية ومخلفات المدينة من حوله. وتقوم عليه الآن من الأحياء الحديثة المنشية والجمرك . ومن الواضح أنه بعد اتمام بناء هذا الجسر أصبح للاسكندرية مرفآن : مرفأ شرقي سمي « الميناء الكبير Portus Magnus » وآخر غربي عرف باسم « ميناء العودة السالمة Portus Eunostus » . ولسهولة انتقال السفن من مرفأ إلى آخر ولمنع تراكم الرواسب شق ممران مائيان في الجسر عند طرفيه [4] . وكانت جزيرة فاروس تعتمد في شربها على الماء المحمول اليها في القوارب قبل بناء الجسر فلما تم بناؤه أصبح في الإمكان تزويدها

---

(١) استرابون في مصر ص ٥٥ - ٥٨

(٢) المرجع السابق ص ٥٩

(٣) هذا الاسم معناه ٧ ستديا والاستديوم مقياس إغريقي طوله نحو ١٨٥ متراً وقد أصبح عرض الجسر الآن أكثر من كيلو متر واحد .

(٤) استرابون في مصر ص ٥٦

بماء النيل [١] عن طريق قنوات عالية تجري فوقه وتأخذ من ترعة الاسكندرية القديمة . ولكن يبدو أن الماء الجاري انقطع عن فاروس بعد أن هجرها كثير من السكان في أواخر العصر البطلمي [٢] .

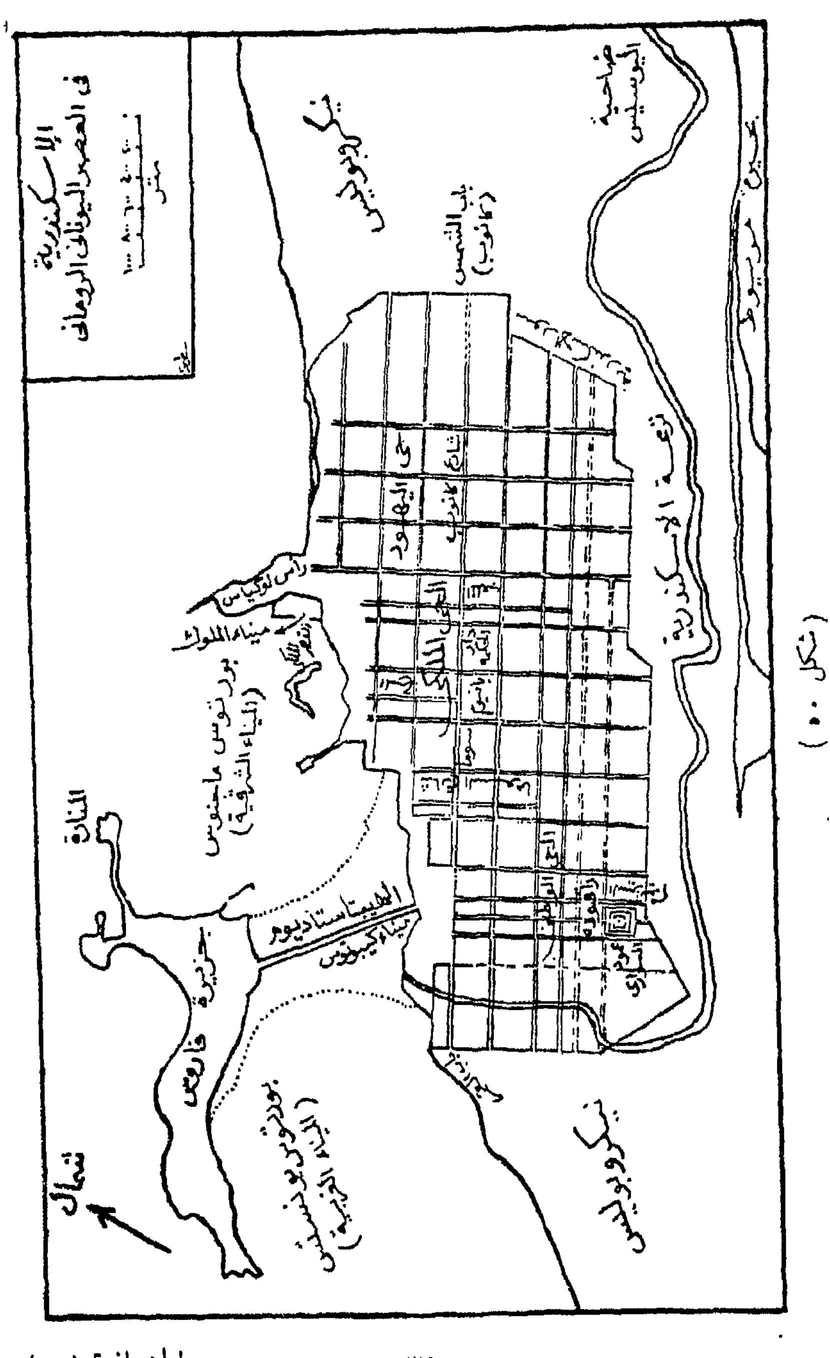
وقد اتبع المهندس دينوقراطيس Denocrates الذي وكل اليه أمر بناء المدينة خطة الزوايا القائمة Grid Plan وهي خطة تلائم موضع الاسكندرية الضيق كل الملاءمة ، تمتد فيها شوارع مرصوفة واسعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب في خطوط مستقيمة متقاطعة . وكان أهم شوارع الاسكندرية الإغريقية شارعين : شارع كانوب وشارع السوما (شكل ٥٠) وبمقارنتهما بالشوارع الأخرى نجد أنهما أوسع الشوارع فقد بلغ عرض كل منهما نحو ٣٠ متراً وتميزا أيضاً بدهاليز أعمدة على الجوانب تظل المارين نهاراً وتضاء بالمصابيح ليلاً. وقد اخترق شارع كانوب المدينة من شمالها الشرقي عند باب الشمس إلى الجنوب الغربي منتهياً عند باب القمر . أما شارع السوما فكانت بدايته في الجنوب الشرقي قرب بحيرة مريوط ونهايته في الشمال الغربي شرقي الجسر الذي ربط الشاطىء بجزيرة فاروس . وعند تقاطع الشارعين يظهر ميدان كبير Mason Pedium يتركز فيه النشاط التجاري للمدينة . أما المباني فكانت من الحجر الجيري المقطوع من محاجر المكس وتزين القصور والمنشآت العامة منها أعمدة وتماثيل من الرخام والجرانيت [٣]. ومما يجدر ذكره أن قوانين المدينة كانت تقضي بأن يترك بين كل

---

(١) ا ـ نفس المرجع السابق ص ٥٧ ـ ب تعتبر جزيرة فاروس من الناحية الجيولوجية امتداداً لسلسلة من السلاسل الجيرية المتصلبة في مريوط . وقد غرق ما بينهما تحت سطح الماء بفعل حركات القشرة .

(٢) راجع Jondet, op. cit. pp. 75 - 79

(٣) Everyman's Atlas of Ancient And Classical Geography. p. 8


الإسكندرية
في العصر اليوناني الروماني
نكروبوليس
باب الشمس (كانوب)
ضاحية إليوسيس
ترعة الإسكندرية
حي اليهود
شارع كانوب
رأس لوكياس
ميناء الملوك
بورتوس ماجنوس (الميناء الشرقية)
المنارة
جزيرة فاروس
الهيبتاستاديوم
ميناء كيبوتوس
نكروبوليس
شمال
بحيرة مريوط

(شكل ٥٠)

بيت وآخر مسافة قدم واحد على الأقل إلا إذا تم الاتفاق بين الجارين على بناء جدار مشترك بينهما [١] .

وعن طريق ترعة الإسكندرية القديمة أو ما عرف بترعة « شديا » وصل الماء العذب لشرب المدينة (شكل ٥٠) . كانت هذه الترعة تأخذ من الفرع الكانوبي قرب بلدة النشو البحري (شديا قديما) ثم تجري في اتجاه المجرى الحالي لترعة المحمودية مسافة ٢٧ كيلو متراً قبل أن تصب في المرفأ الصناعي الذي عرف باسم كيبوتوس Kibotos (أي الصندوق) [٢] . ويرى بعض المؤرخين أن شعبة من هذه القناة اخترقت شرقي المدينة لتصب في المرفأ الكبير [٣] . وتفرعت شعبة ثالثة نحو الجنوب لتربط بحيرة مريوط بهذا المرفأ الصناعي. وما أن تصل مياه الترعة إلى الاسكندرية حتى يحول بعضها إلى أربعة قنوات أرضية تنتهي كل واحدة منها في خزان كبير. ومن هذه الخزانات الرئيسية ترفع المياه بسواق تصب بدورها في مساق صغيرة توزع الماء إلى مئات من الصهاريج مقامة تحت المنازل. وقد كشفت حفائر محمود الفلكي في سنة ١٨٧٢ عن بعض صهاريج من ثلاثة طوابق ، العلوي منها محمول على أعمدة ضخمة من الجرانيت او الرخام [٤] . على أن هذه الصهاريج جميعاً لم تكن تأخذ كل ما بها من القنوات الباطنية فبعض الماء كان يجلب اليها بالقرب من الخزانات الرئيسية وبعضه الآخر كان يمثل ما تسرب من ماء المطر . ولم يكن لفقراء المدينة نصيب في ماء الصهاريج وكان عليهم أن يقصدوا الترعة مباشرة لجلب حاجتهم من الماء .

---

(١) ابراهيم نصحي (١٩٦٠) ص ٨٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٤

(٣) Everyman's Atlas op. cit., p. 88

(٤) محمد صبحي عبدالحكيم ص ١١٠

وكان المرفأ الشرقي يمثل مسطحاً مائياً شبه مقفل تدخله السفن عن طريق فتحة بين رأس لوكياس والطرف الشرقي لجزيرة فاروس . وقد ظل المرفأ الشرقي أهم المرفأين طوال العصر البطلمي وجزء من العصر الروماني ثم انتقلت أهميته إلى المرفأ الغربي عندما اتسع مدخله بسبب التآكل التدريجي في رأس لوكياس (السلسلة الحالية) [1] . وكان يطل على المرفأ قصور ومنشآت أقيم بعضها على رأس لوكياس وكان عريضاً (نحو كيلومتر) ضارباً في البحر والباقي كان يصل في امتداده جهة الغرب حتى جسر الهبتستاديوم . ومن المباني والمنشآت الهامة في هذه الجهة قصور ملكية والمسرح ومعبد بوسيدون الذي أقيم على نتوء ممتد في البحر ثم الأرصفة والمستودعات . ويغلب على الظن أن الأرصفة والمخازن والمستودعات كانت قسماً خاصاً تفصله أسوار عن المدينة لا تفرض على البضائع الواردة إليه مكوس وإنما تجبى المكوس المقررة عليها إذا ما نقلها التجار إلى المدينة .

وقد تميز هذا المرفأ أيضاً بتلك المنارة الرائعة التي أنشأها المهندس سوستراتوس على صخرة قرب الطرف الشرقي لجزيرة فاروس. وظلت المنارة تثير اعجاب العالم القديم وتهدي الملاحين عدة قرون حتى سقط مصباحها بعد فترة من دخول العرب مصر ثم انهارت تماماً في القرن الرابع عشر م على أثر زلزال عنيف . وقبل أن نغادر المرفأ الشرقي الكبير ينبغي أن نشير إلى أنه كان يوجد في مواجهة محطة الرمل الحالية جزيرة صغيرة عرفت باسم انتيرودوس Antirodos أقيم عليها قصر ملكي له ميناء خاص عرف بميناء الملوك لأنه كان خاصاً بأفراد العائلة الملكية . وقد اختفت الجزيرة تحت الماء نتيجة لارتفاع

---

(١) كان يمتد من رأس لوكياس الذي يحد المرفأ الكبير من جهة الشرق لسان يحميه من التيارات والرياح الشمالية ولا يفصله عن الصخرة التي كانت تقوم عليها منارة الاسكندرية إلا مدخل ضيق .

مستوى سطح البحر في العصور اللاحقة .

وكان المرفأ الغربي او «مرفأ العودة السالمة» يقع قبالة الحي الوطني في المدينة (شكل ٥٠) ولم يكن محمياً كل الحماية لذلك لم يكن في أهمية المرفأ الشرقي كما قدمنا . كذلك لم تظهر على طوله سوى الارصفة الجرانيتية لاستقبال السفن والمستودعات وصوامع الغلال . في هذا المرفأ انتهت خطوط الملاحة النهرية عبر بحيرة مريوط ومن ثم الى القناة الصغيرة الموصلة الى الحوض الصناعي كيبوتوس .

وقد انقسمت الاسكندرية الاغريقية الى ثلاثة احياء عاش في كل منها مجتمع تربط أفراده بعضهم ببعض وحدة العنصر فضلاً عن وحدة المصالح . فكان هناك الحي الملكي وبه سكن الأغارقة حكام البلاد وحي اليهود ثم الحي الوطني حي المصريين من أهل المدينه . أما الحي الملكي فكان يشرف على الميناء الشرقي وينتهي جنوباً عند أسوار المدينة [١] . ويقدر أنه كان يشغل ثلث رقعتها أو نحو ذلك . ومن الواضح أنه كان يمتد على المساحة التي يشغلها الآن حيا محرم بك والأزاريطة ومنطقة محطة الرمل . وكيفما كان الأمر فإن هذا الحي كان اكثر الأحياء روعة وجمالاً ، قامت فيه القصور وحدائق للحيوان والمتحف (دار الحكمة) ودار القضاء والمكتبة والمسرح والملعب [٢]. وقام في وسطه أيضاً تل صناعي Panium (يغلب على الظن أنه كوم الدكة) لا يعرف على وجه اليقين سبب إقامته. وبالقرب من هذا النهد من الأرض كان المعبد الجنائزي الذي دفن فيه الاسكندر ومعابد أخرى للبطالمة المؤلهين .

---

(١) Everyman's Atlas. op. cit. p. 86

(٢) حوت مكتبة الاسكندرية نحو ٤٠٠ ألف كتاب أحرق أغلبها عند حصار يوليوس قيصر للمدينة وقضى على الباقي خلال الاضطرابات الدينية في العصر المسيحي .

وقد شغل حي اليهود الركن الشمالي الشرقي من المدينة (شكل ٥٠) أي كان إلى الشرق من الحي الملكي ويطـل على البحر مباشرة . وكانت له أسواره الخاصة وبواباته ليحتمي سكانه وراءهاوقت الاضطرابات العنصرية وما كان أكثرها في الاسكندرية (١) . وربما امتد هذا الحي القديم على المنطقـة التي يشغلها الآن حي الشاطبي وحديقة الشلالات .

واحتل الحي الوطني الجزء الجنوبي الغربي من المدينة أي موضع قرية راقودة القديمة ويشغل هذا المكان الآن احياء باب سدرة ومينا البصل وكوم الشقافة . وكان أهم المباني في هذا القطاع من المدينة معبد السرابيوم أشهر معابد الاسكندرية والملعب وصوامع للغلال سبق الإشارة اليهـا (٢) . وقد بني السيرابيوم في مكان مجاور لعمود السواري ليعبد فيه الإله سرابيس. وديانة سرابيس هي في تعاليمها مزيج من ديانة المصريين واليونانيين وكان الغرض من نشرهـا هو التأليف بين قلوب المصريين والدخلاء من الاغريق . ولم تكن الاسكندرية التي حاصرهـا العرب غير هذا الحي الوطني وقد أصابه كثير من الأضرار على يد الجيوش الغازية وبسبب المنازعات والاضطرابات المحليـة . وعلى الرغم من ذلك كله فقد بقيت معالمه في الوقت الذي اختفت فيه معالم الحيين الآخرين (٣) .

وكانت توجد خارج المدينة جبانتان إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب أما الشرقية منها فتوجد في المنطقة بين الشاطبي والابراهيمية الحاليـة . وإلى جانبها قامت أيضاً ضاحية اليوسيس Eleusis وقصور ومغان لأثرياء الاسكندرية وكانوب تنتشر على جانبي القناة التي كانت تأتي من ناحيـة الاسكندرية لتصب قرب خليج أبي قير . وأما الجبانة الغربيـة أو مدينة الأموات فكانت حدائق

---

(١) Everyman's Atlas .. op . cit. P 86

(٢) Ibid . P. 88

(٣) Ibid. P. 80

تنتشر بينها المقابر وأماكن التحنيط وتشغل مساحة تقع بين حيي القبارى والمكس.
وتوجد آثار المدينة الاغريقية الآن على عمق أكثر من ٧ أمتار من مستوى الأرض في بعض المناطق ربما بسبب الهبوط الذي أصاب الأرض ونتيجة لتراكم مخلفات العصور المختلفة [١]

الاسكندرية أيام الرومان :

وفي سنة ٣٠ ق.م سقطت مصر في يد الرومان وأصبحت ولاية رومانية بعد أن كانت دولة مستقلة . وكان لذلك أثره عـلى مركز الاسكندرية السياسي فقد اتضعت مكانتها ومع هذا فقد اطرد نموها وأقيمت فيهـا كثير من المنشآت الجديدة (كمعبد القيصروم وعمود السواري) وخاصة في النصف الأول من العصر الروماني. بل إن المدينة ظهر لها خارج أسوارها ضاحية عسكرية لسكنى أفراد الجيش الروماني أطلق عليهـا « مدينة النصر » Nicopolis وكانت تقع بين مصطفى باشا وجليمنوبولو[٢]. ورغم ذلك فالذي نلاحظه أن المظهر العام للمدينة الرومانية لم يختلف كثيراً عنه أيام البطالمة فلا تزال الأسوار تحيط بالمدينة ولا تزال الشوارع تجري في خطوط مستقيمة متقاطعة ، حتى المعابد الوثنية بقي بعضها قائما بعد أن تحول إلى كنائس [٣].

وإذا كان من اختلاف فهو في تلك الكنائس المسيحية التي أنشئت في العصر البيزنطي عصر انتشار المسيحية في مصر. وصارت بعد إنشائها من معالم الاسكندرية في العصر المسيحي . ومن أهم هذه الكنائس كنيسـة القديس مرقس عند رأس لوكياس وكنيسة القديس أثناثيوس التي بنيت في مكان جامع العطارين الحالي وكنيسة القديس ميخائيل التي ربما قامت قرب محطة الرمل ثم كنيسة يوحنا

---

(١) راجع Jondet, G. P. 57, 61

(٢) فؤاد فرج ـ الاسكندرية ص ٣٦

(٣) عزيز سوريال عطية « الاسكندرية في العصر المسيحى » فصـل من كتاب الاسكندرية الذي أخرجته الغرفة التجارية بمدينة الاسكندرية في سنة ١٩٤٩ ص ٧٨ - ٧٩

الممدان وقد أقيمت على أنقاض معبد السيرابيوم وكنيسة العذراء مريم وقد بنيت بالقرب من المرفأ الغربي[1]. ومن معالم العصر المسيحي أيضاً ظهور كثير من الأديرة كالحصون بناها الرهبان غربي المدينة في إقليم مريوط وكذلك في وادي النطرون لتكون أماكن للعبادة . وقد خرب معظمها ولم يبق منها الآن غير أربعة في وادي النطرون هي: دير البراموس ودير أنبا بشوى،ودير السريان ودير أبي مقار [2] . وكان لاقليم مريوط شأن كبير أيام البطالمة والرومان . فقد كان يمد الاسكندرية بمنتجاته من الفواكه والخمور وزيت الزيتون . ونضيف أن الاسكندرية كانت في نظر الاغريق والرومان لا تعتبر جزءاً من مصر وإنما مجاورة لها [3].

وقبل أن ينتهي العصر الروماني كان التخريب قد أصاب كثيراً من معالم الاسكندرية بسبب الاضطرابات الدينية والعنصرية والثورات الداخلية والغزو الفارسي الذي حدث في سنة ٦١٩م . كانت المدينة وقت دخول العرب قد فقدت مكتبتها الكبرى ودار الحكمة بها واختفى معبد السيرابيوم وتهدم القيصروم وذهب بهاء كثير من القصور الملكية . ومع ذلك فقد وجدها العرب عندما فتحوها صلحاً في سنة ٦٤١ م مدينة رائعة حصينة متألقة كثيرة القصور والحمامات وافرة الثراء مزدحمة بالسكان. ويذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر يصف له المدينة بقوله « لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام ، وأربعمائة ملهى ، واثنى عشر ألف بائع للخضر وأربعين ألفاً من اليهود وأهل الذمة » [4] ومع ما في هذا

---

(١) عزيز سوريال عطية ـ الاسكندرية في العصر المسيحي ص ٧٨ ـ ٧٩

(٢) نفس المرجع .

(٣) إبراهيم نصحي ٢٧٣

(٤) راجع بتلر ـ فتح العرب لمصر ترجمة محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٤٦ ص ٢٧٠ ـ ٢٩٣

الوصف من مبالغة فهو يشير على أية حـــال إلى فتنة العرب بالاسكندرية عند رؤيتهم لها لأول مرة . ولا يهمنا في هذا المقام ونحن ندرس عواصم مصر أن نعرف كل ما طرأ على شكلها ومظهرها بعد أن تركتها الحكومة إلى مقرها القديم عند رأس الدلتا . ويكفي أن نوجز أهم ما طرأ على عمرانها فيما يلي :

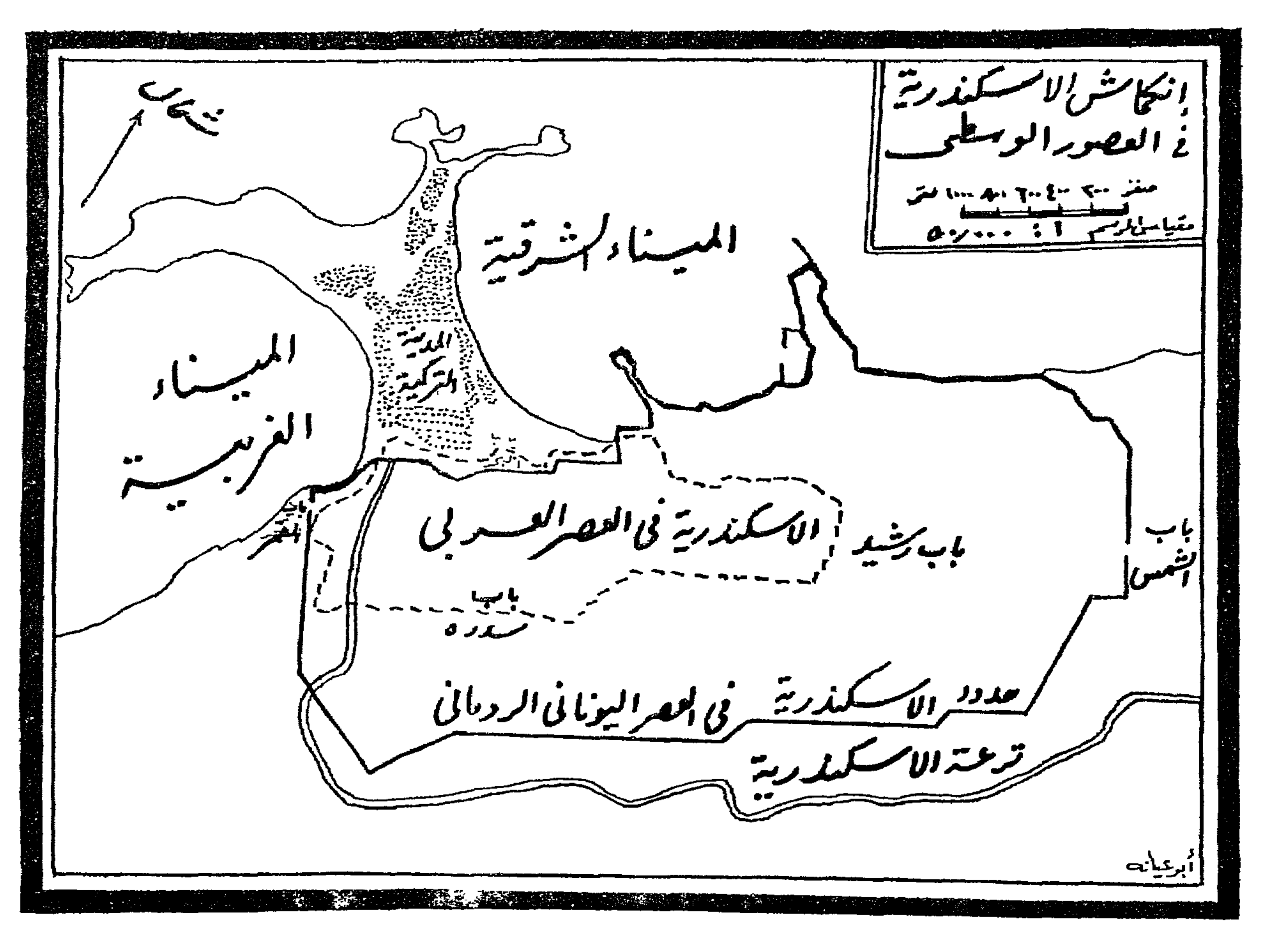
الاسكندرية في العصر العربي :

انكمشت رقعة المدينة في العصر العربي عما كانت عليه في العصر الاغريقي الروماني (شكل ٥١) فقد أحاط سور المدينة عندما أعيد بناؤه بعد الغزو بالمنطقة الآهلة بالسكان فقط وترك خارجه الجزء الشرقي وكذلك المنطقة الجنوبية من المدينـة الرومانية [1]. وأنشىء للسور الجديد أبواب تقابل الأبواب القديمة سميت بأسماء جديدة . فباب رشيد أو القاهرة حل محـل باب الشمس القديم وباب القمر سمى باب القرافة لأنه كان يؤدي إلى جبانة هناك . أما في الجنوب فبني ما عرف تارة بباب سدرة وتارة أخرى بباب البهـار أو باب العمود [2] . وفي السور الشمالي كان باب البحر يشرف على الميناء الشرقية . هذا وقد جدد السور في أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك . وكان من الطبيعي أن يتأثر مظهر المدينة الخارجي بدخول الدين الجديد — دين الإسلام — هذا الأثر توقف على عدد الحامية العربية في المدينة وعلى مدى انتشار الدين الإسلامي بين سكانها ومبلغ اهتمام الدولة بها . فأنشئت فيهـا المساجد والبيوت لسكنى العرب والمدارس والخوانـق والربط والزوايا وكثير من الدور الحكومية كدار الإمارة ودار الصناعة ودار الطراز وغيرها.

---

(١) جمال الدين الشيال « ـ الاسكندرية ـ طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر » القاهرة ١٩٥٢ ص ٢١٠

(٢) سمي باب سدرة لوجود شجرة ضخمة من أشجار السدر تنمو إلى جانبـه وسمي باب البهار في العصر الأيوبي والملوكي لأنه كان الباب الذي يدخل منه بهار الهند القادم بالمراكب أو على ظهور الجمال . وسمي باب العامود لأنه كان يوصل إلى عمود السواري ـ عن جمال الدين الشيـال المرجع السابق ص ٢١٢



انكماش الاسكندرية
فى العصور الوسطى
صفر ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠ متر
مقياس الرسم ١ : ٥٠٠٠٠
شمال
الميناء الشرقية
الميناء الغربية
المدينة التركية
الاسكندرية فى العصر العربى
باب رشيد
باب سدره
باب الشمس
حدود الاسكندرية فى العصر اليونانى الرومانى
ترعة الاسكندرية

(شكل ٥١)

ومن المساجد ما أقيم على أطلال المعابد أو الكنائس القديمة ومنها ما أنشىء في مواضع جديدة.وتذكر المراجع العربية التي كتبت عن صدر الإسلام في مصر أنه كان بالمدينة ستة مساجد ولكنها لا تحدد أماكنها بدقة وهي: مسجد سليمان ومسجد الخضر ومسجد ذي القرنين ومسجد عمرو بن العاص ومسجد موسى ثم مسجد المنارة وقد بني داخل المنارة لتقيم الحامية المرابطة بها الصلاة فيه . ومن مساجد العصر الفاطمي التي ورد ذكرها مسجد العطارين ومسجد الطرطوشي خارج باب البحر ومسجد المؤتمن . ومساجد أخرى لا نعلم عن مواقعها ولا أسمائها شيئاً . وبمرور الزمن كثرت المساجد في الاسكندرية فابن جبير الذي زار مصر في أوائل العصر الأيوبي يصف الاسكندرية بأنها « من أكثر بلاد الله مساجد » [1] ومصورات العصور الوسطى للمدينة تبين بوضوح كثيراً من مآذن المساجد والجوامع ويتميز العصر المملوكي بارتفاع شأن الاسكندرية في عالم التجارة وخاصة بعد هدم دمياط فكانت قبلة التجارة من الشرق والغرب وظهر بها ما عرف بالفنادق لسكنى التجار وخزن بضاعتهم .

وفي هذا العصر أيضاً زاد الاهتمام بتحصين المدينة خوفاً من هجوم الصليبيين وانطمر خليج الاسكندرية عدة مرات ولكن كان يقيض له من السلاطين في كل مرة من يأمر بإعادة تطهيره وحفره فتعم المنفعة وتحمل التجارة على السفن بدل دواب الحمل ويتوفر الماء اللازم لشرب المدينة . وقد أصاب شكل المدينة في بعض تفاصيله شيء من التغيير تبدو مظاهره في زوال بعض المنشآت القديمة كمنارة الاسكندرية الشهيرة التي تهدمت وقام فوق أطلالها برج قايتباي وتهدم كثير من المباني القديمة وجسر الهبتاستاديوم على أثر الزلزال المروع الذي نكبت به في القرن الرابع عشر . وتبدو مظاهره أيضاً فيما جد على المدينة من

---

(١) كان المرفأ الغربي (الميناء الغربية) مخصصاً لسفن المسلمين بينما كانت سفن غيرهم من المسيحيين تفد إلى المرفأ الشرقي (الميناء الشرقية) .

منشآت كالمنـــار الجديد على رأس السلسلة والمدارس والربط والفنادق ودور الصناعة والطراز والسلاح ثم الأسوار الثلاثة التي أحاطت بها [١]

وقبل أن ينتهي العصر المملوكي بنحو قرن ونصف قرن أصاب الاسكندرية داهية دهياء أثرت على حياتها والعمران فيها . فقد شن عليها بقايا الصليبيين بقيادة ملك قبرص هجوماً خاطفاً مروعاً عام ١٣٦٥ م قتل فيه أكثر أهل المدينة وخربت الدور والقصور ونهبت الفنادق والمتاجر . حدث ذلك كله خـلال أربعة أيام عصيبة غادرت الحملة بعدها المدينة إلى قبرص قبـــل أن يصل جند السلطان [١] وكان أثر الغزوة من الشدة والبشاعة بحيث لم يقم للمدينة بعدهـا قائمة فقد انحط بها الزمن وقل سكانها . وفي هذا يقول المقريزي « فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالاسكندرية من الحوادث ومنها اختلت أحوالهـــا واتضع أهلها وقلت أموالهم وزالت نعمهم » .

وسارت المدينة بعد ذلك من سيء إلى أسوأ حتى صارت في غاية الخراب قبيل دخول العثمانيين مصر واقتصر العمران على ذلك الشريط الأرضي الذي كان يمتد بين الشاطىء وجزيرة فاروس واتسعت رقعته بمرور الأيام (شكل٥١) وزاد من تأخرها واضمحلالها تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجـــاء الصالح و اهتمام العثمانيين بميناني دمياط ورشيد دونها لأنهما أقرب منها إلى الشام

---

(١) ا ـ جمال الدين الشيال – الاسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورهـــا . . ص ٢٢٧ وما بعدها .

ب ـ السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الاسكندرية وحضارتهـــا في العصر الإسلامي — القاهرة ١٦٩١ ص ٣٠ ـــ ٣٤

Attiya,A,S . The Crusadesin the later Middle Ages. London (٢) 1938 pp. 348 - 77 .

وآسيا الصغرى [١] . وعلى الرغم من كل ذلـك لم تختف الاسكندرية ولم تزل وإنما عاشت حياتها البسيطة الهادئة على بعض الصيد وشيء من تجارة إلى أن أقبل عليها الزمن مرة أخرى في بداية القرن التاسع عشر ، فنمت وازدهرت كما لم تزدهر من قبل .

ولن يكون الحديث عن جغرافية الاسكندرية التاريخية وافياً دون الإشارة إلى سكانها وأعمالهم غير أن معلوماتنا عن أحوال سكانها خلال التاريخ معلومات متفرقة غير متكاملة لذلك ستكون الإشارة إليهم مقتضبة بالضرورة .

سكان الاسكندرية

لعل أهم مـــا يمكن أن نستخلصه من معلومات عن سكان الاسكندرية الإغريقية الرومانية أنهم كانوا خليطاً من مختلف الأمم قدموا بحثاً عن الرزق في مدينة حافلة بالنشاط والحركة اكتسبت لنفسها شهرة لا تبارى في عالم التجارة والصناعة والعلوم والمعارف . وفوق ذلك كانت عاصمة ضخمة لدولة مستقلة ثم صارت حاضرة أهم ولاية رومانية . كان سكانها خليطاً من الإغريق والإيطاليين والسوريـين والليبيين والقبليقيين والأثيوبيين والعرب والسكيثيين والهنـود والفرس [٢] . ومع ذلك فالراجح أنهم لم يبلغوا المليون عـدداً كما يزعم بعض الكتاب .

وقد بنيت هذه التقديرات المبالغ فيها على ما حدثنا به الكتاب الإغريق والرومان عن عظمة المدينة وازدهارها وضخامة عدد السكان الأحرار بها. فيصفها فيلون

---

(١) راجع ,. Lepère (G) ·Mèmoire sur la ville d,Alexandrie dans la Description de l'Égypte» · Etat Mod. T.ll,Partie 2,pp.269-324

(٢) ابراهيم نصحى ص ٤٩٦

اليهودي مثلا بأنها « عدة مدن داخل مدينة واحدة »[1] ويشبهها استرابون « بخزان عام » ويدعي ديودور الصقلي أن عدد المواطنين الأحرار بها كان في سنة ٦٠ ق.م نحو ٣٠٠ ألف نسمة [2] . لا يمكن أن نتصور أن الأسكندرية الإغريقية الرومانية وهي المدينة التي لم تتجاوز مساحتها ٨٫٢٥كلم٢ – عاش فيها وفي أرباضها مليون نسمة مع ما عرف عن المعيشة والظروف الصحية في المدن القديمة . فبطء عملية نقل الغذاء إليها ونظام السكن وشكله فيها ناهيك عن بدائية الوسائل الصحية وتعرض مورد الماء للتلوث كل ذلك يحول دون بلوغ متوسط كثافة السكان في الاسكندرية القديمة ستة أمثاله في الاسكندرية الحديثة [3] وفي تقديرنا أن متوسط كثافة سكان الاسكندرية القديمة في أزهى أيامها لم يكن يجاوز متوسط كثافة حي كرموز في سنة ١٩٦٠ وهو ٥٨ ألف شخص في الكم٢ وعلى هذا الأساس فإن سكان المدينة وأرباضها ربما لم يزد عددهم على ٠٫٥ مليون نسمة أغلبهم من المصريين واليهود والرقيق .

الحياة في المدينة :

وقد عاشت الاسكندرية القديمة وعاش سكانها حياة نشطة متنوعة . فمنهم من مارس التجارة ومنهم من اشتغل بالصناعة وطائفة ثالثة وهبت نفسها للعلم والتعليم هذا فضلا عمن خدم الدولة في وظائفها المدنية والعسكرية . ولن نتعرض هنا لنشاط الاسكندرية في عالم التجارة فقد جاء ذكره في الفصل السابع . أما عن الصناعة والعلم فحديثهما طويل ذو شجون لن يسمح المقام بالإفاضة فيه . يكفينا أن نسجل ما اشتهرت به الاسكندرية من صناعات وأهم ما قدمه علماء جامعتها للعلم والمعرفة الإنسانية .

---

(١) Breccia, E. Guide de la ville et du Musée d'Alexandrie Alex. 1907. p. 27 .

(٢) المرجع السابق .

(٣) يبلغ متوسط الكثافة في الاسكندرية في الوقت الحاضر نحو ٢١ ألف نسمة في الكم٢ .

كان لاشتغال الاسكندرية بالوساطة التجارية بين الشرق والغرب فضل كبير على صناعتها . فقد أمدت التجارة الصناع بمختلف المواد الخام وهيأت للدولة فرصاً لبيع منتجاتها الصناعية في الخارج . ومن الواضح أن نمو الصناعة كان يستتبع في نفس الوقت اتساع مجال التجارة . ومما تجدر الاشارة اليه ونحن نتحدث عن النشاط الاقتصادي للاسكندرية الإغريقية الرومانية أن إشراف الدولة على التجارة والصناعة وتوجيهها لهما كان يصل إلى حد التدخل الفعلي والاحتكار .

اشتهرت الاسكندرية القديمة كما يذكر المؤرخون بكثير من الصناعات لعل أهمها صناعات الترف من المنسوجات الفخمة تصنع من الكتان والصوف والقطن والحلي من الذهب والفضة والنحاس والسجاجيد المزينة بخيوط الفضة ومختلف الأواني من الزجاج والخزف وأدوات الزينة والعطور والبخور والأدوية والكتب . إلى جانب ذلك ذاع صيت الاسكندرية في صناعة الورق من نبات البردى الواسع الانتشار في وادي النيل [1] وصناعة السفن الحربية والتجارية مستخدمة في ذلك الخشب والحديد المجلوبين من أقطار البحر المتوسط . غير أن الوهن تطرق إلى صناعة الاسكندرية في أواخر الحكم البيزنطي بسبب ضعف الدولة وكثرة الفتن الداخلية وفداحة الضرائب ودخلت مصر تحت حكم العرب وقد قل نشاط مدينتها الأولى عن ذي قبل وانكمشت حياتها الاقتصادية بعض الشيء .

---

(١) ا ـ انقطعت هذه الصناعة سنة ٦٥٠ م تقريباً وحل محلها صناعة الورق من الكتان المضروب بالقطن .

ب ـ Milne, J. H. History of Egypt, Under the Roman Rule 1924, p. 257.

جـ ـ Butler, H. The Arab conquest of Egypt, Oxford 1902, p. 110.

وتشبه الاسكندرية الاغريقية على كثير من مدن العالم بآثر جامعتها وعلمائها على العلم والحضارة . والحقيقة أن شهرة الاسكندرية التاريخية في عالم الثقافة لم تكن دون شهرتها في عالم التجارة والصناعة بل ربما فاقتها في ذلك [1]. كانت جامعتها (دار الحكمة) نمطاً فريداً اختلف عما عرفته أثينا أيام مجدها . فقد كانت مصرية أصيلة في نظـام الدراسة بها [2] إغريقية في مناهج البحث عن الحقيقة . وعنيت أكثر ما عنيت بدراسة الفلك والطب والرياضيات والتاريخ ، – تاريخ الأدب والفلسفة . ولم يحظ الشعر ولا اللغة بنفس الاهتمام ومع ذلك فقد خرجت الجامعة شعراء نابهين من أمثـال كليماكوس وثيوكريتوس . وألحق بالجامعة مكتبة ضخمة وحديقة لإجراء التجارب النباتية فضلاً عن حديقـــة للحيوانات وهذه كلها من مستلزمات البحث العلمي حين يهدف إلى التطبيق. ومن بين مشاهير علماء جامعة الإسكندرية اراتوستين وبطليموس الجغرافي في الجغرافية الفلكية وأريستارخوس في الفلك وأرشميدس في الرياضة والطبيعة وثيوفراستوس في علم النبات وأراسيستراتوس في الطب وهكاتيوس في التاريخ وغيرهم كثير [3]. ومن المؤسف حقاً أن تتلاشى هذه الحياة الفكرية تماماً في القرن الرابع الميلادي على أثر اضطراب الحالة السياسية وانتشار المسيحية وقيام أتباعها بمحو كل آثار

---

(١) Lane Poole, R. S. op. cit., p. 186

(٢) كان النظام على نسق ما عرفته جامعة هليوبوليس العتيقة فكان الطلبة يجتمعون في حلقات حول الأستاذ وقت الدراسة وكان يصرف لكل طالب جرايته اليومية وتصرف له أيضاً إعانة مالية ليتفرغ بكليته للبحث العلمي .

(٣) ا - ابراهيم نصحى (١٩٤٦) ج ٣ الفصل الثالث والعشرون - راجع زكي عـــلي الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ص ٢٢ .

ب - Mahaffy., J. p. A. History of Egypt - Uuder the Ptolemaic dynasty. London 1899, p. 61, 262, 85, 242.

الوثنية بما في ذلك الكتب [١] . ولم يكن يشغل الناس بعد ذلك غير جدل ديني وفلسفة كهنوتية ضيقة الأفق بعيدة عن الواقع .

وعلى الرغم من أن الاسكندرية كانت قد فقدت شيئاً من بهائها القديم عندما دخلها العرب فقد أعجب بها عمرو بن العاص كثيراً . ويروى أنه لشدة إعجابه بها فكر في اتخاذها عاصمة . فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بذلك . ولكن عمر كان يكره أن يحول النيل وخاصة وقت ارتفاعه بين المسلمين في الاسكندرية وعاصمة الخلافة في الجزيرة العربية . فقد رد على الرسالة عمر ناصحاً « ألا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت » فتحول عمرو بن العاص إلى مكان بالقرب من حصن بابليون وبنى عليه أول عاصمة لمصر الاسلامية ، الفسطاط [٢] .

أثر انتقال الحكم من الاسكندرية الى الفسطاط :

ويبدو أن قيام الفسطاط كقاعدة للحكم لم يؤثر على نشاط الاسكندرية الاقتصادي الذي مارسته في أواخر العصر البيزنطي . بيد أن انكماش العمران بالمدينة وخاصة في الجنوب والشرق أصبح ظاهرة واضحة بعد الغزو العربي وما تسبب عنه من هجرة كثير من الروم بها إلى رودس وقبرص وبيزنطه [٣] . فقد نقصت مساحة الاسكندرية العربية بنحو الثلث عما كانت عليه أيام الرومان لذلك أحاطت الأسوار الجنوبية والشرقية بعد تجديدها بما كان آهلا بسكانه تاركة ما أصابه الخراب بظاهر المدينه . وثمة شك في أن سكان الاسكندرية زاد عددهم في العصر العربي عما كان عليه في العصر السابق خاصة

---

(١) Milne, J. op. cit., p. 253

(٢) المقريزي ـ الخطط جزء ٢ طبعة أحمد على المليجي ص ٧٦ .

(٣) ا ـ بتلر ـ فتح العرب لمصر ص ٢٦٣ .
ب ـ المقريزى جزء ص ٧٥ .

وقد رأينا أن رقعتها انكمشت . بل الأغلب أن يكون السكان قلوا تدريجياً حتى نهاية الدولة الأيوبية ثم ارتفع عددهم على ما يرجح خلال العصر المملوكي عندما نشطت حركة التجارة العالمية عن طريق مصر وبعد أن هدمت دمياط.

ويرجع هذا الانخفاض التدريجي في عدد السكان إلى تدهور الحالةالاقتصادية في المدينة بعد أن قل تيار التجارة العابرة وإلى ظهور بغداد والقاهرة كمراكز للتجارة العالمية ودخول دمياط ميدان المنافسة التجارية . غير أن الاسكندرية العربية لم تبلغ أيام المماليك من النشاط والضخامة ما بلغته أيام مجدها الأول ، ربما لأن عوامل اضمحلال الحيـاة المدنية التي بدأت تظهر في أواخر العصر البيزنطي قوي أثرها في هذا الجزء المتأخر من العصر العربي[١] .كان هذاالعصر الذهبي على أية حـــال قصيراً فقد روعت بزلزال مدمر في القرن الرابع عشر ونكبت كما قدمنا بغزوة صليبية (سنة ١٢٦٥) قتل وتشرد بسببها خلق كثير. ثم كانت الضربة القاضية بعد أن تحول أغلب التجارة بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء في أوائل القرن السادس عشر م . استقبلت الاسكندرية الغزاة العثمانيين إذن وهي مدينة حزينة صغيرة لم تلبث أن انكمشت فصارت قرية كئيبة بلغ سكانها بضعة آلاف بعد قرن ونصف من الحكم العثماني[٢] .

وقد ظلت الاسكندرية بعد دخول جيش سليم الأول مصر المدينة الثانيـة بعد العاصمة وأهم الثغور المصرية واعتنى الولاة والسلاطين بتحصينها والدفاع

---

(١) Butzer, k (1960) op. cit., pp. 32 - 33.

(٢) أ - Lepére, G. Mémoire sur la ville d'Alexandrie dans la « Descript on de l'Egypt » Etat. mod. T. II, partie2, pp. 269, 324.

(ب) - بلغ عدد سكان رشيد في ذلك الوقت نحو ١٠٠ ألف نسمة .

عنها . وكانت التجارة الخارجية والصناعة فضلاً عن الدفاع أهم وظائفها . وقد أشرنا إلى التجارة في مكان آخر . أما الصناعة فلم تختلف في أغلب منتجاتها ولا في أساليبها عما عرفته المدينة في العصر الإغريقي الروماني ولكنها لم تكن في ازدهارها القديم خلال فترة طويلة من العصور الوسطى بسبب منافسة العاصمة. ومهما يكن من شيء فإن الإسكندرية العربية اشتهرت بصناعة أنواع من المنسوجات الكتانية في دار الطراز وبناء السفن في دار الصناعة وصناعة الحلى والعطور والصابون وغير ذلك من صناعات الترف .

عواصم مصر العربية

اختيار عاصمة جديدة :

تحول عمرو بن العاص بعد فتح الاسكندرية إلى السهل القريب من حصن بابليون (أو باب إليون) وأنشأ مدينة من الخيام ومنشآت الحصير ينزل فيها جنده أطلق عليها الفسطاط [1] . ثم تحول هذا المعسكر العربي المؤقت في بضع سنوات إلى مدينة دائمة مبنية من الحجر تقوم بدور العاصمة . ولكن الفسطاط لم تدم طويلا كعاصمة للبلادفقد انتقلت منها الحكومة إلى العسكر في شمالهابعد نحو قرن من الزمن ثم انتقلت ثانيـة إلى القطائع شمالي العسكر في عام ٨٧٠ م. ولكنها ارتدت بعد ذلك إلى العسكر لفترة وجيزة وأخيراً استقر بها المقام في القاهرة المعزية سنة ٩٦٩ م . وقد نمت القاهرة بعد ذلك لتضم في محيطها مواضع العواصم الإسلامية السابقة لذلك يمكنال قول أن القاهرة الحديثة هي وريثة كل

(١) اختلف المؤرخون حول مصدر كلمة فسطاط فمنهم من يقول أنها عربية في أصلهاوتعني الخيمة أو مجمع الناس إشارة إما إلى الخيمة (أي الفسطاط) التي كان ينزل به عمرو بن العاص حين كان يحاصر حصن بابليون وإما إلى المعسكر الذي رابط فيه المسلمون . والفريق الآخر يرى أنها مشتقة من الأصل اللاتيني Fossatum أي المعسكر وربما سمعها جنود عمرو أثناء حربهم مع الروم فأطلقوها على عاصمتهم الجديدة . ونحن لا نفضل رأياً على آخر إذ لكل منهما وجاهته (راجع بتلر ص ٢٤٩ - ٥٠)

العواصم الاسلامية الأولى وبابليون من قبـــل ذلك . بل إنها خليفة منف على الشاطىء الشرقي للنيل .

اهمية الموقع الجغرافي :

ولعل في انتقال قاعدة الحكم من الاسكندرية إلى موقعها القديم عند قمـــة الدلتا تأكيد أي تأكيد لقيمة هذا الموقع الجغرافي . وقد عرف مينا ماله من اهمية كما بينا فأنشأ عنده أول عاصمة لمصر الموحدة ، منف ـ وظلت منف مدينة كبيرة عظيمة على الرغم من انتقال الحكومة منها إلى غيرها من العواصم التي سبق الاشارة إليها وذلك بسبب احتفاظ الموقع بقيمته فترة طويلة. وحتى بعد أن عفا عليها الزمن ظهرت مدينة بديلة ، بابليون مصر (أو منف الشرقية) على الضفة الشرقية للنهر ولكن إلى الشمال قليلاً من الموضع القديم وقد صارت بابليون مصر (كميى قديما) بحكم موقعها عاصمة مصر الوطنية ومعقل المسيحية في العصر المسيحي [١] .

والموقع فضلاً عن أنه ملتقى إقليمين متكاملين يتحكم في طرق الملاحة النهرية بين الشمال والجنوب وتجتمع عنده طرق القوافل عبر الصحراء ويقترب من البحر الأحمر والمتوسط ثم هو فوق ذلك أصلح مكان للحكم والإدارة [٢] . وقد يقال عن هذا الموقع أنه ليس مركزياً لأن الوادي أطول في امتداده من الدلتا ولكن اتساع الدلتا وكثرة سكانها نسبياً يعوض طول الوادي المديد .

اختار القائد العربي إذن موضع عاصمـة المستقبل على الضفة الشرقية للنيل عملاً بنصيحة عمر التي أشرنا إليها [٣] ولم توجه هذه النصيحة إلى عمرو بن العاص

---

(١) بتلر ص ١٨١

(٢) Haswell, C. op. cit., p. 171

(٣) تجدر الاشارة إلى أنه بالرغم من نصيحة عمر فقد فضلت بعض القبائل العربية الوافدة السكنى في بر الجيزة والاحتماء بقلعة أقيمت هناك (عن Clerget, Vol. p 159)

وحده دون غيره من الولاة . فقد كتب عمر بذلك إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله في منطقة البصرة «فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذي كان ينزل فيه فنزل البصرة » [١] وربما كان انتقال مقر الحكم إلى الداخل بعيداً عن البحر عملاً سديداً كفل للمسلمين السلامة في ذلك الوقت . فهم كانوا في حرب مع عدو له أساطيل بحرية لم يتمرسوا على قتالها . لذلك كان من خطل الرأي في تصورنا أن ينشىء العرب قاعدة الحكم الجديدة في مكان بحري تتهدده الأساطيل .

وقد رأى عمرو أن يكون الموضع في الفضاء بين المقطم وحصن بابليون فوق مستوى ماء الفيضان. ولعل في إقامة العاصمة على الضفة الشرقية قرب قمة الدلتا وفي كنف حصن بابليون خير دليل على رغبة المسلمين الأكيدة في تأمين عاصمتهم ضد الأعداء والقدرة على الدفاع عنها وقت الهجوم . وقد زاد من القيمة الاستراتيجية للموضع وجود جزيرة الروضة الحالية (جزيرة الصناعة سابقاً) وكانت حصينة آهلة بالسكان يربطها بشاطىء النهر جسر مرفوع على مراكب. إلى هذه الجزيرة يمكن الالتجاء وقت الضرورة ومنها يمكن قطع الطريق على الأعداء القادمين من قبل النهر [٢] . ولم يخف على عمرو بن العاص حين اختار موضع

---

(١) المقريزي – الخطط – ج ٢ ص ٧٦

(٢) ا – بتلر – فتح العرب لمصر ص ١٧٩

ب – كادت جزيرة الروضة أن تفقد أهميتها كحلقة في سلسلة الدفاع حول العاصمة بسبب انسداد مجرى النيل بينها وبين الفسطاط في منتصف القرن العاشرم. وقد حاول كافور الأخشيدي أن يعيد الفرع الشرقي وقام بالحفر ولكن دون جدوى . وانتهى الأمر بأن كان الناس يصلون من الفسطاط إلى مقياس الروضة سيراً على الأقدام وأصبحوا يأخذون الماء من فرع الجيزة. وفي أوائل القرن ١٢ م دخلت الجزيرة في أملاك الملك الصالح أيوب وأنشأ فيها قلعة عظيمة بعد أن هدم ما كان بها من مساكن وكنائس . واجتهد في إعادة حفر الفرع الشرقي القديم حتى عادت الحياة ثانية وعادت الروضة جزيرة كما كانت أول الأمر. ولكن القلعة خربت في عصر المماليك فضاع ما كان للجزيرة من أهمية دفاعية .

الفسطاط وفرة الماء وأحجار البناء بالقرب منه ووجود مأخذ خليج تراجان القديم غير بعيد عنه هذا فضلاً عن جفاف الأرض قرب المقطم (مما يجعلها صالحة لدفن الموتى) وجفاف الهواء بعيداً عن النيل [1] . وإذا كانت مواضع العواصم الإسلامية اللاحقة في هجرة مستمرة نحو الشمال فذلك لتكون قريبة من قمة الدلتا حيث مداخل الصعيد عن طريق النهر وربما طلباً للهواء العليل القادم من الشمال .

الفسطاط :

وليس من السهل تحديد الرقعة التي شغلتها الفسطاط عند انشائها وذلك بسبب التغيرات التي طرأت على خطتها في القرون التالية واندثار كثير من المعالم التي يمكن الاستدلال بها عليها . وقد تحدث المقريزي عن حدود الفسطاط بعد أكثر من سبعة قرون من إنشائها وكانت روايته أساساً لجميع من حاولوا الكشف عن آثارها . ولكن الحدود التي ذكرها هذا الكاتب ربما لم تكن غير حدود الفسطاط أو بمعنى أدق « مصر » في أوج عزها واتساعها. يقول المقريزي « إن مدينة مصر محدودة بحدود أربعة ، فحدها الشرقي اليوم من قلعة الجبل ، وأنت آخذ إلى باب القرافة فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجارح ، وتمر من كوم الجارح وتجعل كيان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهي إلى الرصد، حيث انتهى الحد الشرقي ، فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التي يسميها أهل مصر الجهة القبلية . وحدها البحري من قناطر السباع حيث ابتدأ الحد الغربي إلى قلعة الجبل ، حيث ابتدأ الحد الشرقي ، فهذا عرض مصر

---

(١) ا - Clerget, M. op. cit., vol. I. p. 101 , 105

ب - اختطت الفسطاط كما يقول اليعقوبي بعيداً عن النيل ثم اتسعوا في البلد فاختطوا على النيل (اليعقوبي - كتاب البلدان . ليدن ١٨٩٢ ص ٣٣١)

من جهة الشمال ، التي تعرف بمصر بالجهة البحرية وما بين هذه الجهـات الأربع يطلق عليه الآن « مصر [١] » (شكل ٥٢) وقد استعان علي بهجت عند إجراء حفائره بالفسطاط برواية المقريزي هذه ولكنه خرج بتحديد جديد لرقعة المدينة يخالف بعض الشيء التحديد الذي ذكره المقريزي [٢] . ففي رأيه أن حدود الفسطاط كانت على النحو الآتي :

الحد الشمالي : يقع بين كوم الجارح وقنطرة السد .

الحد القبلي : يمتد ما بين الرصد وشاطىء النيل غربا .

الحد الغربي: الشاطىء الايمن للنيل وهذا الحد كان يتحرك مع تتابع السنين نحو الغرب .

الحد الشرقي : وكان يمتد فيما وراء الحد الذي عينه المقريزي اي إلى حدود القرافة الحالية ويسير جنوباً حتى الرصد [٣].

وعلى أي الاحوال قسمت هذه المدينة العسكرية عند نشأتها الاولى إلى خطط يتوسطها جامع عمرو ويفصل بينها ارض فضاء . ونزل بكل خطة أو حي قبيلة من القبائل لها مسجدها وديوان لتسجيل المشتركين منها في الجيش ومن كان لهم من الابناء حق الانتظام في الجندية والحصول على العطاء والرزق . وبالقرب من

---

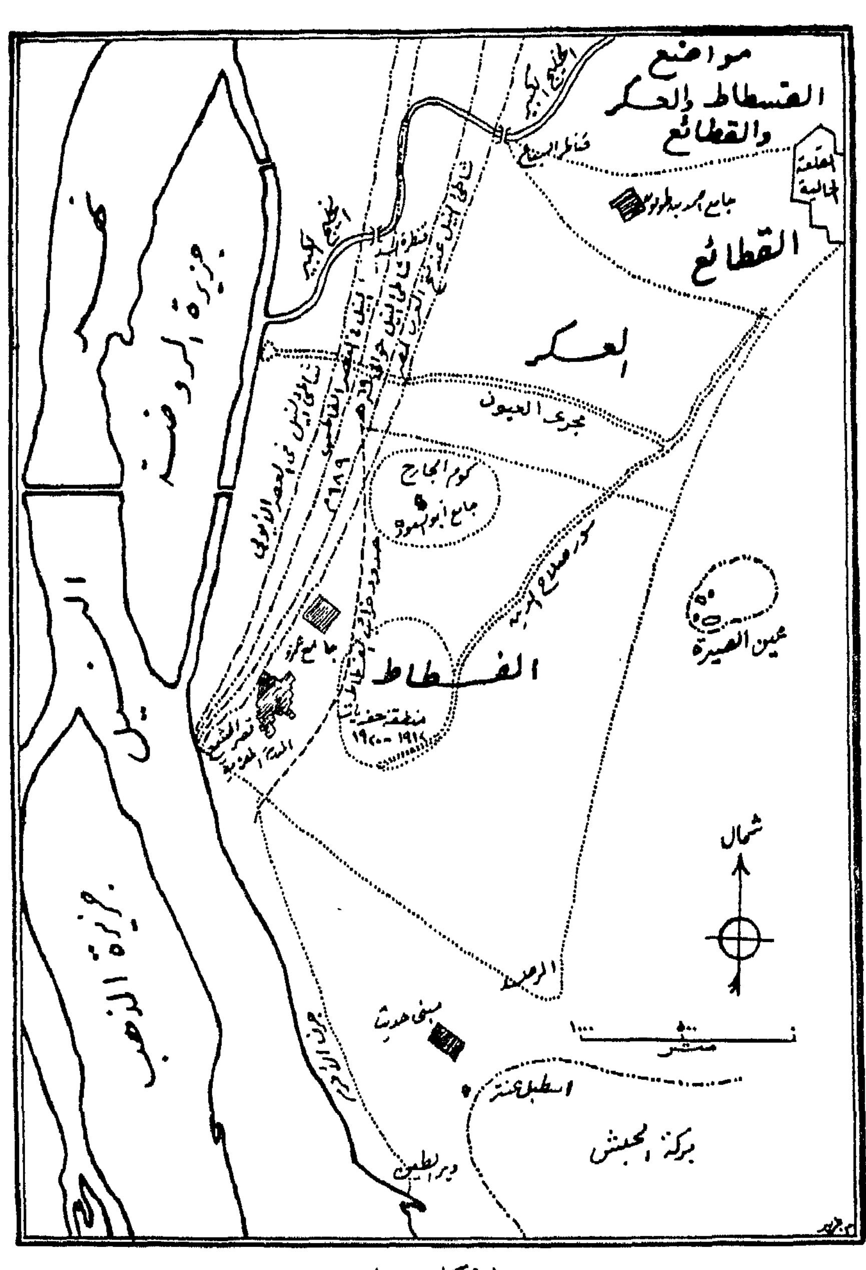
(١) المقريزي - الخطط ج ٢ ص ٤٩

(٢) ا - علي بهجت والبير جبريل (كتاب حفائر مصر) القاهرة ١٩٢٨ ص ٢٥ — ٢٧

ب - يقول C. Becker في هذا الشأن أن الفسطاط امتدت قرب نهر النيل على طول مسافة تبلغ ٥ كيلو مترات من دير الطين الحالي في الجنوب حتى أرض ابن طولون في الشمال أما عرضها فلم يزد على ثلاثة أرباع الكيلو متر .

راجع Becker, C. Ency. of Islam 1913 I p. 836 — 40

(٣) علي بهجت والبير جبريل ص ٢٥ - ٢٧


مواضع
الفسطاط والعسكر
والقطائع
القطائع
جامع أحمد بن طولون
القلعة الحالية
قناطر السباع
العسكر
مجرى العيون
كوم الجارح
جامع أبو السعود
الفسطاط
جامع عمرو
عين الصيرة
جزيرة الروضة
النيل
جزيرة الذهب
شمال
متر
١٠٠٠
بركة الحبش
دير الطين

(شكل ٥٢)

جامع عمرو كانت تمتد اكبر الخطط ، خطة اهـــل الراية او خطة الرؤساء من حاملي الاعلام [1] . وكان اهل الراية جماعة من المهاجرين والانصار ينتمون إلى عدة قبائل ومع ذلك كان لهم ديوان خاص لحصر الجند والقيام على توزيـع الغنائم. وبعد فترة وجيزة زاد عدد الخطط على العشرين استقرت بها قبائل عربية اغلبها يمنية (منها تجيب وغطيف ومعافر) وقبائـــل فارسية مسلمة (منها بني وائـــل وراشدة) وقبائل يهودية دخلت الاسلام كبني روبيل فضلاً عن جماعات اخرى مختلفة العنصر نزلت فيما عرف بالحمراوات [2] .

وكانت هندسة الخطة اول الامر بسيطة عليها مسحة من بداوة الصحراء : « تقيم القبيلة منازل على حدود خطتها . وتترك بينها فضاء للدواب . وقد ضاق هذا الفضاء شيئاً فشيئاً بإنشاء مبان جديدة وتحول إلى جزائر من المباني تتخللها الدروب والازقة [3] . ويضيف السيوطي (القرن ١٥م) إلى ذلك قوله « وترك المسلمون حين اختطوا بينهم وبين البحر (النيل) والحصن فضاء لدوابهم فـلم يزل الامر كذلك حتى ولى معاوية بن ابي سفيان فأقطع في الفضاء وبنيت بـه الدور » [4] . كان التعمير على اية حال لا يسير على خطة معينة لذلك اضطرب نظام المدينة كلها فيما بعد . ومن مظـــاهر هذا الاضطراب عدم وجود شوارع رئيسية تأخذ من طرف لطرف بل هنالك الدروب والازقة الملتوية يظلل ما في الاسواق منها سقوف من الاخشاب والاغصان .

أما المباني فكانت هي الأخرى بسيطة أول الأمر غير منيعة ولا مرتفعـة

---

(١) جرجي زيدان (تاريخ التمدن الاسلامي) الجزء الثاني ـ طبعـة جديدة راجعها وعلق عليها الدكتور حسين مؤنس ص ١٨٢

(٢) علي بهجت والبير جبريل ص ٢٢

(٣) جرجي زيدان . ج ٢ ص ١٨٢

(٤) السيوطي (جلال الدين) كتاب حسن المحاضرة ـ مقتطفات منه اختارهـــا محمد محمود صبيح ص ٤٠

تحمل طابع البداوة . لا شيء فيها من الزينة ولا جمال التنسيق تدعم بعضهـــا أحجار وأعمدة رومانية. فالدور من طبقة واحدة تبنى من اللبن وحظائر الدواب ترى هنا وهناك . ثم علا البناء بمضي الزمن فصار إلى أربع طبقات أو خمس في القرن العاشر الميلادي (١). وجامع عمرو نفسه كان بسيطاً في بنائه وهندسته(٢) ولكن ببداية القرن الثامن الميلادي زين الجـامع ووسع وأنشئت بعض المنشآت العامة في وسط المدينة لعل أهمها اهراء عظيمة للغلال وقصر للحاكم وبيت المال.

ويتضح من أقوال المؤرخين والرحالة أن قلب المدينة صـــار منذ القرن الثامن الميلادي يقع على النيل بين قصر الشمع وعلوة الكبش التي تشرف عـــلى مأخذ خليج أمير المؤمنين من النيل . وفي ذلك الوقت أيضاً امتلأ الفضاء الذي يفصل الخطط بعضها عن بعض بالمباني (٣) . ولم يكن لمدينة الجيش هذه منذ نشأتهـا الأولى أسوار او خنادق تحيط بها وإنما كان يحيط بها اشجار شوكية(٤). وظلت هكذا بغير تحصينات دفاعية حتى سنة ٦٨٣ م عندما قام الزبير والي مصر بحفر خندق حولها لحمايتها من هجوم جيوش مروان بن معاوية الأموي. ولكن الخندق لم يحط على ما يبدو بالأطراف الشمالية التي كانت قد هجرت كما أخبرنا المقريزي.

وقد احرق مروان الثاني المدينة سنة ٧٥٠م عندما تتبعه العباسيون في مصر ولم يترك الحريق إلا جامع عمرو . وربما كان هذا الحدث هو السبب الذي دفع الولاة العباسيين إلى إتخاذ مقر للحكم عند الفسطاط . فقد انتقل مقر حكمهم إلى الحمراء القصوى إحدى خطط الفسطاط التي هجرها أهلهـا وهناك بنوا المسجد ودار الامارة وبعض الدور العامة وسموا منشأتهم الجديدة العسكر .

---

(١) ابن حوقل (كتاب صورة الأرض) ليدن ١٩٣٨ ص ١٤٦

(٢) Schemeil, M, op, cit, P, 89 - 90

(٣) Clerget, M, op, cit, vol, I, p 113

(٤) Becker, C, H, « Al - Fustat» Ency. of Islam, vol, I, 1913PP. 840 - 886 .

العسكر :

وقد نمت هذه الضاحية بمرور الزمن ووصلت في امتدادها إلى شاطىء النيل وظهرت فيها المساجد والأسواق وكثرت الدور العامة حتى اتصلت بالفسطاط التي كانت قد عمرت من جديد وكونا معاً مدينة واحدة (شكل ٥٢) . ومن الجدير بالذكر انه بعد نحو قرن من احتكاك العرب بأصحاب الحضارات القديمة من الفرس والمصريين والروم تعلموا كثيراً من امور تخطيط المدن وتنظيم الحياة فيها ويظهر ذلك جلياً في كل العواصم التي انشئت في مصر بعد الفسطاط بما في ذلك العسكر . ففي هذه الحاضرة الجديدة مدت الشوارع في خطوط مستقيمة متوازية وأنشئت المستشفيات العامة وزودت بقوة من رجال الشرطة لحماية الحقوق والممتلكات والمحافظة على ارواح الناس ووضع فيها نظام للضرائب المفروضة على التجارة ودخلت أسواقها تحت إشراف دار الحسبة [1] .

القطائع :

وظلت العسكر مقراً للولاة العباسيين حتى جاء أحمد بن طولون وأنشأ القطائع [2] لتكون قاعدة الحكم الجديد بدل العسكر. بناها في مكان حلت به البركة والسعد كما تصور . يقع شمالي العسكر على أرض مرتفعة بعيدة عن النيل وقريبة من المقطم (شكل ٥٢ ، ٥٣) حيث يطيب الهواء وتقل الرطوبة النسبية . ويحدد أبو المحاسن موضعها بقوله « كان موقعها من قبة الهواء التي صار مكانها قلمة الجبل إلى جامع بن طولون وهو طول القطائع ، وأما عرضها فإنه كان من أول الرميلة من تحت القلعة إلى الموضع الذي يعرف الآن بالأرض الصفراء ، عند مشهد الرأس الذي يقال له الآن زين العابدين وكانت مساحة القطائع ميلاً في ميل » [3]. وقد

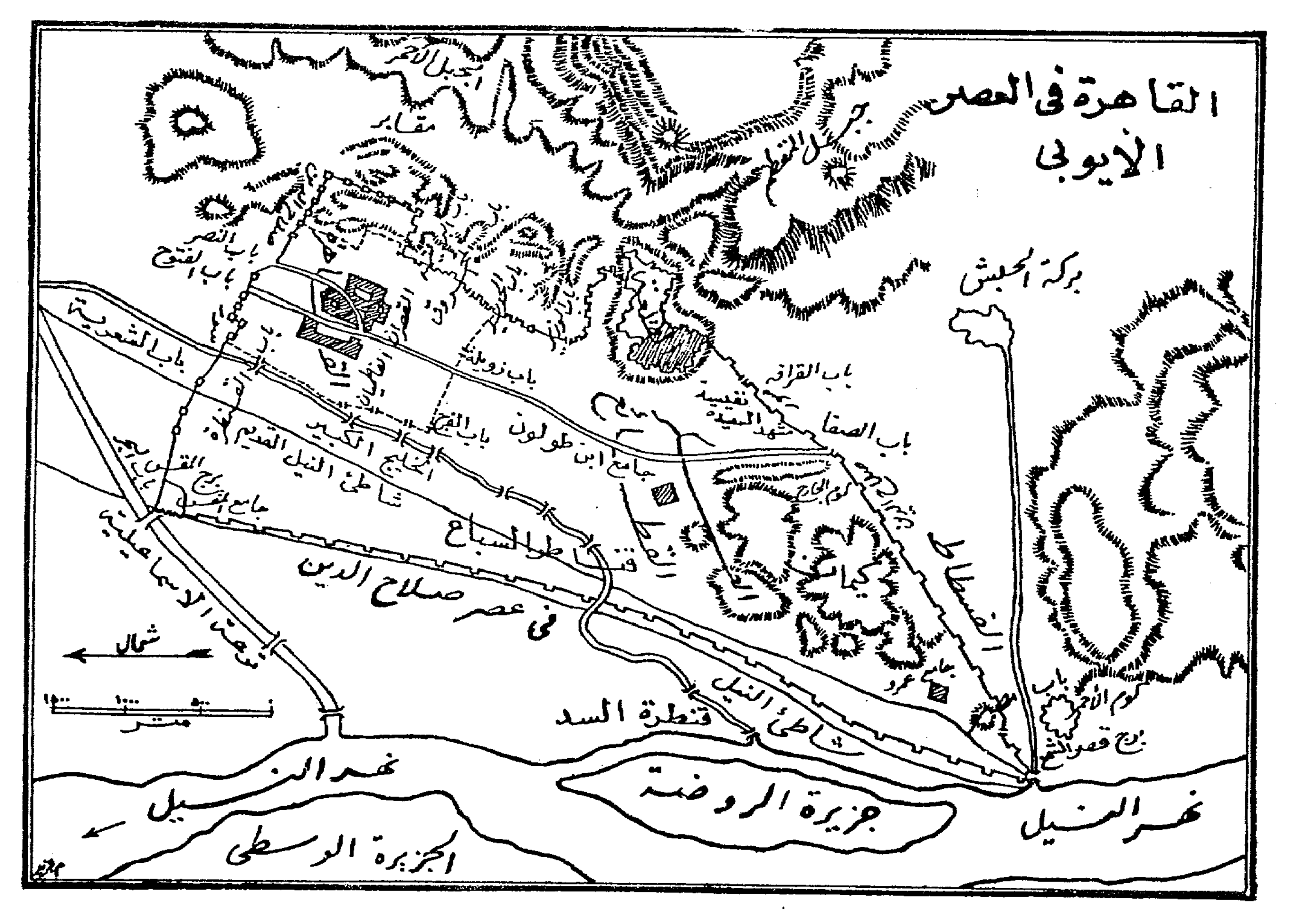
---

(١) Clerget, M. vol. 114

(٢) سميت القطائع بهذا الاسم لان ابن طولون أقطعها قطعاً بين خدمه وحاشيته ورجال دولته .

(٣) ا ـ أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغري بردى : كتاب النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة طبعة دار الكتب جزء ٣ ص ١٤

ب ـ حدد الأستاذ محمد رمزي حدود القطائع على النحو التالي : « الحد البحري ويبدأ من=


القاهرة فى العصر الأيوبى
فى عصر صلاح الدين
بركة الحبش
الفسطاط
جامع عمرو
باب الصفا
باب القرافة
مشهد السيدة نفيسة
جامع ابن طولون
باب زويلة
باب الفتوح
باب النصر
باب الشعرية
باب الخرق
مقابر
الجبل الأحمر
الخليج الكبير
شاطئ النيل القديم
شاطئ النيل
قناطر السباع
قنطرة السد
ترعة الاسماعيلية
جزيرة الروضة
الجزيرة الوسطى
نهر النيل
كوم الأحمر
شمال
متر

(شكل ٥٣)

بدأ ابن طولون بإنشاء قصره الكبير سنة ٨٧٠م وترك أمامه ميداناً فسيحاً يضرب فيه بالصوالجة [١] . « وبعدئذ تقدم إلى اصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حول القصر والميدان، فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ثم قطعت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها : فكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم . وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم .. وبنى القواد في مواضع متفرقة ، فعمرت القطائع عمارة حسنة . وتفرقت فيها السكك والأزقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين ... وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين . فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام » [٢] .

ووفر ابن طولون لعاصمته الجديدة ما يلزمها من ماء الشرب بأن حفر بئراً في الجنوب الشرقي منها وشيد عليها ساقية ترفع الماء إلى قناطر تحمله بدورها إلى العاصمة في سرعة وسهولة . ثم بنى جامعه المشهور على هيئة جديدة تخالف ما عرفته مصر. كان ابن طولون في الحقيقة يحرص على أن تكون عاصمته فريدة في مظهرها وتخطيطها رائعة في مبانيها على أهبة للقتال في كل الأوقات . ويبدو أن حسن موضع القطائع شجع الناس على البناء فقد ازدادت عمارتها وازينت في عهد خمارويه وامتدت مبانيها إلى العسكر والفسطاط فصارت المدن الثلاث كأنها مدينة واحدة [٣]. وتحدثنا كتب التاريخ عن فخامة مباني القطائع في

= جامع سنجر الجاولي حتى باب العذب بالقلعة، والحد الشرقي سور القلعة، من باب العزب حتى جامع السلطان الأشرف قانصوه الغوري... عند باب الجبل والحد القبلي ويبدأ من جامع الغوري المذكور حتى جامع سيدي على زين العابدين والحد الغربي من جامع سيدي على زين العابدين وينتهي بجامع سنجر الجاولي » .

(١) الصوالجة هي كرة تضرب بالمضرب من فوق ظهور الخيل .

(٢) المقريزي ـ الخطط ـ ج ٢ ـ ص ١٠٦

(٣) شحاته عيسى ـ القاهرة ص ٤٠

عهده وعن متنزهاتها ومساجدها وحماماتها فأجسام النخيل في بستان خمارويه كانت مكسوة نحاساً مذهباً وزرع الريحان على نقوش معمولة و كتابات مكتوبة وطعم شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك وسرح فيه من الطير كالطواويس ودجاج الحبش شيئاً كثيراً ، وعمل مجلساً في القصر المطل على البستان طليت حيطانه كلها بالذهب [١] ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والبذخ .

ولم يتجاوز عمر القطائع كحاضرة خمساً وثلاثين سنة ففي سنة ٩٠٤م احتلها القائد العباسي محمد بن سليمان وانتقم من أسرة ابن طولون بأن دمر كثيراً من مبانيها . ولكنها مع ذلك بقيت على شيء من العمارة إلى نهاية عهد المستنصر بالله الفاطمي حين وقعت الشدة العظمى(١٠٦٥ – ١٠٧٢م) فخربت هي والعسكر وتهدمت وتحولت إلى تلال و كيمان بين مصر(الفسطاط والقطائع) والقاهرة [٢].

انتقل الوالي العباسي بعد دخوله مصر إلى العسكر مرة أخرى وكانت قد أصبحت جزءاً من الفسطاط كما ذكرنا . وقد قدر للفسطاط أن تنمو بعد ذلك وتزدهر على الرغم من ظهور القاهرة وبلغت من وفرة العمارة ونشاط التجارة و كثرة السكان ما جعلها أكبر المدن الإسلامية وأغناها بعد بغداد . ولنقف قليلاً لنشهد ما كان عليه مظهرها وحياة سكانها قبل أن يجور عليها الزمن .

اتسعت رقعة الفسطاط في تلك الفترة فقد أصبحت العسكر والقطائع امتداداً لها . وبلغت بذلك ما بلغته بابليون القديمة من اتساع . بل زحفت تدريجياً نحو النيل حتى تكون على صلة وثيقة به . ويشير المقريزي إلى أنها انقسمت إلى قسمين لكل منه شرطة خاصة : عمل أسفل ويشمل أطراف المدينة الشمالية الغربية حتى حدود القاهرة وعمل فوق وهو عمل واسع يشمل الأجزاء الجنوبية

---

(١) المقريزي الخطط ـ جزء ٢ ص ١٠٨ ـ ١٠٩

(٢) نفس المرجع ص ١٢٤

والشرقية من المدينة [١] وصارت الخطط فيها تنسب إلى صنعة من الصنائع أو تجارة من التجارات أو مسجد من المساجد بعد أن كانت تنسب إلى القبيلة التي تنزل بها [٢] . وكثرت جوامعها ومساجدها حتى بلغت جملتها أكثر من ٤٩٥ .وعمرت بالطواحين والمخابز وازدانت بالقصور والبساتين وامتدت جبانتها على مساحة واسعة عرفت بالقرافة الكبرى وتنوعت أوجه نشاطها .

ويتضح من الدراسات الأثرية أن عمارة الدور أتقنت عن ذي قبل. فقدبنيت بالآجر (قوالب الطين المحروق) والمونة المتخذة من الجير والقصرمل (الرماد المتخلف من الحريق) أو من الجير والحمرة وبني أساسها بالدبش ومونة الطين أو الطين المخلوط بالجير .وفرشت الجدران من الداخل والخارج بالجير المخلوطبالرمل والجبس . وزينت بالعقود على الأبواب والنوافد والأقباه وزودت بأنابيب من الفخار لحمل ماء الآبار إلى الطبقات العليا ومجاري منقورة في الصخر [٣] وعلت بعض الدور علواً ظاهراً فقدبنيت دور من سبعطبقات بل من أربع عشرةطبقة يسكن الواحدة منها ٣٥٠ ساكناً . ويحكى أنه زرع على سطوح بعضها حدائق من الرياحين والأزهار والأشجار المثمرة[٤] . ولكن الغالبية العظمى من المساكن كانت قليلة الارتفاع تتوسطها أفنية .

وكان شرب الناس من ماء النيل ينقل في روايا على ظهور الجمال ثم يصعد به الحمالون في المنازل . أما عدد الجمال التي تعمل في نقل هذا الماء الى المدينة فعظيم. فقد روى ناصر خسرو أنه كان بمصر والقاهرة عام ٤٤٠هـ (١٠٤٨ – ١٠٤٩م)

---

(١) المرجع السابق ص ٧٨

(٢) علي بهجت وجبريل ص ٣٧

(٣) المرجع السابق ص ١٣١

(٤) Lane Poole- S; The story of Cairo; London 1906 p.109

اثنان وخمسون ألف جمل لحمل روايا الماء في هاتين المدينتين [١] . أما ماء الآبار فلم يكن مستساغاً لذلك قصر استعماله على بعض الأغراض المنزلية .

ورغم ذلك فقد قاست الفسطاط شأنها في ذلك شأن كثير من مدن العصور الوسطى والقديمة من قلة النظافة وكثرة أسباب المرض وسوء الصحة . وقد بلغنا من أمر ذلك ما حدثنا به المقدسي وابن رضوان طبيب الحاكم بأمر الله الفاطمي (القرن ١١م) عن سوء الأحوال الصحية في الفسطاط فالمقدسي يصف مياهها بأنها كدرة وآبارها وضرة [٢] . ويصف ابن رضوان الحالة وصف الخبير فيقول : « وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وأبنيتها عالية ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوان الذي يخالط الناس في شوارعهم وأزقتهم فتتعفن وتخالط عفونتها الهواء ... ومن شأنهم أيضاً أن يرموا في النيل الذي يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها وخرارات كنفهم تصب فيه . وربما انقطع جري الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء ... ويعلوها في العشيات خاصة في أيام الصيف ، بخار كدر أسود وأغبر ، لا سيما إذا كان الهواء سليماً من الرياح [٣] .

ونضيف أن الفسطاط والقاهرة كانتا تشكوان من كثرة البرك والمناقع قرب شاطىء النيل فوجودها كان يفسد الهواء ويسيء إلى الصحة العامة بما كانت تنفثه من أمراض [٤] ، مما حدا بعبد العزيز بن مروان أن يهجر الفسطاط ويقيم

---

(١) ناصر خسرو ـ سفرنامة ـ ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٤٦

(٢) المقدسي ـ أحسن التقاسيم ـ ليدن ١٩٠٦ ص ٢٠٠

(٣) المقريزى ـ الخطط جزء ٢ ص ١٦٧ ـ ١٦٩

(٤) Clerget.,M. op. cit, vol. I; p. 111

في حلوان ودفع بعض الولاة إلى الإقامة في الاسكندرية تاركين من يمثلهم في العاصمة [1] .

وفي أول الأمر كان القبط هم الذين مارسون الصناعة والتجارة واحتلوا الوظائف غير الرئاسية في المدينة . وكان لا بد لهم من تعلم اللغة العربية حتى ينجحوا في أداء مهمتهم ، فتعلموها ونطقوها فكان لذلك أثره في اختفاء لغة الأجداد اذ لم ينقض النصف الأول من القرن العاشر حتي كانت اللغةالعربيةهي اللغة الحية الوحيدة في البلاد [2] . وكما انتشرت اللغة العربية فقد انتشر الدين الاسلامي بين القبط من سكان العاصمة والمدن الأخرى والأقاليم . ولكن بدرجة أبطأ من ذيوع اللغة . وربما لم يصبح دين الغالبية إلا منذ عصر المماليك .

ومما يدعو للأسف ألا يترك لنا الكتاب العرب ما يفيد في معرفة ما وصل إليه عدد سكان المدينة عندما بلغت أوج عزها . فكل ما ذكر في هذا الصدد إشارات عابرة لا تفيد بل قد تؤدي بنا — إن لم نكن على حذر — إلى الوقوع في أخطاء جسيمة . فالفسطاط في تقدير ابن حوقل (٩٧٧ م) نحو ثلث بغداد[3] . والمقدسي (٩٨٥م) الذي أدهشه شدة ازدحام الناس في الفسطاط لم يعبر عن ذلك إلا بقوله « كان يصلي خلف الإمام ما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ شخص » وأن الفسطاط أعظم مدينة في العالم الإسلامي [4] . ويكتب المقريزي بعد عدةقرون ما يفيد أن مدينة مصر (الفسطاط والعسكر والقطائع) كان فيها أيامعزها ١٠٠

---

(١) المرجع السابق ص ١١٢

(٢) نفس المرجع ص ٢١٠

(٣) ابن حوقل ـ كتاب صورة الأرض ـ ليدن ١٩٣٨ ص ١٤٦

(٤) المقدسي ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ ليدن ١٩٠٦ ص ١٩٨

ألف بيت في بعضها ١٠٠ أو ٢٠٠ ساكن وكان البيت مؤلفاً من خمس طبقات أو ست وربما سبع . معنى ذلك أن سكان مدينة مصر بلغوا في يوم ما أكثر من مليون نسمة مما لا يستقيم مع ما عرف عن مساحة رقعتها وطبيعة الحياة فيها . ويرى كلرجيه M. Clerget أن عدد سكان الفسطاط بلغ في تلـــك الفترة نحو ١٥٠,٠٠٠ نسمة فقط [١] .

وكانت وسيلة الانتقال في داخل المدينة هي بطبيعة الحال دواب الحمل من الحمير أو الجمال . أما الخيل فكانت وقفاً على الجند ورجال الجيش . ومما ذكره ناصر خسرو أنه كان بالفسطاط والقاهرة نحو خمسين ألف حمار للتأجير يشاهد المرء عدداً كبيراً منها عند مداخل الشوارع والأسواق [٢] ولما كانت جزيرة الروضة جزءاً لا يتجزأ من المدينة فقد وصلها بها جسر من المراكب ووصلها ببر الجيزة جسر آخر حدثنا عنهما ابن حوقل [٣] وناصر خسرو . وقـد تحول جسر المراكب بين الجزيرة وبر مصر إلى جسر مبني في سنة ١٢٤٠ م وهو تاريخ بنـــاء قلعة الملك الصالح أيوب فى الروضة وظل هذا الجسر قائمـــاً حتى خرب أيام محمد علي .

وظلت الفسطاط من أهم مراكز الصناعة والتجارة في مصر عدة قرون ولم تنكمش حياتها الاقتصادية بعد قيام القاهرة . بل إنها عادت فنافست القاهرةفي هذا المجال بعد الحريق الذي تعرضت له في أواخر القرن الثـاني عشر م . وإذا رجعنا إلى القرن العاشر م نجد أن المقدسي الذي زار مصر سنة ٩٨٥ م أسهبفي

---

(١) Clerget, M. op. cit., vol. I.p. 23

(٢) زكي محمد حسن ـ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى القاهرة ١٩٤٥ ص ٥٩

(٣) ابن حوقل ـ كتاب صورة الأرض ـ ليدن ١٩٣٨ ص ١٤٦

وصف الفسطاط وأشاد بثرائها وازدهارها واكتفى بإشارة سريعة إلى القاهرة[1].
كانت الفسطاط في رأي المقدسي أعظم مدينة في العالم الإسلامي ورغم ذلك فالأسعار فيها رخيصة لكثرة ما يرد إليها من ريف مصر . وفي خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر م غصت المدينة بالأسواق الكبيرة المليئة بمختلف السلع والمتاجر . فكانت هناك قيسارية العسل ، وقيسارية الحبال وقيسارية البز (المنسوجات) وسوق القناديل الذي عده ناصر خسرو (١٠٤٧م) أغنى أسواق العالم لكثرة ما به من التحف النادرة تحمل إليه من أصقاع العالم كله[2]. كما ذكر هذا الرحالة أنه « كان للباعة دكاكين بمدينة مصر على ساحل النيل وكانت البضائع تفرغ على أبوابهم وكان الازدحام من الشدة بحيث كان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب »[3] .

ويأتي ابن سعيد بعد ذلك بنحو قرنين (١٢٤٠ م) فيجد أن الفسطاط لا زالت رغم ما بليت به من حريق في أواخر القرن الثاني عشر عظيمة التجارة وأكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط ... والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة »[4]. وفي موضع آخر يصف هذا الرحالة مرفأ الفسطاط فيقول«... رأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار الأرض» . كذلك

---

(١) المقدسي - كتاب أحسن التقاسيم - ليدن ١٩٠٦ ص ٢٠٠

(٢) ناصر خسرو - سفرنامة ص ٥٩

(٣) المرجع السابق ص ٦٢

(٤) المقريزي - الخطط - الجزء الثاني ص ١٧٣ - ١٧٤

كان [1] لكل سلعة مرسى معين على طول الفسطاط . فكانت الحبوب تفرغ في موردة الحلفاء . وترسو السفن المحملة بالأخشاب قرب دار الصناعة . وتنتهي رحلة سفن الصيد عند ساحل البوري [2] . ويتضح من رواية ابن سعيد السابقة أنه كان للفسطاط صلات تجارية بالعالم الخارجي . فكان يحمل إليها من متاجر بحر الروم الرقيق وأنواع الفراء والديباج والسيوف وجاءهـا من سلع الشرق ووسط إفريقية العاج وريش النعام والمسك والعود والكافور .

وزخرت المدينة بالمعامل من كل نوع تصنع السكر والورق وتنسج المنسوجات وتصنع الحديد والنحاس وتنتج المصنوعات الخشبية والعاجية والأواني الزجاجية والخزفية . وقد اختصت الفسطاط دون القاهرة حتى عهد متأخر بصناعة السكر والصابون . وفي هذا يقول ابن سعيد (١٩٤٠ م) « وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند [3] » . إلى جانب هذه الصناعات أنشأت الدولة صناعة السفن . وكان مقر دار الصناعة (صناعة السفن) في أول الأمر على الساحل الجنوبي الشرقي للروضة ثم انشئت دار أخرى على الضفة الشرقية للنهر إلى الشمال قليلاً من جامع عمرو بن العاص . وأصبحت هذه الدار فيما بعد أكثر دور الصناعة في مصر إنتاجاً لسفن الأسطول والمراكب التي كانت تحتاج إليها أعمال الدولة [4] .

---

(١) المرجع السابق

(٢) علي بهجت ص ٣٣

(٣) ا ـ المقريزي ـ الخطط ـ جزء ٢ ص ١٧٢

ب ـ ابن دقماق ـ كتاب الانتصار ـ ج ٤ القاهرة ١٨٩٣ ص ٣٦

(٤) علي بهجت ص ٣٢

بلغت الفسطاط أوج عزهـــا في القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر ولكنها ما لبثت أن تدهورت في أواخره بسبب ضعف الدولة الفاطمية ومـا صحبه من تمرد الجند وانتشار الفوضى والاضطراب وكذلـك بسبب « الشدة العظمى » أو المجاعة المخيفة التي حلت بمصر سنة ١٠٥٠ م وظلت بعد ذلـك سبع سنوات . ويبدو أن الأجزاء الشمالية من المدينة (القطائـع والعسكر) كانت أكثر أجزاء المدينة تدهوراً وخراباً بعد تلك الحوادث .

ثم جاءت الضربة القاضية التي أطاحت بها كمدينة لها شخصيتها على يـد شاور وزير العاضد في أواخر عام ١١٦٨ م . فقد أمر هذا الوزير بإحراقها بعد ترحيل أهلها خوفاً من وقوعها في يد الصليبيين بقيادة أموري Amalric ملك بيت المقدس [١] . وظلت النار مشتعلة مدة أربعة وخمسين يوماً أتت خلالها على أغلب المدينة وتركت وراءها خراباً لا زالت آثاره باقية حتى اليوم خلف مصر القديمة [٢] . يقول المقريزي في حديثه عن تلك الكارثة « نادى شاور بمصر أن لا يقيم بها أحد وأزعج الناس في النقلة منهـا فتركوا أموالهم وأثقـالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وقد ماج الناس واضطربوا ... وبلغ كراء الدابة من مصر إلى القاهرة بضعة عشر ديناراً وكراء الجمل إلى ثلاثين ديناراً ونزلوا بالقـاهرة في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات... وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ، فرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظراً مهولاً ،فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر ... لتمام أربعة وخمسين يوماً » [٣] .

---

(١) Iahe Poole .S, op .cit p, 110

(٢) ابن دقماق ـ كتاب الانتصار ـ الجزء الرابع ص ٥٢ ــ ٥٣

(٣) المقريزي ـ الخطط . جزء ٢ ص ١٦٣

وقد قدر لما بقي من المدينة (وهي المنطقة الوسطى حول جامع عمرو) أن ينمو ويعمر من جديد بعد أن تمت عودة كثير من السكان فظهرت الدور والفنادق والمتاجر والمعامل ولكن على شقة تمتد بحذاء النيل بعيدة عن الخراب الذي خلفه الحريق . فعند زيارة ابن جبير لمدينة مصر سنة ١١٨٣ أي بعد ١٤ سنة من حدوث الحريق المدمر نزل بفندق أنيق عرف بفندق أبي الثناء قريباً من جامع عمرو وجال في المدينة وكان من بين ما لاحظه أن « أكثرها مستجد والبنيان بها متصل » وعلى مقربة منها آثار من الخراب تدل على عظمة المدينة فيما سلف [١] .

وبالرغم من محاولات الأيوبيين لإرجاع المدينة إلى سابق عمرانها وازدهارها إلا أنها كانت تسير في طريق الاضمحلال [٢] . بينما كان نجم القاهرة آخـذ في الصعود . حقيقة انتعشت الفسطاط بعض الانتعاش أيام الأيوبيين – وآية ذلك ما لمسه ابن جبير وابن سعيد من وفرة نشاطها التجاري والصناعي وخاصة بعد أن ترك الملك الصالح قلعة الجبل ونزل قلعة الروضة ـ ولكنه كان انتعاشاً مؤقتاً لم يـدم طويلاً . لم تكن الفسطاط التي رآها ابن سعيد على أيـة حـال هي الفسطاط العظيمة الباهرة التي حدثنا عنهـا المقدسي أو ناصر خسرو . رأى ابن سعيد مدينة حزينة كئيبة غير متينة البنيان ينم مظهرها الخـارجي عن قرب تلاشيها . ولنتركه يحدثنا عما رآه : « لمـا أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرة وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ودخلت من بابها (باب الصفا) وهو دون غلق ، مفض إلى خراب معمور بمبان سيئة الوضع ، غـير مستقيمة الشوارع . وقـد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة . وحول أبوابها من التراب والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف » [٣] .

---

(١) ابن جبير . رحلة ابن جبير . تحقيق دكتور حسن نصار . القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٤

(٢) كان من مظاهر هـذا الاضمحلال أنه لم يبق بها مسجد جامع واحـد بعد الحريق الذي تعرضت له . عن Schemeil . M Ie Caire , p , 49

(٣) المقريزي . الخطط . ج ٢ ، ص ١٧٢ - ١٧٣

سارت المدينة في طريق التلاشي بعد زيارة ابن سعيد حتى صارت حياً من أحياء القاهرة واختفى اسم الفسطاط ليحل محله اسم «مصر القديمة» وعندما احتل نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر كان عدد سكان حي «مصر القديمة» نحو عشرة آلاف وكان ساحله لا يزال كما رآه ابن سعيد في القرن الثالث عشر م يستقبل كثيراً من المراكب المحملة بمحاصيل الصعيد .

القاهرة :

أما القاهرة فقد أنشأها جوهر الصقلي قائد المعز في شهر يوليه عام ٩٦٩ م لتكون عاصمة البلاد بعد الفسطاط . كان قيام القاهرة أعمق في معناه من مجرد تغير عاصمة وتغير أسرة حاكمة . كان في واقع الأمر مقدمة لانقلاب في الدين والفن والثقافة .ولم تكن القاهرة (أو مصر القاهرة) في أول أمرهـــا أكثر من مدينة عسكرية صغيرة (لا تختلف عن العسكر والقطائع) ينزل بها الخليفة وجنوده [١] . ثم أخذت تنمو حتى اتصلت بمصر (الفسطاط) من وراء الأسوار وامتدت شمالا وأنشئت بعض مناظرها غربي الخليج كل ذلك وهي ما زالت « منزل سكنى للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلجأ إليه » [٢] . وقد تغير الحال بقيام دولة بني أيوب في مصر إذ تخلى السلطان عن ملكيته لكل شيء في المدينة وسمح للشعب بالإقامة فيها بعد أن كانت محرمة عليه فتحول إليها كثير من أرباب الصنائع والتجارة وأهل الفكر حتى طغت على الفسطاط في هذا المجال كما سنفصل فيما بعد .

القاهرة الفاطمية :

وقد أختير موضع القاهرة فوق مستوى ماء الفيضان إلى شمالي الفسطاط

(١) كان اسمها الذي اختاره لها جوهر الصقلي هو « المنصورية » نسبة الى المنصور والد المعز . ولكن المعز اختار لها بعد وصوله من المغرب اسم « القاهرة » ويسرف المؤرخون في خبر تسمية المعز لعاصمته ويذكرون في ذلك قصصاً هي في اغلب الظن من نسيج اخيلتهم (راجع المقريزي - ج ٢ ص ٢٠٥)

(٢) المرجع السابق ص ١٨٤

بنحو أربعة كيلو مترات وإلى الجنوب مباشرة من قرية قديمة كانت تعرف بمنية الاصبغ . ويصف المقريزي مكان القاهرة قبل إنشائها بأنه كان « رملة فيما بين مصر (الفسطاط) وعين شمس يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس ... ولم يكن عند نزول جوهر بهذه الرملة بنيان سوى أماكن هي بستان الأخشيد محمد بن طغج ... ودير للنصارى يعرف بدير العظام ... ومكان ثالث يعرف بقصر الشوك »[1] . وكانت أوضح حدودها في شرقيها وغربيها . ففي الشرق جبل المقطم تحتمي به وفي الغرب خليج القاهرة الذي عرف في صدر الإسلام باسم خليج أمير المؤمنين وجرى بين النيل وبحر القلزم . وفي الجنوب والشمال منها امتدت البساتين والحقول تتخللها المنازل والقرى . ولا ريب أن مجال اختيار موضع القاهرة كان ضيقاً أمام جوهر فكان لا بد أن تكون المدينة بقرب الخليج وغير بعيدة عن الفسطاط .

وقد تغيرت قيمة الموضع وتغيرت خطة المدينة خلال القرون بسبب ميل مجرى النيل للانحراف جهة الغرب بعيداً عنها . وفي كل مرة ينتقل فيها الشاطىء يترك النهر وراءه خطاً من البرك تصبح بمرور الزمن مباءة للأمراض الخطرة وعيباً من عيوب الموضع[2] . وقد سبق لنا أن بينا كيف كانت الأرض الجديدة تظهر فوق سطح الماء وكيف كانت تتصل بالبر، ومهما يكن الأمر فإن هذه الظاهرة لم تؤثر في قليل أو كثير على قيمة الموقع . خاصة وأن القاهرة كانت تحاول دائماً أن تتكيف وفق كل تغير موضعي . ويستدل من رواية المؤرخين وخاصة المقريزي أن أهم التغيرات في مجرى النهر حدثت في الفترة بين ٩٠٠ م – ١٣٥٠م (شكل ٥٢) .

ففي تلك الفترة تقدمت الضفة الشرقية الممتدة من مكان قريب من جامع

---

(١) المقريزي ـ الخطط جزء ٢ ص ١٧٣

(٢) Clerget , M . op , cit , vol , I p, 111

عمرو وآخر يتفق مع ميدان المحطة بضعة مئات من الأمتار جهة الغرب كذلك ظهرت جزيرة بولاق والفيل إلى الشمال من ذلك وأصبحت جزءاً من البر الشرقي في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر م وبذلك اتسع مجال امتداد القاهرة نحو الغرب بما يقدر بنحو ٣٥٣٠ فدانا في النصف الأول من القرن الرابع عشر م [١]. ولكن من ناحية أخرى بعدت المدينة عن النهر وعن مائه وكان لا بد لها من أن تتقدم نحو الغرب وأن تمد خليجها في نفس الاتجاه ليأتي بماء الشرب . وقد نجحت في ذلك بعض النجاح فدخل بعض الأرض الجديدة ضمن رقعة المدينة ولو أننا لا ندري على وجه دقيق مدى العمران بها. وحفر الامتداد الغربي للخليج من مأخذه القديم قرب ميدان السيدة زينب إلى نقطة تقع في مقابلة الجزء الأوسط من جزيرة الروضة . ويبدو أن كثرة القناطر على الخليج الكبير [٢] ووقوفها في سبيل الملاحة فيه وعدم كفاية مائه لمد الأرض الجديدة بحاجتها منه هي التي دفعت الناصر قلاوون إلى حفر الخليج الناصري وامتداده المعروف بخليج الذكر في أواخر القرن الرابع عشر [٣] .

شغلت القاهرة أول الأمر رقعة من الأرض مربعة الشكل مساحتها نحو ٣٥٠

---

(١) ا - Haswell, C. op. cit, p. 174

ب - تحول النهر الى نحت شاطىء بولاق بعد القرن الرابع عشر ولوقف هذا النحت صنع جسر في عرض النهر بين بولاق وامبابة فتوقف تآكل الشاطىء الشرقي - المقريزي - جزء ٢ ص ٣٥٤ وما بعدها .

(٢) الخليج الكبير أو خليج القاهرة هو البقية الباقية من خليج أمير المؤمنين الذي حفره عمرو ابن العاص بين الفسطاط والقلزم لينقل فيه الميرة إلى عاصمة الخلافة. وقد طم الخليج من جهة القلزم بأمر الخليفة المنصور (القرن ٨ م) ثم أخذ الجزء الغربي منه ينكمش حتى صار في أواخر الدولة الفاطمية ينتهي عند موضع شرقي عين شمس يسمى بركة الجب وقد ظـل هذا الخليج قائما حتى ردم خلال (القرن ١٩ م) وقام مكانه شارع الخليج .

(٣) Haswell, C· op cit. p. 174

فدانا (شكل ٥٣) بني حولهـا سور منخفض من اللبن لتأمن شر القرامطة بلغ عرضه عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان [١] . وله من الأبواب ثمانية هي : باب زويلة وباب الفرج في الجنوب وباب الفتوح وباب النصر في الشمال وباب القراطين (الذي عرف فيما بعد بباب المحروق) وباب البرقية في الشرق ، وباب سعادة ثم باب القنطرة في الغرب . ويبدو أن جوهر كان يحمل معه خطة دقيقة للعاصمـة الجديدة أقرها المعز قبل أن يغادر قائده أرض المغرب .

كانت خطة ذات طابع إغريقي روماني تشبه خطة الاسكندرية كما روى المقريزي.لعل أهم ما يميزها وجودشارع رئيسي يمتد من الشمال إلى الجنوب مستقبلا ريح الشمال ومارا بالميادين الوسطى التي يشرف عليها قصر الحاكم ومنازل حاشيته ومساكن جنده وينتهي إلى الأبواب ومن ثم إلى طرق المواصلات الرئيسيـة من جهتيه . وتتقاطع مع شارع القصبة بزوايا قائمة شوارع عرضية متوازية تمتد من الشرق إلى الغرب [٢] . فالشارع الأعظم أو قصبة القاهرة كان يخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب مـارا بميدان « بين القصرين » وينتهي في الشمال بباب النصر وباب الفتوح حيث تنتهي الطرق القادمة من البحر وفلسطين والدلتـا . وفي الجنوب أنشيء باب زويلة ليوصل إلى طريق الفسطاط وبلاد الصعيد . وقامت الشوارع العرضية بفصل الحارات (الأحياء) بعضها عن بعض . ولما كان سكان العاصمة الجديدة من عناصر مختلفة (بربر ، أكراد ، سودان ، أروام ، أتراك) فقد ظل لكل حارة طابعها وشخصيتها على الأقل في بدء حياة القاهرة ، وهي في هذا تختلف عن الفسطاط التي سكنها في أول الأمر قبائل ينتمي أغلبها إلى أصل واحد ومجتمع واحد لذلك جاءت خططها متشابهة .

كان العمران داخل أسوار المدينة في أول الأمر قليلا مبعثرا يقتصر على قصر

(١) المقريزي – الخطط – ج ٢ ص ٣٥٠

(٢) Clerget . op. cit, vol. I. pp, 129 - 130

الخليفة تحيط به عن بعد منازل رجال حاشيته وقواده وثكنات جنده وجامع للصلاة وتدريس المذهب الشيعي هذا فضلاً عن الحدائق والبساتين . فقد بنى جوهر القصر الشرقي الكبير لنزول المعز [1] بناء في الوقت الذي كان يبنى فيه الأسوار . ولم يكن في الواقع إلا بمجموعة كبيرة في القصور يبلغ عدد حجراتها نحو ٤ آلاف ضمها سور واحد له عدة أبواب واتصلت بعضها ببعض بسراديب سفلية . ومن المباني الهامة التي أنشأها جوهر ، الجامع الأزهر لإقامة الصلوات وتدريس أصول المذهب الشيعي . وقد بناه أول الأمر على مساحة تبلغ نصف مساحته الحالية (١٢٠٠ م^2) ولكنها اتسعت على مر الزمن بما أضيف إليه من مبان في العهود اللاحقة . ثم جاءت فرق الجيش من المغاربة والروم فبنت الحارات المحيطة بالقصر والجامع .

وبعد وفاة المعز بنى ابنه العزيز بالله قصراً أطلق عليه القصر الغربي الصغير جعل بينه وبين القصر الكبير فضاء واسعاً يقف فيه عشرة آلاف من العساكر ما بين فارس وراجل يطلق عليه « بين القصرين ». وبمضي الزمن تعددت القصور في المدينة وكثرت المناظر بها وفي ضواحيها ، وظهرت الحوانيت والأسواق (لخدمة الجند) والجوامع (مثل جامع الحاكم والجامع الأقمر وجامع الجيوش) وضاقت بالوافدين من المغاربة فامتدت خارج أسوارها في أواخر عهد الدولة الفاطمية وخاصة نحو الشمال والجنوب [2] . وبلغت حاراتها خمس عشرة حارة متميزة لكل منها مدخل أو مدخلان يفتحان على الشوارع العرضية [3] . وهذا

---

(١) يطنب المؤرخون في وصف قصور الخلفاء الفاطميين وما حوت من كنوز ويسرفون في الحديث عن المناظر ومباهجها وترف الخلفاء وبذخهم (راجع - المقريزي - الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ - ٢٧٦ وناصر خسرو - سفر نامة - ص ٥٠ ، ٥٨ وزكي محمد حسن - كنوز الفاطميين ص ٧٤ - ٧٦

(٢) جرجي زيدان - ج ٢ ص ١٨٦

(٣) Clerget, M.vol. I, p. 130

ناصر خسرو يحدثنا عما رآه في القاهرة بعد مضى نحو ثمانين سنة على إنشائها . وحديثه هو حديث المعجب المفتون بما يرى . فحوانيتها في تقديره لا تقل عن عشرين ألف كلها ملك الخليفة وخاناتها وحماماتها لا يمكن حصرها . أما مبانيها فعالية محكمة البناء في كل منها خمس أوست طبقات تفصل بينها حدائق تروى بماء الآبار [1]

بيد أن سور المدينة الذي بناه جوهر كان قد تهدم كما نبه هذا الرحالة وعاشت القاهرة خلال فترة طويلة من حكم المستنصر بالله الفاطمي في سلام وبدون أسوار إلى أن دبت الفوضى وكثرت الفتن وثورات الجند بسبب الشدة العظمى وكثرة المظالم وضعف الخليفة. فاستدعى بدر الجمالي صاحب الشام ليعيد الأمن والسلام للبلاد . وكان مما قام به هذا الوزير إنشاء سور للمدينة عام ١٠٨٧ م ليحصنها ضد ثورات الجند وأعداء البلاد في الخارج كما عمل على تعمير ما خرب من منازل القاهرة . كان سوره من اللبن له أبواب ضخمة من الحجر المحكم الوضع احتفظت بأسمائها القديمة وإن كانت مواضع بعضها ابتعدت قليلاً عن المواضع الأصلية .كما أحاط السور الجديد بمساحة أكبر قليلاً من المساحة التي أحاط بها السور القديم وربما كان الهدف من ذلك هو الإبقاء على المساحات الفضاء والبساتين التي كانت تحيط بقصور الخلفاء فلم يكن الخلفاء الفاطميون ليرضوا أن يضيع جمال المنظر في سبيل توطين أكبر عدد من الوافدين .

وقد بلغت رقعة المدينة بعد إنشاء السور الجديد نحو ٤١٥ فداناً أي بإضافة ٦٥ فداناً وقع أغلبها في جهة الجنوب والشمال (شكل ٥٣) ومع ذلك لم تكن القاهرة حتى اواخر القرن الثاني عشر م. أكثر عمارة ولا أوفر أرزاقاً من

---

(١) ناصر خسرو ـ سفر نامة ص ٥٠ ، ٥٨

الفسطاط . ويحكي المقريزي عن انتشار الخراب في القاهرة أيام الشدة العظمى وثورات الجند وما قام به بدر الجمالي لتدارك ذلك . « فقد أباح (بدر الجمالي) للناس من العسكرية والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء في القاهرة ما خلا من فسطاط مصر ومات أهله فأخذالناس مـــا كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا به المنازل في القاهرة وسكنوها . إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية »[1] . وهكذا انتهت المرحلة الأولى في حياة القاهرة. انتهت وهي لم تزل مدينة ملكية يسكنها الجند وأتباع السلطان.

القاهرة الأيوبية :

بدأت المرحلة التالية باستيلاء صلاح الدين الأيوبي على مقاليد الحكم في عـام ١١٧١ م وكان سنيا ينقم على المذهب الشيعي . لذلك آل على نفسه أن يطمس آثار الفاطميين مروجو هذا المذهب في مصر والشرق العربي . فأسكن قصورهم أتباعه وحاشيته وضباط جيشه وأقاربه وسمح للعامة بالسكنى في القاهرة (بعد أن كان دخولهم إليها بإذن خاص[2]) فنقلوا بعض أنقاض الفسطاط واستخدموها في إقامة مبانيهم. لهذا تغيرت ملامح المدينة واضطربت خطتها وتحولت مناظرها الملكية وبساتينها إلى « حارات وشوارع ومسالك وأزقة »[3] . وعلى الرغم من ذلك كله فقد غدت القاهرة في أوائل القرن الثالث عشر أكبر كثيراً مما كانت أيام الفاطميين (شكل ٥٣) لها سور عظيم من الحجر يربطها بمينائهـا على النيل « المقس » ويمتد جنوبـاً ليحيط بمواضع العواصم الإسلامية السابقة[4] .

---

(١) المقريزي ـ الخطط ـ ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) المرجع السابق — Lane - Poole, S. op. cit., pp. 125 - 171

(٣) المقريزي ـ الخطط ـ ج ٢ ص ٢٢٧

(٤) جلبت الأحجار اللازمة لبناء السور من الاهرامات الصغيرة بالجيزة ، وبلغ محيطه كما جاء في رواية المقريزي ٢٩٣٠٢ ذراعاً أو نحو ١٨٧٥٣ متراً .

ولها قلعة تشرف عليها من على تحرسها من الصليبيين وينزل بها السلطان هذا فضلاً عن الجسر الأعظم الذي أقيم على الشاطىء الغربي لصد غارات الأعداء من جهة الغرب والمارستان الذي أنشيء لعـــلاج المرضى والجوامع والمدارس والكليات التي ظهرت لأول مرة لتدريس مذهب أهل السنة [١] .

كان صلاح الدين على الرغم من انشغاله بحرب الصليبيين هو العقـــل المدبر والقوة المحركة وراء كل هذه الأعمال العظيمة ولكن القدر لم يمهله حتى يتممهـــا فأتمها خلفاؤه من بعده . قامت منشآته لتدوم قرون عدة بل لا زالت قلعتـه قائمة بعد كثير من التعديل . كما ينبغي أن نسجل أن هذه الأعمال غيرت من مظهر المدينة وعدلت خطتها وحددت اتجاهات نموها فيما تلا من عهود فبنـاء القلعة ونزول السلطان بها مثلاً كان له أكبر الأثر في جذب نحو الجنوب الشرقي من المدينة الفاطمية بعد أن كان يتجه في امتداده نحو الشمال كما اقام سوق الخيل والحمير والجمال - أحد الأسواق الهامة في أي مدينة عربية - في الرميلة قرب القلعة [٢] .

بل إن حركة الإنشاء والتعمير نشطت في موضع القطائع القديم فبنى الناس الدور والمساجد والمعامل وغيرها من مستلزمات الحياة وعند أطراف القاهرة الفاطمية من جهـة الجنوب وفي المكان الذي كان تشغله حارات السودانيين ايام الفاطميين مدت الحدائق الغناء بعد أن هدمت الحارات وقضى على أهلها بالقتل. وكان من نتائج مد الحائط الشمالي بين المقطم والنيل أن أصبحت الأرض التي تقع بين الخليج والنيل (وهي الأرض الـــتي ظهرت نتيجة لتغير مجرى النهر) في

---

(١) Lane - Poole, S. op, cit., pp. 171 — 162

(٢) Clerget, M. op. cit. vol. 2 p. 146

مأمن من الغارات القادمة من الشمال مما سمح بتقدم مباني القاهرة وبساتينها نحو شاطىء النهر وأصبح الخليج فيما بعد يقع وسط المدينة بعـــد أن ظل يحدها من جهة الغرب عدة قرون [1] .

أما ما أصاب الفسطاط في عهد صلاح الدين ومن خلفه فقد أشرنا إليه فيما سبق. ويمكن أن نلمس ما بلغته القاهرة الأيوبية من نمو وازدهار في العـــلم والأدب والفنون ومـــا بلغه سكانها من رقي إذا استعرضنا قصائد عماد الدين الكاتب وأخبار رحلتي عبداللطيف البغدادي وابن جبير وما جاء في خطط المقريزي . والذي يدعو للعجب أن هذه المدينة نمت وازدهرت رغم توالي المحن عليهـــا . فقـــد ابتليت في مدى نصف قرن (من ١١٧٩ م – ١٢٣١ م) باثنتي عشرة كارثة مهلكة بين مجاعة ووباء – دع عنك ثورات الجند وما كان ينجم عنها من قتل وتخريب [2] . وقد تحدثنا على لسان عبداللطيف البغدادي في فصل سابق عن هول مجاعـــة ١١٩٨ – ١٢٠٢ م ومـــا سببته من خسارة في الأنفس والأموال .

زالت الدولة الأيوبية بقتل توران شاه ابن الملك الصالح أيوب عام ١٢٥٠ م وخلفهـــا في حكم مصر دولة المماليك . وينقسم العصر المملوكي إلى مرحلتين : المرحلة الأولى وهي التي استغرقت المدة بين (١٢٥٠ م – ١٢٨١ م) وحكم خلالها المماليك البحرية الذين اشتراهم الملك الصالح وأنزلهم قلعتـــه في جزيرة الروضة . المرحلة الثانية وهي التي بدأت عام ١٢٨٢ م وانتهت في سنة ١٥١٧م

(١) Becker, C. H. « Cairo » Ency. of Islam vol. I, pp. 840 — 44

(٢) حدثت هذه الكوارث في سني : ١١٧٩ ، ١١٨١ ، ١١٩٣ ، ١١٩٥ ، ١١٩٨ – ١٢٠٢ ، ١٢٠٦ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣١ م.

واستأثر بالحكم فيهـا طبقة من المماليك عرفت بالمماليك البرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي أسكنهم فيها سيدهم قلاوون . وقد عاشت القاهرة عصرها الذهبي في عهد المماليك البحرية . وبلغت من اتساع الرقعة وازدهار الحياة الاقتصادية ما رسمه لها وتمناه صلاح الدين الأيوبي . وعلى الرغم من كثرة الفتن والتخريب على عهد المماليك وسوء حال الشعب عامة فقـد سمي بعض هؤلاء الحكام « بالسلاطين البنائين » لكثرة منشآتهم ووصفت القاهرة بالعظمة والتألق . وربما كان سبب ذلك كله هو كثرة الأموال التي كانت تتدفق عليهم من جباية الضرائب الثقيلة على التجارة العابرة [1] ، وشغفهم الزائد بالبناء والتشييد وخاصة المساجد ذات القباب والمآذن الجميلة العالية ، والتقرب إلى الله ببنائها عسى أن تكفر عمـا اقترفوه من آثام في حياتهم الشريرة اللاهية .

القاهرة المملوكية :

في هذا العهد المملوكي على أية حال تحولت قلعة صلاح الدين وما جاورها إلى ضاحية سلطانية حصينة بها القصور والمساجد والحدائق يأتي لها الماء من النيل وتحصل عليه كذلك من باطن الأرض . أما القاهر الفاطمية فقد تغيرت أغلب معالمها تماماً لكثرت ما ظهر فيها من أسواق وكثرة ما أنشيء فيها من مساجد ومدارس ورباع وقياسر وحمامات وقصور تمتـد حولهـا حدائق ذات قنوات ونافورات . وكان من نتيجة تكدس المباني وتزاحمها بغير نظام أن ضاقت السبل وكثرت الأزقة والدروب المسدودة وتعذر الانتقال السريع من مكان لآخر . وإذا ما تركنا أسوار القاهرة الفاطمية نجد العمران قد امتد في كل اتجاه تقريباً .

---

(١) Clerget. M. op. cit. vol.I p. 153

وقد أمدنا القلقشندي (في الجزء الثالث من كتـــابه صبح الأعشى) [1] والمقريزي في خططه (جزء أول)وصفاً قيما لهذا التطور العمراني وسنكتفي هنا بتسجيل ما ذكره المقريزي . يقول « فلما خرب المشرق والعراق بهجوم عساكر التتر منذ كان جنكيزخان في أعوام بضع عشرة وستمائة (أوائـل القرن الثالث عشرم) إلى أن قتل الخليفة المستعصم ببغـــداد في سنة ست وخمسين وستمائة (١٢٥٨ م)، كثر قدوم المشارقة إلى مصروعمرت حافتي الخليج الكبير ومادار على بركة الفيل وعظمت عمارة الحسينية (حي بشمال القاهرة الفاطمية)فلما كانت سلطنة الملك الناصر قلاوون الثالثة (١٢٩٩ م – ١٣١٠ م) .. تزايدت العمائر بالحسينية حتى صارت من الريدانية إلى باب الفتوح . وعمر ما حول بركة الفيل والصليبة إلى جامع ابن طولون وما جاوره إلى المشهد النفيسي . وحكر الناس أرض الزهري (تملكوها) وما قرب منها وهو من قناطر السباع (قناطركانت على خليج أمير المؤمنين موضعها الآن ميدان السيدة زينب) ومن قناطر السباع إلى البركة الناصرية إلى اللوق إلى المقس(شكل ٥٣). فلما حفر الملك الناصرمحمد بن قلاوون الخليج الناصري اتسعت الخطة فيمابين المقس ..وساحل النيل(بولاق) وأنشأ الناس فيها البساتينالعظيمة والمساكن الكثيرةوالأسواقوالجوامعوالمساجد والحمامات والشون وهي في المواضع التي من باب البحر خارج المقس إلى ساحل النيل المسمى ببولاق ومن بولاق إلى منية الشيرج ومنه فيالقبلة إلى منشأةالمهراني، وعمر ما خرج عن باب زويلة (جنوبي القاهرة الفاطمية) يمنة ويسرة.. وعمرت القرافة من باب القرافة إلى بركة الحبش ومن القرافة الكبرى إلىالجبل عرضاًحتى انه استحدث أيام ناصر بن قلاوون (٢٩٤م – ٣١٠ م) بضع وستون حكراً ولم يبق مكان يحكر .

---

(١) القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ الجزء الثالث ـ القاهرة ١٩١٤ ص ٣٧٠ .

واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصار بلداً واحداً يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياصر والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات متصلاً جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر (في الشمال) إلى بساتين الوزير قبلي بركة الحبش ومن شاطىء النيل بالجيزة إلى جبل المقطم[1]». هذا ما كانت عليه الحال في القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن ١٤م ، أكبر عاصمة إسلامية وافرة الثراء كثيرة السكان. لكن بوادر الاضمحلال ما لبثت أن حلت بالمدينة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وازدادت الحالة سوءاً في القرن الخامس عشر ثم اسرعت المدينة في طريق الإنحدار نتيجة لاتفاق غزو الأتراك لمصر مع تحول التجارة العالمية عنها إلى طريق رأس الرجاء الصالح في أوائل القرن السادس عشر م .

ولم يفت المقريزي أن يروى ما أصاب القاهرة من تدهور بعد أن بلغت أوج عزها ويعدد الأسباب . فيقول « وما زالت هذه الأماكن (التي ذكرت آنفاً) في كثرة العمارة وزيادة العدد تضيق بأهلها لكثرتهم وتختال عجباً لما بلغوا في تحسينها وتأنقوا في جودتها وتنميقها حتى حدث الفناء الكبير في سنة ٧٤٩ هـ (١٢٤٨ م) فخلا كثير من هذه المواضع وبقي كثير أدركناه فلما كانت الحوادث

---

(١) ـ ا ـ المقريزي ـ الخطط ـ طبعة قديمة لا تحمل تاريخاً جزء ١ ص ٢٢٨ .
ب ـ ذكر المقريزي أن القاهرة كان بها في القرن الرابع عشر م : ٣٧ حارة (حياً) ، ٣٠ خطة (قسما) ، ٦٥ درباً (طريقاً) ، ١٢ زقاقا ، ٤٩ رحبة ، ٥٠ سوقاً ، ٢٣ قيسارية ، (سوق شبه مقفل) ، ١١ خانا (وكالة) ، ٥٥ قصراً ، ٤٤ حماماً شعبياً ، ١١ ميداناً هذا فضلاً عن عدد كبير من المناظر .

سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) وقصر جري النيل في مده وخربت البــلاد الشامية بدخول الطاغية تيمورلنك وتحريقها وقتل أهلها وارتفــاع أسعار الديار المصرية وكثرة الغلاء وطول مدته وتلف النقود المتعامل بهــا وفسادها وكثرة الحروب والفتن بين أهل الدولةوخراب الصعيدوجلاء أهله عنه وتداعي أسفل أرض مصر من البلاد الشرقية والغربية إلى الخراب واتضاع أمور ملوك مصر وسوء حــال الرعية واستيلاء الفقر والحاجة والمسكنة على الناس وكثرة تنوع المظالم الحادثة من أرباب الدولة بمصادرة الجمهور وتتبع أرباب الأموال واحتجاب ما بأيديهم من المال بالقوة والقهر والغلبة وطرح البضائع مما يتجر فيه السلطــان وأصحابه على التجار والباعة بأعلى الأثمان إلى غير ذلك مما لا يتسع ضبطه ... ، كثر الخراب بالأماكن التي تقدم ذكرها وعم سائرها وصارت كيانا وخرائب موحشة مقفرة يأويها البوم .. ومستهدمة واقعة وآيلة إلى السقوط والدثور سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا »[١] .

القاهرة في عهد العثمانيين :

سارت القاهرة في طريق الاضمحلال بخطى سريعة على أثر وقوعها في يــد الأتراك . فقد تحولت من عاصمة لدولة مستقلة ذات سيادة إلى عـاصمة لإقليم من أقاليم الأمبراطورية العثمانية ، أضف إلى ذلك أنه كان للسياسة الداخلية التي اتبعها الأتراك في حكم مصر أثر كبير في انتشار الانقسام والفتنة والحروب الداخلية مما سبب سفك دماء كثيرة وفناء عدد كبير من السكان . وقد تميزت هذه السياسة بالأنصراف عن تحسين امور مصر إلى الاهتمام فقط بجمع الضرائب . لذلــك لم يكن غريباً أن يكون الاضمحلال عاماً شمل المدن والريف . وربما كان هذا الاضمحلال أقل في حدته لو لم تتحمل التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجــاء

---

(١) المقريزي ـ ج ١ طبعة قديمة لا تحمل تاريخاً ص ٢٢٨ .

الصالح ولو لم تتوالى سني انخفاض النيل وانتشار الأوبئة . لكل ذلك انكمشت القاهرة وانكمشت حياتها الاقتصادية وقل عدد سكانها . وقد قدر علماء الحملة الفرنسية مساحة القاهرة المأهولة في أواخر القرن الثامن عشر بنحد ١٨٤٠ فدانا أي أقل من ربع مساحة باريس في ذلك الوقت (١) .

وكان مظهرها الخارجي هو مظهر المدينة التي انحط بها الزمن : مساحات واسعة من الأرض الفضاء والأرض المزروعة والمباني المتهدمة يقف وسطها ما عرف « بالأحواش » أو مساكن عامة الشعب وهذه تتقارب وتتزاحم في بضع مواضع تاركة بينها مسالك ودروباً أغلبها غير نافذ (٢) ورحاباً صغيرة . أما قصور المماليك وكبار التجار فكانت تحيط ببركة الفيل والأزبكية والحبش وتنتشر قريباً من النيل بين المزارع .. وكما اتضعت الحياة الاقتصادية في المدينة فقد اتضع الفن المعماري بها أيضاً ولكنه لم يمت . ولعل أهم مباني هذا العصر هو سبيل خسرو باشا ومنزل جمال الدين الذهبي (أحد تجار القاهرة) وبعض المساجد وخاصة مسجد سنان باشا ببولاق ، وجامع محمد أبو الذهب بحي الأزهر (٣) .

سكان القاهرة :

وطوال حياة القاهرة عاش فيها خليط من مختلف العناصر والجنسيات (والأديان) . وربما نجد تفسير ذلك في التاريخ الحافل بالأحداث الذي عاشته المدينة وفي موقعها الهام الذي تتلاقى عنده الطرق وتحتك في منطقته مختلف العناصر البشرية ، هذا فضلاً عن شهرة مصر وفضلها على بلاد العالم . على أنه يجب ألا يفهم من ذلك أن العنصر الحامي عنصر أهل البلاد قد ضاعت ملامحه بهذا الاختلاط والامتزاج . الواقع أن العناصر الأجنبية الدخيلة كانت من قلة العدد بحيث دمغها

---

(١) Clerget, M. op. cit, vol. I. p. 180

(٢) المرجع السابق .

(٣) Lane - Poole, S. op. cit, pp. 587 - 314

العنصر المحلي بطابعه . وإذا كانت القاهرة قد أصبحت في يوم من الأيام أعظم مدينة إسلامية فذلك بفضل سكانها من القبط المتعربين ممن دخلوا الاسلام [1] .

غير أنه من الصعب علينا معرفة تطور عدد سكان القاهرة على وجه سليم خلال الفترة التي سبقت القرن التاسع عشر . ويرجع ذلك إلى ضاءلة معلوماتنا عن هذا الموضوع . فالكتاب العرب لم يعنوا مطلقاً بذكر عدد سكان العواصم الإسلامية ولا بدراسة نشاط السكان فيها وتوزيعهم بطريقة جادة منظمة . كل ما تركوه يقتصر على اشارات عابرة مضللة في أغلب الأحيان . ولم يكن الرحالة الأوربيون الذين قدر لهم زيارة المدينة أكثر عناية واهتماماً بهذه الناحية . فتقديراتهم مبالغ فيها وأبعد ما تكون عن الواقع . نذكر على سبيل المثال كوستلا Costela الذي قدر سكان القاهرة سنة ١٦٠٣ بنحو ثلاثة ملايين نسمة خلاف النساء والأطفال [2] .

وقد خرج كلرجيه من دراسته وبحثه لهذا الموضوع بأن سكان القاهرة بلغوا نحو ١٠٠ ألف شخص في القرن العاشر أقاموا داخل الأسوار وخارجها . ويفسر ارتفاع عدد سكان المدينة بعد فترة وجيزة من إنشائها بوفود آلاف من المغاربة . ثم ارتفع عدد السكان في القرنين التاليين فبلغ رقماً يتراوح بين ٠٠٠ر١٥٠ — ٠٠٠ر٢٠٠ نسمة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر م . ثم أسرع السكان في النمو خلال الحكم المملوكي حتى جاوزوا نصف المليون (٦٠٠ ألف نسمة) خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر وهي الفترة التي بلغت فيها القاهرة الذروة في الاتساع والازدهار . ويرفض كلرجيه القول بأن العاصمة صارت مدينة

---

(١) ا - Clerget, M. op. cit. vol. i. p. 912

ب - صار الذين أثروا الاحتفاظ بدينهم من القبط أقلية في أواخر العهد المملوكي وعاش كثير منهم .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٨

مليونية حينذاك فهذا في ظنه مبالغة كبيرة. ثم ظهرت كما أشرنا بوادر الاضمحلال في المدينة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر صاحبها ولا ريب انخفاض تدريجي في عدد السكان. إذ هناك علاقة قوية بين درجة ازدهار الحياة الاقتصادية في المدن وعدد سكانها . وأسرعت القاهرة بعد ذلك في طريق الاضمحلال وتدهور عدد سكانها وخاصة بعد أن سقطت في يد الأتراك وانكمشت حياتها الاقتصادية. وقبل أن ينتهي القرن الثامن عشر م كان عدد سكان المدينة قد انخفض إلى نحو ٢٦٠ ألف نسمة كما قدر جومار أحد علماء الحملة الفرنسية (١) .

الحياة في القاهرة :

كان سكان القاهرة على أية حال يحصلون على ماء الشرب من النيل ومن الخليج في فصل الفيضان يحمل اليهم في الروايا على الظهر أمـا في فصل انخفاض النيل فكانوا يعتمدون على ما خزنوه من مائه وعلى بعض مياه الآبار القريبة من شاطىء النهر. ونظرا لارتفاع ملوحة الماء الباطني بالبعد عن النيل فقد اقتصر استعماله على ري الحدائق ورش الطرقات وفي بعض الأغراض المنزلية . ويبدو أن القاهرة كانت تستهلك كميات هائلة من الماء إيماناً منها بالنظافة وليس أدل على ذلك من كثرة ما كان بهـا من حمامات عامة وخاصة أعجب بها عبداللطيف البغدادي (١١٩٨ — ١٢٠٠ م) أيمـا عجاب . وقال إنه لم يشاهد « أحسن منها وصفاً ولا أتم حكمة ولا أحسن منظراً أو مخبراً . أما أولاً فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك يصب فيـه ميزابان ثجاجان حار وبارد وقبل ذلك يصبان في بحر صغير جداً مرتفع ، فإذا اختلطا فيـه جرى منه إلى الحوض الكبير . وداخل الحمام مقاصير بأبواب ، وفي المسلح أيضاً مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ... وهـذا المسلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية في وسطه بركة مرخمة . وهو مع ذلك كثير الضياء ، جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ بحيث إذا دخله الإنسان

(١) Clerget, M. op., cit., vol. I p. 238 - 259.

لم يوثر الخروج منه ، لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ داراً لجلوسه وتناهى في ذلك لم تكن أحسن منه »[1] ظاهرة أخرى تستحق التنويه هي تلك الأسبلة التى كانت تقام في الطرقات يشرب منها المارة . وقد كثرت هذه المنشآت في العصر المملوكي وظهر بعضها في العصر التركي وكان الدافع إلى بنائها هو التقرب إلى الله والتكفير عن الذنوب . وإن دل ذلك على شيء فعلى قيمة الماء الحيوية في تلك البيئة الجافة التي يعيش فيها أهل القاهرة .

وعلى الرغم من أن مصر كانت خلال تاريخهـا الطويل تعتمد على الزراعة إلا أن الصناعة وخاصة تلك التي تعتمد على الخامات المحلية كانت تجذب إعداداً كبيرة من الصناع تعيش في عاصمة البلاد ومدن الدلتا والصعيد . وقبيل دخول العرب مصر كانت الصناعة تتركز في العاصمة وبعض الموانيء وخاصة تنيس وفي أسيوط أحد مراكز الوجه القبلي .

ولم يتغير هـذا الوضع كثيراً بعد دخول العرب لفترة تبلغ أكثر من قرنين ونصف قرن إذلم تشارك الفسطاط في النشاط الصناعي بالقطر إلا بدرجة محدودة وكانت أهم مصنوعاتها إذ ذاك هي الأواني الفخارية والزجاجيـة ثم المنسوجات . وقد بدأت النهضة الصناعية الكبرى في مصر الإسلاميـة بتولي الفاطميين حكم مصر وقيام القاهرة في القرن العاشر فتقدمت الصناعة وتعددت منتجاتهـا في الفسطاط واشتهرت مراكز النسيج القديمة على ساحل الدلتا (مثـل تنيس ودمياط وشطا ودبيق) بصناعة أنواع من الملابس الملكيـة الفاخرة تجهز في دور الطراز خصيصاً للخليفة وأهله ورجال الحاشية [2] . الحقيقة أن الترف والأبهة كانا من سمات الحياة التي عاشها الفاطميون في مصر . وقد استوجب

---

(١) زكي محمد حسن ـ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ١١٦ .

(٢) Webeba, A. F. The agriculture of Egypt during the Arab period. Unpublished M. A. thesis , London 1952. pp. 176 , 187

ذلك العناية بالصناعة والبحث عن مهرة الصناع من القبط وغيرهم والاحتفاء بهم. غير أن القاهرة لم تستطع في هذا العصر أن تسلب الفسطاط أهميتها الصناعية فقد ظلت هذه المدينة الأخيرة تحتل المركز الاول في الصناعة والتجارة كما سبق أن تقدم .

فلما زالت دولة الفاطميين وقامت دولة بني أيوب شاع المذهب السني وهو يخالف المذهب الشيعي – الذي نادى به الفاطميون – في الدعوة إلى السير على سنة السلف في البساطة والتقشف. فاضمحلت الفنون وصناعات الترف لقلة الطلب عليها [١] . واتجه الاهتمام إلى صناعة بناء السفن التجارية والأساطيل الحربية وصناعة السكر والزيوت والورق الصابون والجلود وقد اشتهرت الفسطاط بصناعة السكر والورق والصابون كما أخبرنا ابن سعيد بينما اشتهرت القاهرة بصناعة بعض أنواع المنسوجات وأدوات الحرب والجلود والسفن الحربية في دار صناعتها بالمقس. وبعد انتهاء حكم الأيوبيين جلس المماليك على عرش مصر (منتصف القرن الثالث عشر م) وكانوا أهل ترف وبذخ تفيض خزائنهم بالمال فانتعشت الصناعة والفنون على عهدهم انتعاشاً عظيماً [٢] .

في هذا العهد تركز كثير من الصناعات في القاهرة التي اتسعت لتشمل مصر، وأحرز الصناع مهارة كبيرة ربما نتيجة لذيوع نظام الطوائف الذي تطورت عنه نقابات العمال في العصر الحديث . فكان لكل حرفة طائفة ولكل طائفة شيخ يرعى مصالح أفرادها ويقوم بتوجيههم التوجيه الفني ومن أهم الصناعات التي ازدهرت في القاهرة أيام المماليك صناعة الأسلحة وأدوات الحرب وبناء السفن وصناعة المنسوجات الحريرية المطرزة والفرش والخيم والسروج والأواني النحاسية المكفتة وصناعة الزجاج والخزف والتحف الخشبية المطعمة بالعاج والأبنوس

---

(١) Clerget, M. op. cit, vol. II, p. 228

(٢) Lane - Poole, S. op., cit., pp. 193 - 224

هذا فضلاً عن الصناعات الغذائية كصناعة السكر والحلوى وعصر الزيوت وطحن الغلال وتلك التي تتصل بحياة الناس كصناعة الأواني الفخارية والحصر والصابون والبناء والورق إلى غير ذلك من الصناعات (١) .

ولكن هذا الأزدهار لم يدم أكثر من قرنين ونصف قرن إذ اضطربت أحوال البلاد في أواخر الحكم المملوكي وحل الخراب بمساحات واسعة في القاهرة. وساءت الحالة بعد دخول الأتراك في أوائل القرن السادس عشر م فقد انتكست على عهدهم الحضارة وخبا نور العلم وتدهورت الصناعة وانحط الفن. وكان من أهم أسباب تأخر الصناعة والفن ترحيل ألفين من مهرة الصناع والفنانين إلى العاصمة الأمبراطورية الجديدة الآستانة . ومن الصناعات التي اندثرت في ذلك العصر صناعة المنسوجات الممتازة التي ازدهرت في العصور السابقة وكذلك صناعة السجاد . وكانت القاهرة على أية حال أهم مركز صناعي في البلاد ولكن الصناعات كانت رديئة النوع بدائية في طرقها وأساليبها كما أن منتجاتها كانت تستهلك محلياً (٢) نذكر من هذه الصناعات على سبيل المثال طحن الغلال ، وضرب الأرز وتبييضه ، وصناعة السكر ، وعصر الزيوت ودباغة الجلود، وبناء السفن وصناعة البسط واستخراج البيض وصناعة الحلى (٣) .

النشاط التجاري :

ولقد اكتسبت القاهرة خلال فترة طويلة من العصور الوسطى شهرة واسعة في عالم التجارة ووصفها بعض زوارها من الرحالة بأنها إحدى مراكز التجارة الرئيسية في العالم والفضل في ذلك يرجع إلى موقعها الجغرافي وأهميتها السياسية

---

(١) Clerget, M, op. cit. pp. 242 - 296.

(٢) Lane - Poole, S. op. cit, pp. 214- 237

(٣) Girard P. S. Mémoires sur L'agriculture, L'industrie et la Commerce de l' Egypte.
Desc. de l'Egy Etat. mod. II, p. 490 and after.

وشدة الإقبال على الأعمال التجارية من جانب سلاطينها وكثير من أهلها. وكأي مدينة عربية ظهرت في القاهرة منذ النشأة الأولى القياسر والأسواق في مواضع من شارع القصبة وقرب قصر الخليفة وأبواب المدينة . ولكن القاهرة لم تبلغ في ذلك الوقت ما بلغته الفسطاط من رواج واتساع تجارة لأنها كانت مدينة ملكية. فلما دالت دولة الفاطميين تحول النشاط التجاري إليها فظهرت في العصر الأيوبي أسواق كثيرة بالقرب من القلعة ، محل إقامة السلطان . لعل أهمها سوق الدواب الذي سبق الإشارة إليه. ثم بلغت التجارة الداخلية أوج نشاطها في العصر المملوكي الأول بسبب كثرة الأموال وكثرة السكان . ويروي المقريزي أنه كان بالقاهرة وظواهرها من الأسواق في تلك الفترة شيء كثير جداً باد أغلبها وأن الذي خرب في المنطقة بين اللوق والمقس وحدها إثنان وخمسون سوقاً يبلغ حوانيت كل منها نحو الستين حانوتاً ، فكيف ببقية الجهات [1].

كانت القاهرة سوق مصر الأولى تفد إليها أنواع المتاجر من أنحاء القطر هذا فضلا عما كان يرد إليها من بحر القلزم الاسكندراني ومن ثم يوزع بعضها على الأقاليم ويشحن البعض الآخر إلى بلاد العالم المختلفة كما جاء في الفصل السابع. وقد استلزم هذا النشاط التجاري بناء الخانات والفنادق لينزل بها التجار ببضاعتهم ودوابهم ويختزنون سلعهم في مخازنها وحواصلها وتؤدي لهم الأعمال المصرفية . وإلى هذه الخانات والفنادق كان تجار التجزئة يفدون لشراء ما يبغون من بضاعة . ويمكن القول أن نشاط التجارة في القاهرة كان يعني رخاء البلاد كما كان كسادها نتيجة حتمية للفقر وقلة السكان . ويتضح ذلك من دراسة مقارنة للقاهرة الزاهرة في عصر المماليك والقاهرة المتدهورة في العصر التركي . بيد أنه لم يخل تعاطي التجارة من صعاب وعقبات لعل أهمها تعدد المكوس المفروضة على المتاجر وخاصة في العصر الفاطمي والمملوكي وتعدد الأوزان والمكاييل وسرعة تلفها وتعرض

---

(١) المقريزي ـ الخطط ـ ج ٣ ـ طبعة أحمد علي المليجي ص ١٥٣ ـ إلى ١٧٤ .

قيمة العملة المتداولة لخفض مفاجيء واختفاء نظام الاقتراض من المرابين اليهود بفائدة معلومة .

دور الأزهر في نشر الثقافة :

ونختم هذه الدراسة بإشارة إلى دور القاهرة في نشر الثقافة الإسلامية والحفاظ عليها في عصور الظلام . منذ النشأة الأولى عقد للأزهر الزعامة الثقافية والعلمية على جامع عمرو في الفسطاط وجامع ابن طولون في القطائع وغيرها من الجوامع والمعاهد التي ظهرت في العصر الإسلامي الأول . فقد اختصه الخلفاء الفاطميون بكثير من العناية والرعاية وأوقفوا عليه ريع كثير من ممتلكاتهم للإنفاق على أساتذته وطلابه وخدمه وسد تكاليف إنارته واصلاحه . ولا غرو فقد كان الأزهر حينذاك مركز الدعوة الشيعية في العالم الإسلامي يفد إليه الطلاب لتلقي تعاليم المذهب الشيعي والاستماع إلى دروس الفلسفة واللغة والرياضة والطب . وقد تحولت هذه الجامعة الفاطمية إلى جامعة سنية منذ أيام صلاح الدين الأيوبي وصارت حصناً للدين ومركز اشعاع ثقافي في دنيا الإسلام .

المصادر والمراجع

– العربية –

ابن حوقل – كتاب صورة الأرض – ليدن ١٩٣٨

ابن جبير – رحلة ابن جبير – ليدن ١٨٥٢

ابن خرداذبة – كتاب المسالك والممالك – ليدن ١٨٨٣

ابن دقماق – كتاب الانتصار – القاهرة ١٨٩٣

ابن مماتي – قوانين الدواوين – القاهرة ١٩٤٣

ابو الفدا – تقويم البلدان – باريس ١٨٤٠

أبو المحاسن – كتاب النجوم الزاهرة ... – ج ٣ القاهرة ١٩٢٩

ارمان ورانكه – مصر والحياة المصرية في العصور القديمة – ترجمة دكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال – القاهرة ١٩٥٠

البراوي (دكتور راشد) – حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين – القاهرة ١٩٤٨

الإدريسي – نزهة المشتاق ... – ليدن ١٨٩٤

البغدادي – (عبد اللطيف) الإفادة والاعتبار ... باريس ١٨١٠
الشيال (دكتور جمال الدين) – الاسكندرية – طوبوغرافية المدنية وتطورها– الاسكندرية ١٩٥٥
القلقشندي – صبح الأعشى ... – ج ٣ القاهرة ١٩٣٨
المسعودي – مروج الذهب – جزءان – القاهرة ١٨٨٥
المقدسي – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – ليدن ١٩٠٦
المقريزي – الخطط والآثار – القاهرة ١٩٠٥
المقريزي – كتاب السلوك ... القاهرة ١٩٣٤
النويري – نهاية الأرب في فنون الأدب – ج ١
اليعقوبي – كتاب البلدان – ليدن ١٩٠٥
بهجت (علي) والبير جبريل – حفائر مصر – القاهرة ١٩٣٨
حزين (دكتور سليمان) – البيئة والموقع الجغرافي وأثرهما في تاريخ مصر العام – مجلة الجمعية الجغرافية المصرية – ١٩٤٣
حسن (دكتور زكي محمد) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى – القاهرة ١٩٤٥
حسن (سليم) – أقسام مصر الجغرافية – القاهرة ١٩٤٤
حمدان (دكتور جمال) – شخصية مصر – القاهرة ١٩٧٠
خسرو (ناصر) – سفرنامة – ترجمة الدكتور يحيى الخشاب – القاهرة
رزقانه (دكتور ابراهيم) وزملاؤه – حضارة مصر والشرق القديم .
———— الآلات الحجرية . القاهرة ١٩٥٢

زيدان (جورجي) تاريخ التمدن الاسلامي – ج ٢ مراجعة دكتور حسين مؤنس

سوريال (دكتور عزيز) « الاسكندرية في العصر المسيحي » كتاب الغرفة التجارية ١٩٤٩

صفي الدين (دكتور محمد) وزملاؤه دراسات في جغرافية مصر – القاهرة ١٩٥٧

طوسون (عمر) – مالية مصر – القاهرة ١٩٣١

عبد الحكيم (دكتور محمد صبحي) – الاسكندرية – القاهرة ١٩٥٨

عمار (دكتور عباس) – المدخل الشرقي لمصر – القاهرة ١٩٤٦

عيسى (شحاتة) – القاهرة – القاهرة ١٩٥٩

فؤاد (دكتورة نعمات) شخصية مصر – القاهرة ١٩٦٨

كامل (وهيب) – استرابون في مصر – القاهرة ١٩٥٣

مؤنس (دكتور حسين) حديث السندباد القديم – القاهرة ١٩٦٨

نصحي (دكتور ابراهيم) – تاريخ مصر في عصر البطالمة – القاهرة ١٩٤٦

ياقوت (الحموي) – معجم البلدان ١٢ جزءاً – القاهرة ١٩٠٦

يحيى (دكتور لطفي) – دراسات في تاريخ مصر – عصر البطالمة – الاسكندرية ١٩٦٨

- المراجع الأجنبية -

Abu Salih - Churches and Monasteries of Egypt. Trans. by B. Evetts. Oxford, 1895

Adler, M. The Itinerary of Benjamin of Tudela. London, 1907.

Albright, W. The Archeology of Palestine. London, 1954.

Amer, M. (with O. Menghin) Excavations at Maadi. Cairo 1932 - 36.

Atlas of Ancient of Classical Geography. London 1952.

Attiya, A. The Crusades of the later Middle Ages. London, 1938.

Audebeau, M. Essay sur l'affaissement du nord du delta Egyptien depuis l'empirie Romain. Bull. inst. d'Egypte (1918 - 19).

Ball, J. Contributions to the Geography of Egypt. Cairo, 1939.

———. «Kharga Oasis» Cairo 1966.

———. «Problems of the Lybian Desert» Geog. J. Vol. 20, 1957.

———. Egypt in the Classical Geographers. Cairo, 1942

Barois, J. Irrigation in Egypt. Trans. by A. Miller. Washington 1890.

Baumgartel, E. The Cultures of Prehistoric Egypt. Oxford, 1947.

Beadnell, H. «The Sand dunes of the Libyan Deserts» Geog. J. Vol. 35, 1910.

Becker, C. Ency. of Islam. Vol. I. 1913.

Bell, H. « The Administration of Egypt under the Umayyad Khalifs » Cong. Orien. Oxford, 1928.

Bevan, E. A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty. London, 1914.

Bovill, E. Caravans of the Old Sahara. London, 1933.

Braidwood, R. and Reed, C. « The Achievement and Early Consequences of Food-production Sym. Quart. Bio. Vol. XXII, 1957.

Breasted, J. A History of Egypt. London, 1935.

Brooks, C. Climate Through the Ages. N.Y. 1949.

Brown, R. Mirror for Americans. N.Y. 1943.

Brugsch, Ch. La Geographie de nomes de la Haute et de la Basse Egypte. Leipzig 1878.

Brunton and Caton-Thompson, G. The Badarian Civilization. London, 1928.

Butler, H. The Arab Conquest of Egypt. Oxford 1902.

Butzer, K. « Environment and Human Ecology in Egypt ». Bull. Soc. Geog. d'Egypte. T. XXXII, 1959.

————. « Remarks on the Geography of Settlement in the Nile Valley during Hellenistic Times » Bull. Soc. de Geog. d'Egypte. Vol. XXXII, 1960.

Carruthers, W. « Plants of Ancient Egypt » Nature, Sep. 1866.

Caton-Thompson and Gardner, E. Prehistoric Geography of Kharga Oasis. Geog. J. LXXX, 1932.

————. The Desert Fayum. London, 1934.

Childe, G. Man Makes Himself. London, 1951.

————. What Happened in History. London, 1955.

Clark, A. « Historical Geography » Amer. Geog. Ed. James, Syracuse Univ., 1954.

Clerget, M. Le Caire, 1934. 2 Vols.

Cole, S. The Prehistory of East Africa, London, 1954.

Cornish, V. The Great Capitals. London, 1923.

Darby, H. « On the Relations of Geography and History ». Trans. & Pap. 1953. No. 19.

————. An Historical Geog. of England before A.D. 1800. Cambridge, 1936.

Daressy, G. Les Grandes Villes d'Egypte. Rev. Arch. Vol. XI, 1844.

De Candolle, Alph. L'Origine des plants cultivées. Paris, 1883.

Deevey. E. « The Human Population... » Sc. Amer. 1960.

De Sacy, S. Droit de propriété territoriale en Egypte. Inst. Fran. d'Arch. Première Série. T. 2.

Delile, A. « Histoire des plantes cultivées en Egypte » Descrip-

tion de l'Egypte. Hist. Nat. T. II, 1813.

De Morgan. J. Prehistoric Man. London, 1924.

East, W. Historical Geography of Europe, London, 1950.

Fisher W. The Middle East. London, 1950.

Freeman, R. A Hundred Years of Geography, 1961.

Gilbert, E. « What is Historical Geography » Scott. Mag. 48. 1932.

Girard, P. Memoire sur l'agriculture, l'industrie et le Commerce de l'Egypte. Des. de l'Egy. Etat. Mod. T. 2. Paris, 1813.

Gregory, J. « Is the Earth Drying up » Geog. J. Vol. 48.

Hamdan, G. « Evolution of Irrigation. Agriculture in Egypt » Unesco, 1951.

Hannotaux, G. Histoire de la Nation Egyptienne, T. I. Paris, 1934.

Hartshorne, R. The Nature of Geography, Lancaster, 1939.

————. Perspective on the Nature of Geog. Chicago, 1959.

Hardy, C. The Large Estate of Byzantine Egypt. N.Y. 1931.

Hartmann, F.L'agriculture dans l'ancienne Egypte. Paris, 1923.

Haswell, C. « Cairo ». Bull. Soc. Sult. Vol. XI, 1923.

Hawks, J. & Woolley, L. Prehistory and the Beginning of Civilization. London, 1963.

Herodotus, The Histories. London, 1954.

Heyd, W. Histoire du Commerce du Levant au Moyen Ages. Leipzig, 1885.

Huntington, E. The Pulse of Asia. N.Y. 1951.

Huzayyin, S. The Place of Egypt in Prehistory. Cairo, 1941.

————. Arabia and The Far East. Cairo, 1942.

————. « Recent Physiographic Stages in the Lower N. Valley... » 1949.

————. « Changes in Climate, Vegetation... » Man' Role in Changing the Face of the Earth. » Chicago, 1953.

Jasny, N. The Wheat of Classical Antiquity. Baltimore, 1944.

Johannesen, R. Ptolemy Philadelphus and Scientific Agriculture ». Class. Phil. Vol. XVIII, 1923.

Jondet, G. Les ports submerges de l'ancienne ile de Pharos. Mem. Inst. Egy. Vol. IX. Le Caaire, 1916.

Kamal, Y. Monumenta Cartographica Afri. et Aegy. Epoq. Arab. Part 4. 1892.

Kammerer, A. La Mer Rouge. Le Caire, 1929.

Lane-Poole, S. A History of Egypt in the Middle Ages. London 1921.

————. The Cities of Egypt. London, 1887.

Leakey, L. Olduvai Gorge. Cambridge, 1951.

———. Adam's Ancestors. London, 1953.

Mahaffy, J. A History of Egypt. London, 1899.

Maspero, G. « Histoire ancienne des peuples de l'Orient Classique » Vol. I. Paris 1897.

Mc Burney, C. The Stone Age of Northern Africa. London, 1960.

Milne, J. A History of Egypt. London, 1924.

Mitchel, J. Historical Geography. London, 1954.

Moret, A. The Nile and Egyptian Civilization. London, 1927.

Nolz, R. « Man - made Land forms in the Nile Delta.« Geog. Rev., 1959

Peake, H. and Fleure, H. Times and Places. London, 1956.

Petrie, P. Prehistoric Egypt. London, 1921.

Quatremere, E. Mémoires Géographiques et Historiques. T. I. Paris, 1811.

Reynier, M. L'Agriculture de l'Egypte. Mem. sur l'Egy. Vol. IV.

Rolfe, P. « Environmental Influences in the Agri. of Ancient Egypt ». Am. J. Sem. L. and Lit. Vol. XXXIII, 1917.

Rostovtzeff, M. The Social and Economic History of the Hellenistic World. Oxford 1941. Vol. I.

Sandford, K. and Arkell, W. Palaeolithic Man and the Nile Valley. Chicago. Vol. XVIII, 1933, and XLV, 1934.

Sauer. C. « The Survey Method in Geography and its Objectives ». Ann. Ass. Am. Geog. 41. 1950.

Schweinfurth, M « sur la flore des anciens Jardins Arabs ». Bull. Inst. Egy. 2ièm. série, Cairo, 1881.

Semple, E. The Mediterranean Region. London 1933.

Smith, F. « The Egyptian Norag and its Origin » Bull. de la Soc. Sul. de Geog. T. X. 1921.

Smith, C. « Historical Geography ». Frontiers in Geog. Teaching. London, 1965.

Smith, G. The Historical Geog., of the Holy Land. N.Y. 1894.

Son Ahlmann, Hans. « The Present Climatic Fluctuation » G. J. Vol. CXII, 1948.

Toussoun, O. La Géographie de l'Egypte à l'Epoque Arabe ». T. VIII. Le Caire, 1926.

Weedon, A. « Report on Mariout » Cairo, Sc. J. Vol. VI, 1912.

Weheba, A. F. The Agriculture of Egypt During the Arab Period. Unpublished Thesis, London, 1952.

————. Rice Culture in Egypt. Bull. Soc. de Géog. d'Egypte. T. XL, 1967.

Wilkinson, J. Manners and Customs of the Ancient Egyptians. London, 1891.

Willcocks, W. and Craige, Egyptian Irrigation. London 1913.

Wooldridge, S. and East, W. The Spirit and Purpose of Geography. London, 1925.

Wright, J. «The History of Geography; A point of View». Ann. Ass. Am. Geog. 15. 1925.

Zeuner, F. Dating the Past. London, 1946.

الأشكال

صفحة

رقم الشكل

صفحة

صفحة

صفحة

المحتويات

صفحة

الكتاب الثاني

مصر